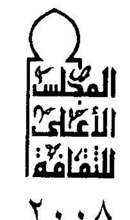

المجلس الأعلى للثقافة
مارتن لوتر والإسلام
محمد أبوحطب خالد

المجلس الأعلى للثقافة

مارتن لوتر والإسلام

محمد أبو حطب خالد



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

خالد ، محمد أبو حطب

مارتن لوتر والإسلام، محمد أبو حطب خالد - القاهرة.

ط ١ - القاهرة المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٨

٣٥٢ ص ، ٢٤ سم

١ - الإسلام والمسيحية

٢ - لوتر، مارتن، ١٤٨٣ - ١٥٤٦

أ - العنوان ٢١٤,٢٧

رقم الإيداع ٢٢١١٢ / ٢٠٠٨

الترقيم الدولى : I.S.B.N - 977- 437 - 960 - 8

الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٢٧٣٥٨٠٨٤

EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel.: 27352396 **Fax:** 27358084

"قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ"

(آل عمران، الآية ٦٤)

„Sag: „o Leute der Schrift! Kommt ihr zu einem zwischen uns und euch gleichen Wort: das wir niemandem dienen außer Allah und Ihm nichts beigesellen und sich nicht die einen von uns die anderen zu Herren außer Allah nehmen. Doch wenn sie sich abkehren, dann sagt: Bezeugt, dass wir Allah ergeben sind.“ (Sura 3- Al Imran: 64)

الفهرس

توطئة

هناك أفكار عدة، قادتنى إلى التعرف على إحدى الشخصيات الألمانية خالدة الذكر، ألا وهو المصلح الكبير الدكتور مارتن لوتر Dr. Martin Luther ، والذى قام فى عام ١٥١٧ بنشر مقولاته وحججه الخمـــس والتسعين على بوابة كنيسة القصر بمدينة فتنبرج Wittenberg Schlosskirche بإمارة سكسونيا Sachsen، وتفجرت على إثرها قوة إشعاع داخل وخارج حدود اللغة الألمانية، وانتشرت أفكاره بعد ذلك فى كل أنحاء العالم.

وبحكم تخصصى الدقيق كأحد علماء اللغة الألمانية وآدابها واضطلاعى بتعليمها لأبناء العربية لعشرات السنين، فى داخل أروقة الأزهر العلمية وفى معظم الجامعات المصرية؛ حيثما يكون للألمانية وجود بها، كان لى أن أضع نصب عينى أن يكون لمارتن لوتر كلغوى موهوب وأديب أريب، قبل أن يكون راهبًا وعالمًا للاهوت، حظ وافر فى مناهج علوم اللغة الألمانية وآدابها بما له من فضل لا ينكر فى هذا الأمر.

وحينما أتطرق بالحديث عن الألمان وعن مفكريهم وفلاسفتهم وشعرائهم وموسيقييهم، فلا مفر من عرض الإسهام الكبير والدور الرائد الذى قدمه ولعبه مارتن لوتر، والذى تناوله العديد من المؤرخين، كزعيم لحركة الإصلاح المسيحى فى أوروبا.

يذكـــر عنه أنه كان دعامة لكل من هم فى حاجة إلى العون، لم يشمخ بأنفه أو يتأنق فى ملبسه، وعاش زاهدًا ليواجه الكثير من العقبات التى يصعب التغلب عليها، فكانت لديه الشجاعة والجرأة بما يكفل له أن يتحدى أعداءه، ودون أن يشك فى صـــدق ما يفعل أو مـــا يقول. ولعله من المفيد أن أذكر لهذا المصلح الثائر، بل والمتمرد أحيانًا، أنه يمثل من وجهة نظرنا أحد عجائب التاريخ الألمانى كراهب

بسيط متواضع غيرت أفعاله صورة قارة بأكملها، وليقف على أرض ثابتة كالطود الراسخ أمام أقوى النظم حصانة، وأشد العادات قداسة فى أوروبا، ولم ينس طوال حياته القصيرة، منشأ أسرته الفقيرة، وأن أباه كان فلاحًا وفحامًا.

نذكر لهذا الثائر بضع عبارات خالدة قالها فى مناسبات تاريخية معينة، قد تلقى الضوء على فكره ومنهجه، الأمر الذى سوف نعرض له فى هذا الكتاب: (•)

"إننى أقف هنا ولا أستطيع أن أفعل شيئًا آخر غير الذى فعلته، وليعيننى الرب على ذلك."

"Hier stehe ich und kann nichts anderes، so Gott mir helfe، Amen !"[١]

و فى عبارة أخرى:

"لو علمت أن العالم سينتهى غدا، فسوف أستمر فى زراعة شجرة التفاح ."

"Und wenn ich wüsste، dass morgen die Welt unterginge، so würde ich mein Apfelbäumchen pflanzen"[٢]

وقوله "إن قدرى الذى خلقت له هو خدمة بنى جلدتى من الألمان"

„Mein Schicksal dreht sich um meine Existenz، meinen deutschen Menschen dienlich zu sein.“[٣]

وفى تحذيره لبابا روما :

"لأنك كنت السبب فى تكدير روح المسيح وأحزانه لتحترق إذًا فى النار الأبديـــة."

قارن: Für meine Deutschen bin ich geboren ihnen will ich dienen. Schreckenbach،S.12

(•) رأينا ذكر النص الألمانى لترجمتنا العربية لهذه الأقوال المـأثورة عن مـارتن لـوثر من مصادرها الأصلية بهدف تقديم إضافة تخدم القارئ الملم باللغة الألمانية إذا ما أراد المزيد من التفصيلات عنها. (المؤلف)

(١) قارن: Schlussrede im Reichstag zu Worms :Schreckenbach, S.12

(٢) قارن: http://www.luther.de/legenden/baeume.html

(٣) قارن: Für meine Deutschen bin ich geboren ihnen will ich dienen. Schreckenbach،S.12

‹‹Weil du den Heiligen des Herrn (Christus)geschändet، so schände dich das ewige Feuer.“[٤]

وفى عبارة موجهة إلى أعدائه:

"حتى إذا قاموا بإشعال النار من مدينة فيتنبيرج Wittenberg حتى مدينة فورمس Worms و امتد لهيب هذه النار إلى عنان السماء، فلن يمنعنى ذلك من الامتثال أمام المجلس النيابى حاملا راية المسيح و لن أتردد حتى لو وُضِعَتْ رأسى بين فكى الأسد وأنيابه... إن الله سوف يقف بجانبى ولن يخذلنى".

„Auch wenn sie den Weg vom Wittenberg bis nach Worms in Flammen aufgehen lassen und dieses Feuer bis vom Himmel auf dem Wormser Reichstag ، wird es mich nicht hindern،lodert mein ،die Fahne Jesus Christi tragen und werde ich nicht zögern Haupt in das Maul des Löwen zu stecken. Gott wird mich nicht sondern an meiner Seite stehen.“5،in Stich lassen

تتضمن هذه العبارات من وجهة نظرنا بعض السمات التى تميزت بها الذات الألمانية على مر العصور. فالعبارة الأولى تعنى وقوف المرء بكل ما يملك من قوة و إرادة، كما تعنى الثبات على رأى لا يهتز، و أن يكون مستعدا لأى نتيجة تنبع من هذا الموقف. أما العبارة الثانية والتى مفادها: " أننى لو علمت أن العالم سيهلك غدًا، لظللت أغرس فسيلة التفاح التى فى يدي"، وهى عبارة إن دلت على شىء فإنما تدل وتشير إلى دور القضاء و القدر، الأمرين اللذين لعبا دورًا مؤثرًا عند الألمان على مدى تاريخهم الطويل و فى كثير من مفرداتهم لغتهم.

---

(٤) قارن: Landgraf ،Schreckenbach -S.161 ،S.13

(٥) قارن:Schreckenbach ،S.15

أما بقية العبارات ومثلها الكثير فسوف نعرض لها فى مجالات مختلفة لهذا المفكر الألمانى الكبير، وهى تمثل لنا كعلماء للجرمانيات ركيزة مهمة ومادة شيقة ومحببة لدى أبناء العربية من الدارسين للألمانية. وقد ترتبط فحوى هذه العبارات بوجهات نظر هذا المصلح ضد معاقل فساد الكنيسة الكاثوليكية آنذاك، ومواجهاته وصدامه مع عدويْن وقوتين من القوى الكبرى: العدو الأول يتمثل فى بابوية روما والفساد الذى عم بها واستشرى؛ والعدو الثانى المتمثل فى الزحف والهجوم الكاسح للمسلمين الأتراك إلى وسط أوروبا، وخاصة بعد محاصرتهم لمدينة فيينا Wien عاصمة أوروبا آنذاك.

فى خضم هذه الأحداث كان على مارتن لوتر أن يدعم حركته الإصلاحية، بداية بسلاح الكلمة وبالحجة، وكان ما كان من تقبلٍ لآرائه الإصلاحية من البعض ورفضها من البعض الآخر، وكثيرًا ما كان يردد بعد انتشار مذهبه أنه لم يكن يبغى سوى إصلاح الكنيسة وعودتها لأصول الإنجيل بعهديه، كتاب المسيحية المقدس، وليس انقسامها.

الدوافع والمحركات التى أدت بى إلى الاقتراب من فكر هذا الرجل سواء فيما يخص إصلاح المسيحية ومدى صلة فحوى هذا الإصلاح بالمبادئ والقيم الإسلامية، ترجع إلى قراءاتى المتعددة وعلى رأسها بحثان: البحث الأول للإمام الشيخ محمد أبوزهرة: "محاضرات فى النصرانية - والتى تبحث فى الأدوار التى مرت عليها عقائد النصارى وفى كتبهم وفى مجامعهم المقدسة وفرقهم"، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٦١.

والمبحث الثانى هو ذلك البحث الشيق الذى ألقاه أستاذ الأجيال الأستاذ الدكتور أمين الخولى عام ١٩٣٥ وشارك به فى مؤتمر: "تاريخ الأديان الدولى السادس" المنعقد فى مدينة بروكسل ببلجيكا فى الفترة من ١٦-٣٠ سبتمبر ١٩٣٥ تحت عنوان " صلة الإسلام بإصلاح المسيحية". و كانت مشاركة هذا العالم الجليل بتكليف من فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر آنذاك، الشيخ محمد مصطفى المراغي

يرى الشيخ المراغى أن موضوع هذا البحث "موضوع طريف وبكر وغريب". وبذلك يضرب فضيلة إمام المسلمين لنا المثل والقدوة فى حرية الفكر، ونزاهة النظر الدينى، فى مناقشة موضوع حساس وشائك، ويرى "أن حركة الإصلاح المسيحى هذه، حادث من الحوادث البارزة فى تاريخ الأديان... وما من حادث فى هذا الوجود إلا وهو أثر لغيره ومؤثر فى غيره". وهنا يتفق رأى الإمام الأكبر مع ما انتهى إليه صاحب البحث الأستاذ أمين الخولى فى ربط ما تم فى الإصلاح البروتستانتى بما هو حاصل فى الإسلام، ولما عرف من صلة رجال الإصلاح بفلسفة العصور الوسطى. هذه الصلة القوية التى دعمتها فلسفة العصور الوسطى المرتكزة على الفكر الإسلامى ، كانت أمرًا طبيعيًا ، حيث لاقى عموم المسيحيين من عنت رجال الكنيسة وصلفهم ما يكفى وحده للثورة عليهم، وما يقود إلى تحرر العقل البشرى من هذه القيود.

وإننى اعتبر هذه العبارات الجادة من الإمام الأكبر لخليقة لأن يقتدى بها علماء الدين فى دراسة الأديان دراسة مقارنة، كما أنها تعين على أداء رسالة الإسلام و توسيع أفق علماء الدين وتزيدهم بصيرة فى دينهم و دنياهم.

من هنا وجدت لزامًا على كأحد أبناء الأزهر المتخصصين فى علوم الجرمانيات، العلوم التى أسهم فيها هذا المصلح البروتستانتى بدور كبير، أن أواصل هذا الجهد العلمى الذى قاده بعزيمة صلبة ونية صادقة، الشيخ المراغى وتلاميذه من بعده، ولإلقاء المزيد من الضوء تمهيدًا للوصول إلى المزيد من المعلومات فى هذا الشأن، واستكمالا لبعض الإسهامات العلمية التى سبق لنا أن قدمناها فى هذا المجال.

وأود أن أذكر أن هناك العديد من الباحثين الذين تناولوا شخصية لوتر وحياته وإسهاماته على مستوى العالم أجمع، وخاصة فى عالمنا العربى والإسلامى، وكان لكل باحث رأيه الخاص، وهذا ما أدى إلى الكثير من الجدل والاختلاف فى الرأى حول شخصية هذا المصلح، إلا أنه يمكن القول بأن هناك قدرًا كبيرًا من الاتفاق لدى البروتستانت الألمان تجاه هذا الرجل، وخاصة بعد أن نجح فى إلغاء

الفروق والميزات بين من هم ليسوا من رجال الدين، وبين الكهنة والقساوسة، وبعد أن وضع نهاية لوصاية هؤلاء الكهنة على المسيحيين، وبعد أن حرر السلطة الدنيوية من دكتاتورية السلطة الكنسية. ويرى البعض من المحبين لهذا الرجل من أمثال الدكتور حسين مؤنس، أنه كان وليا من أولياء الله، وكان إيمانه حربًا على الفساد، وكانت كراماته ألوانًا من الفضيلة الإنسانية والجهاد المخلص فى سبيل الناس، داعيًا إلى الإيمان بالله وحده، كسبيل لنيل رحمته دون وسيط، وأن رحمة الله هى الجزاء الوفاق للبشر. لقد تجاوز إعجاب بعض مفكرى الألمان الحدود، حتى اعتبروه نبيا للأمة الألمانية ونبيا للغتها عبر إسهامه اللغوى وتجديداته اللغوية. نذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر الإعجاب المنقطع النظير للعديد من المفكرين والأدباء أمثال الأخوين جريم Die Brüder Grimm، هردر Herder، جوته J.W.Goethe، فريدريش شيلر Friedrich Schiller، وبعض من العلماء المعاصرين أمثال نايهوس Naiyhauss، نيجيل لى Nigel Lee، إدموند فيبر Edmund Weber، لودفيج هاجمان Ludwig Hagemann، هارتموت بوبتسين Hartmut Bobzin، فالتر بيلتز Walter Beltz، جرنوت روتر Gernot Rotter فى ملحمته الشعرية و التى تجاوزت الخمسمائة بيت تحت عنوان "الإسلام والغرب – الاقتراب المفقود Der Islam und der Westen – die verlorene Nähe" والتى حدد فيها بأمانة وموضوعية العلاقة العدائية التى تبناها الغرب تجاه الإسلام والمسلمين منذ ظهوره وانتشاره حتى يوم الناس هذا، مدعين على هذا الدين وعلى أصحابه استخدام منهج الجبروت والإرهاب والسعى إلى نشره بحد السيف.

ورغم قناعتى ويقينى كأحد أتباع الدين الإسلامى، الذى يدعو الناس إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وهو المبتغى من هذا الكتاب، الذى يعرض للإسلام كدين سماوى، فإنه لم ينتشر بحد السيف كما يدعون، ولم يجبر الناس على الدخول فيه أو اعتناقه بالقوة، وإنما اعتنقه المسلمون الذين دخلوا فيه دون إكراه. وتدلل المصادر الموثوق فيها أن حكام المسلمين الذين فتحوا هذه البلدان، كانوا يخيرون الناس فيها بين البقاء على دينهم، مع ضمان حرية إقامة شعائر دينهم الذى

هم عليه، وبين الدخول فى الإسلام، تنفيذا لقول الله تعالى: "لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى". (البقرة الآية ٢٥٦)

ويرى غير المحبين لهذا المصلح، أنه ليس سوى هرطوق وملحد، وهو الادعاء الذى قال به مندوب البابا فى مجمع مدينة فورمس Worms الكاردينال الياندر Alliander، والذى وصف مارتن لوتر لبابا روما حينما توجه إلى المجلس النيابى لدحض أقواله:

" لقد دخل هذا المجنون القاعة ضاحكًا، غير آبه بشيء ودون أن يشعر بأى ارتباك أو خوف ناظرًا حوله بعينين تنمان عن شيطنة، ويقول: ليكن الرب حليفى وناصرى".

„Dieser Narr trat in den Saal lachend und bewegt ohne Angst...blickte mit seinen demonischen Augen im Kreise umher und sagte : Gott wird mit mir sein.“6

كانت حركة الإصلاح التى قام بها لوتر تمثل دون منازع عملا من أكبر الأعمال فى عصره، وخاصة بعد إعادة بناء كنيسة قائمة على فكره ومنهاجه، تقف جنبًا إلى جنب مع كنيسة روما. وكان من ثمراتها الإنجازية هى ما يطلق عليه المؤرخون "ألمنة" الكتاب المقدس، والذى اعتبروه من أكثر أعمال لوتر شمولاً وإيجابية وخلودًا. وتم ذلك بعد اجتياز طريق طويل من الصعوبات ومن خلال تجميع اللهجات المحلية والإقليمية وضمها للغة الديوان السكسونى والقيصرى.

كانت ترجمات لوتر الوسيلة المحققة لاستخدام الألمانية فى عموم ألمانيا، وكان ذلك هو الطريق الأمثل للغة المشتركة والموحِّدة للأمة الألمانية. لم يكتف لوتر باستخدامه بساطة لغة الديوان السكسونى، وما فيه من قوة أو ضعف فى تصوير الكلمات للمواقف أو محاكاة الأسلوب الغريب لبنية الجمل الطويلة والمركبة، بل ربط بين قوة تصوير اللغة العامية وبساطة بنية الجملة نحويا وصوتيا. لقد

---

(٦) قارن: Schreckenbach، S. 14

استقى لغته الجديدة من على ألسنة الناس، وظهر ذلك جليا فى طبعة الإنجيل الأولى (عهد سبتمبر)، والذى اعتُبر من أسرع وأهم التغييرات التى سجلها تاريخ اللغة الألمانية، والتى جعلت اللغة الألمانية لغة كتابة، وليست لغة لهجات متفرقة بصورة مطلقة.

وكان على أعدائه والحاقدين عليه قبل أصدقائه الذهاب إلى مدرسته، والتزود بالجديد، إذا ما أرادوا تدريس وتعليم اللغة الألمانية أو التخاطب بها ، حتى أن البعض اعتبر لغة الديوان السكسونى من التراث التاريخى للألمانية. وتعد لغة لوتر هى لغة الحاضر وكان على المطابع والناشرين فى معظم أنحاء ألمانيا الالتزام بمجاراة كل جديد أتى به لوتر.

نمت اهتماماتى لمعرفة المزيد عن هذه الشخصية الفريدة والمحيرة لدى الكثيرين من المؤرخين والدارسين، أثناء دراستى للدكتوراة بجامعة ليبتزيج Universität Leipzig فى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الفائت، والتى أتاحت لى زيارات عديدة لأهم الأماكن، التى ترك فيها لوتر تراثه الخالد. وكانت هذه الزيارات بدافع فردى وشخصى، للتعرف عن قرب على الرجل وعلى حياته وفكره، وعلى حركة الإصلاح التى دارت أحداثها على الأرض السكسونية ثم تجاوزتها عبر الحدود إلى كافة الممالك الأوروبية. تلت هذه الزيارات الشخصية زيارة سياحية إعلامية، أعدتها حكومة ألمانيا الديمقراطية عام ١٩٨٣، وهو العام الذى احتفل فيه العالم بمرور خمسمائة سنة على ميلاد مارتن لوتر، وذلك أثناء تسلمى لجائزة ووسام ياكوب وفيلهيلم جريم بالعاصمة برلين Berlin، يرافقنى الزملاء من الحاصلين على نفس الوسام وهم: الأساتذة جينادى فلاديميروفيتش كولشنكسى Genadij Vlandimirovič Kolŝanskij (روسى)، بيير باول ساجاف Pierre Paul Sagave (فرنسى)، ديتر شيللر Dieter Schiller (ألمانى)، تزينيك مازاريك Zdeněk Masařik (تشيكى)، كريستن كارلسون Kerstin Karlsson (سويدية)، رودولف توناندر Rudolf Thunander (سويدى) وبرفقة العالم اللغوى الكبير فولفجانج فليشر Wolfgang Fleischer (ألمانى)، والذى كان

ضمن المجموعة الحاصلة على نفس الوسام من جمهورية ألمانيا الديمقراطية فى عام سابق، هذه الرحلة الإعلامية، التى وضعتها الحكومة الألمانية فى صدارة برنامجها كتكريم لهذه المناسبة العلمية.(٧)

أما الزيارة التالية لى لهذه الأماكن، فقد جاءت كمهمة علمية ورسمية من قبل جامعة الأزهر Al-Azhar Universität ، وبناء على دعوة كريمة من مركز الأبحاث الدينية الدولى لجامعة مارتن لوتر بمدينة هالى Halle ، وبتحفيز من السيد الدكتور فالتر بيلتس Walter Beltz أستاذ علوم اللاهوت المقارن وراعى كنيسة درسدن Dresden، والذى أعتبره صاحب الفضل الأكبر، فى تيسير مهمتى فى جمع المادة العلمية، وأذكر شاكرًا آل شيفر Familie Schäfer، التى وفرت لنا مُقامًا مريحًا فى مدينة ليبتزج، وأستاذى الذى علمنى طرق البحث والاستقصاء والمشرف العلمى علىَّ أثناء دراسة الدكتوراة أ. د. فولفجانج مينرت، Prof. Dr.Wolfgang Mehnert، وزميلى الذى عمل معى لسنوات طويلة، كخبير للغة الألمانية بجامعة الأزهر الدكتوربيرند لاندمان، Dr. Bernd Landmann، والذى لم يبخل عن التضحية بوقته ، ورافقنى فى زياراتى للأماكن العديدة، التى كان للوتر بصماته، التى تركها كعلامات مميزة، لأحداث حركة الإصلاح فيها، أذكر منها، على سبيل المثال لا الحصر، مدينة هالى/ سالى Halle Saale، إرفورت Erfurt، فيتنبرج Wittenberg، أيسليبن Eisleben، ماجدبورج Magdburg، جريما Grimma وغيرها.

ولعله من المهم أن يعرف القارئ أن معظم المعلومات التى تضمنها كتابنا هذا قد استقيناها من مصادرها الأصلية المكتوبة بالألمانية، والتى أتيحت لنا، فى كرم بالغ، من المكتبة الألمانية الكبرى ليبتزج Die Deutsche Bücherei -Leipzig، ومن مكتبة مؤسسة الوقف الفرنكشية فى مدينة هالى Die Bibliothek der Franckeschen Stiftung - Halle، و التى تضم أكثر من ١٠٠٠٠٠ مجلد عن

---

(٧) مزيد من التفصيلات:محمد أبو حطب خالد، الألسنية فى خدمة الشعوب، المجلة ط ٢/١٩٨٤، برلين، ص ١٨. قارن أيضًا:(Deutsch als Fremdsprache /1984 und 1 /1986)

عصر الإصلاح الدينى و حتى عصر التنوير، والتى يشرف عليها مدير مركز الأبحاث الدينية الدولى بجامعة هالى أ.د. أودو شتريتر Udo Sträter ومساعداه، الدكتورة إيريكا بابست Erika Papst، والدكتور توماس موللر بالكه Thomas Müller Bahlke(٨)، كما أخص بالشكر فى هذا المقام كافة العاملين بمؤسسات لوتر التاريخية بمدينة فيتنبرج، وعلى رأسهم السيد الدكتور مارتن تروى Dr. Martin Treu ، والذى واصـــل إمدادى بالمعلومـــات عبر البريد الإلكترونى. ولا يسعنى فى ختام هذه التوطئة إلا أن أتقدم لكل هؤلاء بجزيل الشكر والعرفان.

أما زيارتى الأخيرة والتى تمت فى منتصف شهر مايو ٢٠٠٤ وذلك بدعوة من جامعة مارتن لوتر Martin Luther Universität – Halle- Wittenberg للمشاركة فى المؤتمر الدولى السنوى الذى تعقده الجامعة فى مبنى جامعة فيتنبرج القديم "اللوكوريا"، وذلك فى الفترة من ١٩-٢٢ مايو ٢٠٠٤، تحت موضوع "ازدهار وتدهور بعض أنظمة إقليمية ومحلية لمجتمعات تتعايش طوائفها الدينية المتعددة جنبًا إلى جنب". وبعد انتهاء أعمال المؤتمر علمت أن ولاية سكسونيا ستقيم معرضها الثانى تحت شعار: "العقيدة والسلطة دولة سكسونيا فى أوروبا أثناء عصر الإصلاح الديني" وذلك فى الفترة من ٢٤ مايو ويستمر حتى ١٠ أكتوبر ٢٠٠٤ بالمدينة التاريخية تورجاو Torgau، وهى من ضمن سلسلة المدن الألمانية التاريخية التى أطلق عليها اسم المصلح مارتن لوتر، حيث كانت مسرحًا لأحداث حركة الإصلاح، ومن أهم المدن التاريخية التى شهدت عصر النهضة الألمانية، حتى أن بعض المؤرخين يراها أجمل مدن عصر النهضة فى ولاية سكسونيا فى القرن السادس عشر، إلى جانب كونها أحد المراكز السياسية المهمة فى حركة الإصلاح الدينى، بل والمهد الأول فى ازدهار الموسيقا الكنسية الإنجيلية، وفيها قضت السيدة كاترين فون بورا Kathrin von Bora ، زوجة المصلح مارتن لوتر، سنواتها الأخيرة بعد موت زوجها، وحوّل البيت الذى عاشت فيه إلى مزار

---

(٨) قارن:
Luther und Halle – Ausstellung der Marienbibliothek und der Franckeschen Stiftungen - ، Halle 1996، S. 14f.

للراغبين فى التزود والتعرف على المزيد من المعلومات فى هذه الفترة التاريخية. وقد تم اختيار قصر هارتنفلز Hartenfels Schloss، مقر حاكم ولاية سكسونيا الرئيسى، والذى بنيت فيه أول كنيسة تقام فيها شعائر الدين المسيحى وفقًا لتعليمات الإصلاح البروتستانتى الجديد.

ولقد كان لى حظ زيارة هذا المعرض وتفقد معروضاته، التى قدمت لى أدلة جديدة على مدى قوة وتأثير أحداث عصر الإصلاح الدينية والسياسية التى سادت كافة مجالات المجتمع والتى أدت إلى تغيير شامل فى المجتمع الألمانى والأوروبى ونقلته من ظلمات العصور الوسطى المتأخرة إلى بدايات العصور الحديثة. ولم يكن ذلك الأمر وتطوره على هذا النحو بالأمر اليسير إلا بفضل التغيير الجوهرى الذى حققته حركة الإصلاح اللوثرى.

و قد روعى أن تكون فصول الكتاب بعد التوطئة على النحو التالى:

الفصل الأول: يعرض للسيرة الذاتية لمارتن لوتر وأهم أعماله ومؤلفاته من خلال أحداث حركة الإصلاح.

الفصل الثاني: يعرض لإسهامه اللغوى فى دعم حركته الإصلاحية وانتشارها.

الفصل الثالث: يعرض لأهم قيم الإصلاح البروتستانتى التى سبقت مارتن لوتر وقادته إلى استكمال حركة الإصلاح هذه وإنشاء كنيسة مستقلة عن كنيسة روما، ترعى هذه القيم.

الفصل الرابع: يعرض لحركة الإصلاح من منظور إسلامى، وهى النقاط التى نرى أنها أُغفلت من الكثيرين، ممن كتبوا عن مارتن لوتر، وخاصة المصادر والمؤلفات العربية، والتى استندت فى أغلبها على مصادر فرنسية أو إنجليزية، ويعرض هذا الفصل الكثير من المعارف حول قيم حركة الإصلاح المسيحى المستوحاة من الأصول الألمانية ومحاولة

إيجاد إجابة عن السؤال الذى شغل ومازال يشغل ولسوف يشغل مستقبلا الكثيرين من الدارسين ورجال اللاهوت والفكر وعلماء الأديان عن قدر تقارب وتطابق قيم الإصلاح اللوثرى مع قيم ومبادئ الإسلام من منظور أصحاب هذا الرأى، أو عن قدر ابتعاد هذه القيم كلية عن الإسلام من منظور الرأى الآخر وأنها جاءت عبر فكر أوروبى خالص نتج عن التدهور الذى أصاب أحوال الكنيسة آنذاك.

الفصل الخامس: ويعرض للخلاصة والنتائج.

الفصل السادس: ويقدم ثبت بأهم الأحداث التاريخية التى أثرت تأثيرًا بالغًا فى حركة الإصلاح سلبًا أو إيجابًا.

علاوة على ذلك أرفقت قائمة بأهم المصادر والمراجع التى كانت لنا خير معين وداعم لإنجاز هذا العمل الخالص لوجه الله.

والله أسأل أن ينفع به القارئ أيا كانت عقيدته وتوجهاته ومشاربه، ودون الافتئات على عقيدة بعينها، أو التعصب لأخرى، تاركين ذلك للقارئ.

والله من وراء القصد...،

القاهرة فى

٢ رمضان ١٤٢٨ هـ

الموافق ١٤ سبتمبر ٢٠٠٧م

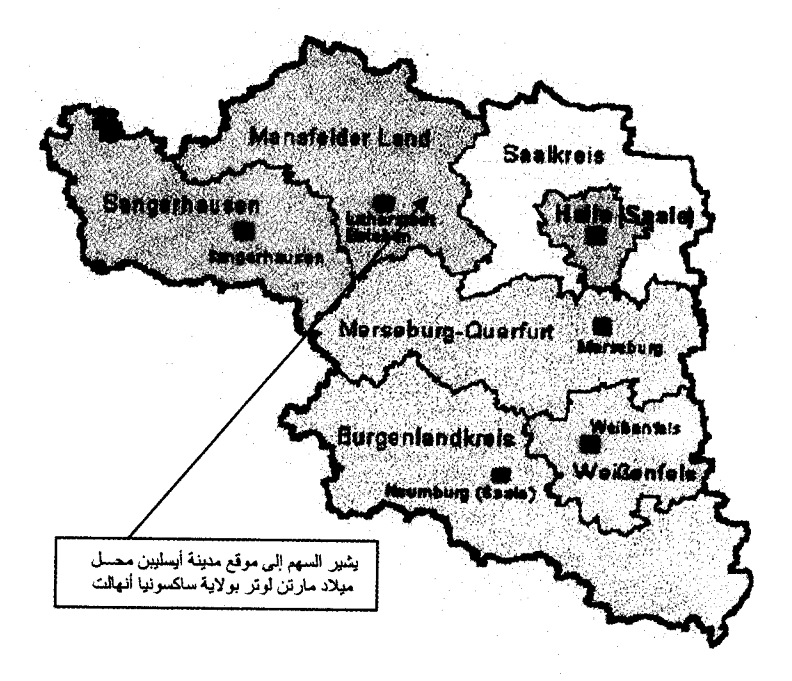
محمد أبو حطب خالد

الفصل الأول

السيرة الذاتية لمارتن لوتر من منظور تاريخي

١٠١ طفولة وشباب مارتن لوتر فى إمارة سكسونيا

ولد مارتن لوتر فى العاشر من نوفمبر ١٤٨٣ فى مدينة أيسليبن Eisleben ، وهى من أقدم المدن الألمانية، التى تقع بين منطقة الهارتس Hartz ونهر الإلبى Die Elbe، وترجع أهميتها إلى أنها كانت من أشهر المدن التى قامت بها صناعة التعدين، وخاصة النحاس الذى اشتهرت به إمارة مانسفيلد Grafschaft Mansfeld. وقد حظيت هذه المدينة بلقب مدينة لوتر Lutherstadt فى عام ١٩٤٦ رمزًا لأهميتها كموطن لهذا المصلح الدينى الكبير[١]. تقع مدينة أيسليبن فى ولاية سكسونيا أنهالت الحالية، ولا يتعدى عدد سكانها ٣٠٠٠ نسمة آنذاك.



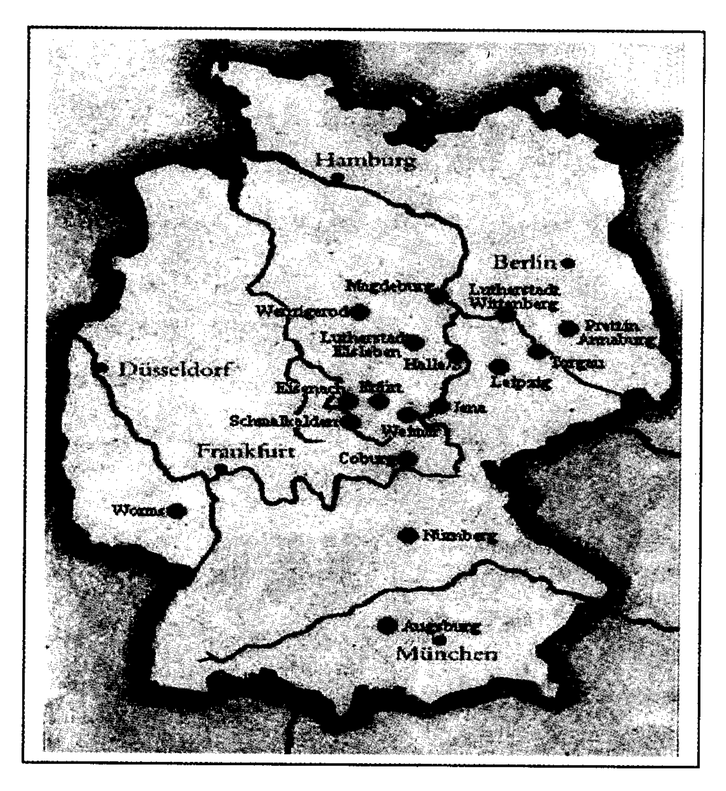
يشير السهم إلى موقع مدينة أيسليبن محل ميلاد مارتن لوتر بولاية ساكسونيا أنهالت

---

(١) قارن: Lutherstadt Eisleben Geburtshaus Martin Luthers. www.luther.de/lu96/eisl/gebhaus.html

وقارن أيضًا: Martin Luther in Eisleben. www.luther.de/lu96/eisl/hist.html

وتوضح الخريطة التالية أهم الأماكن والمدن التى ارتبطت بحياة مارتن لوتر وحركته الإصلاحية (١)



استطاع والده بمرور الوقت أن يرفع من مستوى معيشته المتواضعة بعد أن حصل على عمل فى مجال التعدين واستخراج الفحم، وكانت طفولته مقرونة بالإملاق، ويحدثنا مارتن لوتر نفسه عن حياته هذه بأنه لم يكن يعرف طفولة جميلة. فإلى جانب حياة العوز، فإنه تربى تحت نظام صارم وقاس، فلم يعرف

---

(١) على رأس هذه المدن: أوجسبورج Augsburg، فورمس Worms، نرنبيرج Nürnberg، كوبورج Coburg، شملكالدين Schamalkalden، إرفورت Erfurt أيزناخ Eisenach، هالى Halle، ليبتزيج Leipzig، ماجدبورج Magdburg، أنا بيرج Annaberg، تورجاو Torgau، فيتنبيرج Wittenberg

قارن:

www.luther.de/staedte.html ، Die Lutherstädte im Internet، 10/06/2004

التدليل والحنان من والديه فى المنزل ولم يعرفه أيضًا فى المدرسة، وقد علقت هذه المعاملات القاسية بذاكرته حتى سنى شيخوخته، وكثيرًا ما كان يتذكر أسباب الفقر والبؤس التى عايشها مع والديه، وطموح والده للسعى إلى عمل آخر غير الفلاحة، وعمل أمّه الدءوب فى حمل الحطب والخشب على ظهرها، الأمر الذى لم تكن تؤديه سيدات أسر الطبقة الوسطى. ويروى فى شيء من الدعابة أن أمه جلدته وهو طفل صغير من أجل بندقة صغيرة جدًا حتى سالت دماؤه، وأن هذه القسوة رافقته فى سنوات حياته المدرسية، ويذكر أنه قد ضُرب خمس عشرة مرة من مُدرسيه فى يوم واحد(١).

ولما كان مارتن لوتر الابن الأكبر للأسرة لزم عليه أن يدرس الحقوق تلبية لرغبة والده، والتى نجح فيها حتى أنهى فى مجالها رسالة الدكتوراة، التى كان يمثل الحصول عليها فى هذا العصر ميزة اقتصرت على طبقة النبلاء، والتى استطاع بها أن يرفع من شأن أسرته اجتماعيا. عاش لوتر فترة من حياته عند عمة له، هى السيدة أورزولا فون جوتا Ursula von Gotah، وعائلتها التى كانت فى نظر لوتر من أكثر العائلات ورعًا فى المدينة، حيث وفرت له، من منظوره، لارتفاع مستواها الاجتماعى والاقتصادي، حياة مشرقة غرست فى نفسه الاستقامة والصدق والتزود بالكثير من المعارف اللاهوتية. و يتسنى للوتر أثناء إقامته مع هذه الأسرة الالتحاق بمدرسة أفضل. ويلقى لوتر عند هذه السيدة لأول مرة عناية وحبًا وودًا، مكنه من أن يقيم علاقات طيبة مع الآخرين من أقرانه، كانت ذات أهمية كبرى فى حياته مستقبلاً(٢)

يلتحق لوتر بجامعة إيرفورت Universität Erfurt فى السابعة عشرة من عمره، لينضم إلى ألفين من الطلاب الذين يدرسون بالجامعة، وليقيم فى أروقة إحدى البورصات، التى أعدتها الجامعة لسكنى طلابها، وهى ما تمثل – من وجهة

---

(١) حنا جرجس الخضرى: المصلح مارتن لوتر– حياته وتعليمه ص ١٤ وما بعدها، قارن:
Schreckenbach، Paul/ Neubert، Franz: ein Bild seines Lebens und Werkens، mit 384 Abbildungen، vorwiegend nach alten Quellen، Leipzig، 1916، S. 2

(٢) قارن: Schreckenbach Paul/ Neubert، Franz ،a.a.O. S.2

نظرنا- أروقة الأزهر، التى كان يسكنها طلاب من أجناس مختلفة، وكانت هذه المساكن الطلابية تحت رقابة صارمة من إدارة الجامعة، ولا يحق للطالب القبول بها إلا بعد اجتياز اختبارات عديدة علمية وسلوكية، ومنها أن يخلد الطلاب للنوم فى الثامنة مساء، والاستيقاظ فى الرابعة صباحًا، ويحظر على الطلاب الذهاب إلى الحانات العامة سواء بالليل أو بالنهار، وكذلك عدم ارتياد الأماكن السيئة والمريبة، أو السير فى الشوارع بثوب من قطعتين أو بلباس قصير، كما يحظر عليهم التحدث بالألمانية، لأن لغة التعليم بالجامعة هى اللاتينية، ولا يسمح لهم بقراءة كل ما يحبونه ولا مفر من الموافقة على أى كتاب يرغبون قراءته من إدارة الجامعة، كما لا يسمح لهم بالخروج أو الأكل أو النوم حسبما يريدون، وعليهم أولاً وأخيرًا مراعاة هذه التعليمات بدقة متناهية لأن عدم مراعاتها يعنى الطرد من السكن وانتهاء الدراسة.(١)

وينتظم مارتن لوتر وفق هذا النظام الصارم، ويلتحق بكلية الفنانين Artistenfakultät، ليجتاز بنجاح الدراسات الأساسية فى هذه الكلية، وعلى رأسها الفنون السبعة المتمثلة فى: القواعد Grammatik، الجدل والبلاغة Rhetorik، الحساب والمنطق Mathematik Logik، الرياضيات Arithmetik، الهندسة Geometrie، الموسيقا Musik، الفلكAstronomie . لهذا كانت جامعة إيرفورت إحدى أكبر المعاهد العليا فى ألمانيا آنذاك، يتلقَى طلابها العلم فى أروقتها على أيدى كبار العلماء المتخصصين فى علوم الفلسفة الكلاسيكية وعلوم الإنسانيات، وكانت فترة الدراسة الجامعية بالنسبة له فترة متميزة وممتعة، فقد كان ذكيا ومُجِدًّا، وتخرَّج منها بنجاح باهر بعد أن أصبح له الكثير من الأصدقاء يتسامر ويتناقش معهم.(٢)

---

(١) قارن:
Landgraf، Wolfgang: Martin Luther، Reformator und Rebell، Berlin، 1981، S. 26

(٢) كانت تمثل الفلسفة المدرسية منذ القرن الثالث عشر الريادة التى تأسس عليها لاهوت الكنيسة الكاثوليكية فى الغرب بدعم من الفلسفة الأرسطوطالية التى حاولت أن توازن بين الاعتقاد الكنسى المستند إلى التصوف والزهد فى الدنيا وبين الفكر العقلانى وصلته بالمعارف الطبيعية العقلانية فى هذا العالم، ونشأ نظام كنسى مستقل فى إطار فلسفة شاملة تربط بين الله والعالم وكانت تعاليم أرسطو بمثابة وحى غير قابل للتغيير وسرعان=

ومع بداية القرن الرابع عشر وحتى السادس عشر عاش تاريخ الكنيسة أزمة كنسية خلال الفترة التى سبقت فترة ما قبل الإصلاح، أو ما يسمى بعصر النهضة، وهى الفترة التى استهدفت تحقيق ثقافة لاهوتية متحررة؛ كان عصر انتقال وتحول، فتطورت المدن ونشأت دول قومية فى أوروبا، مما أضعف من مكانة وموقع القيصر، وإمبراطور الغرب المسيحي، وبالتالى موقع ومكانة البابوية، وتحول الاقتصاد من التبادل العينى إلى الاقتصاد المعتمد على النقد، واعترى الحياة الكنسية تدهور وضعف أخلاقي، وكانت سلطة الكنيسة والبابوية سلطة مركزية تهيمن على كل رجال الإكليروس (اللاهوت)، الذين تضخمت ثرواتهم من خلال إيرادات صكوك الغفران، التى لعبت دورًا حاسمًا فى تطور فكر لوتر.

واستطاع أحد تلاميذ دون سكوتس Don Scotus، الذى يدعى وليام الأوكامى William von Okam أن ينشئ اتجاهًا لاهوتيا جديدًا يدحض به وبكل قوة الفلسفة المدرسية(١).

فبينما كانت تمثل هذه الفلسفة اتحادًا وانسجامًا تامًا بين الفلسفة واللاهوت، أى بين العقيدة والعلم، يجيء الأوكاميون والمجددون منهم باتجاه جديد، وهو الفصل الحاسم بين العقيدة والعلم، واستندوا فى رأيهم هذا إلى أن العقل لا يستطيع أن تتأسس عليه العقيدة، لأن تأصيل ذلك يرجع أولاً وأخيرًا إلى الوحى وسلطة

= ما انتقد أهل اللاهوت الكاثوليكى نظام الفلسفة المدرسية مما أدى إلى انقسام رواد هذه المدرسة إلى مدرستين كبيرتين: مدرسة التوماويين نسبة إلى توماس فون أكوين، ومدرسة السكوتسيين نسبة إلى دونس سكوتس. قارن:

Schreckenbach/ Neubert: Martin Luther، a.a.O.، S.3

(١) وليم الأوكامى (١٢٨٥-١٣٤٩) عالم وفيلسوف إنجليزى فرنسيسكانى المذهب، تأثر المصلح مارتن لوتر بآرائه فيما بعد، منها: أن البابوات والمجالس الكنسية يمكن أن تخطئ، وكذلك الفصل بين العقيدة والعلم وبين العقل والوحى، وأمكن بذلك الحصول على معارف جديدة وجيدة فى العلوم الطبيعية دون خرق لعقيدة الكنيسة من منظور أنها حقائق أكيدة يجب الإيمان بها وأنه من غير الممكن أن تعلل أسرار العقيدة عن طريق العقل، رغمًا عن أن الإنسان عند لوتر غير حر من خلال ميراث الخطيَّة، وأن خلاصه لا يتحقق إلا عن طريق نعمة الله ورحمته.

الكنيسة.[١] ولعله من المفيد فى هذا الشأن أن نشير إلى الرواية التاريخية للأديب والفيلسوف وعالم اللغة الإيطالى "أمبرتو إيكو" Umberto Eco "اسم الوردة" Der Name der Rose، والتى ترجمت إلى الألمانية عام ١٩٨٢، متضمنة وصفًا عبقريا ومشوقًا بكافة التعبيرات لسمات هذا العصر، حتى أن هذه الرواية تم إخراجها فى فيلم بنفس العنوان[٢].

وقد قاد هذا الاتجاه الجديد إلى وجود كنيستين: بابوية روما، وبابوية إيفينيون Papstum zu Avigon،[٣] وهو الانقسام الذى كان بداية لحركة من حركات الإصلاح، حمل لواءها فى إنجلترا جون وكليف John Wyclif، وفى بوهيميا يان هوس Jan Hus. كان وكليف راهبًا وطنيا انتقد سوء استخدام السلطة البابوية، وطالبها أن تمارس اللاهوت المسيحى من خلال الكتاب المقدس. كان ذلك بداية لنشأة نظائر عديدة لما قام به لوتر فيما بعد، وهذا يعنى أنه نتيجة لما قام به وكليف ابتعدت الكنيسة ابتعادًا كبيرًا عن الإنجيل، وطالب وكليف بالعودة إليه والعمل على ترجمة "طبعة الفولجاتا" إلى لغة أهله، الإنجليزية، وكانت آراؤه معادية للبابوية والسلطة الكنسية الهيرارشية (التراتيبية)، وضد نظرية التناول، والعشاء الربانى فى الكنيسة الكاثوليكية، بشأن قضية التحول الحقيقى للخبز إلى جسد المسيح، وكذلك التصدى إلى تقديس صور القديسين وصكوك الغفران وغيرها، وتم شجب هذه التعاليم الو كليفية من قبل الكنيسة[٤].

أما فى بوهيميا Böhmen فيواصل الراهب يان هوس Jan Hus تعليمات سلفه جون وكليف John Wyclif فى شأن الحركة الإصلاحية. وفى مجمع كونستانس Konzil von Konstanz عام ١٤١٥ تُصدر الكنيسة الكاثوليكية

---

(١) قارن:

Landgraf، Wolfgang: Martin Luther، a.a.O.، S. 27f

(٢) قارن:

Umberto Eco „Der Name der Rose“ Aus dem italienischen ins Deutsche von Burkhart Kroeber übersetzt- Titel des Originals: Il ame della rosa، Milano 1980- Stuttgart. Hamburg. München (1982)،

(٣) فترة الشقاق داخل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية الذى تمخض عنه تنصيب مقرين للبابوية فى الفترة من ١٣٧٨ إلى ١٤١٥ أحدهم فى مدينة روما بإيطاليا والثانى فى مدينة أفينيون Avigon بفرنسا. (المؤلف)

(٤) قارن:

de.wikipedia.org/wiki/John_Wyclif

مرسومًا بكفره وزندقته وموته حرقًا، بعد أن رفض الرجوع عن آرائه.(١) وحاولت الدول القومية الناشئة مثل إنجلترا وفرنسا أن تدير كنائسها من ذاتها، لتحمى نفسها من استغلال ونهب وسيطرة روما على أموالها. وعلى النقيض من ذلك كان الوضع فى ألمانيا الضعيفة والعاجزة، نظرًا للشتات والتشرذم الذى يعيشه نبلاؤها وأمراؤها. ورغمًا عن هذا فقد ساعدت الظروف الكنسية والسياسية فى تحاشى دفع الضرائب المرتفعة التى تفرضها الكنيسة عليها(٢).

فى القرنين الرابع والخامس عشر ينشأ فى إيطاليا تيار فكرى جديد سُمِّى بعصر النهضة Renaissance، والذى تضمن رؤية إيجابية للعالم مخالفة لوجهة نظر المسيحية، التى رآها البعض سلبية فى تفسير الأمور الدنيوية، والتى اعتبرت أن الفرح والمتعة فى الدنيا من الأعمال غير المسيحية، وبهذا قاد الاتجاه الفكرى الجديد الناس إلى الإقبال على العالم والتمتع بالنواحى الجمالية فيه، وتطوير بناء شخصية الإنسان، واستدلوا على ذلك بالتراث الأدبى والفنى القديم لليونان والرومان، واعتبروا تراث شعرائهم وفنانيهم فى القرن الخامس عشر تراثًا عامًا للطبقات العليا فى المجتمع الإيطالى. ومن هنا بدأ حصار الفلسفة المدرسية وعدم الأخذ بها، وتركزت الحركة الفكرية لهذا فى ألمانيا على دعم الجانب النظري، تلاها الاهتمام بالفن، والعمل على تحسين الأحوال الكنسية، وكان على رأسهم راعى الإنسانيات الألمانى يوهان رويشلين Johannes Reuchlin، والذى يعتبر من أوائل الألمان المجيدين للغة العبرية، والذى حاول أن يحافظ على اللاهوت

(١) قارن: www.koenigsfeld.org/m_hus.html

(٢) قارن النص فى مصدره الأصلى:

Die Abhandlung Erasmus " Über den Freienwillen" erchien im jahre 1524. Dagegen schrieb Luther "Über den Unfreienwillen Erasmus wollte mit Stellen der heilingen Schrift beweisen, dass die Mitwirkung des menschlichen Willens unerlässlich sei, wenn der Mensch selig warden sollen, dass er deshalb auch eine Freiheit des Willens haben müsse. Luther will dagegene benfalls aus der Schrift erweisen, dass der Mensch zu seinem Seligwerden gar nichts beitragen Könne, dass alles Gute in ihm nur durch Goes Geistbewirkt werde und dass er also nur durch Gottes Gnade ohne alle seine Mitwirkung zur Seligkeit gelallge. Schreckenbach, S.31 f.

والأدب اليهودى المضطهد آنذاك من الكنيسة الكاثوليكية التى عملت على إدانته وحرقه. كما كان على رأس هؤلاء الإنسانيين المصلح إيرازموس فون روتاردام Erasmus vom Roterdam فى القرن السادس عشر، والذى اتجهت أراؤه اللاهوتية لخلق مسيحية إنسانية تلتزم بضرورة الإصلاحات الكنسية، ورغم هجائه ونقضه الكثير للكنيسة إلا أن معظم الدوائر الكنسية اعترفت به وبآرائه. وينسحب هذا أيضا على كثير من الأمراء، الذين وضعوه فى مرتبة عالية ودفعوا له مبالغ مجزية. وكان له سجال طويل مع مارتن لوتر فى موضوع حرية الإرادة.(١)

يحصل لوتر على درجة البكالوريوس فى خريف ١٥٠٢ مع ست وخمسين من أقرانه المتقدمين للامتحان وذلك بدعم من والده ماديا وروحيا. ويروى بعض مؤرخى سيرة مارتن لوتر أن والده رق قلبه المتحجر نحو ابنه وزاره فى دير إيرفورت وبصحبته عشرون من الفرسان، وتبرع للدير بمبلغ عشرين جولدن Gülden احتفاء وابتهاجًا بترسيم ابنه مارتن لمنصب القس(٢). فرغم انتشار الطاعون الأسود فى مدينة إيرفورت وما حولها ينتهى لوتر فى يناير ١٥٠٥ من الدراسة بكلية الفنانين، ويحصل على درجة الماجستير، ويواصل إلقاء محاضرات فى علوم القانون بنفس الجامعة. وفى الثانى من شهر يوليو عام ١٥٠٥ يتعرض مارتن لوتر لحدث أثناء رحلة عودته من بيت الأسرة فى مدينة مانسفيلد إلى مدينة إيرفورت Erfurt، وذلك بعد نقاش حاد مع والده فيما يخص مستقبله الدراسى الذى يريده له. وفجأة يتراءى أمام ناظره أثناء سيره على الأقدام أبراج كنيسة بلدة شتتوتر هايم Stotterheim؛ تغضب الطبيعة وتتلبد السماء بالغيوم وتقع الواقعة لتصفعه صاعقة من البرق والرعد وتلقى به طريحًا على الأرض مغشيا عليه فاقد الوعى طالبًا عون ونجدة القديسة "أنّا" Sant Anna ناذرًا نفسه أن يصبح راهبًا. وقد تأثر لوتر أثناء إقامته بالدير الأوغسطينى بأقوال المتصوف يوهانس تاولر Johannes Tauler، أحد رهبان الدومينيكان، وهم الرهبان الذين تم طردهم من

---

(١) قارن: Landgraf ص ٢٧٣ وما بعدها

(٢) قارن: Schreckenbach/ Neubert: Martin Luther. a.a.O، S.4 ، قارن أيضًا Landgraf، S.48

ستراسبورج Strassburg عام ١٣٣٩ لوقوفهم مع البابا يوهانس الثانى والعشرين Johannes XXII ضد القيصر لودفيج البافارى Ludwig von Bayern. وهو الأمر الذى أعطى لوتر أملاً كبيرًا فى أن يجتاز الهوة الكبيرة بين روح تنزع بطبيعتها إلى الخطيئة، وبين إله مقسط قادر على كل شيء.[١] ويعيش مارتن لوتر حياة الرهبنة الخشنة والصارمة والورع حتى أنه يروى عنه ما ذكره عن حياته فى هذه الفترة أنه كان راهبًا ورعًا، يراعى أحكام الطائفة التى ينتمى إليها بشدة إلى حد أنه قال ما نصه:

"إذا قدر لراهب أن يدخل الجنة عن طريق الرهبنة فإنى أدخلها لا محالة... ولو أن هذا الأمر طال أكثر من هذا لكنت عذبت نفسى حتى الموت بالسهر والصلاة والقراءة وغيرها من الأعمال."[٢]

و قد تناولت الأبحاث هذا الحدث تناولاً واسعًا، وبعد تلقى لوتر صدمة البرق والرعد، قرر الانخراط فى سلك الرهبان والدخول إلى الدير وكان من العادة آنذاك أن مثل هذا النذر يعتبر من منطلق خوف شديد لا يكون ملزمًا لصاحبه إلزامًا نهائيا، وهذا يعنى أنه لم تكن هناك ضرورة حتمية لتنفيذ هذا النذر، كما يُروى أنه قبل تعرضه لحادث البرق هذا كان يعيش فى صراع روحى مستمر، مما أدى بالبعض إلى تفسيره بأن الله سوف يختاره لمهمة خاصة فيما بعد.

كان دخول لوتر الدير سببًا فى غضب والده وحنقه، و انتظم بداخله حتى نُصِّب فى سن الرابعة والعشرين فى مايو ١٥٠٧ قسيسًا، وكان والده لا يزال غاضبًا عليه، إلا أنه رضى عنه بعد فترة غير طويلة- كما عرضنا لهذا فى موضعه. فى نفس الوقت الذى كان يعانى فيه لوتر من شظف العيش، يَرد إليه نبأ هروب صديقه، الراهب أولرش فون هوتن Ulrich von Hütten من دير مدينة

(١) قارن: ول ديورانت: قصة الحضارة، جزء ٣، مجلد ٦، الإصلاح الدينى، ترجمه عن الإنجليزية د. عبد الحميد يونس، مراجعة: على أدهم، اصدار ، ادارة الثقافة، جامعة الدول العربية، القاهرة ، ١٩٧١، ص ١٣ .

(٢) قارن: المرجع السابق، ص ١٢.

فولدا Fulda ليلتحق بجامعة كولونيا وهو فى سن السابعة عشر من عمره ليصبح من كبار علماء الإصلاح المدعمين لحركة مارتن لوتر وتوجهاته فيما بعد(١).

ويرى المؤرخون لسيرة لوتر أن هذه السنوات الأولى التى قضاها بالدير كانت مشوبة بصراعه الفكرى تجاه العقيدة المسيحية ومحتواه (٢).

وتنتاب لوتر الكآبة والتفكير العميق أثناء إقامته بالدير، مما جعله يحس إحساسًا جادًا بالواجب المنوط به، فهو كقسيس كان يشعر بخوف كبير من أن يؤدى الصلاة بطريقة خاطئة، أو فى تقديمه الأضحية للإله الخالد.(٣)

وكان لوتر يرى دائمًا أنه خطاءٌ كبير، وكثيرًا ما طرح على نفسه هذا السؤال: "متى يحين الوقت لأن أكون تقيا وأن أفعل ما فيه الكفاية كى أصل إلى هذه التقوى، وحتى يحيطنى الله الرحيم برحمته؟"(٤)

لم يكن بالطبع نيل رحمة الله وغفرانه مرتبطًا بكمٍّ الأعمال الصالحة والإنجازات التقية، وإنما ارتبط ذلك بإيمان الإنسان بالدرجة الأولى، لأن رحمة الله ومغفرته هبة ومنحة منه. هذا التأصيل لم يكن للوتر كراهب فى الدير أن يدركه ويقرَّه بعد، وهذا ما قاده إلى التفكير العميق فى أخطائه وذنوبه الشخصية، والشك فى عدم نيله هذه المغفرة، وقاده أيضًا إلى الزهد والتقشف والتعذيب الذاتى من

---

(١) قارن:

Landgraf: Martin Luther، a.a.O.، S. 36f

(٢) من تقاليد الكنيسة أن للبابا فقط ولمجامعه الكنسية المدعوة من قبله، سلطة تأويل وتفسير الكتاب المقدس ونصوصه دون غيرهم.

(٣) كانت شعائر الأضحية والمتعلقة بيسوع المسيح فى الصلاة، أن فى كل صلاة كاثوليكية يتم فيها الاحتفال بالعشاء الربانى المقدس والذى يلقب بمبدأ التناول بهدف غفران ذنوب المؤمنين، لأن المسيحية، من منطلق وجهة نظرهم، تعيش فى عالم ملئ بالشرور، وهو الأمر الذى يمثل الخطيئة المركزية الموروثة عند البشر أمام الرب، والتأكيد على أن عذاب المسيح إنما هو تكفير عن طبيعة الإنسان الخاطئة. وأنه بذلك يكون قد فتح للتائبين أبواب الجنة.

(٤) قارن النص الألمانى:

„O... wann willst du einmal fromm werden um Genugtun، daß du einen genädigen Gott kriegest?“ (Schreckenbach& Neubert، a.a.O.، S. 4)

خلال الصوم عن الأكل والشرب والتعرض للبرد الشديد والصلوات والابتهال دون توقف، كما كان يفعل أسلافه الأتقياء من قبل، وضعف جسده ووهنت صحته، حتى ساوره الظن بأن الله قد صب عليه جام غضبه ولعنته إلى الأبد. وكثيرًا ما كان يعبر عن هذه الفترة من حياته بأنها معاناة جهنمية قادته لآلام مبرحة، جعلته لا يفرق بين الله والشيطان.[1] ولهذا لم يكن من المستغرب أن يتهمه بعض رفاقه من الرهبان بالجنون، أو بمس شيطانى لروحه. يواصل لوتر استسلامه لقسوة الحياة بالدير الأوجستينى والالتزام بالطاعة التامة. ويُروى أنه أنطرح على الأرض، كمن مسه شيطان مارد، أمام لوحة للعشاء الرباني، موضوعة على قبر الراهب يوهانس زخارى Johannes Zachria، ثم يستفسر من معلمه ورئيسه المباشر بالدير، الراهب يوهان فون جريفين شتاين Johann von Greffenstein، والذى هدَّأ من روعه وأخبره أن صاحب هذا القبر هو الراهب الذى حَكَم بهرطقة يان هوس وحَرَقِه فى مجمع كونستانس برئاسة البابا يوحنا الثالث عشر Johannes XIII عام ١٤١٥، و يعيش لوتر بعد هذا الحدث فى عزلة مميتة وارتباك لا حدود لهما، ويصف حاله:

"الخوف دفعنى لليأس والقنوط،

إذ لم يتبق شيء يمكن الطموح فيه أو النزوع إليه،

حتى أيقنت أن الضرورة تحتم على أن أسقط فى الجحيم."[2]

ويعبر مارتن لوتر عن يأسه واضطرابه الروحى ويتساءل: "ترى لماذا أُحرق رجل استطاع أن يكتب بمثل هذه الروح المسيحية وبهذه القوة؟"[3]

---

(١) قارن :

Landgraf، a.a.O.، S. 46f

(٢) قارن النص الألمانى:المرجع السابق ص ٤٧.

(٣) قارن، ول ديورانت: قصة الحضارة، ج ٣، مجلد ٦، ص ١٣.

ويحاول البعض الآخر إرجاع ذلك الارتباك والعزلة إلى ما جاء بالكتاب المقدس، الذى أقرت نصوصه برحمة الله للإنسان. وحاول رئيسه الأعلى داخل الدير، والذى كان بمثابة والده، الراهب الدكتور يوهان فون شتاوبتس Johnann von Staupitz، أن يعلمه تلك الدروس فى مودة غامرة، وساعده فى أن يخرج من هذه الوعكة الفكرية سليمًا معافى/ كما أكد له فى تعليماته هذه المتمثلة فى أعمال يسوع المسيح فى تقبله لأخطاء وذنوب الإنسان، وتحمله واجب الخلاص القاضى بالعدل للجميع فى الإيمان بالله، ومن منظور أن الإنسان البار بالإيمان يحيا، فلكل امرئ إله رحيم غفور، لا يَعتد بأعمال المرء، وإنما بأعمال المسيح، وقد وجد لوتر هذا المضمون فى أقوال القديس بولس الرسول والقديس أوغسطين، فآمن بها ووجد فيها العزاء والسلوى عن صراعه الداخلي، وأصبحت تمثل لديه بعد ذلك الفكرة المركزية فى تعليماته المسيحية التى تستند إلى قوة كلمة الله.(١)

يذكر لوتر فيما بعد ذلك الحنو والرعاية الأبوية التى تلقاها على يد معلمه شتاوبتس، واعتبر أنه وُلد من جديد فى روح المسيح، ويكون شتاوبتس بذلك هو المؤصِّل والمبدع الأول لأفكار أحداث الإصلاح، والذى استشعر هذه الأزمة الفكرية والتأملية عند لوتر، مما جعله يُصدر قرارًا بنقله هو وستة من أقرانه من الدير للعمل محاضرًا لعلوم اللاهوت المسيحى بجامعة فيتنبرج الناشئة، ذات الموارد المالية المحدودة، ومن منطلق عدم دفع رواتب من قبل الجامعة لهم كرهبان كما هو مُتَّبع. ويصف مارتن لوتر مدينته على أنها مدينة تعيش على حافة المدنية والبداوة، وكان يُدرِّس بها اثنان وعشرون أستاذًا، منهم اثنا عشر من علماء اللاهوت. و كان لزامًا على لوتر أن يلقى محاضرات فى فلسفة أرسطو عن الأسس الفلسفية التى تأسس عليها اللاهوت المدرسى، وكان يرى فى فلسفة أرسطو رداءة وفقرًا. واشتهر لوتر كواعظ مُفوَّه من خلال عظاته وإقامة الشعائر والصلوات بكنيسة الجامعة وغيرها من الكنائس الأخرى(٢).

---

(١) قارن: المرجع السابق، ص ١٣.

(٢) قارن:

Schreckenbach، a.a.O.، S. 5 ص ٥٣ وما بعدها ، وقارن أيضا، Landgraf، Wolfgang a.a.O

٢.١ مارتن لوتر فى إيطاليا

اصطحب لوتر فى أكتوبر ١٥١٠ صديقًا له من بين رهبان الدير الأوغسطينى بمدينة كولونيا، يدعى الدكتور ناتين Nathen– ويذكر الباحث لاندجراف Landgraf، أن هذا الراهب كان يدعى يوهان ميشيلن Johann Mecheln– فى رحلة شاقة وقاسية على الأقدام، بداية من فيتنبرج Wittenberg، ومرورًا بمدن هالى Halle ، أولم Ulm ، كوموا Comoa، فلورنس Floranz، بولونيا Bolognia، ونهاية بالعاصمة المقدسة روما Rom. وكانت هذه الرحلة تمثل مهمة رسمية لهذين الراهبين من رئاسة الدير الأوجستيني، وبهدف لقاء البابا وعَرْض بعض قضايا الخلاف الخاصة بالدير.

وكانت إيطاليا آنذاك تمثل أرض الشمس والنور، وأرض النهضة، وأرض الفن والثقافة والجمال والمتعة. وكم كانت صدمة لوتر حينما شاهد هناك جشع وعبث وحمق رجال الإكليروس، كبارًا وصغارًا، وهذا يعنى كافة أنواع التدهور والسقوط الخلقى للحياة التى يحياها الأساقفة، وحتى القساوسة البسطاء كانوا يتمتعون بحياة مادية وفساد ومجون جنسي، رغم زعمهم أن كافة رجال الإكليروس، من كافة الرتب، محرم عليهم الزواج منذ القرن العاشر، مثلهم فى ذلك مثل الرهبان، وهذا يعنى أنه محرم عليهم ممارسة أى علاقات جنسية. وشاع المثل السائد الذى كان يتغنى به كرادلة روما" أن عاهرات المتعة الجنسية أشد نفعًا من أتقى الراهبات.(١)". وقد أدى هذا إلى أن يحكم لوتر من واقع خبرته على هذا الفساد فى إيطاليا بقوله " كم هو شعب مارق فاسق، ولم يكن يخطر بظنى أن بلاط

---

(١) قارن النص فى مصدره الأصلى:

„Freudenmädchen seien die Welt nützlicher als die frömmsten Nonnen...“

Schreckenbach ‹Paul / Neubert ‹ Franz : Martin Luther. Ein Bild seines Lebens und Wirkens‹ Leipzig. 1916 ‹S.5

قارن أيضا: جاد طه: ألمانيا إلى أين المصير، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٠، سلسلة إقرا رقم ٥٥٧، ص ١٩ وما بعدها.

البابوية بهذه الدرجة من الفسق والفجور، وما كان لى أن أصدق ما يحدث لولا أننى رأيته بنفسي، إنها جهنم التى بنيت من فوقها مدينة روما..."[١]

وأرجع لوتر هذا الفساد المستشرى إلى طبيعة الشعب الإيطالى، بل وحمله مسئولية ذلك، ووصفه بعدم الوفاء ونزوعه الدائم للانتقام والخيانة وسوء الظن حتى تجاه نفسه، وأن الإيطاليين بمثابة طعنة خنجر من الخلف فى جسم الكنيسة. وقد كانوا يستخفون بكل أمر حتى فى الأمور المقدسة، وكان يعنى بذلك أن رجال اللاهوت الإيطاليين متكبرون وثرثارون، وليس لديهم ما هو مقدس، وكانوا ينظرون فى غل إلى غيرهم من الأمم الأخرى، خاصة الأمة الألمانية وبشيء من الازدراء والاحتقار، وكان لذلك أثره فى إيقاظ الشعور الوطنى الألمانى لديه، ويبدأ بعد ذلك فى تكوين أفكار عن بنية هذا اللاهوت الذى رآه فى روما ودراسة ظواهر هذا التدهور فيه، ورغم العديد من السلبيات التى عايشها ورآها فى رحلته إلى روما فإنه عاد مخلصًا لكنيسته إلى فيتنبرج.[٢] ووجد مارتن لوتر مع بداية عام ١٥٢٠ دعمًا معنويا غير متوقع من النبيل أولرش فون هوتن وفرانتس فون سيكنجن Franz von Sickingen وشعورهما المتأجج بحب وطنهما ألمانيا ضد هذا الفساد المستشرى فى إيطاليا وفى روما، بل وطبعهما آلاف المنشورات التى تدعم ذلك، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قول أولرش فون هوتن:

"ثلاثة أشياء تباع فى روما: المسيح، والقسوسة، والنساء. وثلاثة أشياء منبـــوذة فى روما: المجمع المسكونى العام، والإصلاح الكنسي، وأن يعى الألمان ما يدور حولهم. وأتمنى لروما ثلاثة أشياء سيئة: الطاعون، والمجاعة، والحرب. هذه هى عقيدة التثليث التى وقرت فى قلبى."[٣]

---

(١) قارن:

Meisner، Michael، a.a.O، ص ٢٥

„Welch ein greulich Volk ist das Gewesen. Ich hätte nicht geglaubt، dass das Papsttum so eine großer Greuel sei، wenn ich den römischen Hof nicht selbst gesehen hätte. Ist eine Hölle، so ist Rom darauf gebaut، habe ich selbst in Rom gehört." S. 25

(٢) قارن: Schreckenbach، a.a.O.، S. 5

(٣) قارن النص فى مصدره الأصلى:

"Drei Dinge warden verkauft in Rom: Christus, Priestertum, Frauen. Drei Dinge Sind verhaβt Rom: ein allgemeines Konzil, eine Reformation der Kirche und daβ den Deutschen die Augen geöffnet warden. Drei Übel erbitte ich fur Rom: Pestilenz, Hunger und Krieg. Das sei meine Trinität." (المرجع السابق ص ٥٩)

ومن خلال موقعه فى فيتنبرج، تصحبه مواهبه وتقواه وتشجيع أستاذه شتاوبتس له داخل الدير والجامعة، حصل مارتن لوتر على درجة الدكتوراة فى عام ١٥١٢ على يد عميد الكلية وأستاذه، كارل شتيت Karlstadt. وبهذا أصبح لوتر واعظًا كبيرًا وأستاذًا للكتاب المقدس، وهذا مما حدا بأمير ولاية ساكسونيا، النبيل فريدريش الحكيم Kurfürst von Sachsen Friedrich der Weise، بعد سماعه هذا الإطراء المتعلق بلوتر من رؤسائه شتاوبتس وشبلاتين، واللذين كانا يعملان كمستشارين وقساوسة فى بلاط الأمير، أن يسدد الأمير نفقات مناقشة رسالة الدكتوراة[١]، وأُسند إلى لوتر منصب الأستاذية الذى كان يتولاه رئيسه اشتاوبتس، وأخذ يلقى المحاضرات عن الأناجيل بداية من مزامير العهد القديم ورسائل القديس بولس المتعلقة بالعهد الجديد، وعلم التشريعات الذى وجده عند القديس بولس Sankt Paulus فى رسالته إلى أهل روما "أن البار بالإيمان يحيا"[٢]، مما حدا بلوتر أن يعبر عن اكتشافه لهذه العبارة، التى وجد فيها ضالته أثناء صعوده السلم المقدس بمقر الكنيسة البابوية فى روما، وأنه سعد بكافة نصوص الكتاب المقدس، التى فتحت له أبواب السماء. وانتابه الشعور بأن الله يدعوه بكل قوة للعمل والدفاع عن الكتاب المقدس،[٣] والمحافظة على فكره الحقيقى من التأويلات الخاطئة والضعيفة التى عمت وتفشت فى تعاليم الكنيسة، فقام بتغيير جذرى فى تدريس اللاهوت بجامعة فيتنبرج، فبدلاً من تدريس الفلسفة التى قال بها توماس الأكويني، وبطرس لومباردوس وأرسطو Thomas von Aquin، Petrus Lumbardius und Aristotalis، والتى اعتبرت بمثابة تاج الحكمة آنذاك، قام بتغيير جذرى بوقف تعليمها من قبل لوتر، على أن يحل محلها تعليم نصوص الكتاب المقدس،

---

(١) قارن: Landgraf، a.a.O.، S.78 ، الذى يذكر أن أمير سكسونيا دفع مبلغ خمسين جولدن تحت شرط أن يضطلع مارتن لوتر بوظيفة محاضر عن نصوص الكتاب المقدس.

(٢) قارن النص الأصلى:

"Der Gerechte wird seines Glaubens aeben" (Schreckenbach, a. a. O., S.5)

(٣) قارن: أ. موريسون: حياة لوتر، ترجمة: القس باقى صدقة، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٣ وما بعدها.

المنبع الأول للحقيقة والمصدر الأساسى للاهوت، ونهج قويم لعالم اللاهوت الكبير القديس أوغسطين وتعاليمه الكنسية التى سادت فى القرن الخامس عشر(١).

إن نظرية التبرير بالإيمان التى وقرت فى قلب لوتر بأنها من أفضال المسيح وهباته، تجعل أعمال الرهبان محل تساؤل، فليس هناك من يَلْقى التبرير والمغفرة من منطلق تقواه وأعماله الحسنة، وإنما يكون حصول الإنسان على هذه الرحمة والمغفرة ليس من خلال حسنات أعماله، وإنما فقط من خلال إيمانه المطلق بالله، لأن الله يهبها من رحمته ويعطيها للإنسان من خلال أعمال المسيح. وأحس لوتر بمسئوليته تجاه كل الرهبان الذين يعملون تحت رئاسته، مما حدا به إلى نقد نظامه الداخلى المتواصل للكنيسة، واعتبر أنه من خلال هذا النقد يمكن الإصلاح والوصول إلى الأحسن، لأنه هدف أولاً وأخيرًا إلى مقاومة سوء الاستخدام الكنسي،(٢) وهو الذى دفعه عام ١٥١٧ لتعليق حججه الخمس والتسعين على باب كنيسة القصر بمدينة فيتنبرج، وفْقَ عادات هذا الزمان، لتكون موضوعًا للمناقشة الأكاديمية وتحديا بين العلماء.(٣)

---

(١) كانت تعاليم أرسطو تمثل بالنسبة للوتر جسد الشيطان، رغم أنها كانت تمثل حضارة العصر القديم، اليونانى والرومانى، والذى يمثل المرجع الأساسى لعلماء الإنسانيات القائلين بأن إرادة الإنسان هى أصل الأشياء، وهو الأمر الذى اعترض عليه لوتر، لأنه يرى أن العقل هو مقياس كل الأشياء، ولهذا تحولت توجهاته الفكرية بما كان يقول به المتصوفون الألمان، أمثال يوهانس تاولر ومايستر اكهارت: "النور الداخلى الذى يفيض به الإله على المتصوف يقوده إلى معرفة الله". ولا شك بأن هذه التغيرات فى الدراسات اللاهوتية العامة جسدت نهضة وحركة مباركة فى مدينة فتنبرج وارتفعت أعداد طلاب الجامعة وذاع صيتها الإيجابى فى كل الفئات حتى أمير الولاية فريدريش الحكيم، وأخذت شهرة لوتر ترتفع ويكثر توجيه النقد إليه، و فى تقرير للوتر عام ١٥١٣ قدمه العالم اللاهوتى الشهير وأستاذ العبرية رويشلاين الذى نادت الكنيسة بإحراق كتبه التى ألفها عن اليهودية وعن التدهور الكبير الذى يعيشه رجال الإكليروس يقول إنه بدلا من أن يكونوا مربين أتقياء لهذا الشعب البسيط صاروا يعيشون فى ترف وبذخ دنيوى، ورغم نقده هذا اللاذع وموقفه من رجال اللاهوت فإنه انتخب فى عام ١٥١٥ كنائب لرئيس الدير الأوجستينى فأصبح بذلك تحت رئاسته أحد عشر ديرًا.

(٢) قارن:

Schreckenbach‹ a.a.O. S.67

(٣) مزيد من التفصيلات، أنظر:

Beintker Horst: Martin Luther- Die reformatorischen Grundschriften in 4Bd‹ Bd I‹ Gottes Werke und Menschen Werke‹ München‹ 1983.

ص ١٥ وما بعدها، قارن أيضا، جاد طه: ألمانيا إلى أين المصير، ص ٢١ وما بعدها.

كان الباعث وراء تأليف هذه الحجج من قبل لوتر صكوك الغفران، التى تُصبُّ مواردها عند البابوية، والتى أصدرها بداية البابا يوليوس الثانى Julius II عام ١٥٠٦ من أجل التبرع بموجبها لبناء كنيسة القديس بطرس فى روما، وحدد محتوى صدورها البابا ليو العاشر Leo X عام ١٥١٤، وهو الأمر الذى لقى نفورًا وإعراضًا فى ألمانيا من منظور استغلالها ونهبها لأموالها لتذهب فى جيوب الإيطاليين، وأرسل البابا مندوبيه فى كل اتجاه من الوعاظ ورجال اللاهوت لجمع هذه الأموال من خلال فرض هذه الصكوك، واتبعوا فى ذلك أساليب ووسائل رخيصة تدل على سوء سمعتهم، وقد استغل بعض كبار البطاركة منهم هذه الأموال فى سداد ديونهم الكثيرة، والتى سبق لهم اقتراضها من بنوك الفوجر[١] Fuggers ومؤسساتهم التجارية مثل البطريارك البرشت Albrecht، والذى كلف مندوبه القس يوهان تيتسل Johann Tetzel بجمع هذه الأموال على حدود سكسونيا بعد أن صدر قرار بمنعه دخول الولاية لهذا الغرض، وجاء يجمع المال فى مدينة فيتنبرج.[٢]

و كان لوتر من موقعه الوظيفى كقس على دراية بقضية صكوك الغفران هـــذه، التى قـــادته إلى مناشدة جمهور الناس أنهم ليسوا فى حاجة إلى هذه التوبة أو الندم على ما فعلوه، لأنهم سبق وأن دفعوا ما عليهم فى هذا الشأن، ولكن الذى حدث هو أن مندوبى جمع الأموال بالغوا فى الأمر ونادوا بأهمية منح صكوك

---

(١) أسرة من أصول نبيلة عاشت فى مدينة أوجسبورج بمقاطعة بافاريا فى القرن الخامس و السادس عشر، وهى من أول من مهد لعصر الرأسمالية المبكرة، وامتلكت ناصية التجارة العالمية وإقراض المال لكثير من المؤسسات، حتى مستوى البابا و القيصر. (المؤلف)

(٢) ذاعت شهرة مندوب البابا يوهان تيتسل من خلال قولته المشهورة أمام جمهور البسطاء من النـاس "أنـه فى لحظة وضع النقود فى الصندوق ويسمع رنينها، وتصعد روح صاحبها فورًا إلى السماء"

„ Sobald der Pfennig ins Becken geworfen und klüngIt ، sobald wäre die Seele، dafür er gelegt، im Himmel"

انظر:

Schreckenbach، Martin Luther، a.a. O.، S. 7

وصل بـه القول: إن الإنسان لو ارتكب الفاحشة مع العذراء المباركـة نفسها فـإن صـك غفران البابا كفيل بـأن يمنحه الغفران الكامل." قارن، جاد طه: ألمانيا إلى أين المصير، ص ٢٢ وما بعدها.

الغفران لمن يدفع أكثر، اتقاء لدخول النار، لملايين من السنين مضت أو لملايين مثلها قادمة.

ويقف لوتر بكل قوة ضد هذا الهراء ويقدم حججه الخمس والتسعين، والتى تقول إن توبة الإنسان لا يمنحها أحد سوى السيد المسيح، ولا مكان لسلطة البابا فى ذلك إلى يوم الحشر، بمعنى أن البابا ليس فى استطاعته قبول التوبة أو غفران الذنوب ومحوها، لأن قبول التوبة يتم فقط من خلال "التناول"(١)، وعلى يد قسيس الكنيسة، وكان ذلك بمثابة انطلاق شرارة الهجوم الأول على البابا والبابوية.

أما فيما يخص استغلال ونهب الأموال فى ألمانيا، فقد لقيت هذه الحجج ترحابًا كبيرًا لدى الألمان وأيقظت شعورهم القومي، وقادت العديد من الأمراء والنبلاء وأتباعهم للوقوف إلى صف لوتر ويرسل كبير الأساقفة البرشت Albrecht هذه الحجج إلى روما، وتعم كثيرًا من الناس موجة من الخوف والهلع ناظرين إلى لوتر، كما لو كان واقفًا على كوم من الحطب يحترق، وهو الأمل الذى راود أعداءه أن يتحقق.(٢)

وتصدر فى مارس عام ١٥١٨ رسالة للدكتور يوهان إيك Johann Eck، يتهم فيها مارتن لوتر بنشر هرطقات يان هوس وسُمِّه البوهيمي، كما يتهمه بنشاطه المتواصل فى تقويض نظام الإكليروس بأكمله، و لكن لوتر لم يزعجه هذا الاتهام، ويحصل فى منتصف عام ١٥١٨ أثناء انعقاد اجتماعات هايدلبرج وأوجسبورج على تأييد الكثيرين من جمهور الحضور، وعلى رأسهم مارتن بوسر Martin Bucer، أستاذ الجامعة. ويواصل لوتر تأليف العديد من المنشورات ضد تاجر

---

(١) أداء شعيرة تناول العشاء الأخير للسيد المسيح مع حواريه.(المؤلف)

(٢) كانت عقوبة من يتهم بالكفر هى الموت حرقًا والكافر هو صاحب الاعتقاد الخاطئ و المكتسب لروح الشيطان، والذى لا يملك فرصة دخول الجنة. و رغم نشوب الصراع الفكرى و الدينى فى هذه الفترة فقد قوى الاعتقاد بقوة السحر والشعوذة والذى من جرائه تم إحراقيما يزيد عن ١٧٠٠ امرأة وبنت اتهمت بهذا الاعتقاد دون سبب يذكر وعلى رأسهن الفتاة "جان دارك" الشهيرة، ويحصى أن من عوقبوا بذلك يتجاوز بضعة آلاف من الضحايا، والذى يراه المؤرخون أنه نتج عن العلاقة بين الاعتقاد المسيحى السائد آنذاك والعلاقات الجنسية تجاه النساء.

(قارن Haussi، Karl: Kompendium der Kirchengeschichte، 16. Auflage، Tübingen 1981 ، S. 262 f. ص٢٦٢

صكوك الغفران تيتسل، كتبها باللاتينية والألمانية وضد مندوب البابا سلفستر بريرياس Sylvester Prierias، وتركت هذه المنشورات لدى الألمان أثرًا كبيرًا فى إيقاظ شعورهم، حتى أن تيتسل نفسه شعر بعدم الأمان أثناء جولاته داخل ألمانيا وذلك من جراء سخرية لوتر منه. مما أدى بتيتسل أن يعبر عن حنقه وغضبه تجاه مارتن لوتر قائلاً: "لم يثر هذا الراهب الأوجستينى عداوة أهل السلطة ضدى فى البلاد الألمانية فقط ولكنه تجاوز ذلك إلى ممالك بولندا والمجر وبوهيميا، حتى أن أتباعه أقسموا على موتي، كان لزامًا علىَّ الحيطة والحذر"(١)

كان على لوتر أن يَمْثُل أمام محكمة الملحدين فى روما فى منتصف عام ١٥١٨، إلا أن أمير سكسونيا فريدرش الحكيم كان قد كرس جهده لمنع ذلك، وطالب أن يُحاكَم ويُسمَع لوجهة نظره على الأرض الألمانية بمدينة أوجسبورج، وعلى يد مندوب البابا، الأسقف الكردينال كاجيتان Cajetan. ويمرض لوتر وتبدو عليه علامات الكآبة، ولكنه تماسك ولم يتراجع عن رأيه، بعد أن أصر مندوب البابا على أن سلطان البابا فى تفسير نصوص الكتاب المقدس لا يصح المساس به، ولهذا فقد رفض النقاش معه فى هذا الشأن. ويصمد لوتر أمام هذا التحدى وينتهى الاجتماع دون جدوى، ويشتد الصراع بين لوتر ومندوب البابا ويهرب لوتر من أوجسبورج، خاصة بعد علمه أن مندوب البابا تلقى رسالة من روما تأمره باعتقال لوتر وترحيله إلى روما، ويذهب الخوف عن لوتر ويخرج صراحة كل ما فى صدره، مرددًا أن البابا ما هو إلا بشر عادى يخطئ و يصيب، كما أخطأ من قبل بطرس الرسول.

ويؤكد هذه المقولة فى رسالة مكتوبة إلى صديقه فنتسل لينك Wenzel Link بأن البابا فى وضعه الحالى وطبقًا لتعاليم بولس الرسول هو "المناهض الحقيقى للمسيحية، بل أعتقد أنه أسوأ من أى تركي".(٢)

---

(١) قارن:
Schreckenbach، Martin Luther، a.a.O.، S. 8

(٢) ترجع مركزية سلطة البابا الى موضع ورد فى إنجيل يوحنا ونصه: " ويتكلم يسوع مع حواريه بطرس ويقول له: أنت الصخرة التى عليها أشيد لبنتى المقدسة"، وهو الموضع الذى استندت إليه الكنيسة الكاثوليكية باعتبار أن البابا يمثل الخلف المباشر للقديس بطرس، ويصبح الوسيط بين الله والناس والطاهر و المعصوم من الخطأ.
مزيد من التفصيلات انظر: ول ديورانت، قصة الحضارة ج ٣ مجلد ٦ ص ٢٠ .

وكان على لوتر أن يواجه قرار اعتقاله وتسليمه إلى روما ويكتب إلى صديقه شبالاتين Spalatin ، مستشار الأمير فريدريش مناشدًا إياه، أن يحفز الأمير وأقرانه من الأمراء الآخرين الألمان على العمل نحو حماية مواطنيهم ضد هذا التسليم والخضوع الإجبارى لروما، ويوافق أمير سكسونيا والإمبراطور الألمانى ماكسميليان Maximilian على إعادة التحقيق مع لوتر داخل ألمانيا فى مدينة أوجسبورج، ويكلف البابا ليو العاشر النبيل كارل فون ميلتيتس Karl von Miltitz الذهاب إلى ألمانيا للإشراف على التحقيق مع لوتر. ويلتقى الاثنان فى ١٥١٩/١/٣ فى مدينة التنبورج Altenburg، وتسوق الأقدار فى العام السابق لهذا ١٥١٨ مجيء الشاب البالغ من العمر ٢١ عامًا، العالم اللغوى وعالم الإنسانيات ميلانشتون Melanchton ، كمحاضر فى جامعة فتنبرج، ورغم اختلاف الاثنين فى الطباع، حيث عُرف عن ميلانشتون الهدوء والتحفظ وتقبله للتصالح وبدائل الحلول الوسط، على النقيض من ذلك تمامًا صديقه لوتر، الذى اتُّصف بالحدة والقسوة، ورغم ذلك الاختلاف فقد ربطت بين الاثنين صداقة حميمة. وتعلم لوتر على يديه اليونانية والعبرية، التى ظهرت ثمارها فى المستقبل حينما شرع فى ترجمة الإنجيل. وينضم إلى دائرة لوتر الدكتور كارل شتات Karlstadt أحد كبار المناهضين لصكوك الغفران وأكثر المتحمسين للوتر وفكره الإصلاحي، معارضين ومتحدِّين توجهات وكتابات الدكتور يوهان إيك فى المناقشات التى دارت بمدينة ليبتزج فى يوليو ١٥١٩، وهى المناقشات التى حولت حركة الإصلاح من خلاف صغير حول صكوك الغفران إلى تحد كبير للسلطة البابوية، وتجرى هذه المناقشات اللاهوتية الواسعة فى ساحة مدينة ليبتزج، وينكر مارتن لوتر فيها التنصيب الإلهى والعصمة للبابا، ويقر بعدم شرعيتها، ويفزع لذلك العديد من الحاضرين سواء من أصدقائه المؤيدين له أو من معارضيه، ويؤكد لهم فى اليوم التالى أن الكتاب المقدس هو كلمة الله والمعصوم من الخطأ، بل أن المجامع الكنسية وما يتبعها من

مؤسسات برلمانية أقامتها الكنيسة منذ نشأتها أخطأت ولا تزال تخطئ وترتكب الآثام. وقد سببت تصريحاته هذه إثارة كبرى، وخاصة حينما رمى البابا وسلطاته بعدم شرعية تنصيبه من قبل يسوع المسيح، وأن هذه البابوية لم تكن لها وجود في القرون الأولى لنشأة الكنيسة، وهى الأفكار التى آمن بها الكثيرون وكانت تملأ صدورهم، ولكنهم لم يجرؤوا على التصريح بها علانية.

وانضم إلى صف لوتر الأعداد الغفيرة من علماء الإنسانيات، الذين نما شعورهم الوطني، متفقين فى النقد الذى اضطلع به لوتر ضد الكنيسة.[1] حتى أن إيرازموس فون روتردام Erasmus von Roterdam كتب العديد من الهجائيات ضد الكنيسة ورجال اللاهوت وسخر منها بما كان يتمتع به من روح الدعابة والذكاء. وإن كان لوتر لم ترق له هذه السخرية، على الرغم من أنه كان من محبى التنكيت والتبكيت، وكثيرًا ما كان يستشهد بأقوال هذا الرجل فى كتاباته والتى كانت تشبه التوابل فى مؤلفاته، رغم أسلوبها الفظ الملىء بالغلظة والسخرية والتهكم. ورغمًا من أن ذلك الأسلوب قد أغضب أعداءه، إلا أنه كان مثار إعجاب الكثيرين من الألمان المؤيدين له.

وقام لوتر بتأليف العديد من الرسائل التهكمية فى مناقشات ليبتزج منها: "رسائل إلى نبلاء الأمة المسيحيين الألمان" „Sendschreiben an den christlichen Adel deutscher Nation – von des christlichen Standesbesserung"، و"تقديس البابوية تجاه السلطة القيصرية" „Eine

---

(١)على سبيل المثال ما نادى به الراهب أولرش فون هوتن Ulrich von Hütten والذى رأى فى مارتن لوتر المحرر لألمانيا و أن حركة إصلاحه هذه، هى الطريق الوحيد لتحرير ألمانيا من نير روما، وهى مسألة أشد إلحاحًا من تلبية رغبة البابا بحثهم على صد الأتراك، و يصف روما بأنها "دودة ضخمة تمتص الدماء وأنها بحر من الدنس و بالوعة ليس لها قرار من الظلم" و ينضم إلى هوتن ميلانشتون وكارل شتات و فرانتس فون سيكنجن مما شجع لوتر أن يكتب إلى صديقه اشبالاتين مستشار الامير فى ١١ يونيو ١٥٢٠ قائلا: " لقد ألقيت النرد... و أنا أحتقر الآن غضب الرومان بقدر ما احتقر رضاءهم ولن أهادنهم إلى الأبد، فليدينوا وليحرقوا كل ما يمت لى بصلة، وأنا فى مقابل هذا سوف أفعل لهم الكثير... إنى لم أعد اليوم أخشى أحدًا وسوف أنشر كتابًا بالألمانية عن الإصلاح المسيحي، أوجهه إلى البابا كمناهض للمسيحية."
انظر ويل ديورانت: قصة الحضارة ص ٢٧.

Verhimmlichung des Papsttums gegenüber der Kaisermacht" وتأزم موقف هؤلاء النبلاء عام ١٥٢٠ بعد مطالبته بإسقاط البابا وإحلال المصلحين بدلا من رجال اللاهوت لإدارة أعمال الكنيسة، بعد فشلهم فى أداء أولى واجباتهم المنوطة بهم.(١)

وعلى هذا النحو أوضح لوتر ماهية الناموس الإلهى للحياة الدنيا ولقضية السلطة، فكما يخضع الفلاحون وصانعو الأحذية والخياطون للسلطة المدنية، فلا مناص من أن يخضع رجال اللاهوت لنفس السلطة والتى يتولاها القيصر ونوابه من الملوك والأمراء، وهم من أطلق عليهم لوتر "أولى الأمر" Die Obrigkeit.

---

(١) قارن:

Beintker Horst، Martin Luther. Die reformatorischen Grundschriften in 4 Bd.، Bd. II، Reform-Theologie، Kirche und Gesellschaft، dtv، 1983، ص ٦٥ وما بعدها.

فى القرن الرابع الميلادى أضحت المسيحية تحت لواء الإمبراطورية الرومانية، وانتظمت تحت إمرتها إدارات المدن والبلدان وفقا للنظام الهيرارشى، و تحددت واجبات هذه الإدارات حيث يصير الأسقف هو الرئيس الأعلى، يليه أمير الولاية أو حاكمها فى السلطة. وتدرجت بالتالى الوظائف الكهنوتية بالنسبة لرجال اللاهوت من قسيس إلى كاهن ومرتل وهكذا. ويتم اختيارهم من منظور الأسرار الكنسية المقدسة وتتم مباركتهم من البطريق الأعلى، ولهذا تمتعوا بدرجة اجتماعية عالية فاقت ما يتمتع به غيرهم من الفئات الاجتماعية الأخرى، وقدمت لهم الدولة الكثير من الامتيازات واقتصر عملهم على الأمور اللاهوتية، وحُرِّم عليهم الزواج الذى كانت تتبعه العقائد الوثنية، لأن ممارسة العمل الكنسى والتفرغ له، لا يسمح بممارسة الزواج ويؤدى إلى إضعاف التقوى لديهم فى أداء عملهم اللاهوتى من صلوات وخدمات ربانية. واشتد تعميم هذا التيار فى القرن الثالث الميلادى وأصبح يسرى على كافة وظائف الإكليروس من الأسقف وحتى الخادم البسيط داخل الكنيسة، حتى أنه طُلب من بعض القساوسة المتزوجين الاستغناء عن ذلك، إلا أن ذلك لم يتحقق بصورة كاملة، إلا مع بدايات القرن الحادى والثانى عشر. وكان الهدف من ذلك تحريم الممارسة الجنسية من قبل رجال الكنيسة و منع الزواج من أجل صالح الكنيسة، وأن يكون ذلك مؤديًا لتركيز وتفرغ رجال اللاهوت لأعمال اللاهوت فقط والعمل الربانى وخدمة الله ومجتمعه الكنسى، وكان من جراء ذلك أن شاع نوع من الفوضى بين صفوفهم ودب الفساد وكانت الصورة سلبية بوجه عام، وانسحب هذا التطور على رهبان الأديرة الذين كان عملهم التفرغ الكامل للزهد والتقشف من أجل خدمة الرب اتباع كنيسته والابتعاد عن حياة الرفاهية والمتعة. وهذا يعنى أن المسئولية ألقيت على أصحاب السلطة المدنية والأمراء والقيصر الجديد كارل الخامس وعليهم أن يقوموا بكل ما يملكون بإصلاح الكنيسة. لقد استند مارتن لوتر فى دعواه هذه الإصلاحية سواء ما يمس رجال اللاهوت أو المؤمنين على موضع فى الإنجيل فى الرسالة الأولى للقديس بطرس والتى تقول: "إن كل من يتمتع بتعميد المسيح صار ممن المسيحية". ولهذا أنهى دور الوساطة، التى سادت المسيحية والتى كان يتولاها رجل اللاهوت، بين الله والعباد، وعلى الأمة أن تختار من تراه ليبشر بكلمة الله والسر المقدس، إلا أن ذلك لا يميزه عن الرجل الآخر البسيط سوى نوعية العمل الذى يؤديه والوظيفة التى يتقلدها، وبالتالى لا يوجد فرق بين رجال اللاهوت وبين الفئات المدنية الأخرى، وينسحب ذلك حتى على البابا نفسه، والذى يعتبر وفق هذا التصور مجرد إنسان عادى كغيره من بقية المسيحيين.

ويعتبر كتاب "رسائل إلى نبلاء الأمة المسيحيين الألمان" العمود الفقرى للحركة الإصلاحية، وذلك لما حواه من برامج شاملة بشأن هذه الأمة، وربط الشعور القومى لدى الألمان بأبعادها المختلفة وخاصة الاستغلال المادى من جانب الإيطاليين للشعب الألمانى النبيل، الذى أسند إليه هذه المهمة الربانية، وتحقيق هذه الرسالة لإصلاح الكنيسة، ولهذا كان أثر مضمون هذا الكتاب ونصوصه كبيرًا، لدرجة أن الطبعة البالغة أربعة آلاف نسخة قد نفدت فى خلال أسابيع قليلة من طبعها، واتُخِذت الإجراءات لإنجاز طبعة جديدة.

واعتاد لوتر على تطبيق أسلوبه الفظ والخشن للنيل من رجال اللاهوت ومن تدهور سلوكهم، واضطره ذلك ألا يصمت عن الكلام، كرسالة من الرب أناطها بشخصه، وعليه أن يفتح فمه ليتحدث دون خوف أو مواربة.

ويواصل لوتر الكتابة فى هذا الاتجاه ويجىء مؤلفه عن "السبى البابلى للكنيسة" „von der babylonischen Gefangenschaft der Kirche“ [١]، ويهاجم لوتر فى مؤلفه هذا كنيسة روما وأسرارها السبعة،[٢] وما تضمنته من شعائر مقدسة، فأنكر هذه الأسرار، ولم يعترف إلا بسرين منها وهى: التعميد، والتناول، والتوبة التى شرعها المسيح، وبهذا يكون فَهْم لوتر لسر الكنيسة بأنه الوحى الربانى المقرون بالرحمة والمرتبط بكلمة الرب، والعقيدة الصحيحة. لقد نقد مبدأ التناول الخاص بالعشاء الأخير، والذى يتم ممارسته فى القداس الكاثوليكي، وأنه ليس تكرارًا لتقديم الأضحية، ولقناعته باستحالة التحول الفعلى للخبز والخمر

---

(١) و رد هذا المصطلح فى مواطن عدة من العهد القديم (التوراة) و هو لا يزال حتى يومنا هذا مركز الثقل اللاهوتى داخل الكنيسة، ومن المؤكد أن المسيحية كانت لها وجهة نظرها الخاصة تجاه عقيدة بنى إسرائيل وفهمها. وحدث فى القرن السادس قبل الميلاد أن احتلت مملكتهم من قبل مملكة بابل وتم ترحيل علية القوم من اليهود إلى السجون كسبايا أو للعمل كعبيد، واعتبر اليهود هذا الحدث عقوبة لاهوتية لهم من عند الله. ويقارن لوتر هذا الحدث بما يحدث فى الكنيسة المسيحية التى حلت عليها عقوبة الله و يجعل منها أسيرة لسلطة أجنبية ، وهى الفكرة التى أوّل و فسَّر بها الزحف التركى وخطورته بعد محاصرته للبلدان المسيحية. قارن، Beinteker، 3 a.a.O. Bd ، Die Gefangenschaft der Kirche، dtv، 1983 ، ص ١٧ وما بعدها

(٢) هذه الاسرار هى: المعمودية Taufe، التثبيت Firmung، الاعتراف Beichte، العشاء الربانى Abendmahl، الرسامة Weihe، الزيجة Ehe، المسحة المقدسة letzte Ölung.

إلـــى جسد المسيح. فالخبز والخمــر يبقى خبزًا وخمرًا، وأن تكرار هذه الشعيرة ما هو إلا ارتباط معنوى معجز بجسد المسيح، مثله فى ذلك مثل بقاء الحديد حديدًا حتى ولو كان ساخنًا. لقد كانت توجهات مارتن لوتر نحو هذه الشعيرة امتدادًا لوجهات نظر جون وكليف، أستاذ علوم الأديان بجامعة أكسفورد بإنجلترا فى القرن الرابع عشر الميلادي، والتى ترفض استحالة تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه، وتبعه فى ذلك القس المصلح هولدرايش تسفينجلى، وكثيرًا ما ساور مارتن لوتر الشك فى وجود الخبز والخمر، فنظر إليهما بمنظار رمزى كحل وسط، وذلك لوجود نص فى العهد الجديد وإنجيل متى الإصحاح السادس والعشرين وما بعده، والذى يقول: "وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وباركه وكسر وأعطى التلاميذ وقال: خذوا، كلوا هذا هو جسدي(٢٧) وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلا: اشربوا منها كلكم(٢٨) لأن هذا هو دمى الذى للعهد الجديد الذى يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا (٢٩)".[١] ويكون لوتر بتوجهاته هذه قد حطم كرامة وسيادة طبقة رجال اللاهوت، ولم يعد رجل اللاهوت تحوطه الأبهة والعظمة ومظاهر الجلال الناشئة من معجزاته الباهرة والساحرة، لقد تحطم هذا التصور بعد نيل المرء رحمة الله وغفرانه عبر تكراره للأضحية، والتى تمثل بالنسبة له حصنًا منيعًا ضد الشدائد. ويقر لوتر أن التوبة من الإثم تكمن فى استعداد المرء للندم على ما فعله، وفضلا عن ذلك أن الله يحب أصحاب القلوب المؤمنة، فمنها تنشأ الأعمال الصالحة، لأن غفران الله يناله المرء من خلال الصوم والانخراط فى الأديرة. فرحمة الله وغفرانه من الأمور التى لا تباع ولا تشترى. كان مؤلفه "السبى البابلى للكنيسة" مثار جدل كبير ورفض وإنكار لما جاء به، وخاصة من قبل أساتذة الجامعات مثلما حدث فى جامعات باريس، وإن كان هذا لم يعق المؤيدين له عن إبداء موافقتهم، والمشاركة فى هذا النضال، وعلى رأسهم القس يوهانس بوجنهاجن .Johannes Bugenhagen

(١) قارن: إنجيل متى فى الكتاب المقدس بالعهد القديم و الجديد القاهرة ١٩٧٧ ص ٤٩ ج.
‹‹So heißt es in der Bibel: Nehmet‹ esset‹ das ist mein Leib“ und ‹‹ trinkt alle daraus‹ das ist mein Blut“. Meisner‹ Michael: a.a.O.‹ S.197

١. ٣ الحكم على لوتر بالزندقة

واجتمعت روما لمناقشة قضايا الكفر والزندقة، ويصدر في الخامس عشر من يونيو ١٥٢٠ مرسوم بابوى يتضمن إحدى وأربعين مقولة، تدلل على هرطقة مارتن لوتر، وإحراق كافةِ مؤلفاته، إن لم يرجع عن آرائه هذه في خلال ستين يومًا من صدور هذا المرسوم، وإلا سوف يصدر مرسوم آخر بإلحاده وكفره – وهذا يعنى أن يتم حرق لوتر وإلقائه على كومة من الحطب، كما حدث لأسلافه من قبل- وجاء مندوب البابا الذى يحمل مرسوم تكفير لوتر إلى ألمانيا، النبيل كارل فون ميليتيتس Karl von Miltitz، تشيعه سخرية المواطنين وتهكمهم اللاذع، في الوقت نفسه يُنصح لوتر من أحبائه بكتابة رسالة مهادنة سلمية يكبح بها جماح غضب البابا، تحت عنوان: "عن حرية الإنسان المسيحى "التى ضمنها أن المسيحى هو سيد كل الأشياء، وفى نفس الوقت فإن له مطلق الحرية أن يكون عبدًا وخادمًا للآخرين، انطلاقًا من حرية روحه وذاته، والتى هى منحة السيد المسيح، التى قدمها له وجعل منها من يكون ملكًا ومن يكون قسيسًا أو ما شابه ذلك.

وعلى المسيح أن يمنح رحمته من أجل محبته لمن هم ضعاف فى عقيدتهم وإيمانهم، ألم يتبع المسيح نفسه ومريم وبولس شرائع اليهود؟[1] ولم يقلل من شأنها! رغم عدم احتياجه إليها، وذلك تفاديًا لعدم التصادم بها، ولأن الأعمال الصالحة ليست ضرورية فحسب لنيل درجة الجنة، ولكن تكمن أهميتها بالدرجة الأولى، فى أنها تحفز ضعفاء العقيدة لتثبيت إيمانهم والشد من أزرهم، لأن لوتر ركز توجهه إلى الجانب الروحى الضعيف، والذى على الكنيسة أن تدعمه و تقويه.

---

(١) فى الواقع أن اتباع المسيح لشرائع اليهود لم يكن مهادنة لهم لأن المسيح لم يأت مغيرًا للشريعة اليهودية ولقوانينها وإنما جاء ليخفف من غلو اليهود فى شكلياتهم وعدم اعتقادهم العميق لهذه الأحكام. فالمسيح جاء ليثبت الناموس لا ليغيره، وهو نبى يهودى و بعث فى اليهود، إلا أنهم لم يعترفوا به كعادتهم فى نكران وجحد الأنبياء وقتلهم إياهم ولذلك فإننا نجد قوانين الفقه المسيحى تستمد من العهد القديم الذى هو مضمون التوراة، وأن العهد الجديد الذى يتناول الإنجيل Die Bibel ليس فيه تشريع وإنما هو تعاليم للتطبيق الصحيح للتشريع القديم بالأخلاق الفاضلة وتهذيب النفس. (المؤلف)

هذه الرسالة، التى هى بالنسبة للبابا شائنة وغير مهذبة، لم تصله أو شاء المحيطون به عدم إيصالها إليه. وبدأ الناس فى مدينة لوفن Lauffen فى إحراق كتب ومؤلفات لوتر أمام الملأ، كرد على ما قام به لوتر من إحراقه لمرسوم البابا الخاص بتكفيره وإخراجه من الكنيسة أمام أساتذة وجمهور مدينة فتنبرج على كومة من الحطب، وعمَّ الجزع والهلع بين جموع الشعب، وصدر المرسوم البابوى بحرمان لوتر وخروجه عن طاعة الكنيسة.

يجتمع برلمان الرايخ الألمانى Reichstag بمدينة فورمس Worms لأول مرة تحت رئاسة القيصر الجديد، كارل الخامس Karl V، والذى عقد العزم على حل سريع لهذا الصراع وإنهاء القلاقل التى أُثيرت ضد الكنيسة. وتُوجه الدعوة من قبل القيصر إلى لوتر لسماعه، ورغم أن أحواله الصحية والنفسية لم تكن مرضية، فإنه كان متفائلا ومتيقناً بصدق دعوته، التى هى هبة من الله له ضد الشيطان، وقد منحه إياها الرب، كسلاح يقاوم به الفساد الذى شاع فى أرجاء الكنيسة البابوية.(١)

وفى السابع عشر من أبريل ١٥٢١ يتم إبلاغ لوتر بأوامر القيصر فى المثول أمامه وأمام جمهور الحضور من النبلاء والأمراء والفرسان وكبار رجال الإكليروس فى الرابعة مساء، لسماع التهم الموجهة إليه من روما. ويلبى لوتر دعوة القيصر ويخترق شوارع مدينة فورمس، والتى ضاقت بجماهيرها الوافدة من كـل صوب وحدب، ليروا الراهب الشجاع، الذى تترصد له الذئاب فى كل مكان، أو لرؤية الراهب الهرطوق. إلا أن جماهير المشجعين فاقت كل وصف، موجهين له الصلوات والدعوات ومرددين الشعارات: "أيها الراهب إن كنت سائرًا على طريق الحق ومتيقناً من صحة ما تدعو له، فسر على بركة الله، فهو حسبك، ولن يتخلى عنك".(٢)

---

(١) قارن:

Schreckenbach، a.a.O.، S. 13

(٢) قارن النص فى مصدره الأصلى:

so geh im Gottes ،"Es heißt: bist du rechter Meinung und deiner Sache gewiss Michael ،Meisner(Namen und sei nur getröst Gott wird dich nicht verlassen."

a.a.O (ص ٧٦ وما بعدها

ويتلقى لوتر الأمر القيصرى بألا يتكلم، إلا حينما يسأل أو يطلب منه الكلام[1]، يلى ذلك تلاوة تقرير مندوب البابا ألياندر، الذى يصف فيه مارتن لوتر بأبشع الألقاب، حتى أن القيصر نفسه كان يخشى على نفسه من أن يؤثر عليه هذا الراهب بهرطقته. وتبدأ المحاكمة باللغة اللاتينية ثم بالألمانية على يد رسول القيصر، يوهانس فون إيك، موجهًا إليه الاتهام: "الإقرار بأن الكتب المرصوصة على المائدة من تأليفه، وإقراره بذلك، ثم إقراره بإنكار ما جاء فيها ودحضها." ويتروى مارتن لوتر فى الرد على هذا الاتهام، ويطلب فى أدب جمٍّ إعطاءه مهلة من الوقت للتفكير، وحتى لا يرتكب إثمًا أو ذنبًا تجاه فحوى الكتاب المقدس. ويوافق القيصر على منحه هذه المهلة، ليتقدم بالرد فى اليوم التالي، ويخرج لوتر من قاعة برلمان الرايخ تصحبه دعوات جماهير الشعب الألمانى بالنصر، والهزيمة لكل أعدائه. ويحل اليوم التالي، وهو الثامن عشر من أبريل ١٥٢١، ليقف مارتن لوتر، الراهب الزاهد بمعطفه البالي، وهو فى السابعة والثلاثين من العمر، أمام القيصر وكافة قيادات الرايخ، تملأ روحه الطمأنينة والشجاعة، محدثًا نفسه أنه لن ينكر حرفًا واحدًا مما كتبه طالمًا أن ذلك موافق لما أملاه عليه ضميره، وأنه غير مخالف لما جاءت به نصوص الكتاب المقدس، وأن المسيح سنده ودعامته فى ذلك. وفى صوت هادئ خفيض ورزين تصحبه قوة قناعة الإحساس بالموقف يبدأ لوتر دفاعه بلغة جديدة، ترن أصداؤها فى أركان قاعة برلمان الرايخ، لغة لم يُسمع مثلها من قبل، مناشدًا القيصر وقيادات الرايخ الحضور، بأن كل ما كان يقوم به من تعليمـــات لجمهور المؤمنين لم تكن سوى تمهيد وتعظيم للرب وتمجيد للحق، وأنه لا يمكن أن يخالف ضميره وينكرها ويدحضها طالبًا فى النهاية عون الرب ومساعدته فيما انتهى إليه.[2]

---

(١) قارن: الأصل الألمانى، المرجع السابق ص ١٣ وما بعدها.

„ Du hast nur zu reden‹ wenn du nur gefragt wirst.“

(٢) قارن: المرجع السابق ص ٧٩ وما بعدها.

So heißt der Schlußsatz seiner Verteidigung „Wenn also Euer … Majestät und Eure Fürstlichkeiten eine einfache Antwort forden‹ will ich sie … folgendermaßen geben: Wenn ich nicht überwunden werde durch die Zeugnisse der Schrift oder durch evidente Vernunftsgründe‹ bin ich durch die von mir angezogenen

وينتهى لوتر من خطبته أمام أعضاء البرلمان التى ألقاها فى اقتناع تام فى بادئ الأمر بالألمانية، ثم باللاتينية، بناء على رغبة القيصر، الذى لم يكن يفهم الألمانية، ولم يتراجع عما جاء بمؤلفاته ضد البابا وكنيسته، بل أصر على أن المجامع الكنسية والبابا نفسه معرضون للوقوع فى الخطأ، وليس لديهم العصمة التى يدَّعونها، ورغم صعوبة وجود دلائل مضادة تنقض ما يقول به لوتر من نصوص بالكتاب المقدس، فإن خطبة لوتر أمام البرلمان تركت انطباعًا مبهرًا على جموع الحاضرين من الألمان، باستثناء الملوك والأمراء وبعض عِلْية القوم، الذين ناشدوا القيصر الحكم على لوتر بالكفر والعصيان فيما انتهى إليه. وصدر ما يسمى بمرسوم فورمس، الذى عبر عن مروق لوتر وأتباعه عن العقيدة المسيحية، والأمر بمواصلة إحراق كتبه ومؤلفاته، وفرض نوع من الرقابة على مثل هذه الأوراق، لضرب توجهات الكفر والزندقة فى الصميم.

كان من الصعب على لوتر إثر ذلك أن يعود إلى بلده، فيتنبرج بطريق علنى. ويدبر له الأمير فريدريش الحكيم، أمير المقاطعة خطة لتهريبه من الأعداء ومن الخطر المحدق به بعد إصراره وانتصاره فى جلسة البرلمان. ويجهز له وسائل تخفى شخصه، مسبغًا عليه مسمى النبيل جورج Der Junker Gerorg، ويغير من ملامحه وزيِّه، وينقله إلى مكان سرى عرف فيما بعد بقلعة الفارتبورج Wartburg، والتى قضى بداخلها فترة تبلغ عشرة أشهر، أنجز فيها أعمالاً تراثية زاخرة، رغم شعوره المتزايد بالوحدة والعزلة والكآبة، التى كانت كثيرًا ما تنتابه، ورغم الرقابة الصارمة والمنفى الذى فرض على لوتر، فإنه واصل التأليف والكتابة داخل منفاه، وركز همَّه فى هذه الفترة على المؤلفات اللاهوتية المتعلقة

Schriftstellen besiegt und das Gewissen ist im Wort Gottes gefangen‹ und ich kann und will nicht irgendwas widerrufen‹ weil es weder gefahrlos noch heilsam ist‹ gegen das Gewissen zu handeln. Ich kann nicht anders‹ hier stehe ich‹ Gott helfe mir. Amen."

قارن النص الكامل للخطاب: Bornkamm، Karin/ Ebling، Gerhard (Hersg.): Martin Luther- Ausgewählte Schriften، Bd I، Aufbruch der Reformation، Frankfurt M. 1982، ص ٢٦٥ وما بعدها.

ألقيت هذه الخطبة فى الثامن عشر من أبريل عام ١٥٢١ بمقر برلمان الرايخ بمدينة فورمس.

ببناء الكنيسة والبابوية، والتى اتسم أسلوبها بالتهكم والسخرية اللاذعة والهجوم الضاري، والذى كان يبغى من ورائه إنماء سخرية الشعب وازدياد ازدرائه للكنيسة البابوية وإنكار أى دور لها، حتى أنه وصف البابا بأنه عدو المسيح الأول، ويصعب على المرء في هذا الزمان القول بمثل هذه التعبيرات، والتى شاعت آنذاك منذ العصور الوسطى. لقد نبعت توجهات لوتر من منظور الشعائر السائدة فى تلك الفترة بسرد وإحصاء الخطايا والاعتراف بها مقابل التوبة.

ولم يعد يبقى أمام لوتر إلا سران من أسرار الكنيسة المقدسة ألا وهما: التعميـــد، والتناول، أمــــا مــــاعدا ذلك فقد أعد له لوتر عدته فى مشروعه الكبير، ألا وهو ترجمة الإنجيل. فحتى هذا التاريخ اعتادت الكنيسة أن تقدم نصوص الكتاب المقدس للمؤمنين باللغة اللاتينية، وهى النسخة التى أُطلق عليها مسمى إنجيل الفولجاتا، والتى كانت نصوصها من الصعوبة بمكان على جمهور الكنيسة من بسطاء المسيحيين.

ويرى لوتر أن النتيجة المنطقية لتعاليمه وأفكاره فى أن يشارك جمهور المسيحيين أعمال اللاهوت بالكنيسة، وأن يقدم للجمهور نصوص الكتاب المقدس فى لغته، ولكى يتمكن هذا جمهور من فهم نصوصه. لقد رأى لوتر استحالة العودة إلى النصوص الأصلية للإنجيل، أى فى لغتها الأصلية، والتى يعنى بها اللغة اليونانية، التى كُتب بها العهد الجديد، واللغة العبرية، التى كُتب بها العهد القديم، وهو كتاب التوراة الخاص باليهودية، ولم يكن لوتر الرائد الأول الذى شرع فى ترجمة الإنجيل، فقد سبقته ترجمات عديدة ولكنها كانت محظورة باستثناء الترجمات الشرعية مثل ترجمة الفولجاتا، وترجمات لاتينية أخرى للإنجيل، تمت ترجمتها عن اليونانية إلى اللاتينية، وكانت نسخها تتكلف علاوة على ذلك تكاليف باهظة جدًا لا يستطيع الشعب البسيط أن يقتنيها.

ويواصل لوتر تعلمه ويدرس اليونانية والعبرية على يد صديقه الشاب ميلانشتون، أثناء إقامته للدراسة بجامعة فيتنبرج، ويغدو هذا الصديق و غيره من الأصدقاء الآخرين عونًا كبيرًا لمساعدة لوتر أثناء ترجمته للإنجيل، وخاصة ما شاع

فى ألمانيا آنذاك من العديد من اللهجات فى اللغة الألمانية، وكان عليه أن يستند فى ترجمته هذه على لهجة و لغة الديوان السكسوني، التى وجد فى مفرداتها ما كان يعينه على أداء هذا العمل الصعب مسبغًا عليه مما تعلمه، بهدف إثراء وتوسعة هذا العمل. وقال قولته المشهورة فى هذا الشأن: "إذا أردنا أن نقدم نص الكتاب المقدس، ويكون مفهومًا من قبل جماهير الشعب، فلزام علينا أن ننظر إلى أفواه الناس لنعرف كيف يتكلمون ويخرجون الكلمات، وخاصة حينما يعبرون بها عن أحاسيسهم ومشاعرهم."(١) ويبذل لوتر فى هذا الشأن جهودًا كبيرة وعسيرة، ليضيف على ترجمته هذا المبدأ، وأن يكون النص سهل الفهم للبسطاء من الناس وقريبًا من النص الأصلى. ويترجم لوتر تصوراته عن الكلمات والمفردات من وجهة نظر ثقافية وتاريخية مبسطة، حتى يحفز القراء من الشعب على التفكير أثناء قراءته، فعلى سبيل المثال لا الحصر، يترجم لوتر موضوعًا من العهد القديم اختاره من الأغنية الشامية للنبى سليمان، وهى أغنية تعبر عن الحب وتنص كلماتها:

"كم هى جميلة وجناتك،

خلف حجاب رأسك"

ويستبدل لوتر بمرادف آخر ألمانى لفظة "وجنات" فيقول:

" أنت تملكين و جنات جميلة

بين خصلات شعرك"(٢)

---

(١) قارن: Landgraf، a.a.O. ، ص ١٩٦، يرى ول ديورانت صاحب قصة الحضارة أن ترجمة لوتر حاولت أن تفسح الطريق للغة الألمانية الجديدة الرفيعة فى مقاطعة سكسونيا العليا، ويفسر منهج لوتر بمقولته المشهورة: "ينبغى ألا نطلب، كما يفعل الحمير (ويعنى بالحمير الباباوات ورجال الكنيسة)، من الحروف اللاتينية أن تعلمنا كيف نتحدث الألمانية." لهذا كان لترجمة لوتر فى ألمانيا نفس الأثر والجلال اللذين حظيت بهما نسخة الملك جيمس المترجمة بعد قرن. كان لترجمة لوتر تأثير حميد لا حد له على لغة الحديث القومية ولا تزال أعظم عمل نثرى فى الأدب القومى. قارن: قصة الحضارة، ج ٣، مجلد ٦، ص٥٤ وما بعدها.

„ Man muß nicht die Buchstaben in der lateinischen Sprache fragen - wie die Esel tun - wie man soll Deutsch reden ..."

(٢) قارن ص ٥، Maess، Thomas: Dem Luther aufs Maul geschaut، Kostproben seiner sprachlichen Kunst. Leipzig، 1981، S. 5

وجاءت ترجماته هذه من منظور تصوره أن الشعب الألمانى قد لا يفهم معنى الحجاب أو غطاء الرأس، والذى ورد فى النص الأصلى للأغنية، و لهذا لم يكن مستغربًا أن أخذ عليه معارضوه، ولاموه بأنه قد حرف بعض مواضع من رسالة القديس بولس إلي أهل رومية، والتى كانت – ترجمته هذه – ذات صلة بقضية الإصلاح ويترجم: "إننا نرى أن الإنسان يمكن أن يُبر، دون الارتباط بالأعمال الصالحات، من خلال الإيمان." ويحرف لوتر هذا الموضع و يضيف عليه كلمة "فقط" أو "دون غيره" وأصبح ... "أن يُبر الإنسان من خلال الإيمان فقط."(١)

لم تكن علوم اللغة فى عصر لوتر قد لحقها تطور كبير، بل عاشت مهد هذا التطور على يديه، وكانت الترجمة تجسد المولود الجديد لهذا التطور آنذاك، لهذا كانت ترجمته ذات أثر عظيم فى كل مكان ولقيت استخدامًا عريضًا، وساعدت على إيجاد معيار قومى لتوحيد اللغة الألمانية، التى سرعان ما وجدت طريقها كلغة للعلوم.

ويروى عن لوتر عزلته وحالات الكآبة التى كانت تنتابه أثناء إقامته الجبرية فى حصن الفارتبورج، كتصوره بأن الجن والشياطين تلاحقه، وتجثم على صدره، وتجعله يعيش فى شك قاتل. ولم يكن ذلك من وجهة نظرنا شكوكًا نفسية مَرَضية مرجعها خوفه الزائد من الأعداء، وإنما كانت كآبتة لشكوك حقيقية تنبعث من تصورات الناس لهذا العصر الوسيط، وما به من خرافات سائدة عن قدرة الجن والشياطين والسحرة والمشعوذين بمس البشر وأجسادهم بالضر. ويتنامى الإحساس لدى لوتر أثناء إقامته فى محبسه بالقلعة أن الشيطان يطارده، ويقف له بالمرصاد بحكم اختياره الربانى لقضية الإصلاح، وكان كثيرًا ما يتهيأ له ظهوره أمامه أثناء عكوفه على الكتابة والتأليف، وأنه اضطر ذات مرة أن يلقى بقنينة الحبر أو بالمصباح الذى ينير له الغرفة فى وجهه.(٢)

---

(١) قارن النص الأصلى:
"so halten wir es nun، dass der Mensch geredet werde، ohne des Gesetzes Werke durch den Glauben..." Luthers Übersetzung "allein durch den Glauben" (Arndt، a.a.O.، S. 104)

(٢) قارن النص فى مصدره الأصلى:

وكثيــرًا مــا يُطرح السؤال عن أهمية أبحاث لوتر والتركيز عليها، رغم ما شاع من فساد وانحــلال الجانب اللاهوتى الذى حصر لــوتر نفسه فى إطاره ولم يتجاوزه، وكان على النقيض من ذلك ما حدث من صديقه ميلانشتون وغيره من زعماء الإصلاح، والإجابة على السؤال الذى يطرح نفسه، بأن أفكار لوتر تضمنت فكر العصر القديم والحديث كخليط متوافق ومتناسق، هى إجابة قد تكون مستندة إلى توجهاته الاجتماعية، وخاصة أنه عاش طفولة صعبة فى بلدة صغيرة يحترف أهلها التعدين واستخراج المعادن من باطن الأرض، مدينة مليئة بالأخاديد والأودية وهُوَّات الجبال التى يأوى إليها ويقطنها العديد من الجن والشياطين، وفقًا لاعتقاد هذا العصر. وهذا يعنى أنها كانت بيئة خصبة لكثير من الاعتقادات الخرافية، علاوة على ذلك أنه كان راهبًا، وعاش يصارع هذه الثقافات السائدة طوال إقامته داخل الدير، حتى أنه قيل بسيطرة الوهم عليه ومس الشيطان والسحرة، الأمر الذى كانت تستحسنه الكنيسة الكاثوليكية فى القرن الخامس عشر، وهو الأمر الذى كان يمثل جزءًا من المعتقدات آنذاك.

لقد اتسع نطاق الحركة الإصلاحية وانتشرت بسرعة رغم صدور مرسوم فورمس ضد لوتر و تعاليمه، ويرجع تفسير ذلك إلى ضعف شخصية القيصر كارل الخامس فى ألمانيا، والذى كثيرًا ما تورط فى حروب لا طائل من ورائها، و لعدم تواجده الدائم داخل ألمانيا، علاوة على انضمام عدد غير قليل من النبلاء والأمراء الألمان إلى جانب لوتر وحركته. وكثيرًا ما أُجِّل تنفيذ بنود مرسوم فورمس من خلال جلسات برلمان الرايخ المتتالية، وذلك لتراخى القيصر وتردد أجهزته فى البحث عن لوتر، أو الإمساك به، أو اتخاذ الإجراءات لإيقاف حركته، وحمل لواء ذلك القساوسة والرهبان المؤيدون للحركة وغيرهم من العلماء المتحمسين للعودة إلى الإنجيل ورسائل لوتر الجديدة، التى كان يتلقاها الناس فى صورة منشورات.

كان جنوب ألمانيا وفتنبرج ومجاوراتها مركزًا مهما للحركة، والتى عمل أولئك المتحمسون على نشرها، فى الوقت الذى كان لوتر حبيس قلعة فارتبورج،

"Wirklich heiβt es: Luther verfällt in Grübelein. Zweifeln Packen Ihn, ob er Gott auch richtig verstanden, ob er nicht vielleicht Unfrieden in die Christenheit gesät habe. Hat Gott ihn zur Strafa in die Einsamkeit verbannt." (Landgraf, a.a. O. ص ١٩٠ وما بعدها).

بل والعمل على تطبيقها فى الواقع العملى، وسعد لوتر كثيرًا بذلك وهو فى مخبئه، لأن الحركة أيقظت الأمة الألمانية بأكملها وعمَّ الاضطراب فى أرجائها، بل وقامت حركات التمرد فى أماكن كثيرة، قام بها الكثير من الأمراء والفرسان والفلاحين وكافة الطبقات الدنيا من الشعب الألماني، الذين يقطنون المدن الصغرى والقرى.

١ . ٤ لوتر والبابا وثورة الفلاحين

لم يكن لوتر يرغب فى قيام مثل هذه الثورات، بل ركز جهوده على تأثير الكلمة وقوتها، وعارض هذه الثورات فى كل مكان من خلال كتابة المنشورات، وشجب أعمال التخريب التى تستهدف الكنائس واعتبرها من عمل الشيطان، وأن على السلطة المدنية، التى أُطلق عليها أولو الأمر، مواجهة مثل هذه الثورات والتمرد، مفوَّضين فى ذلك من قبل الله، واستخدام تأثيرها على إخماد هذه الثورة، وعمت الفوضى والقلاقل فى أحياء وشوارع فيتنبرج، التى افتقدت الانضباط بين الجماهير، ويتزعم هذه القلاقل أحد أتباع لوتر، والذى يدعى كارل شتات فى غيبة لوتر، ويتزوج رغم أنه كان من رجال اللاهوت، متحديا بذلك تعليمات الكنيسة، ويلغى مسائل الاعتراف التى كانت تعقد بين المواطنين والقساوسة، ويصدر التعليمات بخروج الرهبان من الأديرة، وأن يقدموا على الزواج وترك حياة العزوبة، وتتغير مراسيم وطقوس العبادة والصلاة، ويشْرَع الغوغاء فى تحطيم الصور والتماثيل فى الكنائس، وتكونت جماعات أُطلق عليهم، "المريدون المتغنون بحركة الإصلاح"، وقاموا بدور الوعاظ، كما كان يُطلق عليهم "المعمدون لجماهير البسطاء من الشعب"، مؤكدين لهم قرب نهاية العالم، وأن مملكة الله هى المدخل الأول للجنة، وأن الخلاص، أصبح قريبًا ولا مفر من القضاء على الملحدين والكفرة المارقين، الذين انشغلوا بتشريعات العقل والإحساس باعتبارها المحك الأساسى للإنسان، ولم تعد محاسن الإنجيل لديهم بلا نفع أو فائدة. ويواجه لوتر هذا التطرف فى آرائهم هذه المستندة إلى طرد آدم من الجنة وادخارها من قبل الله لطبقة الفلاحين وليس لطبقة اللاهوت، والتركيز على أن كل ما يفيد الإنسان

يخصص للفلاحين وحدهم دون غيرهم، بأن نص الكتاب المقدس جاء بوحى من الله، لهذا كـــانت كلمات الإنجيل هى كلمات الله التى لا يأتيها البـــاطل من قريب أو من بعيد، وهنا يكون العقل ضعيفاً بالقياس إلى الإيمان بوحى من لدن الله، وكان علينا الخيار أن نقبل ما جاء بالإنجيل أو ما يجىء به العقل، ويكون فهم نور عجائب الله التى لا تدرك بأن يفسح العقل الطريق لما جاء بالإنجيل. ويشدد لوتر دفاعه: "إن كل آيات عقيدتنا المسيحية، التى كشف لنا الله عنها فى كلمته هى أمام العقل مستحيلة تمامًا ومنافية للمعقول وزائفة، فإذاً كيف يعتقد ذلك الأحمق الصغير الماكر أن هناك شيئًا يمكن أن يكون أكثر مجافاة للعقل واستحالة من أن المسيح يعطينا جسده لنأكله ودمه لنشربه فى العشاء الأخير؟... أو أن الموتى سوف يبعثون من جديد يوم القيامة!... وأن المسيح ابن الله حملت به مريم العذراء، وولدته ثم غدا رجلا يتعذب، ثم يموت موتا مخجلا على الصليب!... إن العقل هو أكبر عدو للإيمان، إنه أفجر صنائع الشيطان."(١)

وتعم الفوضى و السلب و النهب مدينة فيتنبرج، ويفقد الحاكم السيطرة على الناس، و يقدم لوتر من قلعة الفارتبورج يملؤه التفاؤل، وينجح فى خلال أسبوع من إرجاع الأمان واستتباب الأمن وإيقاف الفوضى من خلال خطبه، وإيقاف الإصلاحيين الجدد عن غلوهم، الذين فهموا حركة الإصلاح فهمًا خاطئًا، بل إنهم أساءوا إليها بسوء فهمهم هذا، لأنهم فرقوا بين ما هو لاهوتى وما هو عملى واقعي، وهذا ما كان مؤلمًا له، لأن أعداءه لم يحدث منهم مثل هذه الأحداث الشائنة، فقد كان الإصلاحيون على يقين بأن الكثيرين من مريديه من بين هؤلاء الفلاحين وبسطاء الناس، ولكن يبدأ خطر ثورة الفلاحين فى التزايد وتتسع الهُوَّة بينهم وبين طبقة الأمراء والنبلاء.

---

(١) قارن: ول ديورانت: قصة الحضارة، ج ٣، مجلد ٦، ص ٥٦ وما بعدها، قارن أيضًا، جاد طه: ألمانيا إلى أين المصير، ص ٢٧ وما بعدها.

ويكتب لوتر فى خضم هذا الصراع رسالة عن الموقف الفكرى الخاطئ لوضع البابا والأساقفة مما زاد فى إشعال النار، وقامت ثورة بين فرسان الرايخ بقيادة أسقف مدينة ترير Trier ضد البابا، رغم أن ثورتهم هذه قد قضى عليها فى حينها، لأنها قد انبعثت من فهم خاطئ لتعاليم لوتر، وهو الأمر الذى حدث فى أماكن أخرى، رغم أن لوتر حاول شرح العلاقة التى تربط جماهير الناس بأولى الأمر فى رسالته التى كتبها عام ١٥٢٣ " عن سلطة أولى الأمر الدنيوية ومدى التزام الإنسان بها:

"Von weltlicher Obrigkeit، wie weit man ihr Gehörsam sein kann"(١)

وكان الجديد فى هذا المؤلف هو القول بعدم شرعية الثورة من جانب الفقراء ضد الأغنياء وفقا للأساليب التى كانت سائدة فى العصور الوسطى السابقة وما شابه ذلك، ولكن فى كيفية التفريق بين ما هو جائز وما هو ملزم تجاه السلطة الدنيوية " المدنية"، وهى السلطة التى ليس للبابا فيها ناقة ولا جمل، و هذا يعنى أنه ليس للكنيسة حق فيما يخص هذه السلطة. هذا الحق هو من اختصاص القيصر وحده ومن معه من أولى الأمر. وفى مقابل ذلك لم يكن لهذه السلطة الدنيوية أية ولاية أو سلطان على مسائل العقيدة. ويحدث أن أحد الأمراء من الكاثوليك أمر رعاياه بأن يسلموا الأناجيل من نسخ لوتر للعهد الجديد، والتوقف عن استخدامها.(٢)

أما ما يخص أميره فريدريك الحكيم حاكم مقاطعة ساكسونيا و نائبه النبيل يوهان فون ساكسن فقد أعجبهما هذا المؤلف وأمرا بإعادة طبعه ونشره. ولهذا لم يكن الفراغ السياسى الذى نشأ من جراء هذه الصراعات مثار خوف للوتر لأنه لم يتوقف عن سخريته التى عرف بها تجاه رجال الكنيسة والذين كان يطلق عليهم من باب التهكم "البابا ويون".

ويقترب زحف السلطان التركي، سليمان القانوني، ويتم فى السادس والعشرين من أغسطس ١٥٤١ فتح عدة مدن ألمانية، وعلى رأسها مدينة لوفن،

---

(١) قارن: Landgraf، a.a.O. ، ص. ٢٢١ .
(٢) قارن المرجع السابق ص ٢٢١ .

وذلك بعد أن أصبحت المجر ولاية عثمانية ومعظم مناطق البلقان. ويكون هذا العدو القادم إلى أوروبا حافزًا للوتر على المزيد من السخرية من البابا وأتباعه، وخاصة حينما أحس بالمخاوف التى بدأت تسرى فى أوصال الألمان. لقد أحس الغرب بخطورة هذا التهديد وهذا الزحف، الذى حاول العالم الغربى بسببه أن يوقف الصراع الدائر بين البابا ومارتن لوتر فى اجتماعات برلمان الرايخ فى مدينة ريجينسبورج ١٥٤١، وفى مدينة شباير ١٥٤٢، لأن الأمر أصبح يهدد وجود عالم الغرب من أساسه، إلا أن مارتن لوتر استغل هذا الموقف ناقدًا وساخرًا، ويقول: "ماذا يمكن لهؤلاء البلهاء أن يفعلوا تجاه العدو التركى"(١)

ويواصل لوتر سخريته من البابا والقيصر وأتباعه بأن التركى مقارنة بهم أتقى وأذكى منهم عشرة أمثال مرة.(٢)

وينضم إلى لوتر أسقف آخر، وهو أسقف مدينة فورتسبورج Würzburg ورئيس كاتدرائيتها فريدرش فيشر Friedrich Fischer ويرد فى سخرية على طلب مساعدة البابا من قبل الكاردينال توماس كاجيتان Thomas Cajetan فى أمر القبض على لوتر وتسليمه وفقًا لمرسوم فورمس، ويقول: "أتريدون صد الأتراك وضربهم؟ لقد أخطأتم حقا فى اسم العدو الحقيقى!، لا تبحثوا عنه فى آسيا، بل عليكم أن تبحثوا عنه فى إيطاليا. ويمكن لكل نبيل أن يدافع عن نفسه ضد هذا الآسيوى، أما العدو الآخر فلا تكفى لمقاومته وصده كل قوى العالم المسيحى، وليس أمامكم أن تقهروا هذا الكلب الجهنمى إلا بتلال من الذهب"(٣)

---

(١) قارن النص الأصلى:

"was soll solchen Narren wider den Türcken gelingen، die Gott zu hoch versachen und lästern"

(٢) قارن النص الأصلى:

"der Türcke sei zehnmal klüger und frommer"

(٣) قارن النص الأصلى:

Aussage des Domherren Friedrich Fischer، Würzburg:
„ Den Türken wollt ihr schlagen? Ihr irrt euch im Namen. Suchet ihn nicht in Asien، sucht ihn in Italien?! Gegen den asiatischen kann jeder Fürst selbst nicht ، den anderen zu bändigen reichen die ganze christliche Welt nicht aus. ihr könnt diesen

بل لقد نعت البابا بأنه كجراب لدودة تعانى سكرات الموت. لهذا حاول البابا بكل السبل الإمساك بلوتر والقبض عليه واعتقاله، وذلك من خلال دفع المال والرشاوى للأمراء والنبلاء لتنفيذ مرسوم فورمس، بل ويحاول دفع مؤيديه من النبلاء لإرغام أمير سكسونيا على تسليمه وتنفيذ مرسوم فورمس. وتندلع حرب الفلاحين فى أغسطس ١٥٢٤ فى ألمانيا لفهمهم الخاطئ رسالة وتعاليم لوتر الواردة فى الإنجيل الجديد، وتطبيق ما جاء فيها عليهم خاصة دون غيرهم، وكان وضعهم صعبًا للغاية لما أصابهم من معاناة شديدة من الضرائب المفروضة عليهم من قبل أسيادهم من النبلاء وأساقفة الكنيسة والأديرة، وانسحبت هذه المعاناة على الكثير من العمال الحرفيين البسطاء فى المدن الصغيرة، والذين عاشوا معاناة الفقر والديون كالعبيد للطبقات العليا، ولم يغفل لوتر عن هذه المساوئ ويكتب عن اقتصاديات المال وعمليات استغلال الطبقات الدنيا من خلاله، ويكتب عن تحريم الربا وتجريمه، ويهاجم بعنف التجار والمؤسسات التجارية، التى تمارسه لخداعهم الذى مارسوه على الفقراء من الفلاحين والحرفيين من تقديم السلع بأسعار مرتفعة وإيقاعهم فى الديون التى يصعب عليهم سدادها، وشجب الطمع والجشع للطبقات المالكة والغنية، التى واصلت استغلالها للمعدمين.

ويواصل لوتر تضامنه مع هذه الطبقة البائسة فى مؤلفه: "عن حرية الإنسان المسيحي"(١) ويجسد هذا الاستغلال لهذه الطبقة من قبل رجال الكنيسة والأشراف، ويحس الفلاحون والحرفيون الفقراء بوقوف لوتر إلى جانبهم، وبجهوده المتواصلة فى دعمهم، والوقوف إلى صفهم، وعلى أن يتم كل ذلك بقدر من التعقل وعدم التجاوز. كان ذلك الموقف مثار جدال طويل فى الأبحاث المتعلقة بموقف لوتر تجاه الفلاحين، وكثيرًا ما يُطرح السؤال "هل كانت توجهات لوتر وكتاباته الإصلاحية هى الحافز والدافع المشجع لثورة الفلاحين ضد أولى الأمر؟" ويقر غالبية الباحثين

Höllenhund nur mit Strömen Goldes besänftigen.“ (Landgraf، Wolfgang : Martin Luther Reformator und Rebell، Berlin 1981 S. 113)

(١) قارن: Beintker، Horst: Martin Luther- Die reformatorischen Grundschriften، Bd IV، Die Freiheit eines Christen، dtv، 1985، ص ٩ وما بعدها.

الإجابة بالإثبات، لأن ذلك كان الأمر الطبيعى فى تسلسل أحداث حركة الإصلاح، ورغم أن لوتر لم يستطع أن يقر ذلك صراحة، فإنه اتخذ موقفًا مضادا من هذه الثورة، مما كان مثار دهشة للكثيرين من موقف لوتر، والذى بدا مستغربًا ومستهجنًا.

ويتزعم ثورة الفلاحين القس توماس مونتسر Thomas Münzer، الذى كان من رواد حركة الإصلاح الجدد المتحمسين وأصحاب المواقف المتشددة ضد الكنيسة الكاثوليكية، وضد الأمراء، ثم أصبح غريمًا وعدوا للوتر، وخاصة بعد تحديده العلاقة بين الرعية وأولى الأمر، ويكتب رسالة مضادة فى ذلك ضد آراء لوتر عام ١٥٢٤ " عن حياة الشرف والفساد الروحى والخواء"، ويثير مشاعر الناس بخطبه ويحثهم على الثورة ضد أولى الأمر. وتسرى الثورة فى كافة أجزاء ألمانيا سريان النار فى الهشيم، و لم يستطع لوتر كبح جماحهم لاقتناعهم بأنهم على حق، ولأنهم يفسرون نصوص الكتاب المقدس بالشكل الذى يرونه، وليعطوا من خلاله الشرعية لثورتهم، ويبدأ الثوار بإشعال النار فى الأديرة ومقر النبلاء والفرسان.

ويشكل الفلاحون اتحادًا لهم و يصدروا بيانًا من اثنى عشر بندًا أوضحوا فيه حقهم الإلهى المشروع لطلباتهم ولشرعية ثورتهم، ويكتب لوتر رسالة مضادة لذلك تحت اسم: "عظات ونصائح للسلام فيما يخص البنود الاثنا عشر فى منطقة شفابن"، محاولا تهدئة الأمور، والإقلال من العنف وأعمال القتل، ويقول بأن على الأمراء التفاوض سلميا مع الفلاحين، وأن على الثوار ألا يقارنوا أنفسهم بالأمراء، و يجىء رد فعلهم على توجهات لوتر ونصائحه هذه: "أن من يرفع السيف عليهم، فلا مفر من رفع السيف عليه بالمِثْل"، تطبيقًا للمثل القائل: "لا يفل الحديد إلا الحديد".

ويجىء رد فعل لوتر الغاضب المتشدد بعد سماعه عن الأعمال الشائنة التى قام بها الفلاحون، ضد الكثيرين من الأبرياء ويطلب من السلطات وأولى الأمر، القضاء على هذه الثورة بقوة، وذلك بعد رسالته: "ضد أعمال القتل والنهب التى

ارتكبها الفلاحون البلهاء والحمقى" Wider die mörderischen und räuberischen Rotten der Bauern، ويلقى ثوار الفلاحين هزيمة منكرة فى ١٥ مايو ١٥٢٥ فى معركة فرانكنهاوس Frankenhaus من جموع جيوش الأمراء، وتنتهى ثورة الفلاحين بهذه الهزيمة المفجعة. ويعقد الأمراء المحاكمات لإعدام الثوار منهم شنقًا، وفقًا لعادات العصر. فيتم شنق مونتسر زعيمهم ورفاقه، وهذا ما دعا لوتر إلى كتابة رسالة أخرى وجهها للأمراء: "الرسالة الصعبة ضد الفلاحين" „Sendbrief vom harten Büchlein wider die Bauern"، مطالبًا الأمراء العفو والرحمة ضد المهزومين، ولعن كل سلوك ظالم.

كانت نتائج حرب الفلاحين خيبة أمل لدى قطاعات عريضة من الشعب الألماني، ومثار كراهية تجاه لوتر، الذى تغير موقفه تجاه البسطاء من الناس من جراء هذه الثورة التى وضعته فى موقف اليائس أمام تحرير الشعب من آلامه المشتعلة، ويقود مرة أخرى حركة مضادة لكبت هذه الطبقة، وشغلها بخدمات السخرة وحتى لا تفكر مرة أخرى فى إثارة القلاقل، و ينأى عن مشاركتهم فى بناء النظام الكنسى الجديد المرتبط بمبادئ حركة الإصلاح، وقصر ذلك على السادة من الأمراء والنبلاء وأولى الأمر، والذين طالبهم ببناء المزيد من المدارس والمؤسسات التعليمية، والذين توقع منهم الكثير من الأعمال والإنجازات، فاقدًا ثقته بأى إنجاز من قبل جماهير الشعب. بهذا تتوارى تعاليم اللاهوت عند كل المؤمنين فى الظل ولم يعد لها الصدارة، ويرجع لوتر السبب فى ذلك أن جماهير الشعب لم تكن ناضجة بالقدر الكافي، ويلزم الأمر تثقيفهم وتربيتهم لكى يمارسوا العقيدة ممارسة صحيحة، ولأن مستواهم الفكرى حاليًا لا يصل إلى فهم واستيعاب نصوص الإنجيل المترجم، ولهذا كان من الخطأ أن تقع هذه النصوص بداية فى أيديهم.(١) و يقود كل ذلك إلى أن يفكر لوتر فى إنشاء نظام للتفتيش. وذلك بقيامه برحلات تفقدية لكثير من الأماكن والمؤسسات لرؤية ما يدور فى داخل هذه الكنائس بنفسه. فكثيرًا ما كان يصطدم بالعديد من المعمدين المتشددين الجدد، وخاصة بعد الهزيمة النكراء التى لقيها

---

(١) قارن: Schrekenbach، S. 25f.

الفلاحون فى حربهم ضد أولى الأمر مما حدا به إلى وصف هؤلاء الفلاحين بالجبروت والخطورة. ويعلل لوتر هذه الخطورة عند الفلاحين بأخذهم بكلمة الله بشيء من الجدية، بتحليل الأحداث وفقًا لما جاء فى موعظة الجبل.(١)

وهذا يعنى أن طاعة كلمة الله هى الحد الفاصل المهم للإنسان، أكثر من طاعته لأولى الأمر. واعتبر لوتر هذا التوجه مشوبًا بالتشدد ولا يقدم أوساط الحلول، أو حلولا بديلة، وينهى خبرته لهذا الصراع المرير بسلام الكلمة، ويعنى كلمة الرب التى كان لها أثر السحر ضد صراعه مع الكنيسة، وهى الآن تبوء أمام عينيه بالفشل. وكان لوتر يود تحت كل الظروف أن يتحاشى انتقاداتهم، ولذلك ناشد أولى الأمر باستخدام القوة ضدهم، بداية من توجيه النصح، وانتهاءً بطردهم من إطار الكنيسة الجديدة. وهنا ينشأ الصراع ضد بعض الطوائف التى خالفت فى اعتقادها الكنيسة الإنجيلية، بكل مالها وما عليها من التزامات. ويرى لوتر فى أبحاثه وزياراته للهيئات الكنسية اختلاط الحابل بالنابل، والهمجية المطلقة التى انتابت الفلاحين، الذين أخذوا على عاتقهم تحقير البابا وحركة الإصلاح حتى أنهم رفضوا رفضًا باتا أن يتعلموا آية البدء فى الصلاة "أبانا الذى فى السماء" "Vater unser im Himmel"(٢). وكانت هذه الصلاة طويلة ومملة بالنسبة لهم، ويرى لوتر أن الوضع العام للاهوت ورجاله يحتاج لنوع جديد من التربية، و يكتب ما ينبغى عمله فى حصص التدريس، وأنهى بحثه بكتابين، هما: "قواعد و تعليم الدين المسيحى الكبير؛ وقواعد وتعليم الدين المسيحى الصغير"، واللذين تضمنا أساسيات دروس الدين المسيحي، كما تضمنت مؤلفاته فى هذا الاتجاه قضايا التعميد، والزواج، وما يتعلق به من عظات من جانب القساوسة، وناشد هؤلاء تعليم الجنسين من الشباب والشابات من

(١) موعظة مشهورة للسيد المسيح ورد ذكرها فى الأناجيل، وتضمنت أساسًا أمورًا تمس الخلق، والسلوك، وعن كيفية سلوك المسيحى سلوكًا طيبًا وخاصة فى مجال المحبة والسلام والعدالة.
راجع الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، إنجيل متى، الإصحاح الخامس، الآية رقم ١ وما بعدها .

(٢) وهى ما تمثل أهم صلاة أداها السيد المسيح وورد ذكرها فى الأناجيل وهى الصلاة التى ناشد فيها المسيحيون منذ الازل: " أبانا الذى فى السماء مقدس اسمه ومملكته وإرادته فى السماء وفى الارض امنحنا خبزنا اليومى واغفر لنا ذنوبنا وديوننا، ولا تقودنا إلى طريق الغواية واجعلنا من المخلصين من الشرور لأن مملكتك وقوتك وبهاءك هى ما ننشده منك. آمين"

نصوص الإنجيل، إلى جانب الإكثار من بناء المدارس، ودعمها من عوائد الأديرة.

• وتتطرق أفكاره لإنشاء مدارس شعبية عامة يختار من بين تلاميذها من يراد تثقيفه اجتماعيا وسياسيا لكى يتحمل المسئولية مستقبلا. علاوة على كل هذا فقد كان لوتر شاعرا بكل ما فى الكلمة من حقيقة، وكان يقرض الكثير من المزامير الكنسية والأغانى الدينية، يستقيها من العهد القديم، ويصيغ منها الأناشيد الكنسية مثل ملحمة الإصلاح المشهورة "إلهنا هو حصننا" ويعرف عن اللوتريين الألمان أنهم من محبى الغناء الكثير، ولا يزالون يتغنون بها حتى يومنا هذا.

١. ٥ زواج لوتر

فى عام ١٥٢٥ يُقبل لوتر على الزواج من الراهبة "كاترينا فون بورا" Katharina von Bora [١]، والتى هربت مع تسعٍ من الراهبات منذ سنوات من الدير، وكان هروبهن ذلك مرجعه للمؤلفات النقدية لحياة الرهبنة فى الأديرة، التى جعلت الرهبان والراهبات يستغنون عن حياة الزهد والرهبنة والعمل الشاق. وبالطبع أحدث لوتر الكثير من الجدل حول زواج أهل اللاهوت من رهبان وقساوسة. وأصر لوتر على رأيه وتصميمه على حرية الناس فى هذا الاتجاه[٢] وتركت قضية زواج الرهبان على الناس أثرها الضخم، ويروى عن مؤرخى سيرة

---

(١) قارن: Kroker، Ernst: Katharina von Bora- Martin Luthers Frau، In: Kloster Nimbschen und Katharinka von Bora – Sachsverlag- Beucha، 1993 ص ٤٢ وما بعدها.

(٢) صاحب خبر زواج لوتر صدمة وانزعاجًا كبيرين فى أوساط معارفه، وشن عليه خصومه حملة شعواء تجاه هذا الحدث، وخاصة بعد وقوع اختياره لراهبة من عائلة نبيلة أحنى عليها الدهر، وأرادت العودة إلى حياة البشر الطبيعية، ويتم الزواج فى الثالث عشر من يونيو فى عام ١٥٢٥ من منظور قداسة الحياة الزوجية، التى هى هبة الله وفرض من فروضه الخلقية كما نص عليها الكتاب المقدس. قارن، Schreckenbach، a.a.O.، ص ٢٧ .

„Wo Luther meint، daß der Ehestand heilig، von Gott gestiftet und gottwohlgefällig sei، und daß der Christ die sittliche Pflicht habe، in diesen Stand heimzutreten"

ويعقب أ. موريسون بأن زواج لوتر هذا أثار ضجة لا تقل عن الضجة التى وقعت يوم تعليق لوتر لحججه الخمس والتسعين على باب كنيسة القصر قبل ذلك بثمان سنوات، ويتهكم لوتر ساخرًا من أعدائه الذين اعترضوا على زواجه فى خطاب أرسله إلى صديقه شبالاتين قائلا: "إننى أعتقد أن زواجى هذا أضحك الملائكة وأبكى الشياطين."

لمزيد من التفاصيل انظر، أ. موريسون ص ١١٣ وما بعدها.

مارتن لوتر أنه كان يتمتع بحياة زوجية سعيدة مع زوجته "كيتي"، والتى كانت تمثل له زوجة اقتصادية، قوية البنيان وموهوبة فى فكرها، حتى أنها كانت أثناء الإقامة فى الدير المجاور فى مدينة فيتنبرج تدير أمور الدير وترشد اقتصادياته، كما كانت تقوم بتأجير الغرف للطلبة، والعمل على رعايتهم وإعالتهم، وكانت مناصرة له مع الفقراء، وأسبغت على لوتر سمة التواضع، وكانت أما رءومًا وأحبت أولادها حبا كبيرًا، رغم ضيق وقتها، وكان بيت لوتر ممتلئًا بالضيوف ليأكلوا، ويستمعوا إليه حول المائدة.(١)

ويعبر لوتر عن حبه لزوجته الذى فاق حبه لنفسه، وكان يتمنى موته قبل موتها:

"إننى أحببت زوجتى كيتى (تصغير للتدليل لاسمها كاتارينا)، وأقر أن هذا الحب قد فاق حبى لنفسى. ولكم تمنيت أن يكون موتى سابقًا لموتها وموت أبنائها". (٢)

---

(١) تم الزواج فى ٢٧ يونيو١٥٢٥ إرضاء لرغبة أبيه وحفاظًا على اسم الأسرة، و يقدم لهم أمير سكسونيا الدير الأوجستينى فى فيتنبرج هدية كدار لسكنهم، ويروى عن لوتر أن هذا الزواج كان موفقا ويقول: "أن أعظم نعمة يمنحها الله للإنسان زوجة تقية رقيقة تخشى الله و تحب البيت." كما يروى عن لوتر أنه كان والدًا مثاليا ومربيًا فاضلا لأطفاله ومؤلفًا لكثير من الأغانى التى كان يغنيها لهم عازفا على العود كما كان يؤوى فى منـزله أحد عشر يتيمًا من أولاد إخوته وقام على حسن تربيتهم وتكون حصيلة ذلك كله تدوين ما يزيد عن ٦٥٩٦ حديث جمعتها زوجته البارة ويضمنها لوتر فى مؤلفه أحاديث حول المائدة.

(٢) قارن النص الأصلى:

„Ich habe meine Käthe lieb und ich weiß، daß ich sie lieber habe als mich، d.h.: ich wollte lieber sterben، als daß sie mit den Kindern sterben müßte.“ (Meisner Michael، a.a.O.، S. 183)



Martin Luther and Frau Katharina

وفى مواقف أخرى يعبر فيها عن حبه الجم لزوجته:

"إنه يفوق جميع رجال الإكليروس سعادة وغنى، ويكفينى أن الله رزقنى بستة أطفال شرعيين، وهذا ما لم ينعم به على أحد من رجال اللاهوت." ويقول أيضًا: "أنت يا زوجتى ملكتي، ولا يسعنى إلا أن أشكر الله على ذلك لأن عناية الله فاقت كل المقاييس فى منحى زواجًا سعيدًا، وزوجة مخلصة، تملك قلب رجل يعتمد عليه. ثم يقول: " يا إلهى ليس الزواج لمطلب جسدى طبيعى فحسب، بل إنه هبة من الرب تحوطه حياة العفة، والتى تفوق حياة الرهبنة."(١)

وكان لوتر يحب الطعام الجيد و شرب الجِعة والنبيذ، إلا أنه كان لا يحب المغالاة، وكان ينادى بالوسطية والاعتدال، وهى من الأمور التى كانت تبعث فى روحه الفرح والسرور ويروى عنه قوله: إن الرقص لكلا الجنسين رجالا ونساء من الأمور المستجدة، ولم يشأ لوتر أن يمنع هذا التوجه، إلا أنه نصح وناشد الرجال أن يلتزموا الوقار وعدم الابتذال تجاه النساء، وتشجيعهم على التعرف سويا مما يكون مؤداه الزواج فيما بعد، ولا مانع من أن يُدعى المرء لمثل هذه الحفلات،

---

(١) قارن: المرجع السابق ص ١٨٤ .

وليحدث كل هذا فى إطار الحدود الرشيدة. وكانت حياته داخل المنزل قدوة مثلى لقسيس إنجيلي، وهذا يعنى أنها صورة مثلى للقساوسة الإنجيليين فيما بعد. وتبدأ أعداد القساوسة غير المتزوجين تقل وتنحسر، وتختفى علاقاتهم غير الشرعية مع الخادمات والطاهيات وغيرهن، وهى من الأمور التى كانت سائدة بشكل مستشر فيما سبق.

لقد وصل الفساد وظلم الإنسان لنفسه أن تتبنى الكنيسة الإنجيلية مثل هذه الإباحية التى يمارسها فى أيامنا هذه رجال الدين أمام الملأ، ويظهرون فى التلفاز فى أوضاع شاذة، لا تحدث إلا فى المواخير وأماكن اللهو والمجون. إن احتفال إحدى الكنائس الإنجليزية الكبرى بإباحة اللواط واقتران النساء بالنساء، إنما يمثل بداية لفوضى عارمة وثورة على الخالق الذى خلقنا أزواجًا نساءً ورجالاً، لنتكاثر ونلد ذرية، يباركها بفضله وكرمه.

وتعليقنا على هذا أن مثل هذا التيار الجارف سيجرف معه كل الشرائع والمقدسات، ويفتح الباب مرة أخرى أمام كل الرذائل والموبقات، ويتناسى هؤلاء أن الله هو الذى خلق فينا حرية الاختيار، وأودع فينا الميل الطبيعى إلى المرأة، وحب الذرية، ودفء العائلة، وحنان الأمومة والأبوة، وأن الشذوذ الذى يمارسونه، ما هو إلا صناعة من صنائع الشيطان، بل وأين هذا كله من الوسطية والاعتدال، التى نادى بها المصلح العظيم مارتن لوتر، الذى أراد من القساوسة أن يكونوا القدوة الحسنة لغيرهم من جماهير المواطنين.

وتمتد الصراعات بعد ذلك داخل المعسكر الكنسي، ليس فقط مع المتشددين والمتحمسين الإنجيليين، بل يشمل أيضا رواد الإنسانيات، والذين كانوا يمثلون فيما سبق، الحليف ضد كنيسة البابا. وتحدث المواجهة بين الملك هاينرش الثامن Heinrich VIII ملك إنجلترا فى صراع فكرى مع لوتر. ويفوض الملك المصلح إيرازموس فون روتردام فى تأليف كتاب ضد توجهات لوتر فى مقابل منحه المال اللازم لذلك. ويلبى الصديق القديم رغبة الملك، ويتقدم بآراء مضادة لحركة الإصلاح، وخاصة ما تمخض عنها من تمرد جماهير الفلاحين البسطاء. ويؤلف كتابه "عن حرية

الإرادة" "über den Freiwillen"، والذى تضمن أن أعمال الناس هى الضرورة لنيل الجنة، وهى الطريقة التى نقضها لوتر بكتاب مضاد تحت عنوان "عن الإرادة غير الحرة" "über den Unfreienwillen"، والذى تضمن أن رحمة الله هى الطريق الوحيد لخلاص الإنسان ودخوله الجنة، ويعتبر المؤرخون لحركة الإصلاح، أن هذين الاتجاهين بين لوتر وإيرازموس من الأسباب التى خلقت شرخًا بين كلا المفكرين، وكانت نتيجة هذا الصراع أن كثيرًا من مريدى الإنسانيات والمحبين للوتر تراجعوا عنه وعادوا لمعتقدهم القديم.[١]

وتظهر حركة إصلاح أخرى فى سويسرا، تحت زعامة القس "تسفنجلى" Zwingli المتأثر بآراء إيرازموس، التى نادت بمبدأ العقلانية كقيمة مركزية فيما يخص توجهات العقيدة، وهو ما كان يخالف أيضًا ما قال به لوتر، من أن العقيدة ما هى إلا خليط من التصوف والعقلانية، لأن فى بعض اللحظات تتحكم المشاعر والأحاسيس وما شابهها، فى الوقت الذى لا تصلح فيه العقيدة لهذا. ويقود لوتر صراعات مضنية مع آراء "تسفنجلى" وخاصة فى قضية التناول، والعشاء الرباني، رغم أن معظم أتباع تسفنجلى رأوا أن هذا الأمر ما هو إلا هراء. فتسفنجلى يرى أن التناول إجراء رمزى، ولوتر يتمسك حرفيا بكلمة المسيح التى وردت بالإنجيل "هذا هو جسدي"[٢]، "das ist mein Leib" بمعنى أن لوتر أراد وجود المسيح فى الخبز، من منظور هذا النص الإنجيلى. ويدور بينهما الجدل والحوار الدينى فى خريف عام ١٥٢٩ فى مدينة ماربورج Marburg، بعد هيمنة الضغوط السياسية، بداية على مارتن لوتر، ونهاية فى توحيد توجهات البروتستانت، والتى انتهت بخصومة شديدة بين كلا المتجادلَيْن.[٣]

---

(١) قارن: Schreckenbach، ص ٣١.
(٢) قارن: Schreckenbach، ص ٣١.
(٣) يتقابل الفريقان المتجادلان وفقا لما ورد فى قصة الحضارة لول ديورانت ج٣ مجلد ٦ ص ١٢٥، فى ٢٩ سبتمبر ١٥٢٩، ويتنازل تسفنجلى فى هذا اللقاء بسخاء عن بعض أوجه الاختلاف لمارتن لوتر، وخاصة فيما ساوره من شك فى ألوهية المسيح، كما قبل تسفنجلى العقيدة النيقاوية، والمذهب القائل بالخطيئة الأصلية، ولكنه لم يتراجع عن رأيه فى مسألة القربان المقدس باعتباره رمزًا وذكرى، أكثر منه معجزة.

ويريد الأمراء الإنجيليون عقد تحالف مضاد للقيصر من منطلق أن هذا القيصر والمتحالفين معه من الأمراء والأساقفة الكاثوليكيين، لا يزالون يلوحون بتنفيذ مرسوم فورمس واعتقال لوتر وتسليمه لروما، وخاصة بعد انتصار القيصر على ملك فرنسا، هذا الانتصار الذى فتح له الطريق لتهديد البروتستانت الألمان وزحفه إليهم. ويجتمع برلمان الرايخ فى عام ١٥٢٩ ليؤكد من جديد العمل على تنفيذ مرسوم فورمس، ويُواجه القيصر بذلك اعتراض الأمراء الإنجيليين فى عدم تنفيذ ذلك، وكان الأمراء الإنجيليون يمثلون نصف الأمراء الألمان، ويتمسك الأمراء الإنجيليون برأيهم، مما أدى إلى أن أطلق الناس على توجهاتهم هذه لقب "البروتستانت"، أو الامراء المحتجون على مرسوم البابا. وكان المتوقع بعد هذا الرفض نشوب حرب بينهم وبين القيصر، إلا أن كلا الطرفين وجد نفسه فى مواجهة خطر الأتراك المحاصرين لفيينا، ولم يكن أمام القيصر إلا الاستسلام، والخضوع ودعم المعسكر الإنجيلى والوقوف معه ضد الخطر التركى.[١] وهنا يضطر القيصر أن يخضع خضوعًا تاما لتوجهات البروتستانت، الأمر الذى انتهى بعقد صلح نورنبرج Nürenberg فى يوليو ١٥٣٠.

وفى عام ١٥٢٨ يؤلف لوتر كتابًا عن "الحرب ضد الأتراك" Vom Kriege wider die Türken، وفى ١٥٢٩ يتبعه كتاب "عظات للجيش الألمانى ضد الأتراك" Heerpredigt wider die Türken. ويرفع لوتر لواء الكفاح من قبل المسيحيين بقوله: "إنه قد وجبت الطاعة على المسيحى نحو ولى الأمر فى أن يحمل السلاح فى يده لينخرط فى صفوف جيش المحاربين ضد الأتراك" لأن لوتر كان يرى أن سلطة ولى الأمر نابعة من سلطة الله، وليست من المواطن الفردى.[٢]

---

(١) قارن: المرجع السابق ص ٣٣.

(٢) قارن:النص فى مصدره الأصلى:

wörtlich heißt es : „Luther erscheint als Helfer und Bundesgenosse.. er redet mit aller Kraft seiner Beredsamkeit den Deutschen ins Gewissen um Kampf gegen die große Gefahr، die damals die Christenheit bedrohte. Hier vertritt sogar die Meinung ، dass das Christentum seine Anhänger nicht von der Pflicht entbinde، feindliche Angriffe mit der Waffe zu bestehen ... und der Obrigkeit zu gehörchen ، wenn sie ihn zum Kriegesführen aufrufe“ (Schreckenbach، ص ٣٦)

ويسعى البابا فى اجتماع الرايخ فى أوجسبورج للتفاوض مع البروتستانت، الذين استولوا على الكثير من ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية فى الإمارات التى كانت من نصيبها، وتنتهى المفاوضات بلا نتيجة، إلا أن القيصر يمنحهم فرصة أخرى للتفكير والتروى، وإعادة النظر فى رد الأملاك الكنسية للأديرة وإعادة صيانتها وبنائها. وتكون استجابة أمراء البروتستانت على هذا المطلب بتحالف عسكرى سُمِّى بتحالف مدينة شمالكالدين "Das Schmalkaldenbund"، والذى وضع البابا فى موقف يصعب الرد عليهم فيه بطريقة عسكرية، لأنه كان يقع تحت ضغط الفرنسيين من جانب والأتراك من جانب آخر، وكان عليه أن يتقبل الوضع كما هو فى ألمانيا، ويوقع انطلاقًا من هذه الضغوط مع الأمراء البروتستانتيين فى يوليو ١٥٣٠ ما سمى "بصلح السلام الدينى" فى نورنبرج - كما ذكرنا، وحتى ينعقد المجمع الدينى الثانى، والذى يطلب فيه الأمراء البروتستانت توضيح الفروق الدينية بين الكنيستين، وأن على كل الفئات الحفاظ على السلام فيما بينها، وألا يحاول طرف منها مهاجمة طرف آخر فى شئون العقيدة. ويتمكن هذا المجمع المسكونى من التوصل الى تحقيق هذه التوجهات، التى كان من شأنها اتساع حركة الإصلاح، ويستمر رغم ذلك موقف الكنيسة السياسى واللاهوتى الغامض أكثر من قرابة عقدين من الزمان حتى ١٥٥٥، وهو العام الذى تم فيه عقد صلح مدينة أوجسبورج للسلام الدينى[١]، وهو الصلح الذى بارك الانقسام المذهبى لألمانيا، واستقلالية المناطق التى يشيع بها كلا المذهبين فى المقاطعات المختلفة، وإن كان هذا لم يمنع من انبعاث أمور جديدة لصراع خفى جديد، نشأ من توجهات إصلاح مضادة من جانب الكنيسة الكاثوليكية، والذى تمخض عن نشوب حرب الثلاثين ١٦١٨-١٦٤٨، والتى انتهت بصلح السلام الفيستفالى Westfalen.

(١) مزيد من تفصيلات هذا الاتفاق انظر، جاد طه: ألمانيا إلى أين المصير، وخاصة إقرار ما تم الاتفاق عليه فى مجلس مدينة شباير عام ١٥٢٦ وتحديد مصير أملاك الكنيسة الكاثوليكية التى آلت إلى المناطق البروتستانتية، ص ٣٥ وما بعدها.

لقد تمثل حزن لوتر فى أن انتشار حركته الإصلاحية وتعاليمه، لم يصاحبها تحسن فى السلوك الخلقى، ومراعاة الآداب العامة، وكثيرًا ما كان يتحسر على ما يشاهده من سلوك مشين لطلاب جامعته فيتنبرج، الذين كانوا يعيشون حياة عابثة ماجنة، يبالغون فى الشراب وإحداث الكثير من الصخب والشغب، ولم ترق له تصرفاتهم، ولا ملابس النساء التى بدت فى تصميمها فى التركيز على إبراز مفاتن الجسد، وتدعو إلى الغواية والشهوة، وقد أدى هذا كله إلى انخداع لوتر فى سلوك الناس، وعلت وجهه الكآبة لتصرفاتهم الشائنة، حتى أنه كان يرى فى كل هذه الأفعال السيئة أن يوم القيامة قريب، وأنه قادم لا محالة بعد أن يئس نهائيا من تحسن العالم من حوله، العالم الذى بدا عاريًا أمامه من كل بداية ونهاية فى كل زواياه، ومن بداياته الى نهاياته.[1] ويسقط البابا ويشتد الصراع فى حركة الإصلاح حتى مع مريديه وأصدقائه، ويعاود لوتر المرض عام ١٥٣٧، وتغلب على كتاباته التى ألفها فى هذه السنوات الأخيرة الغلظة والسخرية، وتموت ابنته العزيزة، لينشن Lenchen فى الثالثة عشر من عمرها عام ١٥٤٢، ويلحق بها وهو فى أشد حالات الحزن عام ١٥٤٦ بمدينة أيسليبن، بمقاطعة مانسفيلد Mansfeld، فى المنزل الذى ولد فيه عن عمر يناهز ٦٣ عامًا.[2]

---

(١) قارن: المرجع السابق ص ٣٨ .

(٢) تم استدعاء لوتر فى بداية يناير ١٥٤٦ من قبل أميرى مانسفيلد للحضور والتوسط بينهما فى حل نزاع دائر على قضايا الإرث، وفجأة يهاجمه المرض العضال ليلقى وجه ربه فى الثامن عشر من فبراير ١٥٤٦، ويتم نقل جثمانه بعد يومين من وفاته إلى مدينة فيتنبرج، ويدفن بكنيسة القصر، ويتم دفنه فى احتفال مهيب، ويلقى كلمة التأبين على قبره الصديقان، بوبنهاجن وميلانشتون. مزيد من التفصيلات قارن، المرجع السابق ص ٤١.

Schreckenbach schließt sein Werk ab :

‹‹er hat das Christentum gerettet‹ das in höchster Gefahr stand‹ von Heidentum des Humanismus völlig durchsetzt zu werden und in ihm unterzugehen‹ als die Leiter der Kirche in heidnische Welt- und Sinnenfreudigkeit‹ die von ihnen geleitete Masse des Volkes in dumpfen Aberglauben versunken waren.“

١ . ٦ قطوف من الأقوال المأثورة لمارتن لوتر

شغلت المأثورات والتعبيرات المسكوكة حيزًا كبيرًا فى معظم أعمال ومؤلفات لوتر، وبها يرجع الفضل فى اتجاهى نحو دراسة اللغة الألمانية مع بداية ستينيات القرن العشرين واستشهدت ببعض منها فى أول بحث لى كتبته بالألمانية عام ١٩٦٤ كبرهان وحجة للأثر الفائق الذى تركه فى نفسي، علاوة على قوة وسرعة انتشار فكره – حين علق مارتن لوتر حججه الخمس والتسعين على مدخل كنيسة القصر بمدينة فيتنبرج – فى داخل وخارج ألمانيا، الأمر الذى أشرت إليه فى مقدمة الكتاب، ولا ضير أن أذكر اثنين منها مرة أخرى:

- " إننى أقف هنا و لا أستطيع أن أفعل شيئًا آخر غير الذى فعلته، وليعيننى الرب على ذلك"
- "لو علمت أن العالم سينتهى غدًا، فسوف أستمر فى زراعة شجرة التفاح"(١)

ذلك لأنهما مثلا بالنسبة لى ركيزة مهمة استطعت من خلالها الاقتراب من فهم فكر هذا الراهب وتقديمه للدارسين بالجامعات من أبناء العربية من هذا المنظور.(٢)

---

(١) قارن:

Muhammad Abu-Hattab Khaled : Betrachtungen über das deutsche Wesen im Wandel der Jahre، Zulassungsarbeit eingereicht beim Goethe Institut –München zum Erwerb des Sprachlehrers-Diploms، München 1964، S. 12

(٢) قارن أيضًا، محمد أبوحطب خالد: قطوف من الأدب الألمانى، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٨ وما بعدها.

قارن أيضًا، محمد أبوحطب خالد: الذات الألمانية على مر العصور- تأملات عربى متخصص فى علم الجرمانيات - إشراقة، دورية تصدرها الإدارة العامة للبحوث الثقافية، قطاع الشئون الثقافية و البعثات – وزارة التعليم العالي، جمهورية مصر العربية، العدد ٢٦، يونيو ٢٠٠٢، ص ٢٤ وما بعدها.

نقدم للقارئ مختارات قليلة من هذا الفيض فى ثوب عربى ومصحوب بنصه الألمانى والتى عبر فيها المصلح الثائر مارتن لوتر عن توجهاته ومواقفه ومواجهاته لأحداث حركة الإصلاح وكذلك مواقف الآخرين منها سواء المؤيدين أو المناهضين، وقصدنا بها أن يعيش القارئ فكر هذا المصلح وأن يستشعر مواهبه وقدراته اللغوية: (١)

- الخطاب والكلمة هما أعظم إنجاز للإنسان، وهما فى نفس الوقت العمل الذى يرقى به، لأن الجسد والروح شريكان فى صنعهما.

- „Die Rede‹ das Wort – das ist also das höchste Werk des Menschen und zugleich die Arbeit‹ die ihn am stärksten fordert: „Leib und Seele arbeiten daran.“(٢)

- من الصعب أن تجابه كل الأساقفة والأمراء، ولكن ليس هناك ثمة طريق آخر يجنبنا غضب الرب والذهاب إلى الجحيم.

- „Es ist schwer‹ zu allen Bischfen und Fürsten in Widerspruch zu stehen. Aber es gibt keinen anderen Weg‹ um der Hlle und dem göttlichen Zorn zu entrinnen.“(٣)

- إنه من عبث القول وجود عالم اللاهوت بدون أرسطو، بل العكس تمامًا، وهو أن يصبح المرء عالمًا للاهوت دون أدنى حاجة إلى أرسطو، لأن

---

(١) مزيد من التفصيلات حول المأثورات التى أوردنا منها جزءا متواضعا يمكن للقارئ أن يرجع إلى المصادر الآتية:

Martin Luther: Sprichwortsammlung. Hersg. von Rudolf Große‹ Leipzig: Insel‹ 1983

Zitelmann‹ Arnulf: Ich‹ Martin Luther – Starke Sprüche über Weiber‹ Fürsten‹ Pfaffen undsoweiter‹ Frankfurt a. M.: Eichborn‹ 1982

(٢) قارن:

Ebeling‹ Gerhard: Luther‹ Einführung in sein Denken‹ 4.Aufl.-‹ 1981 ص ٣٨

(٣) قارن: المرجع السابق ص ٧٥.

الادعاء بأن عالم اللاهوت لابد وأن يكون عالمًا بالمنطق والفلسفة هو فى واقع الأمر ليس سوى هرطقة مذمومة.

- „Es ist ein Irrtum zu sagen، ohne Aristoteles werde man nicht Theologe. Im Gegenteil، man wird Theologe nur، wenn man es ohne Aristoteles wird. Die Behauptung، ein Theologe، der nicht Logiker ist، sei ein scheußlicher Häretiker، ist selbst scheußlich und häretisch.“ (١)

- لن يُبر ويصلح إيماننا من خلال عدل الإله، بل من خلال أعمالنا وتصرفاتنا.

- „Wir werden nicht gerecht durch Tun des Gerechten، sondern als gerecht Gemacht bringen wir gerecht Handlugen hervor.(٢)

- لزاما على أن أتحلى بالصبر مع الشيطان، ومع رفاق الإصلاح من المتطرفين والمزايدين، ومع زوجتى كيتى فون بورا، لم تكن حياتى سوى سلسلة متواصلة الحلقات من الصبر.

- „Ich muß Geduld haben mit dem Teufel; ich muß Geduld haben mit den Schwärmern، ich muß Geduld haben mit den Scharrhansen، ich muß Geduld haben mit der Käthe von Bora، und es ist der Geduld noch zu viel، dass mein ganzes Leben nichts anderes sein will als Geduld.“(٣)

---

(١) قارن: المرجع السابق ص ٩٤.
(٢) قارن: المرجع السابق ص ٩٦.
(٣) قارن:
Maess، Thomas: Dem Luther aufs Maul geschaut، Leipzig: Koehler، 1981 ص ٧٦

- كان فيليب ميلانكتون لاذع الكلمة، إلا أنه كان يؤديها من خلال إحساس مرهف وبإبر غير مؤلمة، ألا أن لسعاته هذه يكون الشفاء منها صعب، وألمها مبرح، أما لسعاتي أنا فكانت تتم من خلال أسياخ حديدية.

- „Philipus Melanchthon sticht auch، aber nur mit Pfriemen und Nadeln. Diese Stiche sind schwer zu heilen und tun weh. Ich aber steche mit Schweinspießen.“ (١)

- كنت أود أن أكون على دراية باليونانية والعبرية، حتى أكون جديرًا بالتلاقي مع أهلها. واللغات بعامة لا تصنع رجل اللاهوت، ولكنها الأداة والوسيلة المســـاعدة، وعلى الإنسان ألا يتكلم عن أمر ما دون سابق علم أو معرفة.

- „Ich kann weder Griechisch noch Hebräisch، Ich will aber dennoch einem Hebräer und Griechen geziemend begegnen.(Luther untertreibt hier in ironischer Form entgegen der Meinung seiner Gegner und Kritiker، denn er konnte sehr wohl griechisch und Hebräisch)Aber die Sprachen machen für sich selbst keinen Theologen، sondern sind nur eine Hilfe. Denn، soll einer von einem Dinge reden، so muß er die Sache zuvor wissen und verstehen.“ (٢)

- أينما وجدت جهنم، فإن روما تقع فوقها.

- „ Gibt es eine Hölle، so steh Rom darauf.“ (٣)

---

(١) قارن: المرجع السابق ص ٧٦.
(٢) قارن: المرجع السابق ص ٧٧.
(٣) قارن: المرجع السابق ص ٧٩.

- هالى، أيتها المدينة العظيمة، ليحفظك الرب من الضياع، لأنك أحببتِ كلمته، ولهذا لن يتخلى عنك.

- ‹‹Halle، du werte Stadt، der barmherzige Gott erhalte dich، dass du nicht versinkest. Du hast Gottes Wort immer geliebt. Darum wird dich Gott erhalten.“ (١)

- يتصرف أهل منطقة مايسن Meißen كما لو كانوا من أهل الحضر، وهم ليسوا كذلك البته. أما أهل تورنجيا Thüringen فهم محبون للتملك والجشع متناسون دومًا الواجب المنوط بهم. وأهالى بوهيميا Böhmen يفوقون فى برودهم كل الأجناس الأولى، أما البافاريون Bayern فيتمتعون بالغباء لعدم الموهبة، إلا أنهم محبون للحق والإنصاف. والفرنكيون Franken والشفابيون Die Schwaben بسطاء، وأهل عدل وأداء وخدمة صادقة. أما السويسريون Die Schweizer فأهل الصفوة والرقى من بين كل الألمان يتسمون بالشجاعة والمرح. والفنديون Die Wenden (قبائل السلاف الغربيين) لصوص ونوعية غير سوية من البشر. أما أهل هولندا Die Niederländer والباتافيون Bataver فهم أفاقون، يجازفون وليس لهم سوى مصالحهم.

- „Die Meißner sind hofärtig und maßen sich eine Klugheit an، die sie gar nicht haben. Die Thüringer sind pflichtvergssen und habgierig. Die Bhmen übertreffen alle andern an sprder Kälte. Die Bayern sind dumm und unbegabt، dafür aber rechtschaffender. Die Franken und Schwaben sind einfach، rechtschaffen und diensteiferig. Die Schweizer sind die vornehmsten unter den Deutschen، sie sind mutig und heiter. Die Wenden sind Diebe und eine ganz üble Sorte von Menschen.

(١) قارن: المرجع السابق ص ٨٠.

Die Niederländer، Bataver، sind rechte Gaukelmenschen. Die Rheinländer sind verschmitzte Abendteuer und auf ihren Vorteil bedacht.“[١]

- إن القدر أوجدنى لخدمة بنى جلدتى، ولهذا ولدت ولهذا أعيش.

- „Mein Schicksal dreht sich um meine Existenz، meinen deutschen Menschen dienlich zu sein. Für meine Deutschen bin ich geboren، ihnen will ich dienen.“ [٢]

- لأنك كدرت السيد المسيح وأهنته، فلن يكون مصيرك سوى الإحراق فى نار جهنم.[٣]

- ‹‹Weil du den Heiligen des Herrn (Christus) geschändet‹ ‹ so schände dich das ewige Feuer.“

- حتى لو أشعلوا النيران بداية من مدينة فيتنبرج حتى فورمس، وارتفع لهيبها إلى عنان السماء، فإن ذلك لن يثنينى عن أن أحمل لواء يسوع المسيح، ولن أتردد لحظة فى ذلك، حتى لو وضعوا رأسى فى فم أسد. فالرب لن يتخلى عنى، وسيقف إلى جانبى.

- „Auch wenn sie den Weg vom Wittenberg bis nach Worms in Flammen aufgehen lassen und dieses Feuer bis vom Himmel lodert، wird es mich nicht hindern، auf dem Wormser Reichstag die Fahne Jesus Christi tragen und werde ich nicht zögern، mein Haupt in das Maul des Löwen zu stecken. Gott

---

(١) قارن: المرجع السابق ص ٨١.
(٢) قارن: Schreckenbach، a.a.O. ، ص ١٢.
(٣) قارن: المرجع السابق ص ١٢، وقارن أيضًا Landgraf، a.a.O. ، ص ١٦١.

wird mich nicht in Stich lassen، sondern an meiner Seite stehen.“[١]

- إن مُتُّ، فسوف أصبح روحًا تقف عقبة كئودًا أمام الأساقفة والكرادلة والرهبان والقسس الملاحدة، ولن يستطيعوا اتخاذ إجراء ما ضد لوتر، الذى قضى نحبه، لأنهم سيجدون ألف لوتر آخر مازالوا على قيد الحياة.

- ‹‹Sterbe ich، so will ich ein Geist werden und die Bischöfe، Pfaffen und die gottlosen Mönche dergestalt plagen، daß sie mit einem gestorbenen Luther mehr zu schaffen haben sollen denn mit tausend lebendigen.“ [٢]

---

(١) قارن: Schreckenbach ص ١٥.
(٢) قارن: Thomas،Maees ، a.a.O.، ص ٨١ .

الفصل الثانى

الدور اللغوى لمارتن لوتر وإسهامه فى توحيد الأمة الألمانية والنهوض بحركة الإصلاح المسيحى

٢. ١ اللغة الألمانية فى خدمة حركة الإصلاح الدينى

كما سبق أن عرضنا فى مقدمة هذا المبحث، أن المصلح البروتستانتى مارتن لوتر، اعتُبر وما زال يُعتبر أحد أهم الشخصيات التاريخية، التى قدمها الشعب الألمانى. وهو بلا شك من الأشخاص الذين لا تموت سيرتهم، رغم اختلاف وجهات نظر الكثيرين ممن كتبوا عنه. وكما ذكرنا أنه كان محبوبًا ومحتفى به من البعض، ومكروهًا ومحقرًا من البعض الآخر. لقد جعل لوتر الشعب الألمانى من خلال قدراته اللغوية، أكثر نشاطًا ويقظة، وقربه من بعضه البعض، رغم أن كتبه التى وقعت بين أيدينا كانت مصاغة بلغة عسيرة، ولا يفهمها إلا فئة محدودة من الدارسين. ويرجع ذلك إلى الكم الهائل من المفردات الأجنبية والمصطلحات الدخيلة، التى كان يستخدمها فى صياغة أفكاره، إلى جانب صعوبة وتراكيب الجملة الألمانية فى تلك الفترة وينسحب ذلك كله على أسلوبه بوجه عام، والذى وصف فيما بعد بالسهل الممتع والممتنع، وذلك لما ابتدعه واشتقه من مفردات ومصطلحات شاع استخدامها بين جماهير الناس، وخاصة حينما يتطرق لوتر فى حديثه إلى قضايا الأمة الألمانية، الأمر الذى جعل منه عبقرية لغوية، دعمت بكل قوة حركته الإصلاحية.(١)

لقد استطاعت الكنيسة الإنجيلية التى أنشأها مارتن لوتر بنجاح وبدعم من قوة الكلمة، وعلى أسس مضادة للكنيسة الكاثوليكية، أن تقف شامخة إلى جوارها، بل ويعتبر الكثير من المؤرخين أن هذه الكنيسة اللوترية من الأعمال العظيمة فى تاريخ البشرية، وتمثل إضافة للحياة الفكرية عند الألمان أكثر من أى عمل آخر. ويتمثل ذلك كله فى إنجازاته المتعلقة بالكتاب المقدس، وترجمته إلى الألمانية،

---

(١) قارن النص فى مصدره الأصلى:

Wo es wörtlich heißt: „ Kraft und Würde‹ Zartheit und Innigkeit hat er ihr (der deutschen Sprache) gegeben. Er besaß das feinste Sprachgefühl‹ und deshalb musste er viel feilen‹ ändern und mit der Sprache ringen‹ ehe seine Übersetzung ihn befriedigte.“

„seinem Grundsatze: zum deutschen Volke muß Deutsch gesprochen werden‹ ordnete er alles unter.“ Vlg. a. Schreckenbach‹ a.a.O‹ S. 17f.

وبكتب الترانيم والأناشيد الدينية، وذلك من خلال اللغة الفصحى لدى فئات الشعب الألمانى وطبقاته كافة. ويمكن أن يقال إن الوعظ وإلقاء الخطب، من أحب الأعمال التى كان يمارسها مارتن لوتر، بالرغم من خشيته وهيبته لها فى بداية حياته. كان يخشى الصعود إلى المنبر أو التحدث أمام حشد كبير من الناس، ولكن مع الممارسة وتشجيع صديقه ميلانشتون له، سرعان ما اختفت هذه الخشية، وبعد أن لقى استحسان الجمهور وفئات الشعب كافة، حتى النبلاء والأمراء وحكام الولايات.

يُقَيِّمه المؤرخ "ول ديورانت" فى موسوعته: "قصة الحضارة"، بأنه أقوى من عرفه التاريخ فى الجدل، وكانت كتاباته تمثل صراعًا ممزوجًا بعبارات لاذعة تفيض سخرية، وترك خصومه يتأنقون فى بحور اللغة اللاتينية، حيث لا يقرأ لهم إلا قلة من الباحثين، أما هو فكان يكتب باللاتينية عندما يريد مخاطبة العالم بأسره، بيد أن الجانب الأكبر من أهاجيه كان يصوغه بالألمانية أو يترجمه فورًا إلى الألمانية، لأن ثورته الدينية كانت وطنية فى أساسها، ولم يبزه مؤلف ألمانى آخر فى وضوح ألفاظه أو قوة أسلوبه وفى مباشرة عباراته وحدتها اللاذعة أو فى تشبيهاته الموفقة، والتى كانت تبعث على الابتهاج فى ألفاظ تمتد جذورها فى كلام الناس وتلائم عقلية الألمان وهويتهم، و كانت أربعة أخماس الكتب التى تطبع بدعم من لوتر ومساندته، لأنها تؤيد الإصلاح، تجد طريقها إلى البيع السريع، أما الكتب التى كانت تدافع عن العقيدة الكاثوليكية المحافظة فلم تجد من يشتريها، وكانت مؤلفات لوتر هى الأكثر رواجًا وتباع فى المكتبات، ومع الباعة الجائلين، والطلبة، والمسافرين بالآلاف، داخل و خارج ألمانيا، وفى فينيسيا وإيطاليا وإسبانيا وهولندا وإنجلترا، وكان وراء ذلك النجاح اكتشاف الطباعة بالحروف المتحركة، على يد يوهان جنزفلايش جوتنبرج Johann Gensfleisch Gutenberg، والذى لولاه ما كان نجاح مارتن لوتر ممكنًا.(١)

---

(١) قارن: ول ديورانت: قصة تاريخ الحضارة، ص ٧٣ وما بعدها.
يذكر عن ردود أفعال مارتن لوتر اللاذعة أنه حينما كان يذكر الناس بأن الله قوة مدركة كونية موجودة، عند ذلك يسأله شاب لحوح من علماء اللاهوت " أين كان الله قبل خلق العالم؟" أجاب بأسلوبه الفظ المباغت: "كان يبنى جهنم لهذه الأرواح الفضولية المقلقة المغرورة من أمثالك" وول ديورانت ص ٥٩.

كما كان لوتر يفتخر بفظاظته، حينما ينقضُّ على خصومه، وكثيرًا ما كان يردد هذه المقولة "ما فائدة الملح إذا لم يكن لاذع الطعم"[١] كما كانت تعاتبه زوجته فى رقة قائلة له: "أنت فظٌّ يا زوجى العزيز" و يرد عليها بكل هدوء: "إن الغصن يمكن قطعه بسكين الخبز، أما شجرة البلوط فتستلزم الفأس."[٢]

ولعل أبلغ مثال لهذا اللون لأسلوبه قصيدته التهكمية التى مثلت هجاءً مريرًا ضد بابا روما ليو العاشر Leo X آنذاك والتى أعطاها عنوان "أنشودة تهكمية عن بابا روما":

وهكذا أبعدنا البابا،

خارج أبواب مدينتنا،

يصحبه خداعه ومكره،

فهو بحق عدو المسيحية الأكبر.

وأسقطناه من فوق عرشه العالى،

ليلقى حتفه الأبدى جراء ما ارتكبه تجاهنا،

فانه لم يعد بإمكانه خداعنا من خلال تعاليمه وأكاذيبه الباطلة[٣].

---

(١) قارن: المرجع السابق، ص ٥٩.
(٢) المرجع السابق ص ١٣٧.
(٣) قارن النص الأصلى للأغنية:

So treiben wir den Papst aus
durch unsere Stadt zum Tor hinaus،
mit seinem Betrüg du Lüsten،
als rechten Antichristen.
Wir stürzen ihn über Berg du Tal،
damit er sich zum Tode fall،
und uns nicht mehr betrüge،
durch falsche Lehre und Lüge.
(، a.a.O.، Thomas: Dem Luther aufs Maul geschaut،Maess ص ٣٩)

وتشتد فظاظة مارتن لوتر التهكمية تجاه بابا روما مما يمكن اعتباره تجاوزًا للخطوط الحمراء وحدود اللياقة فى الخطاب الدينى:

أيها البابا، يا والد كل المخدوعين من المسيحيين

لقد جللت اسمك بالعار و اللعنة،

ولتذهب مملكتك إلى الجحيم،

وسرعان ما تذبل إرادتك الشيطانية،

وسوف لا يعطيك الرب خبزنا اليومى،

ولن تخلصنا من خطايانا عبر صكوك غفرانك الخادعة،

والتى لن نغفرها لك، لأنك لم تعد قادرًا على غوايتنا،

وسوف يخلصنا الرب من كل آثامك. آمين. (١)

ورغمًا من هذا يذكر الدكتور موزيلانوس Mosellanus رئيس جامعة ليبتزيج آنذاك بعضًا من السمات البارزة عن لوتر وعن لغته ويقول: "كان مارتن لوتر متوسط الطول، يتمتع بجسم هزيل نحيل، تبدو عليه مشقة الدراسة وتحمل الأعباء مما يجعل للناظر إليه أن يحصى ضلوعه من خلال جلده، إلا أنه رغما من ذلك يصحبه دومًا شباب يافع، وصوت رائق، وخبرة عميقة بنصوص الكتاب المقدس فى لغتيه اليونانية والعبرية، واللتين كان يجيدهما حق الإجادة مما ساعده على

---

(١) قارن النص الأصلى المرجع السابق ص ٩:

Papst، Vater aller verleugneten Christen،
geschändet werde dein verfluchter Name،
dein Reich komme in die Hölle،
dein teuflischer Wille muß bald vergehen.
Unser täglich Brot geb dir Gott nicht.
Und erlaß uns unsere Schuld nicht durch deinen verlogenen Ablaß،
wie wir dir auch nicht vergeben haben، dass du uns nicht mehr
müssest führen in Versuchung.
Sondern erlöse uns Gott von deinem Übel. Amen.

تكوين مخزون لغوى لا ينضب، وكان سلوكه تجاه من حوله مشوبًا بالود والأدب الجم، وكان اجتماعيًا ومخالطًا لجماهير الناس، يقول الدعابة والمزحة بوجه بشوش، إلا أنه لم يتورع فى نفس الوقت إذا لزم الأمر عن التلفظ بتعبيرات لغوية شرسة وقاسية ضد خصومه، الأمر الذى لم يتعوده الناس أن يصدر من أحد رجال اللاهوت.[١]

نود بداية أن نؤكد أن لوتر ظل طوال حياته مخلصًا وشاكرًا لما تعلمه فى بيت والديه، وخاصة ما غرسته الأم فى عقله ووجدانه، رغم ما عرف عنها من ولعها بأعمال السحر والشعوذة والشياطين، إلا أنها كانت تسحره وأقرانه الأطفال بالكثير من أقاصيصها وأمدت ابنها لوتر بالعديد من الأقاصيص السائدة آنذاك، وكان إنصاته لها فاتحة الطريق للتعرف على طريقة جماهير الناس، الأمر الذى ساهم فيما بعد فى تأثير قوة الكلمة عند الجماهير وكيفية الوصول إلى قلوبهم وإيقاظ مشاعرهم.

تعلم لوتر فى السنوات ١٥١٨-١٥٢١ العبرية واليونانية، ويُذكر أنه قد استوعبها على مدى عام واحد، مما أهله فيما بعد لترجمة الكتاب المقدس إلى الألمانية.

وإذا ما أراد المرء أن يتعرف على المزيد من لغة لوتر ومراحل تكوينها، فلابد من العودة إلى البداية لنتأمل سيرته الذاتية ومراحل حياته التى عاشها فى منطقة شرق ووسط ألمانيا، وهى المنطقة التى سادت فيها لغة أهالى تورنجيا وسكسونيا، والتى اتسمت بأنها لغة الأدب الرفيع لأهم ولايات وممالك ودويلات ألمانيا تحضرًا وتقدمًا. وما من شك فى أن ذلك كان من الأمور التى ساعدت على تنمية وعيه اللغوى، كى يسمو فيما بعد بوحدة اللغة وإدراك دورها وأثرها الأدبى والسياسى والاجتماعى، وليتغلب بها على الشتات والتشرذم الذى كان يعيشه الشعب الألمانى آنذاك.

---

(١) قارن المرجع السابق ص ٨ وما بعدها.

في عام ١٥٢٥ تزوج من الراهبة كاترينا فون بورا Katharina von Bora، التي كانت صاحبة الفضل في تجميع خطبه وأحاديثه وعظاته، التي كان يؤديها مع ضيوفه، والتي أنجبت له ستة من الأولاد والبنات، الذين تم إنجابهم في الفترة من ١٥٢٦- ١٥٣٤،[(١)] وفي هذه الفترة ظهر له أول مؤلف بالألمانية عن شرح مزامير التوبة السبع، الذي يرى المؤرخون أنه أول محاولة لمارتن لوتر لترجمة نصوص الإنجيل فيما بعد "Auslegung der sieben Bußpsalmen"، ولتدعيم حركة الإصلاح قام لوتر بتأليف سلسلة من الرسائل والكتب ابتداءً من عام ١٥٢٠، أُنجزت بعد حوارات ليبتزيج المفتوحة مع الدكتور "إيك" Eck والدكتور "كارل شتات" Karlstadt وتحت إشراف رئيس جامعة ليبتزيج آنذاك الدكتور "موزيلانوس" Mosellanus " والتي استمرت من ٢٢-٦ حتى ١٥-٧-١٥١٩، لينطلق الدكتور "إيك" بعدها إلى روما ويستصدر من البابا قرار حرمان لوتر وإخراجه كلية من حظيرة المسيحية في ١٥-٦-١٥٢٠.

ومن أهم المؤلفات التي أصدرها لوتر:

- "عظة عن الأعمال الصالحة" "Syrmon der guten Taten"، وقد كتبها لوتر كتوطئة لمؤلفاته الإصلاحية، و فيها تستبين روحه المبدعة وكأنها معين لا ينضب، ويقول: "لديَّ يدٌ لا تمل من الكتابة وذاكرة حاضرة، حيث إنني عندما أكتب، يتدفق إليَّ سيلٌ من المعاني والأفكار دون جهد أو عناء."[(٢)]

- "عن السبي البابلي للكنيسة" "Von der Babylonischen Gefangenschaft der Kirche

- "إلى نبلاء المسيحيين للأمة الألمانية" "An der christlichen Adel deutscher Nation"

---

(١) قارن Arndt، a.a.O.، ص ٢٣.

(٢) قارن النص في مصدره الأصلي:

Wirklich heißt es: ‹‹Ich habe eine rasche Hand und ein promptes Gedächtnis‹ wenn ich schreibe‹ so fließt mir es nur so zu. Ich brauche nicht zu pressen und zu drücken.“ Landgraf‹ a.a.O.‹ S.143 .

- "عن حرية الإنسان المسيحي" "Von der Freiheit eines Christenmenschen"

وهى مؤلفات كُتبت باللاتينية، ثم تُرجمت إلى الألمانية. تلا ذلك العديد من المؤلفات ابتداء من ١٥٢٤-١٥٣٠ من أهمها "مواعظ الدعوة للسلام"، وكتب أغانى الأطفال الكنسية والصلوّات وقواعد تعليم العبادة المسيحية الكبيرة والصغيرة. وتعتبر هذه الفترة فترة خصبة للإنتاج العلمى لمارتن لوتر، حيث شرع فى ترجمة العهد الجديد طبعة سبتمبر ١٥٢١، تلاها ترجمة ديسمبر ١٥٢٢ و انتهت الترجمة الكاملة فى ١٥٢٤. إلى جانب هذا فقد قام بتأليف الكثير من أغانى أعياد الميلاد والمواعظ وأساطير الأطفال و"رسالة المترجم" „Sendbrief vom Dolmetschen“ ، التى أوضح فيها مهام وواجبات المترجم، يضاف إلى هذا الثراء اللغوى، قيام لوتر بالعديد من الرحلات لأهم المدن الألمانية ومراسلاته الكثيرة مع العلماء المؤيدين منهم والمعارضين على السواء، فى داخل ألمانيا وخارجها.

فى عام ١٥٤٥ ظهر له آخر كتاب بعنوان "ضد بابوية روما - إهداء من شيطان مارد"

„Wider des Papsttum zu Rom – Von Teufel gestiftet“

وهو الكتاب الذى يمثل قمة نضاله وصراعه ضد البابوية بالألمانية.

ظهرت أول طبعة للإنجيل أعدها فى حياته فى صيف ١٥٤٦ أى بعد موته ببضعة شهور (مات فى ١٥٤٦/٢/١٨) فى مدينة أيسليبن Eisleben ودفن فى كنيسة القصر فى مدينة فيتنبرج Wittenberg (١٥٤٦/٢/٢٢) .

و يذكر المؤلفون أنه قد تم تجميع مؤلفات لوتر فيما سُمى بالطبعة الفايمارية، نسبة لصدورها فى مدينة فايمار Weimar عام ١٨٨٣ والتى يرمز لها بالاختصار WA، وتعنى طبعة مدينة فايمار، وشملت عشرات المجلدات (١٠٦ مجلدًا) تحت مجالات أربع:

- المجال الأول تضمن الأعمال الرئيسية، Ausgabe.Weimarer (WA)

- المجال الثانى تضمن ما يسمى بخطب المائدة Tischreden (TR) .

- المجال الثالث تضمن الإنجيل الألمانى Bibel (B).

- المجال الرابع تضمن الرسائل Briefe (Br).

وقد يكون من المفيد للقارئ أن يعلم، أنه قد ظهرت أكثر من أربعمائة طبعة من أجزاء الإنجيل التى تمت ترجمتها فى حياة لوتر، أى حتى وفاته عام ١٥٤٦ وظهر ما يربو عن ٣٧٠٠ طبعة حتى عام ١٩٦٦ لأعمال لوتر. الأمر الذى أدى إلى ازدهار وارتفاع مكانة مدينة فيتنبرج Wittenberg كمدينة رائدة فى الطباعة، بفضل لوتر وأعماله وارتقاء الطباعة بوجه عام على مستوى ألمانيا، و خاصة طباعة الأعمال المؤلفة باللغة الفصحى، والتى شارك فيها كافة طبقات المثقفين من وسط ألمانيا وجنوبها، وهو الأمر الذى أدى إلى أن تكون اللغة الفصحى هى المعيار القومى، واستطاع الكتاب الألمانى أن يتفوق على نظيره اللاتينى، بل ويحل محله. لقد ارتفعت مكانة اللغة الألمانية بفضل ترجمة لوتر للإنجيل، وصارت بذلك أحد أهم اللغات المقدسة شأنها فى ذلك شأن العبرية، والعربية، واليونانية، واللاتينية. و كان لوتر يجيد اللاتينية ويتحدثها كلغته الأم، ويُذكر أن مراسلاته التى أُحْصيت بلغت ٢٥٣١ رسالة، دُوِّن أكثر من نصفها باللاتينية، لأنه كان كثيرًا ما يكتب بها إلى العديد من الجامعيِّين المثقفين. لقد كان من فضل لوتر أنه بداية من منتصف القرن السادس عشر، ازدادت أهمية اللغة الألمانية عن اللاتينية من جراء تيسير فهم موضوعات العقائد وقضايا الإصلاح ،التى أثارت اهتمامات الكثيرين من طوائف وطبقات المجتمع، وأدى ذلك بعدها إلى أن تحل الألمانية محل اللاتينية فى الجامعات ومختلف المؤسسات التعليمية، ولم يكن ذلك ليحدث إلا بما أبدعه لوتر فى ألمانيا الممزقة إقليميا .

٢. ٢ وظيفة اللغة فى دعم قضية توحيد الألمان

لقد أدرك لوتر إدراكًا تاما أحوال اللغة فى عصره، وجاهد لكى يتحدث بها الشخص العادى عند احتكاكه بالآخرين، حتى يساعد ذلك فى فهم كل منهم للآخر، وخاصة حينما ساد طبقات المجتمع الدنيا من سكان المدن والقرى التكلم بلغة أقرب إلى العلمية، ذات الصلة بالفوارق اللغوية والاجتماعية المرتبطة بالحدود الجغرافية ارتباطًا وثيقًا. وحاول لوتر أن يخلق نوعًا من الطموح بين هذه الطبقات، فى استخدم اللغة الأدبية كلغة تفاهم، والتى يمكن بها تجاوز الحدود الجغرافية الضيقة الخاصة بالولايات الألمانية، وهى اللغة التى أراد لها لوتر أن تكون المعيار القومى.

لقد ركز لوتر على أسلوب حوار الإنسان العادى، وأن يكتب ويتكلم بطريقة مفهومة. ويروى عنه أنه أثناء ترجمته للكتاب المقدس بقلعة الفارتبورج Wartburg كان يطلب من صديقه العالم اللغوى الكبير شبالاتين Spalatin دعمه بالكلمات البسيطة، كلمات عامة الشعب، وليست كلمات القصور والبلاط وعلية القوم، وكذلك إمداده بمسميات الحيوانات والطيور والزواحف التى وردت بالإنجيل، وحتى لا يختلط عليه الأمر بمسمياتها العبرية واليونانية واللاتينية، بل يُذكر أيضًا أنه كان يستعين بأحد الجزارين لمعرفة أسماء أجزاء الذبيحة ومكوناتها، ولهذا ترك مارتن لوتر ترجمة الفولجاتا ولم يعرها أى اهتمام، وهو الاتجاه الذى جعل من ترجمته للإنجيل ميزة كبيرة فى لغتها لم يصل إليها أحد من قبل، واضعًا نصب عينيه أن يجعل من نص الكتاب المقدس نصا لعامة الشعب، ويستطيع قراءته البسطاء من الناس.[١] ينجح لوتر فى السنوات الأخيرة من حياته، وبمساعدة رفيقه على الدرب العالم اللغوى يوهانس أجريكولا Johannes Agricola، وأستاذيه يوهانس لانج Johannes Lang، وفيليب ميلانشتون، خاصة فى الأعوام ١٥٢٨

(١) قارن النص فى مصدره الأصلى:
So heißt es: „ Luther wollte die heilige Schrift zum Volksbuch machen‹ auch der Ungebildete‹ sollte verstehen‹ was er las." Schreckenbach‹ a.a.O.‹ S. 16.

و١٥٢٩ فى جمع العديد من المأثورات والمُلَح والحِكم والأغانى الشعبية التى تجاوزت المئات، وتم طبعها فى موطنه، فى موطن الطباعة الأول مدينة فيتنبرج، وبهذا جعل لوتر اللغة الأدبية وسيلة مرغوبة وجذابة للتفاهم بين كل طوائف الشعب و قاسمًا مشتركًا فى المؤسسات التعليمية.(١)

تلقى مارتن لوتر مساعدات عدة من معلميه فى تحصيل وتعلم اللغة الأم، وغيرها من اللغات الأجنبية، فقد حصل فى اجتهاد منقطع النظير قواعد اللغة اليونانية من أستاذيه يوهانس لانج Johannes Lang وفيليب ميلانشتون Philippus Melanchthon، وكان ذلك بداية لتأليفه العديد من الكتب والرسائل؛ مثل "رسالة إلى المترجم"، و"رسائل إلى نبلاء الأمة الألمانية المسيحيين"، و"مقدمة فى السبى البابلى للكنيسة". وقد أظهرت هذه الكتابات من وجهة نظرنا، مدى الوعى القومى عند مارتن لوتر، حتى أن البعض اعتبره آنذاك متحدثًا رسميا للأمة الألمانية، لأنه كان يحمل فى قلبه ووجدانه حبًا غامرًا لأمته، وأنها الأمة المناط بها إصلاح الكنيسة من عبث الرومانيين وضلالهم، وكان سلاحه فى كل ذلك حججه القوية مدعمة بلغته الحية والمؤثرة.(ونذكر فى هذا الصدد أن كتابه الموجه إلى نبلاء الأمة الألمانية ، طُبعت منه ٤٠٠٠ نسخة نفدت فى خلال ثمانية أيام رغم قلة من كانوا يستطيعون القراءة آنذاك. ويعبر لوتر فى هذا الكتاب بقوله: "لقد مددت يدى إلى خصومى بالسلام مرارًا وتكرارًا، و لكنى أعتقد أن الله قد منحنى التصميم على الحق، والدفاع عنه، ولن أصمت أبدًا"(٢). وتبلغ قمة قوة الكلمة لدى لوتر، وعظمة

---

(١) على سبيل المثال:

„Gott allein ist die Weisheit .Das Wort Gottes bleibt، solange die Welt steht. Die beste Tugend ist die Geduld. Wo du nicht Herr bist، da lass einen jeglichen geben، tun und machen، wie er will. Undankbarkeit ist das allerschändlichste Laster. Keine Liebe ohne Leid. Ein gutes Werk، ist das، was anderen wohltut . Du schadest dir selbst am allermeisten، wenn du einem anderen schädigst. Gott schütze mich vor meinen Freunden- wider meine Feinde wehre ich mich selber. Was verboten ist ،dagegen handelt man besser.“

مزيد من التفصيلات انظر أيضًا:

http://berg.heim.at/tibet/450000/god/ luther-sprueche.htm

و أيضًا: Maess، Thomas، a.a.O. ، ص ٩٧ وما بعدها

(٢) قارن النص فى مصدره الأصلى:

سلوكه الذى لا يعرف الخوف منتزعًا بذلك نصرًا ساحقًا ليصبح بطلاً للأمة الألمانية، وذلك بدفاعه الذى عبر عنه باللاتينية والألمانية، حينما طلبت منه الكنيسة سحب مؤلفاته، وتراجعه عما جاء بها فيقول أمام نواب البرلمان والقيصر ما نصه: "يا صاحب السمو والجلالة الملكية تريدون إجابة واضحة وبسيطة وسوف أفعل، وهى أننى على اقتناع تام بما كتبته لأسباب واضحة وجلية ممثلة فى أننى لا أؤمن بالبابا أو بهذه المجالس الملكية، لأن من تولوها ضلوا كثيرًا [...]، ولأننى أثناء كتابة هذه المؤلفات كنت متأثرًا بإيحاء من الله وكلمته، [...] وإنى لا أريد أن أتنازل عن أى شيء كتبته لأن هذا سوف يكون شؤمًا وخطرًا يؤدى بى إلى إثقال كاهلى وضميرى بالهموم، فليساعدنى الله. آمين!"(١)

لقد ارتبط مارتن لوتر بكيان اللغة، وبالكلمة وقوتها، ارتباطًا وثيقًا، وهو أمر طبيعى وبديهى، انطلاقًا من طبيعة مهنته، وجاءت إجادته للغة من خلال دراسته المتعمقة لعلوم اللاهوت، وإدراكه لدور اللغة وتأثيرها الفعال، فى التفريق بين لغة علم اللاهوت ولغة الخطباء والوعاظ. يمثل هذا الارتباط الوثيق مركز الثقل عند لوتر كمصلح ومحرك لحركة التجديد التى قام بها تجاه الكنيسة، وما عم بها من فساد. وقد كانت قوته اللغوية التى كتب بها مؤلفاته مثيرة للقلاقل، ومقلقة للمضاجع.

احتلت ترجمة الإنجيل إلى الألمانية أعلى مرتبة لأنها تضمنت كافة الدوافع اللاهوتية، والتى على اللغة الألمانية أن تبرزها، حتى يكون لها التأثير المطلوب على الحياة اليومية والعامة لكافة طبقات الشعب الألمانى، ومن هنا حتم هذا العمل، الفريد من نوعه، على لوتر كمترجم أن يقدم صورة عالمية وأدبية فائقة لتاريخ

Es heißt : Luther macht sich hier zum Sprecher des deutschen Volkes، trägt alle die Klagen vor، die lange schon die unsichtigen Freunde des Vaterlandes gegen Rom auf dem Herzen hatten.“ Schreckenbach، a.a.O. S. 12f.

(١) قارن:

Meisner، Michael: Martin Luther Heiliger oder Rebell، Leipzig، S.83

انظر النص الكامل للخطاب فى:

Gremmels، Christian: Luther- Lesebuch، Darmstadt، 1983، 43ff

قارن أيضًا: ول ديورانت ج٣ ، مجلد ٦ ، ص ٤٢.

البشرية من خلال محتوى الإنجيل. ويقول لوتر فى هذا الشأن: "يمكننا عن طريق الكلمة أن نجعل من العالم فكرة هادفة، وبها يمكن أن نعيد إلى الكنيسة قدسيتها وتطهيرها"، وهو يعنى بمصطلح الكلمة "الله" ويعنى أيضا الجانب اللغوى، وهو الاهتمام من خلال الكلمة بعلوم اللاهوت: "فى البدء كانت الكلمة ..." فالإنجيل بذلك يمثل لدى لوتر الكلمة الدنيوية لكلمة الله، والتى لم يجدها لوتر فى محتوى المراسيم البابوية، أو محاضر اجتماعات رؤساء الكنائس أو المجالس الملكية أو فى الشعائر أو الطقوس، ومن هنا كانت مناداة ومناشدة لوتر المؤمنين الإحاطة بكلمة الله. لقد اكتسبت اللغة الألمانية أهميتها ومكانتها بهذا التأريخ الثقافى لترجمة الإنجيل، وارتباط فحواه، لأنها أصبحت لغة عموم الشعب، ووسيلة التفاهم وإدراك معانى المصطلحات والمفردات الواردة بالإنجيل.

لعبت اللغة عند لوتر دورًا لا يستهان به، فى صياغته للحجج الخمس والتسعين، والتى صاغها باللاتينية ضد صكوك الغفران، والتى سرعان ما ترجمت فى خلال أسبوع إلى الألمانية، وانتشرت كانتشار النار فى الهشيم فى كل أنحاء ألمانيا ليقرأها العامة والخاصة، والتى أصبحت فيما بعد القوى المؤيدة له فى رفضه لسلطة البابا والكنيسة، بل ويرى الكثير من المؤرخين أن الإصلاح الذى نادى به وحققه، لم يكن ليحالفه النجاح لولا قوة الكلمة والحجة اللغوية، واستعماله اللغة الألمانية. لقد نحا لوتر فى استغلال اللغة اتجاهين، الأول: إعادة النظر فى شرح المفاهيم والشعارات اللاهوتية التى كانت تحصن الكنيسة بها سلطتها وتأثيرها، وخاصة فيما يمس فرض صكوك الغفران وجسد المسيح وأكل الربا. وهى اللغة التى كان يستعملها بابا روما كلغة يخفى بها حقائق الأمور. ونجح لوتر فى معركته اللغوية هذه بعد تقديمه فهمًا دقيقًا وبرهانًا دامغًا ضد تعاليم البابا والكنيسة الكاثوليكية. وبذلك حاول لوتر من خلال هذا الشرح المبسط للعديد من الكلمات والمصطلحات والمفاهيم، القضاء على كل ما يراه غير صحيح فى مهده؛ الاتجاه الثانى: استغلال لوتر لقوة الكلمة ليغير من خلالها أفكار الناس وآرائهم، عن أمور علقت وتأصلت فى عقولهم عبر توجيهاته وأحاديثه المدعمة بالتراكيب العديدة والمتنوعة للكلمة واستخدامها استخدامًا صحيحًا، وحتى يتسنى له بذلك حرية التعبير

عن مشاعرهم وعواطفهم الإنسانية، وكان سلاحه فى كلا الاتجاهين الحوار، كسلاحٍ ماضٍ يتسلح به معلمو التربية الدينية.

ولا يمكن لأحد أن ينكر الاختراع الذى أنجزه يوهان جينزفلايش فون جوتنبيرج، Johann Gensfleisch von Gutenberg للطباعة بحروف متحركة، والذى أدى إلى أن أصبحت الكلمة المطبوعة متاحة لفئات كثيرة، بعد أن تم كسر احتكار الأديرة لإنتاج الكتب والإقلال من دور الكنيسة، كحاملة رئيسية لوظيفة التعليم على مدى قرون طويلة، والذى سنعرض له بالتفصيل على الصفحات القادمة.

٢. ٣ اللغة والمزامير الدينية والغناء الجماعى والموسيقا

كثيرا ما كان مارتن لوتر يتساءل عن الكيفية التى يتكلم بها المواطن الألمانى فى موقف ما، وكان ذلك شغله الشاغل الذى حاول الإجابة عليه من خلال مؤلفه عن الأناشيد الدينية عام ١٥٣٥ Summarien über die Psalmen. وكان يهدف من وراء ذلك أن يكتب بالقوة اللغوية، التى تتيح له القدرة والإمكانية على التفاهم مع قرائه ومستمعيه من طبقات الأمة كافة، وحاول تحقيق ذلك ليس من خلال أسلوب واضح وسهل فقط ، وإنما من خلال ما يتركه هذا الأسلوب من أثر فعال عليه.

لقد أبانت الدراسات البحثية فى تاريخ اللغة الألمانية، عن تفرد وتميز مارتن لوتر بامتلاك لغة خاصة به، حتى أن العديد من المؤرخين انتهوا إلى الرأى، بأنه يستحق دون منازع أن يطلق عليه مبدع ومجدد اللغة الألمانية الحديثة، وذلك بعد أن وضع معيارًا قوميًا موحدًا للغة الأدبية. ويذكر الباحثان، جيزيلا براندت Gisela Brandt وإرفين أرندت Erwin Arndt أنه قد صدر فى سبعينيات القرن العشرين ما يزيد عن ٤٥٠ مؤلفًا، بمناسبة الاحتفال بمرور خمسمائة عام على ميلاد لوتر وحركة الإصلاح الدينى، ويرجعان ذلك إلى أنه لم يكن لأديب أو لشاعر، بدءًا من العصر الوسيط و حتى العصر الحديث، الأثر العميق والخالد حتى يومنا

هذا، مثلما كان لمارتن لوتر، وذلك لما تضمنته مجمل أعماله عن الأوضاع الاجتماعية لأمته ناقدا لها كعالم دين، وكأستاذ جامعى، وكواعظ، وكأديب، وكمترجم بارع للإنجيل، وكمؤلف للعديد من الأغانى والأناشيد الكنسية المستقاة من الإنجيل وانسحابها على القضايا التاريخية للعصر[1].

كانت اللغة بالنسبة للوتر ساعده الأيمن، حينما وجه تركيزه لفهم العقيدة من خلال نصوص الإنجيل باعتبارها وحيًا إلهيا، متجنبًا بذلك كافة الاتجاهات الفلسفية الإنسانية آنذاك. ونمَا تأثره اللغوى المبكر من قراءته واقتدائه بكبار المتصوفين معتبرًا ذلك مثله الأعلى، وعلى رأسهم المتصوف الألمانى الكبير يوهانس تاولر Johannes Tauler، والذى استفاد من مواعظه، أثناء اقامته الجبرية بقلعة الفارتبورج Warteburg عام ١٥٢١. و بدأ هذا التأثر واضحًا عام ١٥١٨ فى المقدمة التى كتبها هذا الصوفى، والتى أسماها "اللاهوت الألمانى""Eyn deutsch Theologia"، والذى مدحه مارتن لوتر باعتباره من الرسائل المهمة، والخادمة للإنجيل مثلها فى ذلك مثل مؤلفات القديس أوغسطين Augustin.[2] ولهذا لم يكن مستغربًا من مارتن لوتر بعد الجهد الشاق الذى بذله فى تعلم العبرية من خلال العهد القديم، واليونانية من خلال العهد الجديد، إلى جانب اللاتينية والتى ترجم الإنجيل إليها مرات عديدة سابقة، أن تؤدى به المناشدة العاجلة، لفهم واستيعاب نصوص الإنجيل فهمًا صحيحًا، وللمطالبة عند أمراء وحكام الولايات والمدن الألمانية ببناء المزيد من المدارس، لدراسة هذه اللغات على مستوى جماهيرى.

لقد تعلم لوتر من تأملاته وتعمقه فى دراسة العهد الجديد، أن هناك روايات متعددة من إنجيل لآخر، وأن معرفتها واستيعابها ليس مرتبطًا بالضرورة بصياغة ما أو بلغة ما، لهذا أقدم على ترجمة الإنجيل إلى لغته الأم، انطلاقًا من مقولته الأساسية فى علم الترجمة، بأن الكلمة هى خادمة المعنى و ليس العكس.[3]

---

(١) قارن:

Arndt، Erwin/ Brandt، Gisela، a.a.O.، S. 9ff

(٢) حازت كتابات يوهانس تاولر اهتمامًا كبيرًا عند لوتر، ولم يكن مستغربًا أن تعتبر الكنيسة الكاثوليكية كتابه هذا المشار إليه فى القرن السادس عشر من كتب الهرطقة. مزيد من التفصيلات أنظر:

www.heiligenlexikon.de/Biographien/Johannes_Tauler.html

(٣) المرجع السابق ص ١٨:

"das nicht der sinn Worten / sondern die Wort / den sinn dienen und folgen sollen."

ولقد استبان له دور وظيفة اللغة، ليس فقط فى مجال الاتصال والتفاهم بين النـــاس، بل على أساس ألا ينفصل هذا عن دورها فى مجال المعرفة واكتسابها، ولم يكن ذلك من فراغ، بل جاء من خلال نشاطه الدائب بين الناس عن طريق اللغة. وهذا ما جعله يبتعد عن الفلسفات اللاهوتية ويعرض عن فلسفة أرسطو، ليركز فى مقابل ذلك على دراسة الإنجيل ولغته وجعلها فى مكان الصدارة. ويرى بعض المؤرخين أن لوتر بذلك قد مهد الطريق للعالم اللغوى الكبير فيلهيلم فون هومبولت Wilhelm von Humboldt فى القرن التاسع عشر، فى التمييز بين اللغة كعمل واللغة كفعل ونشاط. وقاده ذلك إلى أن يساوى فى محاضراته التى كان يلقيها عن الأناشيد والمزامير الدينية ١٥١٣-١٥١٤، بين الكلام والفعل (Sprechen und Tun)، ومن منطلق أن أفعال الرب ماثلة فى عباراته، وحين يصمت الرب ولا يتكلم فهو إذن يعرض عن الناس. ولم يكن من المستغرب أن يؤكد ذلك الباحث بيتر ماينهولد Peter Meinhold فى كتابه "فلسفة اللغة عند لوتر": "إن تأملات وأفكار فلسفة لوتر اللغوية وصلت إلى أعلى قممها، فى إبراز الوظائف الخلاقة للكلام الإنسانى ومن خلال الدور الحى والفعال للكلمة."(١)

كم كان لوتر فخورًا فى مديحه للكلام الإنسانى بوجه خاص، وخاصة لشعر المزامير، والأغانى الكنسية، والتى رأى فيها قوة جاذبة مجدها فى مقدمته لكتاب المزامير ١٥٢٨ فيقول: "ليس هناك أقوى وأعظم لدى الإنسان من قدرته على الكلام، وهى الصفة المميزة له والتى تميزه عن غيره من الحيوانات." (٢)

كانت ريادة لوتر اللغوية مبرزة لدوره القيادى فى عصره كمتحدث ومناقش ومجادل، ويروى عنه مقولته الشهيرة: "إن الشيطان لا يخشى روحى وفكرى بقدر ما يخشى لغتى وقلمى حين أكتب."(٣)

---

(١) Peter Meinhold: Luthers Sprachphilosophie، Berlin، S. 9 ff.

(٢) قارن النص الأصلى Erwin، Arndt، a.a.O.، ص ١٩:

„und kein kräftiger noch edler Werk am Menschen ist، denn reden، sentimal der Mensch durchs Reden von anderen Tieren am meisten geschieden wird، mehr denn durch die Gestalt oder andere Werk.“

(٣) قارن النص الأصلى، المرجع السابق ص ١٩ :

وهذا مما جعل لوتر يلتزم بكل دقة فى الحفاظ على سلامة لغته المنطوقة، وأن يكون قادرًا على انشاء واستخدام تركيبات لغوية واضحة، يفهمها الجميع، وهو الأمر الذى أكده العلامة اللغوى الكبير ياكوب جريم Jacob Grimm فى مقدمة معجمه الألمانى حينما قال:

"لا تزال لغة لوتر فى ترجمته للإنجيل نابضة بالحياة، رغم أن فهمها واستيعابها يرتبط بسياق عصرها، وهى بنقائها وصفائها الأصيل وتأثيرها القوى تمثل الأساس والنواة لفصحى الألمانية الحديثة".(١)

وضع لوتر نصب عينيه تبسيط النصوص، من أجل فهم أفضل للرجل العادى وللأم فى المنزل وللأطفال فى الأزقة، مثلما حدث فى صياغته لحديث الملاك الموجه إلى السيدة العذراء:

"سلام الرب لك يا مريم..."

ولم يكتف بذلك، بل طلب أن يفعل صديقه شبالاتين Spalatin نفس الشيء وأن يعيد صياغة المزامير إلى أغان كنسية ترددها طبقات الشعب بشكل ميسر ومتداول. وحين واجه لوتر ترجمة مينتيل Mentel اللاتينية للإنجيل عام ١٤٦٦ وجد بها الكثير من الغموض، الذى يؤدى لسوء فهم النص، مما حدا بلوتر أن ينحو منحًى لغويًا سهل الفهم والاستيعاب لعامة الشعب، ولهذا أخذ على عاتقه مواصلة رعاية وصيانة كل ما جاء فى الكتاب المقدس، بعد دراسة ومتابعة نظم وأساليب اللغة العبرية واليونانية واللاتينية، وأدى هذا بدوره إلى انصهار عديد من الترجمات، جعلت لغة لوتر بمثابة نبع جديد للغة، نبع يعطى التأثير المطلوب كمصدر للتفاهم، وبه يستطيع الناس التكلم بوضوح، وأن ما يكتب يفهم من الجميع ويحقق التأثير المرجو منه. كان يستعمل لغة الأدب المناسبة المطابقة لمقتضيات التفاهم بين الناس، وخاصةً أولئك الذين لم يتح لهم الحصول على قدر كاف من

„Der Teufel achtet meinen Geist nicht so sehr als meine Sprache und feder in der Schrift. „

(١) قارن: Jacob Grimm: Deutsches Wörterbuch، 1845، S. 25

التعليم الدينى، وحتى يمكن للرجل العادى أن يصبح مسيحيا صالحًا. وكما سبق أن أشرنا إلى أهمية موقع وطن لوتر الجغرافى واللغوى وانتشار مراكز الطباعة الكبرى فى المدن الرئيسية الواقعة على أنهار الراين والماين والإلبى والزالى فورمس Worms، فرانكفورت Frankfurt، شتراسبورج Strassburg، تورجاو Torgau، فيتنبرج Wittenberg، ايرفورت Erfurt، كوبورج Coubourg، ايزناخ Eisnach، فايمار Weimar، ليبزيج Leipzig .

وكان لإنشاء الجامعات الألمانية فى مدن: إيرفورت Erfurt ١٣٧٣، ليبتزيج Leipzig ١٤٠٩، فيتنبرج Wittenberg١٥٠٢ دور مهم فى تخريج القساوسة وأهل الإدارة والموظفين ومقصد الآلاف من الدارسين، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر أنه كان يدرُس بجامعة فيتنبرج Wittenberg أربعة آلاف طالب، وهم يمثلون ضعف سكان المدينة آنذاك. حاول لوتر تطوير اللغة كأستاذ بالجامعة، خلفًا لأستاذه ومدعمه يوهان فون شتاوبيتس Johann von Staupitz (أستاذ الكتاب المقدس بجامعة فيتنبرج Wittenberg وهو المنصب الذى تقلده لوتر حتى وفاته) من كونها لغة الوثائق والأعمال التجارية، إلى لغة الوعظ والأدب الدينى والدنيوى، مستندًا فى ذلك على لغة وطنه، شرق ووسط ألمانيا، وساعده فى ذلك حركة الإصلاح التى بدأها والتى أدت إلى ازدهار مدينتى فيتنبرج وليبتزيج Wittenberg، Leipzig وكانتا مقصد الأساتذة والطلاب وأهل الطباعة ودور النشر والتجار من بقية أقاليم ألمانيا، وأدى هذا كله إلى تقارب الصيغ اللغوية فى المجال المكتوب والمنطوق، ولهذا يرى الكثير من المؤرخين أن لهجة شرق ووسط ألمانيا هى المصدر الأساسى لنشأة المعيار القومى للغة الأدب. ويذكر لوتر فى هذا الصدد وجهة نظره، التى ترى أن "اللغة فى حد ذاتها لا تصنع عالمًا فى اللاهوت، ولكنها وسيلة مساعدة لذلك. وإذا ما أراد المرء التكلم أو التحدث عن أمر ما فلا مفر من أن يتيقن من معرفة هذا الأمر وفهمه، قبل أن يتحدث عنه"[١]: "لم أكن أتحدث

---

(١) قارن النص فى مصدره الأصلى:
„Die Sprachen machen für sich selbst keinen Theologen‹ sondern sind nur eine Hilfe. Denn‹ soll einer von einem Dinge reden‹ so muß er die Sache zuvor wissen und verstehen.“ (Maess‹ Thomas‹ Dem Luther aufs Maul geschaut‹ a.a.O.‹ S. 77)

لغة خاصة بى، ولكنى تحدثت الألمانية العامة والشائعة، والتى يستطيع أن يفهمنى من خلالها كل مواطنى جنوب وشمال ألمانيا. إننى أتحدث طبقًا لما هو فى الدواوين السكسونية، التى يسير على نهجها كل الأمراء والملوك والنبلاء."[1]

وكانت وجهات نظر لوتر هذه السبب فى اعتبار القيصر ماكسيميليان والأمير فريدريش حاكم سكسونيا الألمانية لغة ذات كيان مستقل فى الإمبراطورية الرومانية، وهنا يتمثل بجلاء دور لوتر فى عملية توحيد الأمة عن طريق لغة مشتركة، لغة أدب موحد، ولهذا لم تواجه ترجمة الإنجيل مصاعب كبيرة، بل حدث بها تقارب أكبر فى الثروة اللغوية.

٢. ٤ دور لوتر فى تطور مستويات اللغة الألمانية

تطورت اللغة الأدبية المحلية مع الألمانية العامة فى كافة الولايات الألمانية، بل وتجاوزت حدودها إلى أن وصلت إلى السلاف فى الشرق، والفرانكيين فى الغرب. وكما سبق الإشارة أن اختراع الطباعة بالحروف المتحركة عام ١٤٥٠ على يد يوهان جينزفلايش جوتنبيرج Johann Gensfleisch Gutenberg كان له دور داعم، وفضل كبير، وإمكانيات أرخص، فى انتشار الكلمة المكتوبة، مقارنةً بما كانت تتكلفه الطباعة اليدوية من مال ووقت، وبعد أن كانت الطبعة لا تتجاوز المائة أو المائتى نسخة، أخذت تتجاوز بعض الطبعات الآلاف. نذكر على سبيل المثال كتاب لوتر إلى نبلاء الأمة المسيحية (١٥٢٠) ثلاثة آلاف نسخة، وعهد سبتمبر الجديد (١٥٢٢) خمسة آلاف نسخة، وهى طبعات لا تقدر أعدادها حاليًا بأى ثمن. كانت تتكلف طباعة النسخة من العهد الجديد نصف جولدن، وهو ما يعادل أجر عامل لمدة أسبوع. وفى عام ١٥٣٤ تكلفت اثنين ونصف جولدن، وهو ما يعادل ثمن خمسة عجول، وأصبح الكتاب بذلك سلعة تجارية مهمة، وأقيمت له المعارض الدولية فى ليبتزج وفرانكفورت، وازدهرت صناعة تجليد الكتب وفن الجرافيك والرسم، وبهذا أصبح للكتاب مهام جديدة فى مواجهة جمهور القراء.[2]

---

(١) قارن: Arndt / Brandt S.83 und Krell / Fiedler، S.58

(٢) قارن: Arndt / Gisela، ص ٦٣ ومابعدها.

وكان على لوتر أن يتخيل ما يهم القارئ فيما يكتب ويطبع، وخاصةً المواعظ والرسائل التى مثلت نقطة تحول مهمة وجوهرية ومباشرة ومحسوسة فى الاتصال بالجماهير.(١) وليس من باب الصدفة أن تكون تأملات لوتر وتوجيهاته للأم فى البيت وللرجل العادى فى الشارع أو السوق وللأولاد فى الأزقة بمثابة المقولة التاريخية، التى قدم بها مؤلفه "رسالة إلى المترجم"، ويدافع فيها عن ترجمته للكتاب المقدس موضحًا أنه "على الإنسان ألا يسأل حروف الألفبائية اللاتينية، كما يفعل حمير هذا الزمن، ولكن عليه أن يتجه إلى هؤلاء الناس."(٢) لقد أدت الطباعة إلى وصول الألمانية المطبوعة إلى كل أجزاء المناطق المتحدثة بالألمانية، وبدونها ما كان للإصلاح الدينى أن ينجح، وبدونها أيضًا ما كانت لتنتعش طباعة الكتاب، لهذا يؤكد مارتن لوتر الأهمية البالغة لهذا الكشف العظيم، الطباعة بالحروف المتحركة، فى خطبة له فى اليوم الثانى من أيام أعياد البشارة، وأثناء إقامته فى قلعة الفارتبورج سنة ١٥٢٢. ولا شك أن هذا الاكتشاف يعد، من وجهة نظرنا، من أهم الإنجازات الحضارية الفائقة التى لا يعادلها شيء آخر حتى يوم البعث.(٣) لقد غدت بفضلها كل أنواع الفنون فى متناول الناس، وما ارتبط بذلك من لغات شتى ومن علوم الحكمة، والتى يرجع فضل بزوغها إلى هذا الكشف الجديد.

ومع مطلع القرن السابع عشر أصبحت اللغة الأدبية لغة تعبير، أكثر منها لغة تعليم، وتطلب ذلك رعاية فائقة من قبل النحويين والمعجميين ومديرى المدارس والمطابع والشعراء والمفكرين. وكان ثمرة ذلك أن تأسست فى ١٦١٧/٨/٢٤ أول جمعية لرعاية اللغة الألمانية تحت مسمى: "جمعية جنى ثمار اللغة" „Die Fruchtbringende Gesellschaft“،(٤) التى كان من أحد مهامها العمل على استيعاب الألمانية لنص الكتاب المقدس بعد ترجمته بحرص وإتقان شديدين.

---

(١) يذكر جيرهارد ايبلينج فى مؤلفه عن لوتر أنه بمجرد أن تشرع أحد مطابع مدينة فيتنبرج فى طبع أحد رسائل لوتر، فسرعان ما تتبارى دور النشر وأصحاب المطابع فى مدن أخرى مثل ليبتزج ونورنبرج وأوجسبورج وشتراسبورج وبازل فى إعادة طبعها مرات ومرات.
قارن، ص ٥٦ .

(٢) قارن: Maess، Thomas: Dem Luther aufs Maul geschaut، a.a.O. ص ٥.

(٣) قارن: Arndt/ Gisela، a.a.O. ص ٦٨ .

(٤) قارن: المرجع السابق ص ٧٣ .

ولقد قال العالم اللغوى المعروف يوستوس جيورج شوتيل Justus Georg Schottel بحق، أن لوتر هو الصائغ الماهر للغة الألمانية التى غرس فيها كل ألوان الجمال والزخرفة والقوة والإبهار،[1] صاغها فى العديد من مؤلفاته. لقد قدر لوتر قوة الكلمة حق قدرها، وأكد أنه أراد أن يتكلم ويكتب وأن يكون مفهومًا فى كافة أرجاء ألمانيا، من الأصدقاء والأعداء على السواء. كان لوتر يركز عاطفته وعقله على أساليب اللغة السائدة، وعلى القصد المراد مما يقال للجمهور وبمقتضى النظام اللغوى المتاح، كمتحدث وككاتب وكمترجم ليس المراد لديه، هو اتباع مدلول الكلمة، وإنما أن تكون الكلمة فى خدمة المعنى المراد. كان يسعى دائمًا وراء تسلسل الأفكار. وإلى اختيار الكلمة وبناء وترتيب الجمل فى خطبه ومنشوراته الغنية بالمفردات وجزالة الألفاظ، وهو الأسلوب الذى اتبعه فى صياغة كتابى قواعد الدين المسيحى الكبير والصغير. وفى خطاب لصديقه فينسلاويس لينك Wenzeslaus Link عام ١٥٣٥ ردد نداءه إلى ربه الرحيم، أن يوفق فى التحدث بالألمانية وألا يرى فيها صعوبةً أو طولاً أو ضحالة، مثلما كان يحدث بالنسبة للكثيرين فى صناعة الكتب باللغة اللاتينية. وعلينا الآن أن نتعلم بقوة كيف نؤلف الكتب بالألمانية. كان نداؤه إلى الله: "يا أبانا الذى فى السماوات، أعطنا خبزنا اليومى، الخبز الذى يغذى الجسد، من طعام وشراب وملبس وحذاء، من منزل وفناء وحقل وماشية ومال، وروحانية تقية وأبناء أتقياء صالحين وخدم أوفياء، وأولى أمر صالحين وحكام ملتزمين وطقس معتدل وسلام وصحة وتربية نافعة، وشرف ومعارف وأصدقاء كرماء وجيران أوفياء وبررة."[2] صاغ لوتر كتابى "التعاليم المسيحية" على هذا النحو، واعتبرا من الأعمال الخالدة له بسبب أسلوبهما المهذب والمنقح، وكثيرًا ما كان يعاد طبعهما ونشرهما بعد موت لوتر حتى يومنا هذا. ونذكر هنا على سبيل المثال أنشودة الإصلاح المشهورة، والتى قام بتلحينها بنفسه: "إلهنا، حصننا المنيع، وسلاحنا وسندنا القوى..." وكان لوتر فى هذه الكتب يقتدى بعظات المسيح للشعب البسيط، بالأمثال والمأثورات والحكم،

(١) قارن: المرجع السابق ص ٧٤.
(٢) قارن: المرجع السابق ص ٨٤ وما بعدها .

وتقديم كل ما هو بهيج بالطبيعة، كمضى الليل وإقبال النهار. ساعد لوتر على هذا كله اتساع ثقافته وموقعه الوظيفي. وانتشرت آداب المواعظ فى كافة أرجاء ألمانيا، وهى عادةً ما كانت تختار من بين النصوص المترجمة من الإنجيل، وهى الترانيم التى كانت تقرأ أيام الآحاد والجمع وأيام الأعياد الكنسية طوال العام، وتمت صياغتها على غرار ما كان يقوم به يوهانيس تاولر Johannes Tauler. ويعكف لوتر، بعد حصوله على الدكتوراة فى اللاهوت عام ١٥١٢ ويتقلد وظيفة الواعظ إلى جانب أستاذيته بالجامعة، على جمع هذه العظات، التى بلغ عددها ١٩٧٨ موعظة، يضاف إليها ترانيم أخرى لأعياد البشارة والميلاد، واعتبرت من أهم الأعمال التى أنجزها ويقيمها العلماء كإسهام لغوى لا يقل شأنًا عن ترجمة الإنجيل وكتابى قواعد الدين المسيحى، وظهرت بعد موته فى طبعات عديدة، لما تضمنت من حسن البيان اللغوى والتقبل والارتقاء لدى السامع. وينسحب نفس الأمر على المنشورات التى كتبها لوتر بنفس الأسلوب، ولقيت أيضًا إقبالاً كبيرًا، لأنها تؤدى إلى تقارب مباشر مع المستمع. وظهرت مع مطلع عام ١٥٢٠ ما سمى بحرب المنشورات الأدبية، بين لوتر ومناصريه ومعارضيه، وازدادت شدتها وعنفوانها سياسيا وعقائديا، وكانت تطبع وتوزع بسرعة الريح، وذات صفحات موجزة لا تتجاوز الخمسين صفحة. وكثيرًا ما كان يعاد طباعتها مئات المرات وفقًا لتخطيط كل فريق ووفقًا لاحتياج القراء. وكان مواطنو الطبقة المتوسطة هم المستهلكون الأساسيون لهذه المنشورات، تلاهم السادة النبلاء والأمراء. وعادةً ما كانت تتضمن هذه المنشورات إبداعات أدبية فى أبيات من الشعر الساخر، أو الرسومات والمواعظ الموجهة لأغراض ومقاصد محددة.(١)

---

(١) يعتبر جيرهارد ايبلينج Gerhard Ebeling أن هذا النتاج الأدبى جعل من مارتن لوتر أديبًا وكاتبًا بارزًا، لما تضمنه هذا النتاج من مبادئ وقيم حركة الإصلاح، التى قام بها والتى أظهر فيها عبقرية لغوية فائقة تجاوزت تعبيراتها أحيانًا الخطوط الحمراء، ويجد له العذر فى ذلك باعتبار أن هذه التعبيرات كانت تمثل سمة من سمات لغة العصر. مزيد من التفصيلات:

So heißt es: „Luther als Schriftsteller ist begreiflicherweise vor allem durch seine reformatorischen Kampfschriften geprägt‹ in denen er ein geradezu unheimliches Talent schlagkräftiger Polemik entfaltete‹ zuweilen bis über die Grenze des Erträglichen.“ (Gerhard Ebeling‹ S. 50)

ويرجع لوتر أهمية المنشورات هذه، والتى صيغت من كلا الفريقين، إلى أنها ألهبت الوعى السياسى لدى عامة الشعب، وساعدت فى انتشار الألمانية على نطاق أوسع، بل وساعدت كمعيار لغوى موحد للأمة فى اجتياز الحدود الإقليمية وقد احتلت مساحات واسعة لدى الجمهور المستقبل، وهذا أدى بدوره إلى تطوير لغة الأدب وتعميمها على جموع الشعب فى فترة مليئة بالصراع. لقد أدت كتابة المواعظ والمنشورات الأدبية هذه دورها فى جعل لوتر شاعرًا موهوبًا يقرض الشعر الغنائى ويستخدمه فى الترتيل الكنسى وكوسيلة جيدة للاتصال بالجمهور، وكان لا ينافسه فى هذا الشأن سوى غريمه توماس مونتسر Thomas Müntzer نصير الفلاحين، الذى قام بترجمة العديد من الأغانى الكنسية من اللاتينية إلى الألمانية.

وقد حاول لوتر أن يقلل من شأن الصياغات اللاتينية للأغنية، محاولاً إبدالها بالألمانية، ولتكون معيارًا جيدًا أثناء أداء طقوس القداس مركزًا على الأغنية الجماعية ذات التأثير الجماهيرى العريض، وجمع كتابًا للأغانى فى عام ١٥٢٤، تضمن أثنين وثلاثين أغنية ألمانية وخمس أغنيات لاتينية، حاول فيها إبراز النغمة المناسبة للكلمة وإعطاءها القوة المرادة، وجاهد مرارًا فى أن يشجع الأطفال والشباب والكبار على ممارستها وغنائها بصورة جماعية، وعلى ألا يقتصر غناؤها داخل الكنيسة، بل على الناس أن تغنيها فى المدارس وفى أماكن العمل. كانت الأغنية بالنسبة للوتر وسيلة خاصة ومهمة لاكتمال تأثير الموعظة وتثبيت الإيمان، كما أنها أثرت فى أعمال الترجمة وفى تطويرها إلى الأحسن.[1] وساد تأليف

---

(١) قارن: Landgraf، a.a.O. ، ص ٢٢٨ وما بعدها.
ويورد السيد لاندجراف ميل مارتن لوتر منذ طفولته للغناء فى الشوارع أمام بيوت المواطنين هو وأقرانه التلاميذ، لأن الأغنية تعطى النص حياة، وقد استند لوتر فى تأليفه للأغانى كما فعل أثناء ترجمته للإنجيل إلى تراث وعادات الشعب، مما أعطى أغانيه سمة التأثير الجماهيرى العريض. ويذكر المؤلف إلى جانب ذلك كما هائلا من الأغانى الخالدة التى تغنى بها جماهير الكنيسة الإنجيلية مثل "إلهنا حصننا، يا إلهنا فى السماء، فى معترك حياتنا، افرحوا يا شعب المسيح، ويختتمها بالأغنية الشعرية للحدث الذى هزه من الأعماق فى الأول من يوليو ١٥٢٣، حيث تم إعدام شابين من أتباعه حرقا بالنار فى مدينة بروكسل فى بلجيكا بتعليمات من القيصر كارل الخامس، وأعطاها عنوان " أغنية شهيدى المسيح" „Lied von den zwei Märtyrern Christi“، والتى بدأها:

Ein neues Lied wir heben an

أشعار المزامير العديدة المحتوية للاعتقاد المسيحى والتى ضمنها لوتر فى كتابيه "قواعد الدين المسيحى"(١٥٢٥)، منها على سبيل المثال لا الحصر: أغانى الوصايا العشر، أبانا الذى فى السماوات، عقيدة التثليث، التعميد، العشاء الربانى، أغانى أعياد الميلاد، وأعياد الفصح والعنصرة. لقد ضمن لوتر هذه الأغانى تجاربه ومعايشاته الشخصية وأحاسيسه ومشاعره الداخلية، والمبرزة لتجاوبه مع الكتل العريضة من الجماهير، ولعلنا نتذكر قصيدته الغنائية للأطفال عام ١٥٤٢، والتى كتبها ضد البابا والأتراك: "احفظنا يا إلهى فى كلمتك!" "Erhalt uns Herr bei deinem Wort" أو ترنيمته للمزمور ١٣٠: "من ضيقى الشديد أصرخ إليك" "Aus tiefer Not schreie ich zu dir" والتى كان يطلق عليها أحيانا أغنية استقبال الموت، وعلى رأس هذه الأغانى ترنيمة الإصلاح والتى مثلت لديه تاج المزامير والتى استقى كلماتها من المزمور ٤٦، ويدور محورها حول المسيح المخلص. وأقدم للقارئ هذه الترنيمة فى نصها الألمانى وترجمة لها إلى العربية:

Ein feste Burg ist unser Gott،	إلهنا حصننا المنيع
eine gute Wehr und Waffen،	وقوتنا وسلاحنا
Er hilft uns frei aus aller Not،	عوننا في ظل ضيق شديد
die uns jetzt hat betroffen	ألم بنا الآن
Der alt böse Feind،	والشيطان المارد المؤذى
mit Ernst er' s jetzt meint:	وصادق مبيت النية
groß Macht und viel List	واستخدام سلاح وحشى

sein grausam Rüstung ist	مدعم بالحيلة والبأس الشديد
auf Erd ist nichts seins gleichen.(١)	ليس كمثله شيء على الأرض
Mit unserer Macht ist nichts getan،	وقوتنا واهنة عاجزة
wir sind gar bald verloren.	ومصيرنا الهلاك العاجل
Es streit، für uns der rechte Mann،	ويناضل الرجل الحق من أجلنا
den Gott hat selbst erkoren.	اختاره الله واصطفاه
Fragst du، wer der ist ?	ولك أن تسأل من هو ؟
Er heißt Jesus Christ،	إنه يسوع المسيح
der Herr Zebaoth،	الملقب بياهو
und ist kein ander Gott،	ليس من إله غيره
das Feld muss er behalten.	ولا مفر من انتصاره في ملكوته

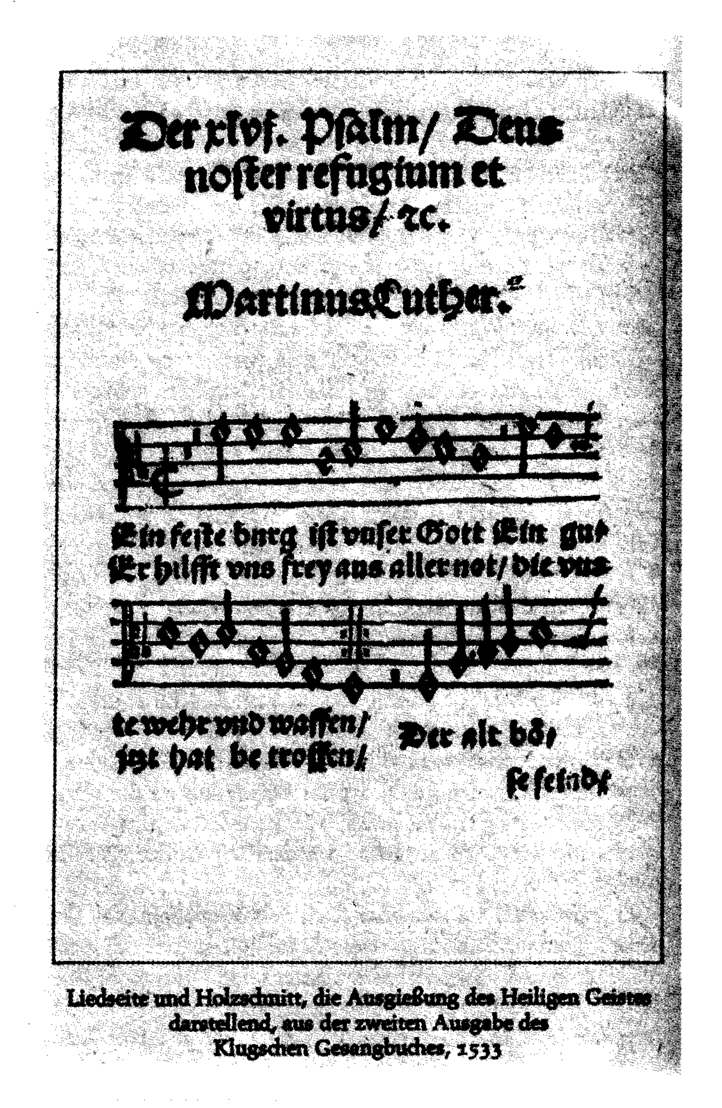
(١) قارن: http://www.cs.ualberta.ca/~wfb/cantatas/80.html

وقارن أيضًا، مارتن لوثر: شرح موجز لأصول التعليم المسيحى، الكتاخيسمس الصغير، كتاب عن العقيدة المسيحية، ترجمه إلى العربية: موريس أديب جهشان، بيروت: المركز اللوثرى للخدمات الدينية فى الشرق الأوسط، ١٩٨٨، ص ٨ .

Und wenn die Welt voll Teufel wär	حتى لو امتلأت الدنيا بالشياطين
und wollt uns gar verschlingen،	وأرادوا أن يلتهمونا
so fürchten wir uns nicht so sehr،	فلن نخشاهم كثيرًا
es soll uns doch gelingen.	ويكون النجاح حليفنا
Der Fürst dieser Welt،	وأمير شياطين هذه الدنيا
wie sauer er sich stellt،	ملتحفًا بالمرارة والجهامة
tut er uns doch nicht;	فلن يملك الضر بنا
das macht، er ist gericht.	ذلك أنه مدان
ein Wörtlein kann ihn fällen.	فكلمة صغيرة تستطيع أن تهلكه
Dass Wort sie sollen lassen stahn	ولا مفر من أن يدعوا الكلمة باقية
und kein Dank dazu haben;	فلا فضل لهم في ذلك
er ist bei uns wohl auf dem Plan	إنها رسمت في صدورنا

mit seinem Geist und Gaben.	بروحها وآلائها
Nehmen sie den Leib.	فإن سلبونا الجسد
Gut، Ehr، Kind und Weib،	والضياع والشرف والزوج والولد
lass fahren dahin،	فلنمت ويهب الجمل بما حمل
sie haben 's kein Gewinn،	فسيكون حصادهم مثلما زرعوا
das Reich muss uns doch bleiben.	ويبقى لنا فى النهاية ملكوته
(Entnommen aus :WA 35،S.455 ff.)	(قارن:طبعة فايمار، ج ٣٥ ص ٤٥٥ وما بعدها

كانت قوة الكلمة فى هذه الأغانى، تضفى على من يشدون بها تفاؤلاً وبشرى بالنصر وعمق الإيمان ضد كل أنواع الصراعات الضارية. ومن الجدير بالذكر أن مارتن لوتر لم يكن يقرض الشعر فحسب، بل إنه كان يضع لبعض أشعاره الألحان الموسيقية المناسبة، ونقدم للقارئ على سبيل المثال لا الحصر لحن ترنيمة الإصلاح، التى وضع نوتتها الموسيقية بنفسه:



Liedseite und Holzschnitt, die Ausgießung des Heiligen Geistes darstellend, aus der zweiten Ausgabe des Klugschen Gesangbuches, 1533

صورة طبق الأصل من ترنيمة قصيدة الإصلاح مكتوبة على لوحة من الخشب وهى موجودة فى الطبعة الثانية لكتاب الأغانى و المزامير الصادر عام ١٥٣٣م.

يروى أن شاعر ألمانيا هاينرش هاينىHeinrich Heine وفيلسوفها Friedrich Engels فريدرش إيجيلز أطلقا على كورال النصر: "إلهنا حصننا"،

والمعروف بترنيمة الإصلاح أنشودة مرسيلييز Marseillaise القرن السادس عشر، وذلك من منطلق أنه أصبح أنشودة النصر للبروتستانتية ضد كل أعدائها.[1]

وكان لوتر فى كل صياغاته يقتبس بعض الألحان السابقة له، والبعض الآخر يقوم هو بصياغتها وبتلحينها بنفسه، وبذلك يقدم لنا مارتن لوتر إسهامًا آخر لتاريخ الموسيقى الألمانية، مما حدا بالكثير من المؤرخين إلى تبنى الرأى الذى يقول إن ازدهار الموسيقى الألمانية يرتبط ارتباطًا عضويا بحركة الإصلاح الإنجيلى، التى خلقت القوة الدافقة لجماهير الشعب الديمقراطية، متمثلةً فى جذور الموسيقى البروتستانتية الألمانية. فنرى على سبيل المثال اقتناع المؤرخ الإنجليزى الكبير ول ديورانت بأن: "حركة الإصلاح الدينى الألمانية لم تكن سوى ثورة فى الموسيقى، مثلما كانت ثورة فى اللاهوت" ويأتى اقتناع ديورانت من منظور الأرستقراطية المفرطة عند أداء طقوس الكنيسة الكاثوليكية واحتقار أدائها عند الكهنة. وعلى النقيض من ذلك ينادى الإصلاح الدينى اللوترى بتواجد جماهير الشعب داخل الكنيسة وأداء القداس بلغته القومية، وينفتح الطريق أمام مارتن لوتر إلى خلق موسيقى دينية تحرك مشاعر الناس وفيها تسود اللغة القومية محل اللاتينية، وتتحول على يديه أغانى فرق الإنشاد من الطباق إلى شكل إيقاعى مفهوم، يقوم فيه المصلون والمرتلون بدور إيجابى فعال."[2]

ويرجع البعض منشأ الأغنية المرتبطة بحركة الإصلاح البروتستانتى إلى ثلاثة مصادر:

١. تراتيل وأغان ملحمية كنسية قديمة سبق صياغتها باللاتينية.

أغان ألمانية قديمة سادت الكنائس وتحولت بالتدريج إلى أغان شعبية.

---

(١) قارن Arndt، ص ١١١، وقارن أيضًا، لاندجراف Landgraf ص ٢٢٨.
قارن أيضا:

Heine، Heinrich: Zur Geschichte der Religion und Philosophie

نقله إلى العربية : صلاح حاتم تحت عنوان :"فى تاريخ الدين و الفلسفة، اللاذقية، سوريا،١٩٨٨،ص٥٦ وما بعدها.

(٢) قارن: ول ديورانت: قصة الحضارة، ج ٥، مجلد ٦، الإصلاح الدينى، ترجمة محمد على أبو درة، مراجعة على أدهم، إصدار، الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٢٢٣ وما بعدها.

٢. أغان ألمانية شعبية علمانية.

لقد قدر لوتر الموسيقى حق قدرها ووضعها فى أعلى مصاف الفنون، وهى عنده تطرد الشيطان، وتغمر الناس بالفرح والسرور وتكبح الغضب والثورة ولها مكانتها الشرفية الأولى، تُعد علوم اللاهوت ولها وظيفتها التربوية فى تهذيب مشاعر وعواطف الناس وفى سمو سلوكهم وأخلاقهم.[١] لقد ملك لوتر شفافية موسيقية عميقة نظريا وعمليا وساعده فى ذلك إجادته للغناء والتلحين، ويروى عنه أنـــه كان يجيد أصوات التينور والتى تؤدى إلى نغمات متعددة الأصوات. وكثيرًا ما شدا لأطفاله بالمنزل بأغانى تصور دنيا الطفل وعالمه، وكان يقتبس صياغتها الشعبية اقتباسًا نصيا أحيانًا أو يغير بعضًا من قوافيها أحيانًا أخرى، ومثال لذلك:

Volkslied:	النص الشعبى:
Ich kam aus fremden landen her	لقد أتيت إليكم من أرض غريبة،
und bring euch vil der newen mär،	حاملاً معى الكثير من الحكايات الجديدة،
mer dann ich euch hie sagen will	لأتحدث إليكم عنه
Luther:	النص اللوترى

(١) قارن:.a.a.O ، Michael،Meisner ،ص ١٣٥ وما بعدها، وقارن أيضًا، Arndt ص ١١٠ .

Vom himel hoch da kom ich her،	لقد قدمت إليكم من السماوات العلا،
ich bringe euch gute newe mehr،	حاملاً معى بشائر جديدة،
der guten mehr bring ich so viel،	أمور حسنة وخيرات كثيرة جئت بها،
davon ich singen und sagen wil.(١)	لأتحدث وأتغنى بها معكم.

لهذا لم يكن مستغربًا من لوتر أن يؤكد القول: "لن أتخلى عن موهبتى الموسيقية المتواضعة، مقابل أى شيء مهما كان عظيمًا وأنا لا أرى أنه ليس هناك فن بعد اللاهوت، يمكن أن يضارع الموسيقى لأنها بعد اللاهوت تمنحنا راحة القلب ومسرة الفؤاد.(٢) ونؤكد مرة أخرى أن لوتر منح الموسيقى وسامًا شرفيًا لم ينله غيرها سوى علوم اللاهوت. لقد درسها وهو طالب وأجادها نظريا وعمليا وكثيرًا ما قرظها بأحلى الكلام، فى مجموعات الأغانى الجنائزية وجاهد فى تشذيب هذه الأغانى الشعبية، ليجعلها بعيدة عن أغانى العشق الفاسد وشهوات الجسد، وأجاد أيضًا دراسة الأصوات اللغوية وتنغيم الجملة، وهو ما نتبينه بوضوح فى أغانى أعياد الميلاد وتمجيد شهداء المسيحية الأول، وبشعره المقفى الذى يعطى النبرة الطبيعية للكلمة المنطوقة. هذا الوسام النابع من تقدير لوتر لفن تعدد الأصوات والطباق الموسيقى وتعبيراته المليئة بالحماس والحمية، التى سجلها بنفسه عام ١٥٣٨ "إذا شحذ الفن الموسيقى الطبيعية وصقلها، يبدأ الإنسان يدرك فى عجب

---

(١) قارن، Arndt، a. a. O. ، ص ١١١.

(٢) قارن: ول ديورانت: قصة الحضارة، ج ٣، مجلد ٦، ص ١٣٠.

ودهشة، حكمة الله العظيمة البالغة حد الكمال فى موسيقاه الرائعة، حيث يقوم صوت واحد بدور بسيط، ويغنى حوله ثلاثة أو أربعة أو خمسة أصوات أخرى، تثب وتنطلق هنا وهناك، تزين الدور البسيط، وكأنها رقصة تربيعية فى السماء. إن الذى لا يجد فى هذا معجزة تفوق الوصف من عند الله، ليس إلا غبيا حقيرًا، لا يستحق أن يعتبر إنسانًا."(١)

كثيرًا ما كان لوتر يحاول أن ينتقى النص والفكرة التى يتضمنها ليدوم محتواهما فى عقول الناس ووجدانهم، عن طريق اللحن الموسيقى وخاصةً الألحان الكنسية القديمة. لقد رأى لوتر أن النبر اللغوى يتبع الإيقاع الموسيقى، وهذا يعنى جعل النص واللحن يتبعان بعضهما بعضًا، ويقدمان كوحدة إمكانيات أكثر لتدريب التلاميذ وخاصةً صبيان المرتلين، على الغناء الكنسى الجماعى، وحتى ينضم ويلتحم معهم بقية جمهور الكنيسة لهذا اللون من الغناء. لقد رسخ الشعر الغنائى عند لوتر بنية الجملة فى اللغة الألمانية وفى محتواها، وخاصةً ما كان يرمى إليه النص من تعاليم وحكم ومأثورات، موجهة بوجه خاص لأولئك الذين لا يستطيعون القراءة والكتابة، وذلك من خلال السماع والحفظ عن ظهر قلب. لهذا لم يكن غريبًا أن يرجع عظماء مفكرى القرن الثامن عشر وعلى رأسهم هردرHerder، وجوته Goethe إلى أسلوب لوتر، فى صياغتهم وتأليفهم للأغانى والقصائد. وهى الصيغ التى بقيت حية فى وجدان الناس وفى الاستخدام اللغوى، وخاصةً فى حقلى الشعر والنثر لما بهما من عناصر الجذب والتشويق.(٢)

---

(١) قارن: ول ديورانت: قصة الحضارة، ج٥، مجلد ٦، ص ٢٢٩ .

(٢) يبرز جيرهارد إيبلينج الإسهام الفائق للغة مارتن لوتر فى كونها القدوة والمثل الأعلى، والتى مهدت الطريق لتحرير العقل والضمير الإنسانى فى فترات عصر التنوير وعصر العاصفة والاندفاع وانتهاء بالتوازن بين العقل والعاطفة والذى ساد فى العصر الكلاسيكى والرومانتيكى. هذا التطور الذى شهدته تلك العصور الأدبية جعل لمارتن لوتر سهمًا وافرًا فى التغيير الجذرى الذى نقل العالم من ظلمات العصور الوسطى إلى أنوار العصر الحديث. قارن، ص ١٢.

٢. ٥ أهمية ترجمة الإنجيل الى الألمانية

ولعلنا لا نبالغ فى القول أن أكبر إسهام لغوى أنجزه مارتن لوتر، هو وضع اللغة فى خدمة الإنجيل، وليس من المستغرب أن نعلم أن أعداد طبعات بعض أجزاء من الإنجيل، التى ترجمت على يد لوتر فاقت كل تصور، وذلك لفاعلية اللغة التى حوت نصوصها. وقد بلغ عدد الطبعات منذ ترجمة "عهد سبتمبر (١٥٢٢)"، وحتى ممات لوتر (١٥٤٦) ما يزيد عن أربعمائة، منها ١٠١ طبعة، فى مدينة فيتنبرج الصغيرة، كانت تنشر وتوزع فى جميع أنحاء ألمانيا باستثناء منطقة الجنوب الشرقى (بافاريا)، والتى بقيت كاثوليكية حتى أيامنا هذه. قدمت مدينة أوجسبورج ٦١ طبعة، ومدينة شتراسبورج ٤٦ طبعة، ونورنبرج ٣٥ طبعة، ولم يطبع الإنجيل اللوترى فى مدينة ليبزج إلا بعد وفاة دوقها الكاثوليكى جورج. لقد ساعدت ترجمة لوتر على تقبل عامة الناس للغة الفصحى، ولاسيما فى مناطق الشمال التى كانت تتحدث بلهجات مخالفة، ويذكر أنه فى خلال نصف قرن ١٥٣٤ ـــ ١٥٨٤ بيعت فى الأسواق ما يزيد عن مائة ألف نسخة، ثم زيدت إلى نصف مليون ليتداولها ما بين ١٢ ـــ ١٥ مليون ألمانى. ويعقب الباحث شريكنباخ على الأهمية اللغوية، التى جعلت من ترجمة لوتر للإنجيل قداسة خاصة عند أتباعه، وغرمائه سواء بسواء، وذلك من منظور أن لغته مثلت وعاء لحفظ اللغة الألمانية من التدهور.[(١)]

وعود على بدء، فإننا نذكر أن فكرة ترجمة الإنجيل من قبل لوتر نمت ونضجت لديه أثناء إقامته الجبرية عام ١٥٢١ فى قلعة الفارتبورج، وهى الفترة التى اختفى فيها بعد صدور الأمر البابوى بتكفيره.

واستغرقت ترجمته للعهد الجديد أحد عشر شهرًا، كان يؤلف بجانبها كتاب المواعظ. طبعت ترجمة العهد الجديد هذه تحت مسمى "عهد سبتمبر(١٥٢٢)" والذى دبجه ودعمه بلوحات فنية من رسومات الفنان الألمانى الكبير لوكاس كراناخ

---

(١) قارن:

Schreckenbach، a.a.O.، ص ١٦ وما بعدها

Lucas Cranach والتى بلغ عددها إحدى وعشرين لوحة، وتبرز هذه اللوحات الهجوم اللوترى على بابا روما وكنيسته. وتنامى الطلب على هذه الطبعة ولكن سرعان ما ظهرت طبعة ديسمبر ١٥٢٢، التى عدل فيها أكثر من مائة موضع، وأعقبها فى السنوات التى تليها بمواصلة ترجماته العديدة، حيث بدأ فى ترجمة الأسفار الأولى من العهد القديم (التوراة) ١٥٢٣، سفر أيوب، المزامير، الأمثال، وهى الأمور التى تضمنها فيما بعد كتاب الأنبياء. استكمل لوتر الإنجيل على هذا النحو وأرفق به سبعة عشر نقشًا خشبيا، وطبعت منه فى مدينة فيتنبرج اثنتا عشرة طبعة، وفى ليبزيج ثمان عشرة طبعة، وشبيه بهذا العدد بمدن أخرى، كأوجسبورج وزيورخ وشتراسبورج وفرانكفورت وفورمس. وقد حاول بعض الدارسين عقد مقارنة علمية للصيغ المختلفة، التى قدمها مارتن لوتر لمواعظه ذات الصلة بالكتاب المقدس يتبين منها العمل الشاق والجهد المضنى الذى بذله لوتر فى صياغتها بترجمة دقيقة، وبأسلوب سلس، والتى تعتبر اللبنات الأولى والخطوط الرئيسية لتطور التاريخ اللغوى للألمانية منذ بداية القرن السادس عشر. ومن المفيد أن نذكر أن هذا النصر الذى أحرزه لوتر وهذا الجهد الفائق لم يكن جهدًا فرديا من لوتر، وإنما ساهم فى ذلك استعانته بدائرة واسعة من أصدقائه ومعارفه العالمين ببواطن الأمور، والذين لم يبخلوا عليه بالرأى والنصح والاستشارة وعلى رأسهم على سبيل المثال لا الحصر:

١. جيورج رورر Georg Röhrer (١٤٩٢ – ١٥٥٧) وكان المسئول والقائم على تصحيح الطبعات الجديدة من إنجيل لوتر.
٢. فيليب ميلانشتون Philipp Melanchthon (١٤٩٧ – ١٥٦٠) وكان يعمل أستاذًا للغة اليونانية والعبرية بجامعة فيتنبرج وصديقًا حميمًا لمارتن لوتر، والذى قاد حركة الإصلاح بعد وفاته.[١]

---

(١) يروى عنه أنه كان معلم ألمانيا، ويصف عمق صداقته للوتر بمقولته: "إنه من الأفضل لى أن أموت ولا أفترق عن هذا الرجل." „Ich würde lieber sterben als von diesem Manna getrennt zu sein"
قارن: www.luther.de/themen/melanch.html

٣. يوهانس بوجنهاجن Johannes Bugenhagen (١٤٨٥ـ١٥٥٨) أحد قساوسة منطقة بومرن وأستاذ اللاتينية ورئيس كنيسة فيتنبرج. وكان منظمًا بارعًا لحركة الإصلاح فى ألمانيا وفى الدول الإسكندنافية، وكان يلقبه لوتر بالدكتور البوميرانى نسبة إلى المنطقة التى ينتمى إليها. كما أنه تولى رعاية أرملة لوتر وأبنائه بعد وفاته.(١)

٤. ماتيوس أوروجالوس Matthäus Aurogallus (١٤٩٠ ـ ١٥٥٣) وكان أستاذًا للغة العبرية بالجامعة.

٥. كاسبار كروسيجر Caspar Cruciger (١٥٠٤ـ١٥٦٤) يعد أحد تلاميذ الدكتور Petrus Mosellanus وكان أستاذًا للاهوت وللغة العبرية بجامعة فيتنبرج، ورئيسًا لمدرسة يوهانس بمدينة ماجدبورج، وشارك مشاركة فعالة فى حركة الإصلاح بمدينة ليبتزج، وإعداد مؤلفات مارتن لوتر للطبع.(٢)

٦. يوستوس يوناس Justus Jonas (١٤٩٣ـ١٥٥٥) درس الحقوق وعلوم اللاهوت، وكان أستاذًا للقانون بالجامعة، وأحد كبار مترجمى اللاتينية منها وإليها. ربطته صداقة حميمة بلوتر، عمقتها مساعدته للوتر المستمرة فى ترجمة الإنجيل وفى رفقته إلى برلمان الرايخ الذى عقد بمدينة فورمس ومدينة أوجسبورج، كما رافقه فى رحلته الأخيرة إلى مدينة أيسليبين، وشارك فى مراسم دفنه بكنيسة القصر.(٣)

٧. جيورج شبالاتين Georg Spalatin (١٤٨٤ ـ ١٥٤٥) وكان من كبار أساتذة علوم الإنسانيات واللاهوت وأحد رجال بلاط الأمير فريدريش الحكيم، وكان يمثل حلقة الصلة بين لوتر والأمير الحاكم، وكثيرًا ما كان

---

(١) قارن: www.luther.de/themen/bugenh.html
(٢) قارن: www.alt.wittenberg.de/seiten/personen/cruciger.html
(٣) قارن: www.luther.de/themen/jonas.html

يقدم الدعم لحركة الإصلاح من خلال موقعه، وكان يمد مكتبات الجامعة بالكتب والدوريات العلمية اللازمة، وكان شبالاتين صاحب معرفة أصيلة بالكتاب المقدس. وكانت تربطه بلوتر علاقة حميمة لدرجة أن مارتن لوتر قد كتب له ما يربو على أربعمائة رسالة يوصيه فيها بدعم الجامعة وحركة الإصلاح.(١)

٨. لوكاس كراناخ الكبير Lucas Cranach der Ältere (١٤٧٢ـ١٥٥٣) وهو أحد كبار فنانى الحفر على الخشب، وكبار الرسامين الألمان وكان يعمل ناشرًا. تزوج من ابنة عمدة مدينة جوته Gotha، وشهد وزوجته على عقد زواج مارتن لوتر والسيدة الراهبة كاتارينا فون بورا. ويعد كراناخ من أغنى مواطنى مدينة فيتنبرج، وكان عضوًا لسنوات طويلة فى مجلس بلديتها حتى تولى منصب العمدة فيها.(٢)

٩. يوهانس جينزفلايش جوتنبرج Jahannes Gensfleisch Gutenberg تجلى إسهامه فى تيسير طباعة مؤلفات ورسائل لوتر، والتى أدت إلى سرعة انتشار قيم ومبادئ الإصلاح فى كل ألمانيا وفى خارجها، وخاصة خفض تكاليف أسعار طباعتها.

١٠. فريدريش الحكيم Friedrich der Weise (١٤٦٣-١٥٢٥)، وهو صاحب الدور الأكبر فى الحفاظ على أمن وحماية مارتن لوتر، ونجاح حركته الإصلاحية. وهو الابن الأول للأمير المنتخب أرنست Ernst، الذى ينتمى إلى عائلة الفيتنجيين Haus der Wettenger وذلك عام ١٤٦٣ فى قصر هارتنفيلز Hartenfels بمدينة تورجاو Torgau. تولى الحكم بولاية سكسونيا الأرنستية عام ١٤٨٦ مشاركة مع أخيه الأصغر يوهانس Johannes. كان الأمير فريدريش من أكبر المدعمين للعلوم

(١) قارن: www.luther.de/themen/spalatin.html
(٢) قارن: www.luther.de/themen/lac.html

والفنون فى عصره وهو المؤسس لكنيسة القصر وجامعة فيتنبرج، التى خرجت منها حركة الإصلاح اللوترى، ووجد لوتر فيه الحماية الكافية بفضل حنكته الدبلوماسية وعدم موافقته على تسليمه أو محاكمته خارج ألمانيا. توفى عام ١٥٢٥ بعد أن وقف لوتر على أقدامه فى حركته الإصلاحية.(١)

إن نظرةً دراسية تعود بنا إلى وطن هؤلاء العلماء والأمراء، المشار إليهم بعاليه، فنرى أنهم يمثلون دائرةً واسعةً لكافة أنماط اللغات واللهجات الإقليمية لأوطانهم الصغيرة، والتى ظهرت ثمارها فيما بعد فى صياغة النصوص المنقحة والملاحظات الهامشية، والتى كان يعدها لوتر فى مؤلفاته، وذلك من أجل حماية وتأمين النص المنقول عن اللاتينية. ولا بد من القول أن النص اللوترى للإنجيل تفوق تفوقًا كبيرًا من خلال هذا التعاون الجماعى والإضافات والتعليقات الموضحة على أية ترجمة أخرى، بل على كافة الصيغ الكنسية اللاتينية الشائعة والتى كانت تعتمد عليها البابوية فى روما.(٢)

كانت ترجمة لوتر للإنجيل تمثل، من وجهة نظرنا، واجبًا تاريخيا حيث وضع نصب عينيه أن يكون العهد الجديد مفتاحًا لاستيعاب مفهومه الاعتقادى والدينى والذى يرى فى الإنجيل رسالة فرح وحبور وحياة ومتعة، ودون التقيد بقيود اللوائح والوصايا التى تضمنها العهد القديم وهى من الأمور التى دفعت لوتر لتأليف كتابه المشهور: "عن حرية الإنسان المسيحى"(١٥٢٠) "Von der Freiheit eines Christenmenschen". كانت قيود اللوائح والوصايا التى تضمنها العهد القديم هى أيضًا القوانين واللوائح التى سار عليها باباوات روما ممثلة فى النظام المتدرج فى الرئاسات ، Hierarchie ، التى انسحبت على كافة الوظائف فى المقر البابوى، وخلقت ما سمى بنظام الرهبنة وألوان أخرى من القداسات التى قادت الكنيسة أن تكون على قمة النظام الإقطاعى، فارضةً على كافة الطبقات

---

(١) قارن: www.luther.de/thmen/friedr.html

(٢) قارن: Gerhard: Martin Luther-ausgewählte Schriften- ، Karin/ Ebeling،Bornkamm
Briefe،BdVI ،Framkfurt M. ،1982 ص ٣٠٥ وما بعدها.

المزيد من الضرائب و الإتاوات والهبات وبيع صكوك الغفران، مقابل افتداء الآثام وهى الأمور التى حدت بلوتر فى البداية إلى كتابة حججه الخمس والتسعين الخاصة بحركة الإصلاح فى ٣١/١٠/١٥١٧، والتى جعلت وضع الكنيسة والباباوية محل تساؤل كبير. وهنا يجىء دور لوتر ليرى الحاجة الماسة لدى الناس فى استيعاب وفهم الإنجيل بلغة جديدة، وليقدمها للرهبان والقساوسة وأساتذة الجامعة وعامة الشعب.

لقد سبقت لوتر ترجمات للإنجيل عديدة نذكر منها على سبيل المثال:

ترجمة إنجيل منتل Mentel والتى ظهرت فى عام ١٤٦٦ فى شتراسبورج، وطبعت منها أربعة عشر طبعة، وأُخذ على هذه الترجمة صعوبة النص وفهمه للقارئ. ويسجل المؤرخون إحصاءً بوجود ٧٢ ترجمة ألمانية سابقة لترجمة لوتر.(١)

ترجمة الأسقف فولفيلا Wulfila فى القرن الرابع إلى القوطية، والتى ترجمها عن اليونانية.

ترجمة جون وكليف John Wyclif (١٣٢٠ ــ ١٣٨٤) إلى الإنجليزية.

ترجمة يان هُوس Jan Hus إلى التشيكية.

لقد هدف مارتن لوتر بترجمته للإنجيل، إلى تحقيق هدفين أو أمرين: الأول: تــوفير المعرفة لكــافة المؤمنين للاقتراب من كلمة الله، وخــاصةً لأولئك الذين لا يعرفون اللاتينية؛ والأمر الثانى: مواجهة جمود الاعتقاد البابوى والعمل على توفير كنيسة بسيطة بعيدة عن الشبهات، تُلغى فيها وساطة القساوسة الإلهية للبشر، إلى جانب تلبية رغبات الطبقة الوسطى وتحاشى فلسفة أرسطو وفلسفة العصور الوسطى المدرسية، وليحل محل كل ذلك نصوص الإنجيل الأصلى فى مكان الصدارة وخاصةً فى الدراسات الجامعية.

---

(١) قارن: Arndt ص ١٣٠.

لقد فاق لوتر أسلافه المشار إليهم فى ترجماتهم وفى طلاقة اللسان والوضوح وقوة التعبير اللغوى المناسب لعصره، بعد أن استوعب كل الاتجاهات فى تاريخ اللغة. وقد أثبتت أبحاث هـــ. فولف H. Wolf: "أن النجاح الذى حظيت به ترجمة لوتر يرجع فى المقام الأول إلى سهولة ووضوح جمال لغته."[1] ولا ينكر جاحد المعاناة التى كان يعيشها لوتر، أثناء إنجازه لهذا العمل وتحمله بما لا يمكن أن تتحمله نفس بشرية، ولكن جهده الفائق هذا لم يذهب هباء، خاصة بعد أن انتشرت ترجمته انتشارًا مدهشًا، وفى فترة تاريخية محدودة. لقد كان لهذا الإنجاز دور مهم فى الصراع السياسى والاجتماعى والعقائدى وكذلك فى أعمال الترجمة، والتى كان يرى الكثيرون أنها كانت مطابقة لأحاسيس ومشاعر لوتر المرهفة، ولتخصصه الدقيق، ولإدراكه المتنامى، لدور اللغة كوسيلة اتصال وتفاهم مما أعطى الترجمة رهبة وقدسية للقارئ والسامع على السواء. ولم يكن ليحدث هذا الإنجاز القيم إلا بعد استفادة لوتر من الدراسات والنتائج العلمية المتعلقة بنقل النص من اللغات القديمة. لقد تحمل لوتر بترجمته هذه مسئولية كبيرة تجاه حياة ومعتقد جماهير الشعب فى الأمور الدينية والثقافية، واعتبرت أحاديثه وعظاته وخطبه ومنشوراته وتجاربه ودراسته اللغوية عاملاً مدعمًا فى دقة اختيار اللفظ والكلمة، ولهذا لم يكن مستغربًا أن يظل لوتر طوال حياته يُحسِّن ويُطور ويُنقح ويُزين من ترجمته للكتاب المقدس، بداية من طبعة سبتمبر وحتى طبعة ديسمبر.

كان لوتر يفكر مرارًا وتكرارًا أثناء تأملاته للأساليب التى اتبعها من سبقه من المترجمين، فى عامل القدسية التى تضمنها النص اللاتينى، وليستلهم من خلال ذلك، العناصر اللغوية الأسمى المتوافرة فى العبرية واليونانية، والعمل على ترجمتها بمكافئاتها فى الألمانية. ولقد اشارت أبحاث "شتولت" Stolt عام ١٩٨١ إلى إنجاز لوتر فى التمييز الوظيفى للتعبير، وذلك حينما يصوغ ما يكتب بـــ:

---

(١) قارن: Wolf، H: Eine Einführung in germanistische Lutherstudien، Stuttgart-Berlin، 1980 ص ١٤٠.

"حدث أنَّ... Es begab sich وذلك لأمر يتعلق بسرد قصة ما أو حينما يبدأ: "كان يا مكان..." Es war einmal حين يتعلق الأمر بسرد خرافة أو أسطورة للأطفال، كما كان يستخدم لوتر لفظة: "انظر...Siehe " وهى اللفظة التى اقتبسها لوتر كحرف نداء من اللغة العبرية محاكيًا بذلك ما كان يحدث فى الصيغ اليونانية واللاتينية المماثلة. كمـــا كـــان يفضل بدايـــة التعبير بصيغة المفرد فى الخطاب. أما استخدامه لصيغة الجمع، فكان عادة يفضل استخدامها حينما يتطلب الأمر أو الموقف ذلك والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها ما ورد فى عهد سبتمبر(١٥٢٢):

" أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر...

ich bin bei euch alle Tage bis ans Ende der Welt"،Siehe،،

أما أسلوب الجمع: "ونظر إليهم الملاك قائلاً: لا تخافوا ها أنا أبشركم بفرح عظيم..."

، Fürchtet euch nicht، und der Engel sprach zu euch،Sehet،،
Sehet ich verkündige euch große Freude"

كما نود أن نشير إلى مؤلف له فى هذا المجال بعنوان "مجموعة الأمثال والحكم لمارتن لوتر" (١٥٤٠)، والتى أشرف على إصدارها الدكتور رودلف جروسه[١] ، وذلك عام ١٩٣٠ بمدينة ليبتزج وتضمنت ٤٨٩ مثل وحكمة، وأحجية. استخدمها فى المقام الأول كعامل مشوق فى مؤلفاته ومواعظة ولكى تساعده فى انجاح حركة الإصلاح الدينى التى نادى بها[٢]. لقد أجاد لوتر فى تطوير وتنقيح العديد من المأثورات الشعبية والصور البلاغية والصور الثابتة التى استقاها من بطون اللغات الشرقية. نذكر منها على سبيل المثال:

"فإنه من فضلة القلب يتكلم الفم"

---

(١) قارن:
Große، Rudolf: Martin Luther Sprichwortsammlung، Leipzig، 1983.
(٢) قارن نفس المرجع ص٩٣ وما بعدها.

،،Wes Herz voll ist، des gehet der Mund über“

"من يعكر صفو بيته يرث قبض الريح"

،،Wer sein eigen Haus betrübt، der wird Wind zu erbteil haben“

"السلام يطعم ويبنى والحرب تلتهم وتدمر"

،،Friede neeret. Unfriede verzeret“

"حيث لا توجد الأبقار تبقى المعالف نظيفة"

،،Wo nicht Ochsen sind، Da ist die Krippen rein“

"إنسان غير راغب فى العمل، إنسان بلا نفع"

،،Wo man nicht arbeitet، da gewinnt man auch nichts“ (١)

"العمل الجماعى ييسر العمل ويرشده"

„Viel Hände machen Leichtarbeit“

"على المرء أن يتم عمله بدقة وسرعة"

„Ich muß tun، als hätte mich ein Hund gebissen“

"يطرب النساء الثناء، ولو من باب الرياء"

„Frauen soll man loben، sei es wahr oder erlogen“

"إسداء النصيحة لا يأتى متأخرًا على الإطلاق"

„Guter Rat kommt nie zu spät“

"لا يستطيع التقديم أو التأخير"

---

(١) قارن، Arndt ص ١٣٥.

„Kann weder gackern noch Eier legen"

"الذى لا يقدر القليل، لا قيمة للكثير عنده"

„Wer einen Pfennig nicht ehrt، wird keines Guldens nicht Herr"

"الذى يريد أن يعايش الذئاب، لابد وأن يعوى مثلهم"

„Wer bei den Wolfen sein will، muß mit ihnen heulen"

"الطائر الكبير، يؤويه العش الكبير"

„Ein großer Vogel muß ein großes Nest haben"

"كل ما تقع عين الطفل عليه، يحب امتلاكه"

„Was die Kinder sehen، das wollen sie haben"

"العبرة بالخاتمة"

„Wenn's Ende gut ist، so ist alles gut"

لقد كان ذلك يمثل لدى لوتر استعمالاً مبتكرًا للغة، من أجل تحقيق أكبر قدر ممكن من وسائل التفاهم الملموس بين طبقات المجتمع، وكانت لغة لوتر لغة حية بكل ما فى الكلمة من معنى بالنسبة لعصره، حيث تركت قيمًا وجدانية عمت سلوك الناس فى غدوهم ورواحهم. وقد أبانت الباحثة "بريجيت شتولت" Brigt Stolt أن لوتر استغرق وقتًا طويلاً فى ترجمته للكتاب المقدس، أكثر من أى مؤلفات أخرى، حرصًا منه على تنقيح الأسلوب المستقَى من لغة الحديث اليومى، لغة الأم فى المنزل، والرجل العادى فى الشارع، والأطفال فى الأزقة، هادفًا بذلك الإدراك التام للمعنى المطلوب من تعبيرات الإنجيل.(١)

---

(١) قارن:
Stolt، Brigt: Sakralsprache – zu Luther Zeit und heute. In: Linguistische Studien، Berlin، Heft 77، ص ١١٩

٢. ٦ الحكاية المصاغة على لسان الحيوان كوسيلة تربوية للأمة الألمانية

لقد برزت براعة مارتن لوتر اللغوية بوجه خاص فى حقل أدبى رفيع، وهو حقل الحكاية المصاغة على لسان الحيوان، والتى تعد، من وجهة نظرنا، من الإسهامات الأدبية واللغوية الفائقة التى تركها لوتر لأمته، هادفًا منها إيقاظ وجدان جماهير شعبه من الصغار والكبار، من الحكام والأمراء ومن المحكومين.

ولعل المرء يتساءل ما الذى دفع لوتر إلى هذا الاهتمام بهذه الحكايات، التى صيغت على لسان الحيوان؟ وتكون الإجابة كالتالى:

كان مارتن لوتر يهدف من خلال حكاياته هذه، إلى تحقيق هدفين جليلين: أولهما أنه قصد بها تربية وتقويم أخلاق الشباب وتهذيبها، من منظور أنها تحث الصغار والشباب على تعاطى الحكمة والفن، وهو الأمر الذى هُم فى حاجة ماسة إليه، ليصبحوا مواطنين أفاضل، علاوة على أنها تؤدى وظيفة أخلاقية للأسرة، على اعتبار أنها من الموضوعات ذات التسلية المفيدة والنابعة من مواقف حياتية تحدث من قبل الحيوان والطير، وثانيهما أنه أراد أن يقول للأمراء وغيرهم من علْية القوم، مالم يجرؤ على قوله لهم صراحة من خلال هذه الحكايات، حيث كان قول الحقيقة فى عصره جريمة يعاقب عليها القانون البابوى: "كل العالم يكره الحقيقة، عندما يواجهها ولا يريد أحد أن يسمعها، رغم احتياجه الشديد إليها، لذلك يلجأ أهل الحكمة إلى تأليف مثل هذه الحكايات على لسان الحيوان والطير مسبغين عليها كل ألوان الزينة والزخرفة الكاذبة، متجنبين بذلك عدم سماعها من أفواه البشر. وتسرد هذه الحكايات كأساطير تقرأ يتحدث فيها حيوان مع آخر كحديث ذئب مع حمل، أو دب مع أسد، وذلك من خلال صياغة يعجز عن صياغتها العديد من الوعاظ والدعاة، سواء كانوا من المؤيدين أو المعارضين لحدث بعينه".[1]

---

(١) قارن:
"Alle Welt hasset die Wahrheit, wenn sie einen trifft. Darum haben weise hohe Leute die Fabeln erdichtet und lassen ein Tier mit dem anderen redden, als woliten sie sagen: Wohelen, es will niemand die Wahrheit hören noch leiden, und man Kann

وبذلك كان لزامًا على المرء أن يصوغها فى قالب أدبى، عبر الحكايات المتضمنة لهذه الحقيقة، والتى تقال على لسان الحيوان، دون أن تسبب لصاحبها أى نوع من الحرج والاضطهاد.

ويعبر لوتر فى أسلوب رفيع فى مقدمة كتابه الذى تناول فيه هذه الحكايات، وتمت طباعته عام ١٥٣٠، والذى كان ثمرة من ثمرات مواهب لوتر الأدبية منذ طفولته وفى مراحل تعلّمه بعد أن حفظ حكايات إيسوب(١) المصاغة على لسان الحيوانات وخاصة فى فترة إقامته فى قلعة الكوبورج، حيث تمكن أن يصيغها بثوب ألمانى، قائلا: "عدا الكتاب المقدس لا يوجد الكثير من الكتب مثل هذا الكتاب الجدير بالتقدير"(٢). ولم يقتصر لوتر فى تدعيم كتابه على الحكايات القديمة اليونانية واللاتينية فقط، بل أعتمد أيضًا على ما ترجمه سلفه هينريش شتاينهوفل Heinrich Steinhöwel عام ١٤٨٠م إلى اللغة الألمانية "Der deutschen Esopum".

ولـم يترجم لوتر حكايات إيسوب من جديد إلى الألمانية، ولكنه اعتمد على ما هو متداول فى عصره من الترجمات التى سادت وازدهرت فى القرن السادس عشر كفن دعائى استغله رجال الإصلاح وفى مقدمتهم لوتر كسلاح نضال ضد الكنيسة الكاثوليكية.(٣) وقام بصياغة هذه الحكايات، ولكن وفقا لاتجاهاته الفكرية التى تجعلها ذات مغزى بالنسبة للشباب وغيرهم من أفراد الشعب غير المتعلمين وغير المثقفين لكى تصبح ذات فائدة عظيمة للألمان.

---

doch der Wahrheit nicht entbegren, so wollen wir sie schmücken und unter lustigen Lügenfarbe und lieblichen Fabeln Kleiden! Und weill man sie nich will hören aus Menschenmund, das man sie doch höre aus Tier – und Bestienmund. So geschiehts denn, wenn man die Fabeln liest, dass ein Tier dem andern, ein Wolf dem andern die Wahrheit sagt, Ja zuweilen der gemalte Wolf oder Bär oder Löww im Buch dem rechten zwefuβigen Wplf und Löwen einen guten Text Heimlich liest, ren ihm sont kein Predlger, Freund noch Feind legen dürfte.

(١) عاش إيسوب فى القرن السادس قبل الميلاد فى مدينة فريجين أحد مدن آسيا الصغرى، وعانى من رق العبودية فى بداية حياته، ثم ما لبث أن أعتق وفقا لرواية هيرودوت و بلوتارك – وتوفى عام ٥٦٠ ق.م. ومع اختلاف المؤرخين حول سيرته الذاتية فإنهم يتفقون أنه كان يمثل تجسيد روح الفكر الإغريقى فى هذا القالب الأدبى.

قارنDithmar، Reinhard: Fabeln، Parabeln und Gleichnisse; Paderborn; München; Wien; Zürich; Schöningh، 1995، S. 165.

(٢) قارن: Maess، Thomas: Dem Luther aufs Maul geschaut ص ٨٢
Wo es wörtlich heißt: „ Dies Buch von der Fabel... ist ein hochberühmt Buch gewesen bei den Allergelehrtesten auf Erden.“

(٣) قارن: Bornkamm، Karin/ Ebeling، Gerhard: Martin Luther، BdV Kirche – Gottesdienst، Schule، 1982 ص ١٦٢ وما بعدها.

ولقد تناول لوتر فى حكايته الأولى موضوع الصراع الدينى السائد فى وقتها مع الكنيسة، وحتى الحكاية السابعة تناول موضوعات أخلاقية وصفات إنسانية وهى (البلاهة أوالغباء، الكراهية، الخيانة، الحقد والحسد، الطمع والجشع، الإثم والذنب، القوة والبطش). ولقد اتخذت هذه الحكايات عنوانها من خلال المغزى الأخلاقى الذى تقصده، ونجد هنا لوتر كما قال عنه أحد رواة هذه الحكايات، وترسيخا لدور مارتن لوتر كمصلح دينى أنه وضع قائمة بالصفات الإنسانية السيئة، وسوء عواقبها ووضحها عبر طريقة مقنعة ومرحة.

ولعل من المفيد للقارئ هنا أن نعبر له عن اعتقادنا بمعرفة لوتر لحكايات كليلة ودمنة Kalila und Dimna Fabel، والتى ظهرت لها عدة ترجمات من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية والتى قام بها عبد الله ابن المقفع مع بداية القرن الثامن الميلادى، حيث ألبسها لباسًا اسلاميا ووفقًا لأخلاقيات الدين الإسلامى ومزدانة بآيات بينات من القران الكريم وأحاديث نبوية وحكم وأمثال عربية، حتى ذاع صيتها أكثر من الأصل الهندى، حيث ترجمت بعد ذلك إلى العبرية فى القرن الثانى عشر ومنها إلى اللاتينية فى القرن الثالث عشر، ثم إلى الألمانية عام ١٤٨٥ فى مدينة أولم Ulm، ولا شك أن ذلك كان مصدرًا رئيسيًا، انتفع به لوتر واقتدى به فى حكاياته التى أشرنا إليها.(١)

ونسوق بعض أمثلة من صياغاته لعدد من هذه الحكايات، والتى تبرهن على وجهة نظرنا هذه:

---

(١) قارن Bothmar، Hans-Casper Graf von: Kalila und Dimna : Ibn al-Muqaffa's Fabelbuch، Reichert Verlag Wiesbaden 1981، S. 17f.

قارن أيضًا: عبد الحميد عبد الرحمن محمود: حول وظيفة الحكاية المصاغة على لسان الحيوان فى أدب عصر التنوير الألمانى، رسالة ماجستير، المنيا ٢٠٠٥م ، ف١، ص ٣٦ و مابعدها.

Abdulrahman، Abdulhamid: Zur Funktion der Fabel in der Literatur der deutschen Aufklärung، MA، Al-Minia 2005.، 1. Kapitel، S. 36ff.

المثال الأول

الطمع

حكاية الكلب والماء

مر كلب بجدول صغير وكان فى فمه قطعة لحم، وعندما نظر فى الماء بدا له ظله المعكوس فى الماء فأخذه الشره والطمع وأراد أن يقتنص قطعة اللحم الأخرى، وبمجرد أن فتح فمه ليلتقطها من الماء، سقطت من فمه قطعة اللحم الحقيقية، وسقط معها فى الماء، وبذلك خسر القطعة التى كانت فى فمه وخسر نفسه.

الدرس المستفاد

يجب على المرء أن يكون قنوعًا بما قسم الله له، وأن يرضى بالقليل، ومن يرد الحصول على كل شيء سيفقد فى النهاية كل شيء.

المثال الثانى

القوة فوق الحق

الذئب و الحمل

ورد ذئب وحمل جدول ماء يريدان الشرب، وكان الذئب يشرب من أعلى الجدول والحمل من أسفله، وحينما لمح الذئب الحمل ذهب إليه مسرعا ومهددا بقوله: "لقد عكرت عليَّ الماء حتى لا أستطيع أن أشرب".

فأجابه الحمل: "كيف ذلك وأنت ترد الماء من مكان أعلى يأتى منه الماء إلى وتدعى أننى قد عكرته". فرد الذئب معنفًا: "إن لم تكن فعلتها فقد فعلها أبوك من قبل منذ ستة أشهر".

فأجاب الحمل مستعطفًا: "وكيف تحاسبنى على أمر فعله أبى قبل مولدى." فأجابه الذئب باتهام جديد بأنه قد ألتهم العشب الأخضر الذى فى أرضه، وأهلكها.

فأجابه الحمل مستنكرًا: "كيف لى أن أصنع هذا ولم تظهر لى أسنان بعد." وأخيرًا يحسم الذئب الأمر قائلا: "لقد سئمت كثرة كلامك وحججك الكاذبة"، ويقدم على خنقه وافتراسه.

الدرس المستفاد

عندما يسود مبدأ القوة فوق الحق والقانون، فلا مناص من معاناة أصحاب الحقوق الضعفاء عند استخدام هذه القوة فى سلب حقوقهم والتنكيل بهم.

ولعل من الملاحظ من هذين المثالين، أن لوتر جاء بنص الحكاية، ثم بالدرس المستفاد منها، وهو يضع بذلك منهاجًا جديدًا فى هذا المجال على عكس غيره من المؤلفين، الذين يتركون القارئ يستنبط الدرس المستفاد بنفسه من خلال مطالعته لنص الحكاية.

ونجد أيضًا فى حكايات لوتر ميزة أخرى فى أنه يختتمها بأمثلة شعبية وحكم مأثورة، وذلك من منظور أن الحقيقة أكثر الأشياء مرارة عند الناس على وجه الأرض.

ويواصل مارتن لوتر سرده لعدد آخر من هذه الحكايات، وعلى نفس النسق مثل حكاية "طائر اللقلق (أبى منقار) والذئب" „Kranich und der Wolfe“ ، "الضفدع والفأر" „Vom Frosch und Maus“ ، "الديك واللآلئ" "Vom ,Hahn und Perlen" ، "الأسد والثعلب والحمار" "Vom Löwen und Fuchs und Esel" "الغراب والثعلب" „Vom

"Raben und dem Fuchs ... إلخ، والتى يمكن الرجوع إليها فى الكتاب المشار إليه أو فى المراجع المتخصصة.[١]

٢. ٧ اللغة فى خدمة مواقف حياتية

لقد تبلورت قوة مارتن لوتر اللغوية فى العديد من المواقف الحياتية نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، حينما عبر عن مشاعره النبيلة بعد علمه بالمرض الشديد الذى ألم بوالده مع بداية عام ١٥٣٠ وهو ملازم لقلعة الكوبورج. يكتب خطابًا يبدى فيه رغبته الصادقة فى استضافة والديه بمنزله فى الفترة الباقية من حياتهما قائلا:

"كـــم هى من سعادة بالغة لنا جميعًا، إذا سمحت ظروفكما بالقدوم إلينا، الأمر الذى لو تحقق، فإن زوجتى كيتى سوف تذرف سيلا من دموعها تعبيرًا عن شدة فرحها بقدومكما ونحن كذلك."[٢]

ولكن القدر لم يشأ أن يحقق لمارتن لوتر هذه الرغبة، ويلقى الوالد وجه ربه فى ٢٩ مايو ١٥٣٠، ويعبر لوتر عن فجيعته فى فقده لوالده بالعبارات التالية: "لقــد سالت دموعى مدرارًا على فراقه وإنى أذكره بكل ما قدمه لى؛ فبه رأيت نور الحياة وأصبحت على ما أنا عليه الآن، ولعل ما يعزينى ويواسينى فى فقده أنه مات مؤمنًا على عقيدة المسيح، ورغمًا من ذلك فإن فراقه قد هزنى من الأعماق، مما جعلنى أنظر إلى الموت بكراهية وبغض شديدين "[٣]

لعل مثالاً آخر من هذه المواقف الحياتية التى ربطت مارتن لوتر بأسرته، وخاصة بأبنائه الخطاب الذى كتبه فى التاسع عشر من يونيو ١٥٣٠، وهو مقيم بقلعة الكوبورج إلى ابنه هـــانز الذى كان يبلغ من العمر آنذاك أربع سنوات،

---

(١) قارن:
Maess، Thomas: Dem Luther aufs Maul geschaut، a.a.O. ص ٨٤ وما بعدها.

(٢) قارن:
Meisner، Michael، a.a.O.، ص ٢٢١ .

(٣) قارن: المرجع السابق ص ٢٢١.

ساردًا له حكاية يتقمص فيها لغة هذه المرحلة العمرية، ليعيش فيها مع ابنه طفولته فيقول: "ابنى الحبيب! بنعمة وسلام السيد المسيح وكلى أمل أن تكون مجد فى درسك ومنتظم فى صلواتك، وعليك يا بنى العزيز أن تواصل هذا، وحينما آتى إليك سأحضر لك هدية جميلة. إننى أعرف حديقة جميلة مليئة بالسرور والبهجة يزورها كثير من الأطفال بملابسهم الذهبية، وهم يلتقطون ثمار التفاح والكمثرى والكريز والبرقوق والآراسيا، متغنين بأجمل الأناشيد ويقفزون بلهو الطفولة البرئ فى سعادة غامرة ويستمتعون بامتطاء ومداعبة خيولهم الصغيرة الجميلة ذات اللجم الذهبية والأسرجة الفضية. وسألت صاحب الحديقة، مَنْ يا ترى أولئك الأطفال؟ فأجابنى: إنهم الأطفال المحبون لإقامة الصلوات والتزود بالتقوى وحب العلم والتعلم. فقلت له يا عزيزى لى ابن كهؤلاء ويدعى هانز لوتر وأود أن يكون من رواد الحديقة وأن يشارك هؤلاء الأطفال فى جمع التفاح وأكل الكمثرى وامتطاء الخيل المطهمة ويشارك أولئك الأطفال ألعابهم، ويجيب صاحب الحديقة وحارسها قائلاً: إذا كان طفلك من محبى إقامة الصلاة والتزود بالعلم والتقوى، فلا حرج من مشاركته لرواد الحديقة."(١)

وفى أغسطس من عام ١٥٤٢ علت سماء أسرة مارتن لوتر سحابة داكنة حزينة، خاصة بعد أن أرسل الوالد ابنه هانز البالغ من العمر ستة عشر عامًا، لمواصلة تعليمه على يد الأستاذ كرودل Crodel فى مدينة "تورجاو" Torgau(٢) ،

---

(١) قارن، المرجع السابق ص ٢٢٢، قارن أيضًا، Thomas.،Maess a.a.O ص ٣٠ وما بعدها.

(٢) سبق أن نوهنا بمكانة هذه المدينة والدور المهم الذى لعبته فى حركة الإصلاح الدينى والكنسية.مقر حاكم إمارة سكسونيا، وفيها بنيت أول كنيسة إنجيلية على الأرض الألمانية. اشتهرت المدينة بمدرستها التى تأسست عام ١٣٧١ كمنشأة تعليمية ذات صلة وثيقة بالحياة الكنسية.تطورت المدرسة إلى "جمنازيوم" بناء على نداء مارتن لوتر لأولى الأمر تأسيس مزيد من المدارس تقوم مناهجها على قيم الإصلاح اللوترى. وقد نشأت علاقات حميدة بين لوتر وإدارة المدرسة، وكثيرًا ما توسط لإعفاء بعض الفقراء من الطلاب من دفع الرسوم المدرسية وخاصة فى عهد مديرها ماركوس كرودل Marcus Crodel والذى اعتبره لوتر أحد العمد الثلاثة من أصحاب القداسة بجوار يوهانس بوجنهاجن Johannes Bugenhagen وجورج رورر Georg Rörer . فى عام ١٥٤٣ أهدى لوتر كرودل نسخ ممهورة بخط يده من ترجمة الإنجيل ومن كتاب "ضد البابوية، إهداء من الشيطان". ويذكر فضلا عن ذلك أن كرودل كان أحد مشاهير عصره، وخاصة إجادته اللاتينية واليونانية والعبرية واعتبر كتابه"قواعد اللاتينية"- طبعة بازل ١٥٤١ ثورة فى استخدام شرح الدروس من خلال اللغة الألمانية تيسيرًا لتعلم المبتدئين من الطلاب. وتتوج العلاقة

وكانت تربط الابن هانـــز بأخته ماجدالينا Magdalina علاقة أخوية حميمة؛ جعلت منهما كما لو كانا توأمين بقلب واحد، وكان فراقه عنها بالغ الصعوبة مما جعلها تعانى سِقمًا لا خلاص منه. ويدرك الأب الرحيم دنو أجل ابنته؛ فيكتب إلى مُعلم ابنه كرودل خطابًا، يعبر فيه بلغة جميلة عن رجائه الحار ألا يخبر ابنه هـــانز بمرض أخته ودُنو أجلها[1]، ويعبر له عن شدة شوقها لرؤية أخيها، ويرسل له مركبة لإحضاره، بغية أن تراه أخته التى تحبه حبا جما، ولعل حضوره إليها يمثل قوة متجددة تبعث فيها الحياة من جديد. ويناجى لـــوتر ربه، فى لغة حانية، خارجة من قلبه المكلوم، أنه لا اعتراض لديه على مشيئة الرب فى رحيلها إليه، حتى لو كانت ترغب البقاء مع أبيها، فلربما الأفضل لها الصعود إلى أبيها الذى فى السماوات.[2]

ويختتم لـــوتر مداريًا حزنه مناجيًا إياها وهى راقدة فى نعشها: "عزيزتى ماجدالينا سوف تُبعثين من جديد وتُنيرين الدنيا كنجم ساطع ... نعم، كالشمس! ورغم حزنى فأنا أعلم يقينًا أنك تنعمين بسلام فى السماوات العلى!"[3] .

وتظهر المهارات اللغوية الفائقة لمارتن لوتر حينما يعبر عن أحاسيسه ومشاعره الرقيقة نحو زوجته التى كان يكن لها حبا جما، خلَّده فى كثير من كتاباته ورسائله. ويتضرع إلى الله شاكرًا إياه على منحه زوجة صالحة حملت عنه مشاغل بيته وتربية أولاده، وبلغ حبه لها أنه لا يرضى لها بديلا حتى لو كان بدولة فرنسا أو البندقية، وأن حبه لها يفوق حبه لنفسه ولأولاده.[4] وكثـــيرًا ما شبهها بالإمبراطورة

بين لوتر وكرودل بإرسال ابنه يوهانس وابن أخت زوجته فلوريان فون بورا الى المدرسة التورجاوية للدراسة.

(١) قارن: Treu، Martin : Martin Luther und Torgau، Biographien zur Reformation، 2. Auflage، Wittenberg 2001، S.58.

(٢) قارن: Meisner، Michael، a.a.O.، ص ٢٧٢.

(٣) قارن: المرجع السابق ص ٢٧٣.

(٤) قارن: المرجع السابق ص ١٨٣.

والملِكة، ولا يملك إلا شكر ربه الذى وهبه إياها، كزوجة تقية صالحة مخلصة له ولربها.[١]

٢. ٨ لوتر فى عيون الآخرين - نصب تذكارى لفصحى الألمانية الحديثة

فى بحث طريف للدكتور هانز كريستوف جراف فون ناى هاوس Hans Christof Graf von Nayhauss بعنوان "مارتن لوتر النبى فى اللغة"[٢] يذكر وجهات نظر عدد من كبار مفكرى ألمانيا فى العصور التى تلت حركة الإصلاح البروتستانتى، فيذكر:

مقولة يوهان جوتفريد هردر Johann Gottfried Herder -أبو الرومانسيه الألمانية:- "أنه الرجل الذى أيقظ بترجمته للإنجيل مارد اللغة من سباته، وحرره من أغلاله... ودفع من خلال حركته الإصلاحية أمة بأكملها إلى إنماء الفكر والحس لديها... إنه معلم الأمة الألمانية والمصلح الرائد لكافة أوروبا المستنيرة."[٣]

---

(١) قارن: المرجع السابق ص ١٨٤.

(٢) قارن:

Nayhauss‹ v.Graf Hans Christof: Martin Luther ‹ der Prophet in der deutschen Sprache‹ In: Lettres eurpéennes. Paris‹ Hachette‹ 1992‹ S. 276 - 280

(٣) قارن النص الأصلى:

"Er ist es‹ der - durch seine Bibelübersetzung- die deutsche Sprache‹ einen schlafenden Riesen aufgeweckt und losgebunden... Er hat durch seine Reformation eine ganze Nation zum Denken und Gefühl erhoben."

Er ist Lehrer der deutschen Nation‹ ja als Reformator der ganzen aufgeklärten Europa"

Herder: über die neue Deutsche Literatur‹ München‹ Bd. I‹ 1953‹ S.650‹ ، وقارن أيضًا، Gerhard‹Ebelimg‹ a.a.O.‹ 1881 ص ٢٠ .

يمتدح شاعر ألمانيا الأكبر يوهان فولفجانج فون جوته Johann Wolfgang von Goethe لوتر عام ١٨١٧، وذلك بمناسبة مرور ثلاثمائة عام على حركة الإصلاح، مؤكدًا: "يحق لنا أن نعبر عما فى صدورنا عن مدى أهمية شخصية لوتر فى هذه المناسبة، وأعنى بها تلك السمة الفريدة، التى أثارت جماهير الناس وحركت عواطفهم وما عدا ذلك لم يكن سوى لغو تلوكه الألسن كل يوم."[١]

أما هاينرش هاينى Heinrich Heine فيقول فى كتابه "الدين والفلسفة فى ألمانيا" Zur Religion und Philosophie in Deutschland ": "من يرد أن يتحدث عن الأدب الألمانى الحديث، فلزامًا عليه أن يبدأ بمارتن لوتر[٢]".

ويواصل هاينى هذا التقريظ عن لوتر فى مؤلفه -المشار إليه- أنه بعد أن أطلقت المطابع آلاف النسخ من ترجمة لوتر إلى طبقات الشعب كافة، وانتشرت لغته فى سنوات قلائل فى كل أرجاء المانيا، لتصبح اللغة العامة المكتوبة ولتوحد الأمة بعد تمزق ، ولتجدد بذلك الانتماء السياسى لكل الألمان.[٣]

أما كلوبشتوك Klopstock فيتحدث عن لوتر بانبهار ويقول: "هل هناك من يعرف معنى اللغة وقيمتها قبل لوتر! الذى منحها شرفًا لم تحظى به لغة أخرى، وذلك لما قدمه لها من اشتقاقات وتركيبات كثيرة[٤].

---

(١) قارن المرجع السابق ص ١٩ .
„Unter uns gesagt‹ ist in der ganzen Sache nichts interessant als Luthers Charakter und es ist auch das Einzige‹ was der enge eigentlich imponiert. Alles übrige ist ein verworrener Quark‹ wie ihr uns noch täglich zur Last fehlt.

(٢) قارن النص الأصلى:
"Wer über neuere deutsche Literatur reden will... muß mit Luther beginnen"
هاينرش هاينى، الترجمة العربية لكتابه تاريخ الدين والفلسفة فى ألمانيا ، صلاح حاتم، ص ٥٨ وما بعدها

(٣) قارن:
Heine‹ Heinrich: Zur Religion und Philosophie in Deutschland‹ Bd.II‹ Berlin‹ 1969‹ ص٤١٩.
انظر الترجمة العربية: صلاح حاتم:"من يريد الكلام على الأدب الألمانى الحديث فيجب عليه أن يبدأ بلوتر وليس بهانز ساكس "ص ٥٨ وما بعدها.

(٤) قارن النص الأصلى:
„Niemand‹ der weiß‹ was eine Sprache ist‹ erscheine ohne Ehrerbietung vor Luthern. Unter keinem Volke hat ein man so viel an seiner Sprache gebildet.
Ebeling‹ a.a.O.ص ١٩

أما إعجاب فريدريش شليجيل Friedrich Schlegel رغم انتمائه العقائدى للكنيسة الكاثوليكية فقد تجاوز حدود المدح فى حكمه على ترجمة لوتر للإنجيل. "كانت قوة اللغة والفكر التى تمتع بها لوتر هى الإسهام الذى لا يمكن إنكاره على مر القرون، وبين كل شعوب الأرض(١).

ويحصى نايهاوس إنجازات مارتن لوتر التى نشرت تحت مسمى طبعة مدينة "يينا" "Jena" عام ١٥٥٥ وحتى ١٥٥٨ والتى بلغت اثنى عشر مجلدًا، منها ثمانية بالألمانية، وأربعة باللاتينية، وكانت مؤلفاته هذه ذات صلة لصيقة بوظيفته كمصلح ومجدد، وكانت تمثل عملاً جامعًا لكل الأنواع الأدبية وذلك على النحو التالى: محاضرات عامة، مناقشات ومجادلات، مقولات وحجج، برامج مكتوبة، منشورات، عظات، ترجمات الإنجيل، أغانى كنسية، كتابات دينية وتعليمية، والعديد من الحكايات التى نقلها إلى الألمانية وخطب المائدة والعديد من الرسائل. ولا عجب أن يخلد الأديب الألمانى الكبير كونراد فرديناند ماير Conrad Ferdinand Meyer هذا النتاج الأدبى الكبير بقصيدة شعرية، يبرز فيها فضل لوتر فى التمهيد لعصر جديد تعيشه أوروبا:

لقد حمل لوتر فى صدره نضالا كامنًا،

ملأ به نصف المعمورة،

تاركًا الرهبنة وأديرتها فى شجاعة منقطعة النظير،

---

(١) المرجع لسابق ص٢٠:
„Nichts desto weniger bleibt bei ihm selbst‹ was die Kraft der Sprache und den eigenen Geist‹ diese große und starke Art des deutschen Ausdrucks betrifft‹ ein unverkennbares Verdienst. Denn auch in seinen eigenen Schriften findet sich eine Beredsamkeit‹ wie sie im Laufe der Jahrhunderte unter allen Völkern nur selten in dieser Kraft hervortritt."

لينجز الحدث الأكبر الذى لم يستطعه غيره،

ورغم إحساسه بانقسام الأمة المسيحية إلى كنيستين،

يظل فى ثبات متشبثًا بإنجاز إنجيله[1].

ويرى الفيلسوف الألمانى فريدريش نيتشه Friedrich Nietzsche أن إنجيل لوتر، يمثل تحفة عظيمة من النثر الألمانى Meisterstück der deutschen Prosa لهذا لم يكن من المستغرب أن يرى لوتر ضرورة ملحة بعد تأليفه للعديد من الكتب والرسائل وإتاحة كلمة الله كاملة لعموم الشعب الألمانى، وبعد نقله لتسعة عشر مزمورًا إلى الألمانية أثناء إقامته فى حصن الفارتبورج، ينتهى فى وقت قصير- كما سبق أن ذكرنا- من ترجمة العهد الجديد والقديم، والذى قام بطبعه ونشره كاملاً هانس لوفت Hans Lufft بمدينة فيتنبرج عام ١٥٣٤. لهذا اعتبر لوتر أن هذه الطبعة التى أنجزها هى قمة أعمال حياته الرئيسية، التى كانت سببًا فى شهرته فيما بعد. ولأنه كان يحرص فى ترجمته على النقل الدقيق للمعنى دون أن يكون عبدًا للكلمات المفردة، ومعروف مبدأه فى هذا أن المعنى يخدم الكلمة وليس العكس، ومن هذا المنظور كانت ترجمته للإنجيل من منطلق فهمه الكلى للإصلاح الدينى، وهو استقلال المسيحى باعتقاده الإيمانى.

كان هدف لوتر الأول والأخير أن يتكلم المواطن الألمانى لغة واضحة، بمعنى أن تكون مفهومة ومستوعبة من كل من يسمعها. ولقد قرظ الكثير من الأدباء والشعراء إنجيل لوتر كعمل أدبى ولغوى رائع، من أمثال ليسنج،

---

(١) قارن، Ebeling،Gerhard ، a.a. a.O. ص ١٣ وما بعدها:

„Er trug in seiner Brust den Kampf verhüllt،
Der jetzt der Erde halben Kreis erfüllt،
Er brach in Todesmut den Klosterbann،
Das Größte tut nur، wer nicht anders kann!
Er fühlt der Zeiten ungeheueren Bruch،
Und fest umklammert er sein Bibelbuch

وكلوبشتوك، وهامان، وهيردر، وجوته، وحتى توماس مان، وبرتولد برشت. هذا ولا تزال إبداعاته الشعرية الخاصة بأغانى الكنائس، تغنى حتى يومنا هذا، وهى مستقاة من عبقرية لغة ترجمة الإنجيل، التى جعلت من لوتر شاعرًا دينيًا وداعيًا ومناضلاً فى دعايته من خلال الكتابة النثرية وخاصة أحاديث المائدة التى كان يؤديها مع أصدقائه وأقرانه، وكذلك مراسلاته مع زوجته وأبنائه وغرمائه، والتى حوت الكثير من المأثورات التى جعلت منه مربيًا للشعب، ونذكر على سبيل المثال أحد هذه المأثورات التى صاغها شعرًا:

"ليس لك أن تصدق كل ما تسمع؛

وليس لك أن تفعل كل ما تريد وترغب؛

ولا تقل كل ما تعرف؛

ولا تستهلك كل ما تملك؛

ولا تشتر كل ما ترغب؛

وهكذا تبقى سالمًا غانمًا فى كل وقت." (١)

ويقدم مارتن لوتر هذه المأثورات لشباب وطنه كنصائح وعظات لا يرتبط محتواها بزمان أو بمكان، و لكنها صالحة لكل زمان ومكان.(٢)

---

(١) قارن، النص الأصلى:

"Glaub nicht alles‹ was du hörst;
tu nicht alles‹ was du magst;
sag nicht alles‹ was du weist;
brauch nicht alles‹ was du hast;
kauf nicht alles‹ was du siehst;
so bleibst du wohl zu jeder Frist."

Nayhauss‹ v.Graf Hans Christof: Martin Luther ‹ der Prophet in der deutschen Sprache‹ In: Lettres eurpéennes. Paris‹ Hachette‹ 1992‹ S. 280

(٢) قارن: Thomas‹Maess ‹a.a.O. ‹ ص ٩٦ وما بعدها.

٢ . ٩ مارتن لوتر فى الموسوعات اللغوية

وقد يكون من المفيد بعد هذا العرض عن البعد اللغوى فى أعمال وحياة مارتن لوتر، والذى أدى إلى نجاح حركته الإصلاحية وتوحيد أمته الألمانية، أن نوجز مكانة لوتر فى التاريخ اللغوى الذى استقيناها من الموسوعة الألمانية الصغيرة.(١) وذلك على سبيل المثال لا الحصر، حيث يجد الباحث كما بلا حدود فى هذا المجال حوته بطون الموسوعات الكبرى.

تورد هذه الموسوعة أهمية لوتر الكبيرة فى نشأة وتكوين اللغة القومية للألمانية الفصحى الحديثة. ويتفق على هذا الرأى العديد من علماء اللغة الألمانية بداية من ياكوب جرم Jacob Grimm ، وموزر Moser ، وإربن Erben ، وفليشر Fleischer ، وجروسه Große ، ويصف أولئك العلماء لوتر بأنه كان رائدًا من رواد الكلمة بالنسبة لعصره تمامًا كما كان ليسنج Lessing ، وكلوبشتوك Klopstock ، وفيلاند Wieland ، وهيردر Herder، وجوته Goethe بالنسبة للقرنين الثامن والتاسع عشر. كما تؤكد هذه الموسوعة أنه ظهر فضل اتصال لوتر الوثيق مع الطبقات الاجتماعية المختلفة، والذى كان عظيم الأثر فى تطور لغته، وخاصة فيما يتعلق بامتلاك زمام المفردات اللغوية، وقدرته على التجول خلالها أنَّى شاء، علاوة على رحلاته العديدة لبيئات لغوية ألمانية تختلف اختلافًا كبيرًا عن بيئته اللغوية. وتعدد الموسوعة فى هذا السياق رحلته التى قام بها سيرًا على الأقدام إلى روما عام ١٥١٠-١٥١١، والتى عايش خلالها اللهجات الألمانية، والشفابية، والبافارية، ولهجات مناطق نهر الراين، أثناء عودته عبر فورمس، ومايسن. كما لا تنسى الموسوعة أن تضيف إلى ذلك دراسة لوتر للعديد من اللغات القديمة والتعمق فيها.

---

(١) قارن:
Kleine Enzyklopädie – Die deutsche Sprache ، in zwei Bänden، Autorenkollektiv، Leipzig 1967، Band 1، S. 222ff.

ومن إسهامات لوتر اللغوية أنه لم ينقل المفردات كما وجدها، وإنما كان يجدد ويغير معانيها فى أغلب الأحيان، وخاصة المصطلحات المرتبطة بالأمور الدينية كمصطلح التوبة، الخطيئة، الرحمة، الإيمان، التقوى، الكاهن، الواعظ[١]. وقد تمت صياغة هذه التجديدات فى رأس لوتر، الذى تُشبِّهه الموسوعة بورشة حدادة رائعة. كما تورد الموسوعة عددًا غير قليل من الكلمات الجديدة التى كان يكيل من خلالها اتهامات فظة لرجال الكنيسة الكاثوليكية، وعلى رأسهم بابا روما.

ولم يكتف مارتن لوتر بهذا التجديد اللغوى على مستوى علم الكلمة، ولكنه تعداه بالتجديد فى علم الجملة والقواعد النحوية المتعلقة بالجمل الأساسية والفرعية والجمل السببية والروابط والتوابع.[٢]

وتختتم الموسوعة عرضها عن الإسهام اللغوى، الذى تركه مارتن لوتر بكفاحه المرير أثناء ترجمته للعهد الجديد والقديم من اليونانية والعبرية إلى الألمانية الفصحى الحديثة. وتورد الموسوعة العناء الكبير الذى يعبر عنه لوتر بقوله: "إننا كنا نبحث عن كلمة واحدة ونسأل عنها مدة أربعة عشر يومًا، أو ثلاثة أو أربعة أسابيع، وكنا أحيانًا لا نجدها... كنا نعمل بصبر أيوب لدرجة أننا كنا نمكث أحيانًا أربعة أيام ولا ننتهى من ثلاثة أسطر.وها قد تمت الترجمة، ويمكن للمرء أن يقرأ ثلاث أو أربع صفحات منها دون أن يتلعثم ولو مرة واحدة، ويقرأها كما لو كان يسير على لوح خشبى مصقول. لقد حرث لوتر الأرض حرثا جيدًا، ونقاها وطهرها وجردها من الغابات والأخشاب الملقاة.[٣] وكل ذلك من الأمور التى لا يمكن أن يتحملها سوى أولى العزم.

لقد امتلك لوتر زمام اللغة وأجادها، بما أتاحت له أن يؤثر فى الجدل الدينى الذى أيقظ الشعب، وأثاره بأكمله. وبهذا يكون قد ساهم مساهمة جوهرية فى إسراع

---

(١) قارن المرجع السابق ص ٢٢٤.
(٢) قارن المرجع السابق ص ٢٢٥.
(٣) قارن المرجع السابق ص ٢٢٦.

الخطى، نحو عملية التوحيد اللغوى لألمانيا. ومن إنجازات لوتر الجليلة فى هذا الشأن، أن أصبحت لهجات وسط وشرق ألمانيا OSt-Mitteldeutsch وخاصة لغة الديوان السكسونى، الدعامة الأساسية للغة الألمانية القومية. وبهذا يكون لوتر قد أخرج لغة الكتابة الألمانية من مكامنها، وحررها من تأثير اللغة اللاتينية.

يؤكد ذلك الباحث الألمانى رودلف جروسى Rudolf Große حينما يذكر أن أقران لوتر من العلماء المعاصرين له أقروا بالتأثير الأمثل للغته، مما دفع أديب عصر التنوير كلوبشتوك أن يسجل عن قناعة موقع لوتر الرائد فى تاريخ اللغة الألمانية، والذى ضمنه فى كتابه "جمهورية العلماء" Gelehrtenrepublik عام ١٧٧٤:

"إن من يعرف قدر لغة ما فليس أمامه إلا أن يقف بكل إعزاز أمام لوتر الذى قدم لشعبه هذا الإسهام اللغوى العظيم."(١)

يسترسل جروسى فى بحثه ويذكر عبارة مشهورة ضمنها رفيق عمره يوستوس يوناس Justus Junas أثناء تأبينه وتشييعه إلى مثواه الأخير فى الثامن عشر من فبراير ١٥٤٦:

"كان لوتر متحدثًا فذا، ومترجمًا فائقًا، الأمر الذى بعث اللغة الألمانية مرة أخرى، حتى أن المؤسسات والدواوين الرسميه قد استخدمتها كنموذج للكتابة والقراءة الصحيحة."(٢)

---

(١) قارن، Rudolf،Große ، Luthers Bedeutung für die Herausbildung der nationalen Akademie der ،deutschen Literatursprache. In: Martin Luther – Kolloquium S. 42f، Berlin: Akademie 11G،Wissenschaften der DDR

(٢) قارن النص فى مصدره الأصلى:

„Es war ein trefflicher، gewaltiger Redner. Item ein überaus gewaltiger Dolmetscher der ganzen Bibel. Es haben auch die Cantzleyen zum teil von im gelernet rechtdeudsch schreiben und reden، denn er hat die Deudsche sprach wider recht herfür gebracht، das man nu wider kann recht deudsch reden und schreiben und wie das viel hoher leut mussen zeugen und bekennen."

االمرجع السابق ص ٤٢ .

ونوجز فى ختام هذا الفصل الذى يعرض لمجال خصب، قدم فيه مارتن لوتر إسهامًا وافرًا يحسب له كرائد لحركة الإصلاح البروتستانتى، حيث إن جل مؤلفاته وترجماته كانت تُقرأ من قبل العارفين للحدود الدنيا بالقراءة، والذين يمثلون بضعة ملايين من الألمان، ويُقدر عددهم آنذاك بنسبة ١٠% وتبقى نسبة ٩٠% من الألمان الذين كانوا أُمِّيين.

كما أنجز لوتر صياغات لغوية جديدة، أضافت إسهامًا آخر لأساسيات اللغة الألمانية الحديثة، وساعده فى ذلك التطور التقنى الذى تمثل فى الطباعة بالحروف المتحركة، إلى جانب اشتداد الحس الوطنى والسياسى والاجتماعى، ونشوب حرب الفلاحين. كل ذلك أدى بلوتر أن يضيف المزيد من الإسهام اللغوى، عبر ترجمة الإنجيل وآلاف المنشورات والعظات والأناشيد، مما يمهد القول أن مارتن لوتر وضع المقياس الأمثل لمبادئ الترجمة الناجحة.

ويعنـــى لوتر بقوله هذا "أن على الترجمة أن تقدم نصا مفهومًا للقارئ كما لو كان نصا غير مترجم."(١)

وليس من المستغرب أن تكون أهم إنجازات لوتر اللغوية أنه جعل من النصوص المراد تقديمها للنشء، صورة تعكس الواقع الذى يعيشه المجتمع، مصـــاغة فى قوالب يفهمها البسطاء من جمـــاهير القراء، وقد حقق هذا النجاح كما سبق أن أشرنا فى استخدامه:

*اللغة المكتوبة لشرق ووسط ألمانيا،

*اللغة العامية الشعبية المنطوقة،

*المنشورات والحكم الشعبية السائدة،

---

(١) قارن: النص فى مصدره الأصلى:
‚‚Übersetzung muss ein verständlicher Text sein‹ der als Übersetzung nicht erkannt.“

gexnel/teaching/landesk/luther.html~http://eis.bris.ac.uk/

*تبنى الجديد من التعبيرات المتوافرة فى لغات أخرى، لتكون خادمة فى ترجمة مقابلاتها فى الألمانية،

*اتباع الأسلوب الأدبى والبلاغى فى مخاطبة الجماهير، مما أدى إلى تقبلها السريع وفهمها، وبل وحفظها عن ظهر قلب.

ونقدم فى ختام هذا الفصل بعض المصطلحات التى تبناها لوثر، لتصبح رصيدًا مهمًا للثروة اللغوية فى اللغة الألمانية الحديثة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

<u>Medizin</u> Patient، Retzept، Chirurgie، Anatomie	**مجال الطب:** المريض، الروشته، الجراحه، التشريح
<u>Recht:</u> Advokat، Testament، Prozess، Kaution	**مجال القانون:** المحامى، الوصية، القضية، الضمان
<u>Mathematik:</u> ، Produkt،Multiplizieren Summe،Problem	**مجال الرياضيات:** عمليات الناتج، الضرب، المسألة، حاصل الجمع
<u>Geldwesen:</u> ، Konto، Bilanz،Risiko Giro،Kredit	**الماليات:** المخاطرة، الموازنة، الحساب البنكى، الإئتمان، الحساب الجارى
<u>Bildung:</u> Examen، Rektor، Gymnasium، Professor	**التعليم:** الامتحان، رئيس الجامعة، المدرسة الثانوية، الأستاذ

Musik: ، Alt، Allegro، Sonett،Partitur Tenor	الموسيقا: نوتة موسيقية، قطعة شعرية منغومة، لحن موسيقى سريع الإيقاع، صوت أنثوى أحادى، صوت رجالى أحادى
Militär: Galopp، Rakete، Soldat، Kanone، Alarm	الشؤون العسكرية: الركض، الصاروخ، الجندى، المدفع، الإنذار
Allgemeiner Wortschatz: ، ausverkauft،Die Ausgabe ،lkerung،die Bev،der Begriff der ، die Epoche،dolmetschen der ، die Gasse،Fachbegriff der ، der Geselle،Gelehrte die ، lateinkundig،Holzschnitt der ، das Maul،Leserschaft ، der Neologismus،Nachdruck der ، schaffen، rasch،der Papst ، das Sprichwort،Sendbrief der Zeitgenosse [1]،das Tor	ثروة لغوية عامة: الطبعة، نفاد السلعة، المصطلح، السكان، المترجم، الفترة الزمنية، مصطلح فنى، منشور، الحارة، العالم، الصبى، لوحة خشبية محفورة، عالم، القراءة، الفم، المستل، مساعد البابا، سريع، ينجز، خطاب دورى، مأثورة، بوابة، معاصر

(١) قارن: المرجع السابق.

الفصل الثالث

أحداث حركة الإصلاح البروتستانتى قبل مارتن لوتر

لم يكن الراهب مارتن لوتر أول مصلح نادى بشكل ثورى بإصلاح الكنيسة فقد ظهرت قبله بقرون عديدة بداية من العصور الوسطى حركات تمرد ثورية أطلق على روادها مسميات الهراطقة والملاحدة والعصاة، الأمر الذى حفز كنيسة روما إلى محاربتهم واضطهادهم من خلال محاكم ديوان التفتيش فلقد قادت هذه الثورات إلى تصدع وانشقاق الكنيسة وانفصالها إلى كنيستين: الكنيسة الشرقية فى بيزنطة والكنيسة الغربية فى روما.

وفى هذا المناخ المضطرب ظهر العديد من الجماعات الإصلاحية موجهة نقدها الحاد والمرير نحو الكنيسة حيث شككوا فى بعض أساسيات العقيدة المسيحية التى يمارسها رجال اللاهوت وعلى رأسهم بابا روما نفسه. نعرض لبعض هذه الجماعات على النحو التالى:

٣. ١ الكتاريون[١] Die Katarer

هم من أكثر الجماعات تطرفًا وتأثرت عقيدتهم بمبادئ وقيم البوجوميليين Bogomilen السائدة فى بلدان البلقان وازداد تطرفهم بعد اعتناقهم لأفكار الديانة المانوية Manichäismus والتى كانت تدعو إلى الإيمان بثنائية العالم أى بوجود إلهين، إله للخير وإله للشر، واعتبروا أن إله الشر هو الإله الحقيقى وأن العالم الذى نعيش فيه هو من خلقه، ولهذا لزم عليهم رفضه وعدم استمراره وبقائه وصبوا لعنتهم على المجتمع الإنسانى المتمثل فى الإقطاع السائد فى العصور الوسطى واعتبروا أن جماهير العامة مغلوبين على أمرهم ومقهورين من أولى الأمر، ولزم أن تأتى نهاية هذا المجتمع فى أسرع وقت ، ومن أجل تحقيق ذلك تنصلوا من ممارسة العمل وكافة متع الحياة بداية من تربية الأطفال والزواج وأكل اللحوم والأسماك والبيض والجبن، وكانت لهم أتباع منتشرة فى داخل الأديرة

---

(١) ترجع هذه التسمية إلى المكان الجغرافى الذى عاش فيه أتباع هذه الجماعات فى القرن الثالث والرابع عشر بمنطقة جبال البرانس جنوب فرنسا. (المؤلف)

بجنوب فرنسا، علاوة على جماعات أخرى من المثقفين متبعين جميعًا أسلوب التقشف والزهد وكثرة التعبد وأقاموا كنيسة خاصة بهم شبه سرية نصبوا فيها أساقفة وشمامسة من بينهم وكانوا يقرأون العهد الجديد باللغة اللاتينية ورفضوا رفضًا باتًا العهد القديم (التوراة) وأسرار الكنيسة المقدسة فى اللاهوت المسيحى الأمر الذى اضطر كنيسة روما إلى محاربتهم واضطهادهم والقضاء عليهم بالقوة.[١]

٣. ٢ الفالدينيون Die Waldenser

يستهل الدكتور القس فايز فارس فى كتابه "أضواء على الإصلاح الإنجيلى" بالمقولة التى ترى أن جذور الإصلاح الإنجيلى موجودة منذ عصر الكنيسة الأول، بحكم أن مبادئها وتعاليمها مؤسسة على الإنجيل، ويهيئ الله بين فترة وأخرى من الرجال الأتقياء للعمل على المحافظة على الأصول، لإحياء الميراث الكنسى، والذى تسلموه من المسيح، رب الكنيسة، ورسله الأطهار.

من بين هؤلاء الرجال من أطلق عليهم المؤرخون اسم جماعة الفالدينيين، الذين كونوا ما يسمى "برابطة الأخوة المسيحية"، والتى كان أعضاؤها من غير رجال اللاهوت. هذه الحركة تنتسب إلى رائدها التاجر الغنى ورجل الأعمال بيتروس فالدوس Petrus Waldus، المولود عام ١١٤٠ بمدينة ليون Lyon بفرنسا، وكان يعنى اسمه فى اللاتينية والإغريقية، "الصخرة"، لأنه كان من عامة المؤمنين من المسيحيين، وقد كان له فضل السبق بأن كلف أحد القساوسة العمل على ترجمة الأناجيل إلى الفرنسية.[٢] وقد اعتنقت هذه الجماعة الإيمان بالمسيح عليه السلام كوسيط وحيد بين الله والناس، وتمسكت بالكتاب المقدس كقانون وحيد للحياة، ورفضت قيم عبادة الصور والتماثيل وتقديسها، باعتبارها من أعمال الوثنية، ولم

---

(١) قارن:

Karl Heussi: Kompendium der Kirchengeschichte, 16. Auflage. Tübingen 1981. S. 217f.

(٢) قارن فايز فارس: أضواء على الإصلاح الإنجيلى، القاهرة، ط ١، ص ٨.

يكن أمام بابا روما آنذاك لوكوس الثالث Lucus III إلا إصدار مرسوم أُعد لهذا الغرض فى مدينة فيرونا Verona ١١٨٤ بحرمان أعضاء هذه الجماعة من عضوية كنيسة روما، واتهامهم بالهرطقة مما أدى إلى اضطهادهم وهجرهم لوطنهم، واللجوء إلى الجبال والأودية فى مناطق جبال الألب، مستمرين فى المحافظة على حرية العبادة والعقيدة ،التى نادوا بها، وأعلنوا أن كنيسة روما ما هى إلا باب المرتدين، وقد نجحوا فى إتمام ترجمة الإنجيل إلى لغتهم الوطنية، ولم يتبرموا من حياتهم الشاقة فى الجبال، والتى اعتبروها حصنًا منيعًا لثبات عقيدتهم. كما تدربوا على الصبر والقسوة وضبط النفس والعمل الشاق، متمسكين بالكتاب المقدس، باعتباره السلطة الوحيدة المعصومة من الخطأ، رافضين بذلك سيادة البابا والأساقفة. وقد دأبوا على قيام مجتمع بينهم خال من الخصومات، مزكيًا روح الوفاق والمحبة الأخوية، واضعين نصب أعينهم أن يجعلوا نور إيمانهم يشرق على من هم فى الظلمة "Das Licht scheint in der Finsternis"، وهو الشعار الذى وضعوه على العلم المميز لهم، والمدبج بهذا النور الساطع ونجومه السبعة، المقتبسة من إنجيل يوحنا(١/٢٠)، وكان مظهر الزهد والفقر يمثل محورًا مركزيا فى معتقد الفالدانيين رغم أن عددًا غير قليل من مواطنى مدينة ليون كانوا من الأغنياء المنتمين لهذه الجماعة[١]أتباع فالدوس، حتى أن البعض منهم قد تبرع بممتلكاته، ورغم أن فالدوس كزعيم لهذه الحركة لم تكن لديه نية الانفصال عن كنيسة روما فإنه بدأ يتنصل من اتباع تعاليمها مع بداية ثمانينات القرن الثانى عشر، خاصة بعد أن اتهمته كنيسة روما باتباع مبادئ الكتاريين الإلحادية. واستمرت الجماعة فى السير على طريق الزهد والعيش فى فقر تقربًا من قيم السيد المسيح[٢].ويكون مصير هذه ويكون مصير هذه الحركة اضطهادهم وطردهم من ليون إلى مدينة فيرونا وليستقروا هناك كوعاظ جائلين فى جنوب فرنسا وشمال إيطاليا.

---

(١) قارن: Heussi: Kirchengeschichte, S. 218

قارن أيضًا مقال: Euan K. Cameron: Waldenser in: Theologische Realenzyklopädie, Bd. 35, S. 388-402

(٢) انظر نفس المرجع، صـ٣٨٧.

ومع بداية القرن الثالث عشر يصدر البابا أنوسنت الرابع Anosent IV ١٢٥٢ مرسومًا بهرطقتهم، ويجىء من بعده البابا أنوسنت الثامن Anosent,VIII ١٤٨٧ ليطاردهم ويجند ضدهم الحملات الصليبية، بل ويتعقبهم بمحاكم التفتيش، ولتطاردهم فى فرنسا وفى ألمانيا والنمسا.[١] وتتكررفيهم مأساة هابيل البار وهو يسقط صريعًا على يد أخيه القاتل قابيل، ولكن لثبات إيمانهم بعقيدتهم فقد قاوموا هذه الحملات الصليبية بضراوة، وقاموا بتأسيس أول كنيسة لهم على المبادئ التى نادوا بها عام ١٠٣٢ بجبال الألب الكوتية Cottische Alpen، وتتجه حركة الإصلاح إلى سويسرا وتوثق علاقاتها بزعماء حركة الإصلاح هناك، ويمنحهم ملك سردينيا كارل ألبرت Charl Albert عام ١٨٤٨ حرية العبادة، وهم ينتشرون الآن كأقليات مسيحية فى إيطاليا والأرجنتين وأرجواى ولهم ما يزيد عن ١٢٠ كنيسة فى هذه البلاد. ويذكر المؤرخون أن طريق الهروب الذى قصده الفالدينيون أثناء اضطهادهم هو الطريق الذى يوصل مابين جبال الألب الكوتية فى جنوب فرنسا وبين جبال الألب الإيطالية وهى المنطقة التى استقرت فيها أعداد غير قليلة من الجنود المسلمين على مدى ثلاثة قرون سابقة بداية من القرن العاشر وكانوا يسيطرون على هذه الطرق ومنافذها، وطاب لهؤلاء الجنود المقام حتى أن البعض يرى أن قيم الفالدانيين تقترب كثيرًا من القيم الإسلامية وخاصة تمسكهم الشديد بنص الكتاب المقدس وعدم الاقرار بأى سلطة اخرى بالكنيسة.[٢]

ومن هنا يمكن أن نقول إن حركة جماعة الفالدينيين وتوجهاتهم ومعاناتهم التى لاقوها من جراء عقيدتهم، أنهم الرعيل الأول من رواد الإصلاح الذين مهدوا الطريق قبل ميلاد مارتن لوتر ونجاح حركته الإصلاحية بقرون عدة.[٣]

---

(١) قارن: Le Goff: Hochmittelalter, S. 248

(٢) قارن: Heussi: Kirchengeschichte, S. 219

قارن أيضًا F. E. Vogt: Artikel „Waldenser“, in: Religion in Geschichte und Gegenwart, Bd. 6, 1962, S1530 ff.

(٣) مزيد من التفصيلات انظر، http://de.wikipedia.org/wiki/waldenser 25.8.2003، وقارن أيضًا، www.heiligenlexikon.de/glossar/waldenser.html 25.8.2003

٣. ٣ جون وكليف John Wyclif

وهو اسم مأخوذ من العبرية، وتعنى رحمة الله وغفرانه، ولقبه البعض بنجمة الصباح، وهو من أحد رجال اللاهوت المصلحين والمجددين فى إنجلترا، ومؤسس حركة اللولارديين[١]، وتعنى أتباعه من المسيحيين المجيدين لإنشاد الترانيم والمزامير بهدف شفاء المرضى، وكانت دعوتهم تقوم على التجوال بين الناس.

يرى القس باقى جيد بشارة فى كتابه: "أضواء على تاريخ ظهور البروتستانت فى أوروبا وفى مصر" اعتبار حركة جون وكليف ويان هوس وايورينيموس البراجى ومن ساروا على نهجهم من الحركات المناوئة للكنيسة الكاثوليكية التى أدت إلى ظهور الكثير من البدع والهرطقات وتدهور أحوال الكنيسة[٢]. وهو يعنى بذلك الكنيسة الكاثوليكية فى روما آنذاك.

وُلد وكليف عام ١٣٣٠ بمدينة هبسويل Hebswell بمقاطعة يورك، وتوفى عام ١٣٨٤ بمدينة لوتر ورث Lutterwrth . درس وكليف اللاهوت بجامعة أوكسفورد، وعمل أستاذًا بها حتى عام ١٣٧٢، ثم عين فى نفس الوقت قسيسًا بداية من عام ١٣٦٨، وقد اتبع ويكليف فى خطبه وعظاته الدينية أسلوب التجول Wanderprediger، وكـان لذلك أثره الكبير على جماهير الشعب الإنجليزى. كما كان باعثًا لنشوب ثورة الفلاحين لدى جماهير الإنجليز عام١٣٨١، وينادى وكليف كأستاذ للاهوت، ومن منطلق موقعه الوظيفى للكنيسة الإنجليزية بسلطة الإله المباشرة، التى تقدم المغفرة والرحمة دون سواها، بل المناداة بحجبها كلية عن بابا روما وتابعيه من رجال الإكليروس، وأدى ذلك بالتالى إلى صدام شديد تجاه تعاليم كنيسة روما، ويَصدُر المرسوم البابوى موجهًا إلى كنيسة أوكسفورد بتكفير كتاباته، مما جعله يعتزل العمل، ويتفرغ لترجمة العهد الجديد إلى الإنجليزية عام

---

(١) نسبة إلى الفيلسوف والمتصوف رامون لول Raymundus Lullus فى العصور الوسطى (١٢٣٢_١٣١٦)

(٢) قارن: باقى جيد بشارة: أضواء على تاريخ ظهور البروتستانت – فى أوروبا وفى مصر، القاهرة، ص ١٨ وما بعدها.

١٣٨٣. كانت عزلته وعمله المضنى سببًا فى مرض عضال أصابه وانتهى بوفاته عام ١٣٨٤، ولكن كنيسة روما كانت له بالمرصاد. ويُعقد مجمع كونستانس عام ١٤١٥ ليصدر مرسومًا بتكفيره وحرمانه من عضوية الكنيسة، بل وانتهى الأمر عام ١٤١٨ بنبش قبره وحرق ما تبقى من رفاته.(١) ويرى الكثيرون من مؤرخى حركة الإصلاح الدينى فى أوروبا أن حركة جون ووكليف التى انبعثت ونشطت مع بداية القرن الرابع عشر فى إنجلترا ومثلت أساسياتها قيمًا محورية تتفق تمامًا مع قيم الإصلاح البروتستانتى وخاصة فى نقد الأطماع المادية لرجال الإكليروس والعودة إلي حياة الزهد والتقشف والارتكان على نصوص الكتاب المقدس. وقد نشطت مبادئ هذه الجماعة الكثير من علماء اللاهوت الذين شاركوا بفكرهم فى جامعات باريس وأكسفورد ولينهلوا من الفكر الإسلامى الذى كان يدرس فى هذه الجامعات، ويواصل جون وويكلف جهوده الإصلاحية الموجهة إلى رجال الإكليروس من خلال برنامج اصلاح شامل ويعمل على ترجمة نص الإنجيل اللاتينى الشائع استخدامه آنذاك تحت اسم الفولجاتا إلى اللغة الإنجليزية، ويكلف مجموعة من اتباعه الذين أطلق عليهم الوعاظ الجوالين والذين أطلق عليهم الشعب اسم اللولارديين وليقفوا جنبًا إلى جنب مع ثورة الفلاحين التى اندلعت عام ١٣٨١.(٢)

وترى السيدة إلين جيمس وايت E.G.White، مؤلفة كتاب "الصراع الكبير"، أن جون ويكليف كان من أوائل المبشرين لحركة الإصلاح ، ليس لإنجلترا وحدها، وإنما لكل العالم المسيحى، وكان احتجاجه ضد روما فاتحة للصراع، الذى قاد إلى تحرير الأفراد والشعوب من عبودية البابوية(٣). لقد كان دارسًا متعمقًا

---

(١) قارن:25.8.2003 www.heiligenlexikon.de/biographien/john_wyclif.html

(٢) قارن: Heussi: Kirchengeschichte, S. 248

(٣) قارن E.G. White: Der große Konflikt, 1. Aufl.-, München: Inter-Euro Publishing, 1998, S. 74

قارن أيضًا الترجمة العربية للكتاب تحت عنوان "الصراع العظيم بين الحق والباطل" والتى قدمها إسحق فرج الله و نقحها أنطوان عبيد إصدار دار الشرق الأوسط للطبع و النشر، بيروت ١٩٩٧ ، ط ٣ .

للفلسفة وقوانين الكنيسة ومحتوى الكتاب المقدس، ولقد وجد ضالته فى كلمة الله، وأن المسيح هو الوسيط الوحيد للإنسان، وأن ادعاء البابا بحق السيادة على الآخرين من حكام ومدنيين مناقض للعقل والوحى الإلهى.

كانت حركة جون ويكليف ضربة مضادة لسيادة البابا فى إنجلترا، وخاصة بعد أن اتحد الملك والأمراء فى تبنى آرائه ، وخاصة معارضته الشديدة فى قضية بيع صكوك الغفران، والتى كان يجمعها رهبان البابا الجشعين، ويلتهمونها كما لو كانوا سرطانًا رهيبًا(١). لقد ساهم ويكليف فى صياغة معتقدات الأمة الإنجليزية، مما أدى لتعيينه سفيرًا لإنجلترا بهولندا لمدة عامين، ممثلاً لدولته، ومفاوضًا مع مندوبى كنيسة روما، الذين وصفهم بأنهم يستنزفون أقوات الفقراء وخزانة الدولة لأمور كلها زندقة وهرطقة. ولم تفلح مؤامرات البابا ومحاولاته مع ملك إنجلترا آنذاك إدوارد الثالث Eduard III، والذى وافته المنية فجأة، ويتم انتخاب البابا جريجورى الحادى عشر Gregory XI ويتنافس من بعده باباوان آخران، مما أضعف من سلطات كليهما.(٢) ويشجب ويلكيف هذا التناحر ويدعو فقراء المسيحيين إلى مبادئه فى جميع أنحاء إنجلترا وداخل أروقة جامعة أكسفورد، حتى لقبه الناس بدكتور الإنجيل، من منطلق معاناته ومرضه الشديد الذى لم يمنعه من إكمال ترجمة الإنجيل إلى الإنجليزية لأول مرة، وإقبال الناس على قراءته ونسخه بالأيدى لعدم توافر الطباعة آنذاك، واشتراك الأسر فى نسخة واحدة واستعمالها بشكل جماعى.(٣)

لقد أيقظ ويكليف بنشاطه هذا إحساس الجماهير ومناداته بمبدأ الخلاص من خلال الإيمان بالمسيح، وتقف له كنيسة روما بالمرصاد وتؤلب عليه الملك ريتشارد

---

(١) قارن المرجع السابق، ص ٧٧ .

(٢) يذكر الشماس الأكليريكى باقى جيد بشارة هذه الحقيقة التاريخية وأنه كان لكنيسة روما ثلاثة باباوات فى وقت واحد: بينيدكتوس الثالث عشر(١٣٩٤)، وجريجوريوس الثانى عشر (١٤٠٦)، ويوحنا الثانى عشر (١٤١٠) ، قارن : أضواء على تاريخ ظهور البروتستانت فى أوروبا وفى مصر ، ص ١٢ وما بعدها.

(٣) المرجع السابق، ص ٧٩.

الثانى، لاستدعائه ومحاكمته وسجن كل من يؤمن بمبادئه. ويُستدعى ويكليف أمام المحكمة الإكليركية لإرغامه على إنكار أفكاره، أو سوقه مباشرة إلى المحرقة، ولكن ويكليف يصمد أمام محاكميه، ويرد عليهم: "لقد تجرأت على نشر ضلالتكم وإتجاركم بنعمة الله، فمن تظنون أنكم تحاربون؟ أشيخًا فانيًا يترنح وهو واقف على حافة القبر؟ كلا، فأنتم تحاربون الحق، الذى هو أقوى منكم والذى سيقهركم".[1] لقد كان ويكليف كأنه المسيح على مدى سنى غربته على الأرض، عاش كأفقر إنسان، طارحًا عنه كل سلطان، داعيًا بابا روما، البابا أوربان السادس Urban VI وتابعيه أن يتبعوا تعاليم المسيح. ويستمر ويكليف فى دعوته حتى آخر عمره بإبروشية لوتر وورث منذ القرن الرابع عشر. وتتواصل دعوته بعد موته من خلال أتباعه، الذين أُطلق عليهم الويكليفيون واللولارديون. الذين لاقوا اضطهادًا كثيرًا من قبل كنيسة روما،[2] ولكن تعاليم رائدهم، ويكليف لم يخمد سعيرها، بل أدت لظهور حركة إصلاح مماثلة فى منطقة نائية وبعيدة عن إنجلترا، ألا وهى حركة يان هوس Jan Hus فى منطقة بوهيميا فى شرق أوروبا، والذى قادها ذلك الراهب البوهيمى محاولا إقناع الناس بالعودة إلى كلمة الله، إنها نفس التوجهات التى مهدت الطريق أكثر وأكثر للمصلح الألمانى الكبير مارتن لوتر.

٣. ٤ حركة يان هوس Jan Hus، وجيروم هيرونيموس فون براج Girom Hieronymos von Prag، وسافونا رولا Savona Rola

ولد يان هوس ١٣٧١ فى مدينة هوزينيك Husenac فى جنوب مقاطعة بوهيميا، ويعنى اسمه، "رحمة الله وغفرانه". درس بجامعة براج، وحصل عام

(١) قارن المرجع السابق الاصدار الألمانى، ص ٨٣ .
„Mit wem glaubt ihr..., dass ihr streitet? Mit einem alten Manne am Rande des Grabes? – Nein! Mit der Wahrheit, die stärker ist als ihr und euch überwinden wird."
(٢) قارن: المرجع السابق، ص ٨٨.

١٣٩٦ على الماجستير فى اللاهوت، وعُيِّن أستاذًا وعميدًا لكلية اللاهوت بالجامعة، وفى عام ١٤٠٠ انتُخب قسيسًا لكنيسة بيت لحم فى براج. وكان يقدم عظاته وخطبه للجمهور باللغة التشيكية وهو الأمر غير المعتاد آنذاك، لأن كنيسة روما جعلت اللاتينية هى لغة اللاهوت، وحَرَّمت الوعظ بأية لغة أخرى، لكن هوس من منظور حسه الوطنى قدم عظاته بلُغة وطنه، وحتى يتمكن الناس من قراءة الإنجيل وفهمه باللغة التى يعرفونها. وقد تأثر يان هوس بتعليمات ودعوة جون ويكليف، الذى جلبها له صديقه جيروم البراجى Girom von Prag من إنجلترا، مستقيًا منها النقد القاسى لكنيسة روما وبشاعتها، محاولاً الإصلاح من شأنها.(١) وتكثر الشكاوى بداية من عام ١٤٠٨ ضد يان هوس، ويُصدر البابا ألكسندر الخامس Alexander V عام ١٤٠٩، وهو أحد الباباوات الثلاثة المتصارعين على السلطة، مرسومًا بحرمان هوس من عضوية الكنيسة، وإحراق كتبة، والأمر بنفيه عام ١٤١٠، مما أسفر عن وقوع قلاقل فى براج، مما أرغم السلطات إلى عودته وممارسة عمله ١٤١٢، و تستمر روما فى مطاردته، ويُستدعى عام ١٤١٤ ليَمثُل أمام مجمع كونستانس، وذلك فى السادس من يوليو عام ١٤١٥، بعد رفضه التراجع عن آرائه، ليُحكم عليه بالهرطقه والحرق، أو العدول عن تعاليمه. ولقد وافق يان هوس بالذهاب إلى المجمع بعد تعهد حاكم بوهيميا، الملك سيجسموند Sigismund بحمايته، إلا أن الملك حنث بعهده وتم إعدامه حرقًا مع كتبه وإلقاء رفاته فى نهر الراين.(٢)

وكان الأمر الطبيعى أن تنشب الحروب ضد أتباعه من الهوسيين، وعانت براج التى كانت تعيش عصرها الذهبى هذه المعاناة، بعد أن كانت تمتلئ بأبراج الكنائس الذهبية التى تفوق كنائس روما، والتى بلغ عددها ست وسبعين كنيسة

---

(١) قارن Franz Malichek: Artikel „Hus/Hussiten" in: Theologische Realenzyklopädie. Bd. 15. S710-735, hier S. 710

(٢) يذكر المؤرخون أنه سيق مكبلا بالسلاسل أمام جموع الحاضرين وعلى رأسهم القيصر، حيث أصر فى دفاعه على الفساد المستشرى فى الكنيسة ورجال اللاهوت.
مزيد من التفصيلات انظر، G.E.White, a.a.O. ص ٩٨
وقارن أيضًا، 25.8.2003 www.koenigsfeld.org/m_hus.html

وأربعة وعشرين ديرًا، يمارِس العمل فيها أكثر من ألف ومائتين من رجال اللاهوت.(١) وكان هوس يجيد التشيكية لغته الأم والألمانية، ويكون مصيره الموت بعد أن نقض ملكه عهده بحمايته، ويتم إعدامه حرقًا بمدينة كونستانس فى عام ١٤١٥.

ويعود الكثير من طلابه إلى جامعاتهم، يحملون تعاليمه وتعاليم صديقه القادم من إنجلترا، جيروم البراجى، مدعَّمًا بآراء المصلح ويكليف. ويتقبل هوس الموت دون أن يتراجع بكلمة واحدة عن آرائه، ويقف شامخًا أمام الإمبراطور والأمراء والأساقفة، ويقول ساخرًا موجهًا كلامه إلى الملك سيجسموند، الذى تعهد له بالحماية: "لقد عزمت بمحض اختيارى أن أمثُل أمام المجلس، تحت حماية ملكى الحاضر هنا وبناء على وعده لى بالأمان".(٢) ويَلْقَى هوس وجيروم من بعده كل ألوان الاضطهاد، ذاهبين إلى النار، كما لو كانا ذاهبين إلى وليمة عرس. ويموت كلاهما، وتبقى تعاليمهم، الأمر الذى كان يقدم دليلاً دامغًا على قسوة روما وغدرها. كانت كلمات جيروم الأخيرة "أتظنون أنى أخاف الموت، لقد حبستمونى فى سجن رهيب، وقسوتم فى معاملتى أكثـــر مما لو كنت تركيًا مسلمًا، أو يهوديا، أو وثنيا. إن ما يدهشنى إنما هى تلك الوحشية التى تعاملون بها إنسانًا مسيحيا"(٣). ويتقبل جيروم الموت بالحرق وإلقاء رفاته فى الراين، بعد صلاة توجهِ فيها إلى ربه طالبًا عفوه ومغفرته.

---

(١) قارن: E.G. White, a.a.O. ص ٩٢ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق الإصدار الألمانى، ص ٩٩ .

„Ich bin aus meinem eigenen freien Willen vor dem Konzil erschienen, unter dem öffentlichen Schutz und dem Ehrenwort des hier anwesenden Kaisers..."

(٣) المرجع السابق الإصدار الألمانى، ص ١٠٤ .

„Was! Meint ihr, ich fürchte mich zu sterben? Ihr habt mich ein ganzes Jahr in einem fürchterlichen Verlies gehalten, schrecklicher als der Tod selbst. Ihr habt mich grausamer behandelt denn einen Türken, Juden oder Heiden...ich kann aber nicht umhin, meinem Staunen ob solch großer Rohheit gegen einen Christen Ausdruck zu geben .

وتقود روما حربًا شعواء ضد شعب بوهيميا والذى أحرز انتصارات عديدة على جيوشها، انتهت بصلح مع روما، يعطيهم حرية التعبد من خلال الكتاب المقدس، وحقهم كأعضاء فى الكنيسة من الخبز والخمر فى المائدة السماوية، واعتزال رجال الكنيسة من السلطة المدنية.

يظهر ثائر جديد ليكمل ويواصل رسالة يان هوس وجيروم فى مدينة فلورانتسا بإيطاليا، وهو الراهب سافونا رولا Savona Rola، الذى حاول جاهدًا أن يطهر الكنيسة فى فلورنسا وإيطاليا من الفساد، وأن يواجه الحكام فى شجاعة ويأمرهم بطاعة الله وتوخى الفضيلة، بل لم يتورع فى أن يواجه البابا ألكسندر السادس، والذى كان يصفه بأنه: "حية رقطاء يستبيح كل القوانين، ويغرق نفسه فى الشهوات، ويمعن فى القسوة، لدرجة أنه لم يكن يتورع أن يدس السم لأتباعه."

يصف سافونا رولا وضع الكنيسة المتردى فى خطبة ألقاها عام ١٤٩٨ : "إن العار يبدأ فى روما ومنها يمر إلى بقية الكنائس. إنهم أسوأ من الترك والموركسيين، اذهب إلى روما فستجد أنهم حصلوا على مناصبهم الروحية بالمال ... إن طمعهم فظيع ... فأجراسهم تدق من أجل حب جمع المال ... إنهم يبيعون السر المقدس ويقايضون على القداس ، باختصار كل شىء يتم عمله بالمال وعند المساء يذهب الواحد منهم إلى المقامرة والآخر إلى محظيته، وحيث يجب أن يصلوا فى هدوء على الميت نجدهم يأكلون أو يشربون بنهم و يثرثرون و يهزرون بشدة."(١)

ويأمر هذا البابا بإحراق سافونا رولا وأتباعه من الرهبان عام ١٤٩٨، وهو العام الذى بلغ فيه لوتر ١٥ عامًا من العمر.

وكانت هذه النجاحات بمثابة ثمرة من ثمرات تعليمات هوس، وويكليف، وجيروم، وسافونا رولا. ويتم تأسيس كنيسة تسمى "كنيسة الأخوة المتحدين " Die

---

(١) قارن محمد خليفه حسن: تاريخ الأديان، دراسة وصفية مقارنه، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٢٢٨: نقلا عن
Hans- Joachim Schoeps, The Religion of Mankind, P. 303f.

"Wurzeln der Brüder Unität"، ويستمر أتباعهم فى مواصلة الحياة فى الغابات، وأودية الجبال، وينتشر الأمل والنور بعد مرور قرن من الزمان، و يجىء لوتر ليواصل المسيرة حتى يصل عدد كنائسهم فى بوهيميا ما يتجاوز المائتين. ويَروى المؤرخون نبوءة عن هوس وهو فى طريقه إلى الموت فحواها:

"إنه فى يوم ٧-٦-١٤١٥، اليوم المحدد لتنفيذ الإعدام فى يان هوس، تبدأ المراسم بصلاة قصيرة بالكاتدرائية، وينادَى على هوس أن يتراجع عن آرائه، ويكون رد فعله الابتهال والصلاة مرددًا: هكذا يجتمع الجمع فى هذا المجمع والحكم على بالموت وتخطيىء آرائىء وتعليماتى، وليس لى إلا أن أطلب لكم الرحمة والمغفرة."

ويجىء الكاهن كارل لوفى Carl Loewe، الذى ألف ترنيمة دينية ولحنها تحت مسمى "يان هوس"، متضمنة المقولة الأسطورية التى وجهها إلى من حكموا بإعدام هوس ويقول: "لقد أحرقتم الآن أوزة وكانت تعنى هذه الكلمة فى اللغة التشيكية لقب يان هوس، إلا أنه سيظهر لكم هذا المناضل فى زمن ليس ببعيد كبجعة، ليس من السهل عليكم إحراقها."[١] ويفسر المؤرخون مقولة "كارل لوفى" هذه على أنها إشارة ضمنية إلى مجىء مارتن لوتر فيما بعد. ويرى بعض المؤرخين أن أتباع يان هوس الذين نزحوا إلى مدينة تابور فى بوهيميا وأطلق عليهم التابوريين فى نشر أفكارهم عن المساواة بين البشر أمام الخالق وتركهم كل طقوس العبادة التى كانت تصر عليها الكنيسة الرومانية كتقديس رجال الإكليروس

---

(١) قارن: 25.8.2003 www.koenigsfeld.org/m_hus.html
Am 6-7-1415 der Tag der Hinrichtung beginnt mit einer Messe in Münster, Hus wird zum Widerruf seiner Lehren aufgerufen. Er betet: siehe doch her, dieses Konzil hält dein Tun und dein Gesetz für Irrtum der Verkündigung des Todesurteils, betet er: „vergib ihnen“.
Carl Loewe schuf ein Oratorium „Johann Hus“ darin kommt der legenderhafte Satz vor. jetzt beratet ihr eine Gans Hus bedeutet in tschechisch die Gans“ bald kommt ein Schwan „als Hinweis auf Luther gedeutet, den wird man ungebraten lassen"

وصور القديسين وعدم الإقرار بالاعتراف بالذنوب وصكوك الغفران التى تمنح من رجال الإكليروس أنهم بذلك أقرب إلى القيم الإسلامية وهى نفس القيم التى نادى بها المصلح مارتن لوتر بعد قرن من الزمان باعتبارها بعدًا اجتماعيا يقف فيه كل المؤمنين على قدم المساواة أمام خالقهم.[١]

٣. ٥ مارتن لوتر وأحداث الإصلاح الأخيرة

استكمالا للنبوءة التى ترددت عند إعدام المصلح البوهيمى يان هوس، والتى قدر لها أن تتحقق بعد مائة عام، متمثلة فى طهى الأوزة باغتيال يان هوس من قبل روما، ولتظهر لهم بعد قرن من الزمان كبجعة ضخمة يستحيل طهيها أو قليها، هذه البجعة هى مارتن لوتر الذى كان يعنيه كارل لوفى.

وكما سبق أن أشرنا فى الفصل الأول عن فترة الحيرة والتساؤل التى مر بها الراهب مارتن لوتر حينما ساوره الشك بعد رحلته مع أحد الرهبان، والتى قاما بها بتكليف من رئاسة الدير الأوغسطينى سيرًا على الأقدام إلى روما. ويجد لوتر نفسه وجهًا لوجه أمام أرض الترف والبذخ السائدة فى مدينة روما، والواقعة على سبع تلال، وينطرح على الأرض داعيًا ربه "يا روما المقدسة إننى أحييك". وبعد ما يرى الآثام المتفشية فى أوساط رجال الإكليروس، يقول ما نصه: "لا يستطيع أحد أن يتصور مقدار بشاعة الأمور المخجلة، التى تُرتكب فى روما ولا يصدق بوجودها إلا من رآها بعينه، وقد صار من المعتاد أن يقول الناس: "إذا كان هناك جحيم، فإن روما مبنية فوقه، فهى بؤرة تخرج منها كل الخطايا" وفى أثناء صعوده سلم بيلاطس المقدس راكعًا على ركبتيه، يسمع صوتا كالرعد "البار بالإيمان يحيا"، ويفسر القس فايز فارس معنى كلمة البار هنا بالعدل، وهذا يعنى أن عبارة "بر الله" عند لوتر تعنى أن الإنسان الذى يؤمن، يحيا بالبر الذى يمنحه له الله، هذا البر هو رحمة ونعمة من الله لا ينالها الإنسان إلا بالإيمان. ويعبر لوتر فى هذه اللحظة بشعوره أنه قد وُلد من جديد، وأن أبواب السماء قد فُتحت له على مصارعها.[٢]

---

(١) قارن Malichek: S. 728

(٢) قارن، فايز فارس: أضواء على الإصلاح الإنجيلى، القاهرة ١٩٨٤، ص ٢٧ وما بعدها.

يعود مارتن لوتر إلى موطنه فى فيتنبرج، وكما سبق أن ذكرنا يحصل على الدكتوراه، ويؤهل لتدريس الكتاب المقدس مواجهًا مفاسد الفلسفة السائدة والعلوم اللاهوتية التى اتبعتها كنيسة روما، والتى نشرت الإتجار بنعمة الله من خلال إجبار الناس على شراء صكوك غفران كنيسة روما، واضعة موائد الصيارفة إلى جوار مذابح الكنائس. ويرسل البابا نوابه إلى ألمانيا وعلى رأسهم الراهب الدومنيكانى الأحمق "يوهان تتسل" لجمع عوائد هذه الصكوك، مدعيًا أنها بسلطة البابا تغفر لمن يشتريها كل خطاياه، حتى التى يرغب فى ارتكابها مستقبلاً، بل امتد أثرها من غفران خطايا الأحياء إلى غفران خطايا الأموات. ويصف المؤرخون مواكب هذا الراهب الأحمق، فى أنه كان يحيط دخوله لأية مدينة ألمانية بهالة من القداسة، وبحيث يكون فى استقباله موكب مهيب من كبار القساوسة والأساقفة والرهبان ومديرى المصالح والمؤسسات التعليمية وطلاب الجامعات والمدارس وعامة جماهير الناس من طوائف المهنة، حاملين المشاعل والأعلام والشموع، تصحبهم فرق الترانيم والإنشاد الدينى، وينحنى الجميع أمام الصليب الأحمر ذى المسامير الدامية، وعلى قمته تاج من أشواك الأشجار ومرفق به صكوك الغفران(١)

وقارن أيضًا، حنا جرجس الخضرى: مارتن لوثر، حياته وتعاليمه، بحث تاريخى عقائدى لاهوتى، القاهرة ١٩٨٣، ص ٥٥ - يشرح الخضرى نظرية البر بالإيمان قائلا: "فبر الله حسب مفهوم لوتر هو هبة الله للإنسان وبه يصبح الإنسان مبررًا فى عينى الله. فإن التبرير (أو الخلاص فى الخطيئة) لا يتوقف على أعمال الإنسان الصالحة كثيرة كانت أم قليلة لكنه بإيمان الإنسان الخاطئ المعترف بخطاياه والنادم عليها من قبله أمام الإله البار، وحتى هذا الإيمان هو عطية الله "لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان وذلك ليس منكم هو عطية الله." (أف٢: ٨-١٠) ولكن على الإنسان أن يفتح قلبه لقبول عطية الله الذى ينير له الطريق ويكشف له حالته على حقيقتها.

(٢) تمثل فكرة صكوك الغفران بدعة يرجع تاريخها إلى عصر الحروب الصليبية، والتى نادى بها بابا روما ضد المسلمين، وقامت هذه البدعة على أساس نيل الخلاص عن طريق الأعمال الصالحة من منطلق رسالة القديس بولس إلى أهل رومية (١-١٧) وكان للعديد من القديسين والشهداء حسنات زائدة وأعمال صالحات، تودع فيما يسمى ببنك الكنيسة، ليتم توزيعها على من لم يقوموا بأعمال صالحة كافية للخلاص أثناء حياتهم على الأرض، وتوزع الكنيسة هذه الأعمال الزائدة كما تشاء ولمن تشاء، حتى تحولت ،كما هو معروف، إلى تجارة رابحة، وهذا يعنى أن هذه التجارة ممثلة فى الصك الذى يبرئ الإنسان من الذنوب التى اقترفها والتى سوف يقترفها. (المؤلف)

المخصصة للبيع، تحيطها أعلام وشموع البابوية الموضوعة على وسادة من القطيفة.[١]

يواصل الراهب الدومنيكانى المولود فى مدينة برن بسويسرا مواكبه ويردد مقولاته: "إنه حينما ترن النقود فى الصندوق تتحرر النفس التى قدمت لأجلها من عذاب المطهر، وتنطلق إلى السماء فى طريقها إلى الجنة، وأن مشترى هذه الصكوك يحوّل تلال القديسة "أنّا" إلى كتلة هائلة من الفضة الصافية" ويبالغ هذا الراهب مخاطبًا الفلاحين ويقول: "لو أن الرجل اغتصب أم الرب وارتكب الخطيئة مع العذراء المباركة فإن الصكوك كفيلة بأن تمنحه الغفران الكامل".[٢]

ويواجه لوتر هؤلاء المشترين لهذه الصكوك والراغبين فى إصلاح حياتهم بالتوبة إلى الله، والحصول على نعمة المسيح، والتى لا يمكن شراؤها بالمال لأنها هبة مجانية. ويحسم لوتر أمره أثناء حلول عيد القديسين والشهداء بمدينة فيتنبرج، ويصطحب صديقه يوهان شنايدر Johann Schneider الملقب بأجريكولا Agricola، والقادمين من الدير الأسود الأوجستينى، قاصدين كنيسة القصر، والتى تبعد حوالى خمس عشرة دقيقة من الدير، ويقوما بتعليق ما سمى بالحجج الخمس والتسعين على بوابة كنيسة القصر الرئيسية، فى ٣١ اكتوبر ١٥١٧، ليقرأها الناس فى يوم العيد، الموافق الأول من نوفمبر ١٥١٧.

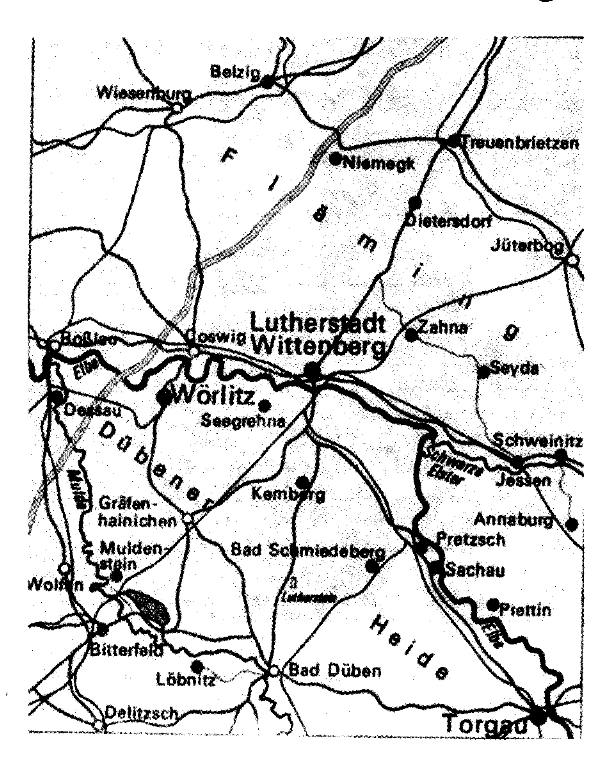
٣. ٦ الحجج الخمس والتسعين ومحاكمة لوتر

ولعله من المفيد للقارئ أن نعرض فى إيجاز إلى قضية الحجج الخمس والتسعين التى ضمنها، من وجهة نظرنا، ضلالات صكوك الغفران والابتزاز الجشع للأموال من قبل كنيسة روما. ويبدأ لوتر كرجل وحيد فى التصدى وفى

---

(١) قارن: Landgraf, Martin Luther, a.a.O. ص ٩١.
(٢) قارن: جاد طه: ألمانيا إلى أين المصير، ص٢٠.

مقاومة أعظم قوى الأرض، الممثلة فى سياسة البابا، الذى ترتعد أمامه قياصرة وملوك الأرض قاطبة. ويختار لوتر مقر كنيسة فيتنبرج لإعلان قراراته، من منظور أن الامر يخص الكنيسة بالدرجة الأولى ولا يخص الجامعة، وأنه صاغها من أجل الكنيسة التى يجلها ويحترمها.(١)



خريطة توضيحية تبين موقع مدينة فيتنبرج التى انطلقت منها شرارة حركة الإصلاح الدينى من خلال تعليق حجج الإصلاح الخمس والتسعين على بوابة كنيسة القصر، علاوة على أهم الأماكن التى انتشرت فيها دعوته الإصلاحية(٢)

(١) قارن: حنا جرجس الخضرى، ص ٦٧.

(٢) قارن:
Rößling, Udo/ Ambors, Paul u.a: Reisen zu Luther. Erinnerungsstätten in der DDR. 2. bearb. Aufl-, Berlin, Leipzig: Tourist, 1988 , S. 188.

يقدم لوتر حججه الخمس والتسعين بالعبارة التالية: "بدافع من الحب للعقيدة والرغبة فى تسليط الضوء عليها، سوف تناقش الآراء التالية فى مدينة فيتنبرج، تحت رعاية الأب الموقر مارتن لوتر، أستاذ الآداب واللاهوت المقدس والمحاضر لنفس العلم فى ذلك المكان، ولهذا يرجى من هؤلاء الذين لا يستطيعون الحضور والجدال شفويا أن يفعلوا هذا بخطاب مكتوب". وكانت هذه الدعوة تمثل دعوة مفتوحة وعامة لكافة العلماء والأساقفة والكهنة، من منطلق صياغتها أساسًا باللغة اللاتينية والتى لا يجيدها أو يفهمها أحد سواهم.(١)

و تبدأ هذه الحجج بالحجة الأولى: "أن سيدنا يسوع المسيح أراد بقوله "توبوا" أنه يجب على كل مؤمن أن تكون كل حياته وسيرته توبة خالصة." (٢)

وتنتهى بالحجة الخامسة والتسعين: "أن السبب فى حض المسيحيين ومناشدتهم اتِّباع المسيح، هو أنه المدخل للصعود إلى ملكوت السماوات، رغم اقتراف الكثير من الآثام، لأن هذا أفضل وأحسن من تحصيل ثقة جسدية وتعزيات سلام كاذب(٣).

ويوجز القس حنا الخضرى ما تضمنته الحجج الخمس والتسعين على النحو التالى:

---

(١) قارن ول ديورانت: "موسوعة قصة الحضارة " فصل ١٦ ص ٩ و ما بعدها.
قارن الترجمة الألمانية للحجج الخمس والتسعين: www.luther.de:95Thesen
„Da unser Herr und Meister Jesus Christus spricht „ Tut Buße“ usw. (Matth. 4,17), hat er gewollt, daß das ganze Leben der Gläubigen Buße sein soll.“

(٢) قارن أيضًا، أديب نجيب سلامه: تاريخ الكنيسة الإنجيلية فى مصر (١٨٥٤-١٩٨٠)، القاهرة ١٩٨٢، ص ١٣.

(٣) مزيد من التفصيلات قارن ميرل دوبنياه تاريخ الإصلاح فى القرن السادس عشر، ترجمه عن الإنجليزية إبراهيم الحرانى ط٣ بيروت ١٩٨٢ ص ٨٧ و ما بعدها.
وقارن أيضًا: www.luther.de:95Thesen
"und daß die lieber darauf trauen, durch viele Trübsale ins Himmelreich einzugehen, als sich in falscher geistlicher Sicherheit zu beruhigen.

- الاحتجاجات من رقم ١-٢٩ تفند سلطان بابا روما لبدعة وتجارة صكوك الغفران، وما تتركه من آثار على الأرواح فى المطهر.
- الاحتجاجات من ٣٠-٦٨ تتضمن شروط وأساسيات التوبة الحقيقية للمسيحيين من منظور لوتر.
- الاحتجاجات من ٦٩-٩٠ تتضمن تحذيرًا لمرتكبى الخطايا بعد حصولهم على هذه الصكوك.
- الاحتجاجات من ٩١-٩٥ تتضمن تحذيرًا ضد رجال اللاهوت الداعين لتبنى السلام وهم كاذبون، لأن الخلاص لا يشترى بالمال وإنما بالتوبة.

وينهى الباحث الخضرى عرضه التفصيلى لهذه الحجج مستخلصًا مقولاته، بأن الإصلاح الجذرى بدأ فى ألمانيا فى ٣١-١٠-١٥١٧ بتعليق هذه الاحتجاجات وطرحها للبحث والمناقشة، وهو على حق بتخريجه هذا، لأن هذا الحدث يمثل - من وجهة نظرنا- القشة التى قصمت ظهر البعير.

والسؤال الذى يطرح نفسه الآن: ما موقف البابا وكبار رجال الكنيسة الكاثوليكية، بعد انتشار هذا الحجج وترجمتها إلى لغات عدة بين جماهير الشعب؟

يبدأ رد فعل بابا روما، بتكليف الكاردينال الدومنيكانى توماس كاجيتان، وهو أحد كبار علماء اللاهوت بالفاتيكان بدراسة هذه الاحتجاجات، ثم القيام بالتوسط لدى رئيس الأديرة الأوغسطينية شتاوبتس، وذلك كمحاولة دبلوماسية لتراجع لوتر وسحب احتجاجاته. ويجتمع شتاوبتس مع لوتر فى ٢٥ أبريل ١٥١٨ فى هايدلبرج Heidelberg، وينضم إليهما المصلح الاشتراسبورجى مارتن بوسر Martin Bucer. وينجح التوسط، ويتم الاتفاق على أن يكتب لوتر خطابًا وديًا فى ١٥ مايو ١٥١٨ للبابا ليو العـــاشر، يعرض عليه فيه ثقته المطلقة، وأنَّ اعتراضاته ما هى إلا تعبير عن سوء استغلال بيع الصكوك، والتى رأى أنها عار وإهانة للسيد يسوع المسيح.

ويختم لوتر هذا الخطاب مناشدًا البابا المحبة والسلام والخضوع والوثوق فى غيرته على أمة المسيح.(١) ويجىء رد فعل روما المباغت على هذا الخطاب فى أول يوليو ١٥١٨ بقرار البابا بالقبض على لوتر، والعمل على ترحيله إلى روما فى خلال ستين يومًا، واعتباره من ذلك التاريخ هرطوقًا، ويتم تكليف الكاردينال كاجيتان بالقيام بهذه المهمة الصعبة.

يخرج لوتر فور علمه بهذا القرار إلى الناس ويؤكد من جديد على عقيدة التبرير بالإيمان، بواسطة النعمة الواردة فى رسالة القديس بطرس إلى رومية وبلاطية: "أما الخاطئ يتبرر من خطيئته بواسطة الإيمان وليس بالأعمال، أى أن الله يقبل الخاطئ، ويغفر له خطاياه من أجل محبته. وأن الأعمال الصالحة ما هى إلا محصلة ونتيجة للإيمان، وبرهانًا على توبة الخاطئ، ولكنها فى ذاتها لا تجلب الغفران ورحمة الله، لأن هذا الخلاص هو هبة مجانية يهبها الله لمن يشاء: "لأنكم بالنعمة مخلصـــون بالإيمان، فذلك ليس منكم، هو عطية الله، ليس من أعمال، كى لا يفتخر أحد." (أوفسوس ٢: ٨-٩). ومعنى كل ذلك أن البار الذى يحيا بالإيمان يعنى، أن الإيمان هو القناة الوحيدة التى من خلالها تصل النفس القلقة إلى السكينة، مصداقًا لنص الحجة اللوترية رقم ٣٦ والتى تقول: "إن كل مسيحى يتوب عن خطاياه حق التوبة، ينال غفرانًا كاملاً، بلا أدنى حاجة إلى الغفرانات البابوية.(٢)

يتبين للقارئ أن المبدأ الذى وقر فى قلب مارتن لوتر"أن البار الذى يحيا بالإيمان" يكون خلاصه مرتبطًا برحمة الله وغفرانه، الأمر الذى يمثل سنة سبقه بها نبى المسلمين وخاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم من قرون عديدة موجهًا

---

(١) "أيها الأب الأقدس إنى ألقى بنفسى أمام قداستكم خاضعًا بكل مالى وحالى. أحيونى أو اقتلونى... إنى أقبل صوتكم كما لو كان صوت المسيح متكلمًا عالمًا فيكم. فإن كنت أستحق الموت فلن أرفضه. لأن للرب الأرض وما عليها. فليكن اسم الرب مباركا. وليحفظكم الله للأبد." قارن، فايز فارس، ص ٣٣ .

(٢) قارن النص الأصلى:

Jeder Christ, der wirklich bereut, hat Anspruch auf völligen Erlass von Strafe und Schuld, auch ohne Ablassbriefe

حديثه لصحابته قائلا: "لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمته."

حجة ٤٥: يجب أن يتعلم المسيحى إذا رأى قريبه محتاجًا، فليحسن إليه، لأنه يريـــد أن يشترى بمـــا يستغنى عنـــه غفرانًا، وهو بذلك لا يشترى غفران البابا، بل غضب الله عليه.(١)

حجة ٤٦: إنه يجب أن يتعلم المسيحيون إن لم يكن لهم ما يفيض عن احتياجاتهم، لوجب عليهم أن يحتفظوا بما عندهم لأهل بيوتهم، أو تحصيل ما هو ضرورى لسد أودهم، ولا يجوز لهم مطلقًا أن يشتروا به غفرانًا.(٢)

ونختم بالحجة ٤٩: يجب أن نُعلِم المسيحيين أن صكوك غفران البابا مفيدة، إذا أغفل المرء ثقته فيها وطرحها جانبًا، لأنه لا يوجد ما هو أضر منها إذا قلل هذا الضرر من صلاحنا.(٣)

ولعل القارئ يدرك المغزى السياسى والقومى، الذى أراده لوثر من هذه الحجج المشار إليها، حيث إنها مهدت الطريق لحث مشاعر الشعب الألمانى وكافة فئاته(٤)، وخاصة رجال الأعمال وصغار التجار الطموحين وإيقاظ وعى المسيحيين

---

(١) قارن النص الأصلى:

Man soll die Christen lehren: Wer einen Bedürftigen sieht, ihn übergeht und statt des Papstes, sondern handelt sich gibt, kauft nicht den Ablass dessen für den Ablass den Zorn Gottes ein.

(٢) قارن النص الأصلى:

Man soll die Christen lehren: Die, die nicht im Überfluss leben, sollen das Lebensnotwendige für ihr Hauswesen behalten und keinesfalls für den Ablaß verschwenden.

(٣) قارن النص الأصلى:

Man soll die Christen lehren: Der Ablaß des Papstes ist nützlich, wenn man nicht sein Vertrauen darauf setzt, aber sehr schädlich falls man darüber die Frucht Gottes fahren läßt.

(٤) مقولة وقيمة شعبية مصرية مضمونها أن" ما يحتاجه البيت يحرم على الجامع" علاوة على أنها قيمة إسلامية من منظور قول الرسول الكريم :"ابدأ بمن تعول " (المؤلف)

أن يتعلموا، عندما يكون لديهم من فائض عن حاجاتهم، يجب عليهم الاحتفاظ به لأهل بيوتهم، بدلاً من شراء صكوك غفران لا جدوى من ورائها.

ويتطور الأمر وتدور عجلة الأحداث بتدخل أمير سكسونيا فريدرش الحكيم، واختيار حل وسط، بناء على توسط صديق لوتر الأسقف شبالاتين، سكرتير بلاط الأمير، وهو أن يتم التحقيق فى ألمانيا، وأن يسود فيه جو المودة والبعد عن العنف، ويتم اللقاء فى ١٢ أكتوبر ١٥١٨، ويطلب مندوب البابا كاجيتان من لوتر التراجع عن آرائه دون مناقشة، وموجهًا إليه عبارات بذيئة، ناعتًا إياه بحيوان فيتنبرج، وأنه جاء من قبل البابا ولا يريد نقاشًا، وإنما يريد اعترافًا وندمًا[١]. ويصمد لوتر أمام هذا التهديد البابوى، ويرفض التراجع فى قرار قدَّمَه فى ١٨ أكتوبر ١٥١٨، ويجد أمير سكسونيا فريدرش الحكيم أنه لا مفر من العمل على إنقاذ مارتن لوتر وتهريبه إلى مكان آمن، خشية القبض عليه من قبل رجال البابا، ويقضى لوتر فترة الإقامة فى قلعة الفارتبورج، ومن هذا المكان تنطلق رسالته الأولى فى أحداث الإصلاح إلى إمبراطور ألمانيا ونبلاء الأمة الألمانية، ليذكر لهم فيها "أنه لأمر مرعب أن يرى الإنسان ذلك الرجل الذى يدعى أنه نائب للمسيح، ويظهر فى أبهة ووجاهة لا يكاد يضارعها أى إمبراطور، فأين هو من يسوع المسكين...؟ إن البابا هو المسيح الدجال، لأن كرسيه هو كرسى الشيطان. ويُعطَى لوتر مهلة ٦٠ يومًا للتراجع، ولكنه يرفض، ويقوم أمام حشد من الطلبة والأساتذة والمواطنين فى مدينة فيتنبرج بإحراق مرسوم البابا وتعليماته، ويقول: "لقد حاول أعدائى إضعاف دعوة الحق بإحراق كتبى، وأنا أعاملهم بمثل معاملتهم وأحرق كتبهم، لقد بدأت العمل باسم الله وسيكمل بدونى وبقوته هو"[٢]. ويُعطَى لوتر فرصة

---

(١) قارن: حنا جرجس الخضرى، ص ٨٣ وما بعدها.

(٢) قارن النص الألمانى لكتاب E.G. White, ص ١٢٩ وما بعدها.

„Ich verlache sie (die päpstliche Bulle) nur und greife sie jetzt als gottlos und lügenhaft... Ich bin nur viel freier, nachdem ich gewiss weiß, daß der Papst als der Antichrist und des Satans Stuhl offenbarlicht erfunden sei... Ich habe es in Gottes Namen angefangen; hoffe, es sei an der Zeit, daß es auch in demselben ohne mich sich selbst ausführe."

أخيرة، بناء على رجاء من الأمير فريدرش الحكيم لدى البابا، الذى يكلف الدبلوماسى الألمانى كارل فون ميليتس للقيام بهذه المهمة الخاصة بتنفيذ قرار حرمان لوتر وهرطقته، حاملاً معه هدايا البابا للأمير الحاكم وعلى رأسها وسام الوردة الذهبية. ويلتقى لوتر مع ميليتس فى ٥-٦-١٥١٩ بمدينة التنبورج Altenburg ويشتد فى هذه الأثناء الهجوم الضارى الذى قاده الدكتور "إيك" الأستاذ بجامعة أينجولشتات على لوتر ومناصريه، أمثال كارل شتات وبوسر وغيرهم. وتشاء الأقدار أن يموت الإمبراطور ماكسيميليان فى ١٥١٧، ويتم انتخاب حفيده الإسبانى كارل الخامس فى ٢٨-٧ - ١٥١٩.

وتبدأ محاكمة لوتر التى نالها كفرصة أخيرة أمام برلمان الرايخ بمدينة فورمس، والتى يستجمع فيها لوتر كل قواه، ويتحدث أمام الجمع الحاضر وعلى رأسهم الإمبراطور والملوك والنبلاء وسفراء الدول والقضاة والعلماء، وذلك بعد إعطاء الكلمة للسيد ألياندر Aleander مندوب البابا، والذى سرعان ما يَصب عليه اللعنات قائلا: "إن أخطاءه تكفى لحرق مائة هرطوق مثله، وإن هؤلاء اللوتريين ما هم إلا جماعة من الكهنة السفهاء والرهبان الفاسقين والمحامين الجهلة والنبلاء المنحطين المتآزرين مع جماهير الشعب الساذجة."(١)

ويقف لوتر فى ثبات وشجاعة ووقار وحكمة، يشجعه أحد قادة الجيش الألمانى قائلا له "أيها الراهب المسكين إنك على مقرُبة أن تقف موقفًا أشرف وأكرم وأنبل من كل المواقف التى وقفتها أنا وكل القادة فى أعنف معاركنا الدموية، فإن كانت قضيتك عادلة، وكنت واثقًا من ذلك، فسر إلى الأمام باسم الله، ولا تخش شيئًا، فالله لن يتركك.(٢) وأمام أعظم محكمة فى التاريخ يقف لوتر ويبدأ خطابه

---

(١) قارن النص الألمانى للمرجع السابق ص ١٣٥ وما بعدها .
„Wer dagegen sind diese Lutheraner? Ein Haufe unverschämter Universitätslehrer, verderbter Priester, unordentlicher Mönche, unwissender Advokaten, herabgekommener Adliger und verführten Pöbels."
(٢) قارن النص الألمانى للمرجع السابق ص ١٤١ وما بعدها.

ويسقط روما من فوق عرشها قائلا: "يا جلالة الإمبراطور الموقر، ويا أصحاب السمو، ويا أيها السادة الأجلاء، إنى أمثُل أمامكم اليوم للأمر الذى صدر إلى أمس، وإنى أناشدكم يا أصحاب السمو لتصغوا بحلمكم إلى الدفاع الذى سأقدمه عن قضية أنا واثق من عدالتها وصدقها، فإذا كنت أخالف عادات المحاكم وآدابها جهلا منى، فأنا التمس الصفح والتجاوز عن أخطائى، لأنى لم أنشأ فى قصور الملوك، بل فى حجرة أحد الأديرة، وحينما تقنعونى بخطأى فسأكون أول من يمسك بهذه الكتب، ويلقــى بها فى النـــار، ثم يوجه كلمته الأخيــرة إلى جلالة الإمبراطور، ويقول: "يا أصحاب السمو والعظمة تطلبون منى جوابًا واضحًا بسيطًا ومحددًا، فسأقدم جوابى وها هو: "أنا لا يمكن ان أُخضع إيمانى فأجعله تحت رحمة البابا، أو المجامع، لأنه واضح وضوح الشمس، أنهم قد أخطأوا فى كثير من الأحيان، وناقض بعضهم بعضًا، وأنا لا أستطيع أن أتراجع ولا أريد أن أتراجع لأنه أمر غير مأمون العاقبة، أن يتكلم المسيحى ضد ضميره، وها أنا ذا أقف هنا ولا يمكننى أن أفعل غير هذا وليساعدنى الله. آمين."(١)

ويصدر كأمر طبيعى بعد الانتهاء من هذا التحقيق، المرسوم البابوى، والذى أطلق عليه مرسوم فورمس فى ١٥ يونيو ١٥٢٠ بهرطقة لوتر وحرمانه من الكنيسة.

كان لوتر حتى هذا التاريخ كاهنًا مثاليا وأستاذًا قديرًا، ولا يشك فى إخلاصه للكنيسة، والتى لم يحاول تركها وبقى بداخلها، الأمر الذى سبق الإشارة إليه حينما علق احتجاجاته الخمس والتسعين على باب كنيسة القصر، والكتابة إلى رئيس أساقفة المقاطعة عن أسباب كتابته لهذه الحجج، ويكون الرد على هذه الثقة رفض

---

(١) قارن النص الألمانى للمرجع السابق، ص ١٤٧ .

„So bin ich überwunden durch die von mir angeführten Schriften und mein Gewissen angefangen in Gottes Worten; widerrufen kann ich nichts und will ich nichts, weil wider das Gewissen zu handeln beschwerlich, unsicher und nicht lauter ist... Hier stehe ich, ich kann nicht anders, Gott helf mir. Amen.“

وقارن: أيضًا، حنا جرجس الخضرى، ص ١١٥ وما بعدها.

هذه الحجج، بل واتخاذ الإجراءات باحتقار كاتبها واضطهاده، مما يجعل ثقة لوتر تهتز اهتزازًا شديدًا، وخاصة بعد تيقنه بإلصاق تهمة الهرطقة له وتفويض مندوب البابا ميليتس Miltitz بالسفر إلى ألمانيا للقبض عليه وإحضاره إلى روما.

ويروى أن القرار البابوى هذا صدر أثناء فترة استجمام البابا ليو العاشر، حينما كان يقضى جزءًا من وقته فى أعمال الصيد، ممهدًا فى ديباجة القرار بالصلاة: "قم يا رب وانصر حقك ضد الثعالب المفترسة التى تعمل على تخريب كرمك ضد الوحوش البرية التى تدمره... قم يا بطرس واذكر كنيستك الرومانية المقدسة... قوموا يا جميع القديسين وتضرعوا إلى الله."(١) يلى ذلك نص قرار الحرمان والمتضمن الرد على ٤١ احتجاجًا من احتجاجات لوتر الخمس والتسعين، كان من أهمها:

١. أن يُعلن لوتر بخطأ تعاليمه فى خلال ستين يومًا من تسلمه القرار.
٢. أن يمتنع عن الوعظ والتعليم والكتابة والنشر.
٣. أن يَحرق كتبه ومؤلفاته.
٤. حث كل الكاثوليك على رفض تعاليمه وعدم التعامل مع كل أتباعه(٢).

ولم يكن أمام مارتن لوتر مفر من أن يدعو أعضاء هيئة التدريس وطلاب جامعة Wittenberg وأصدقاءه وجماهير المدينة يوم ١٠ ديسمبر ١٥٢٠، ويلقى بقرار الحرمان الباباوى فى النار، ويعلن لوتر فى هذه الأثناء: "بما أنك كدرت روح القدوس، فلتلتهمك النيران" ويعلن لوتر بذلك خروجه وانفصاله عن كنيسة روما. ويتأزم الموقف بين الطرفين: الجانب الكاثوليكى، وجانب أهل الإصلاح فى ألمانيا، ويهتز سلطان البابا فى أرجاء ألمانيا، ويُقرر أن يحاكَم لوتر أمام مجلس برلمان الرايخ بمدينة Worms، وأن تتم الدعوة لحضور لوتر من قبل الإمبراطور الذى وافق على ذلك. وتحرر الدعوة إلى لوتر فى ٦ مارس ١٥٢١. ويسود قلق

(١) قارن: فايز فارس، ص ٩٦.
(٢) قارن: المرجع السابق، ص ٩٦ وما بعدها.

الناس على لوتر، خشية أن تنتهى محاكمته بنفس النهاية التى لقيها سلفه Jan Hus فى محاكمة كونستانتس.[1]

ولكن لوتر يقبل الدعوة بشجاعة ويقول: "سأذهب الى Worms حتى لو أصبح عدد الشياطين هناك أكثر من عدد قطع القرميد فوق أسطح المنازل... لأنى قد وضعت نفسى بين يدى الله."[2]

ويُستقبل مارتن لوتر استقبالاً طيبًا تحت حراسة فرسان الأمير فريدريش الحكيم، ويُستقبل من الجماهير المكتظة فى الشوارع. ويبدأ الاجتماع أمام أقوى هيئة حاكمة آنذاك، أمام الإمبراطور كارل الخامس والملك فرديناند رئيس الأمراء وستة من الملوك، و٢٤ دوقًا وثمانية من الأشراف و٣٠ من الأساقفة ورؤساء الأديرة وسبعة من السفراء، وأعداد غفيرة أخرى من الأمراء والشيوخ والبارونات ومندوبى البابا. ويقف مارتن لوتر الراهب الفقير ابن الفحام أمام كل هؤلاء، ويُطلب منه التراجع عما كَتب من مؤلفات. ويستمر السجال بين لوتر وهيئة المحكمين وتكون إجابته الواضحة والصريحة فى نهاية الأمر بما يلى:

"إن لم تقنعونى من الكتب المقدسة، فلا يمكننى أن أتراجع، لأن ضميرى لم يعد يخضع بعد لا للباباوات، الذين حكم بعضهم على بعض، ولا للمجامع التى ارتكبت أخطاء، وحكمت بعضها على بعض أيضًا، وأن ضميرى لا يخضع إلا للكتاب المقدس، ولذلك لا يمكننى أن أتراجع، لأنه ما أخطر أن يتصرف الإنسان ضد ضميره، وهذا ما أؤمن به، ولم يكن من الممكن غير ذلك، وليكن الله فى عونى".

ويعود مارتن لوتر منتصرًا إلى فيتنبرج Wittenberg فى ٢٦ أبريل ١٥٢١ ويصدر الإمبراطور فى ٢٥ مايو مرسومًا، عرف بمرسوم فورمس

---

(١) قارن: المرجع السابق، ص ١١٣.
(٢) قارن: E.G. White ص ١٣٨.

Worms بالقبض عليه وتسليمه لسلطات كنيسة روما[1]. وتشاء الاقدار أن يدبر أمير سكسونيا خطة لإنقاذ مارتن لوتر أثناء عودته من فورمس Worms إلى فيتنبيرج Wittenberg، ولتبدأ من هذا التاريخ إقامته الجبرية فى قلعة الفارتبورج، تحت اسم مستعار هو النبيل جورج Der Junker Georg، وهى الفترة التى كرَّس فيها مارتن لوتر جهده فى تأليف وترجمة معظم مؤلفاته.

ولنا أن نختتم قيم الإصلاح هذه وجوهرها، دون الدخول فى تفصيلاتها، مكتفين بما تضمنته وثيقة الاحتجاج التى قدمها الأمراء الألمان فى مجمع مدينة شباير Speyer ١٥٢٩، طالبين من جلالة الإمبراطور أن يعاملهم كسادة مسيحيين، والقبول بتحجيم سلطان الكنيسة وتحكيم سلطان الضمير وعلو كلمة الله فوق كلمة الكنيسة، وأن كل التعاليم البشرية ينبغى أن تخضع لما جاء بالكتاب المقدس. وتمثل هذه الوصية بذلك احتفالية انتصار قيم الإصلاح البروتستانتى، حيث أيدت حق الناس فى عبادة الله، بموجب ما تمليه عليهم ضمائرهم. وجاء كل ذلك من منظور السلاح الذى استخدمه لوتر من مقاومة أعدائه بسيف الروح وعدم سفك الدماء.

ولا يمكن فى ختامنا لجوهر القيم اللوترية أن نغفل وجهات نظر لوتر تجاه خصومه من الفلاسفة ومفكرى عصر النهضة المنادين بتحكيم العقل، الأمر الذى حاربه لوتر بقوة قائلاً: "إن ضعف العقل لا يصلح كمقياس للوحى الإلهى، بل من الصعب على العقل أن يدرك نور عجائب الله التى لا تُدرَك، كما أن المؤمن لا يستطيع أن يقبل كلا من الإنجيل والعقل فأحدهما يجب أن يفسح الطريق للآخر، وكثيرًا ما كان يردد فى حواراته وعظاته كيف يتسنى لأحمق ماكر، أن يكون هناك شىء أكثر مجافاة للعقل واستحالة تصوره، من أن المسيح يعطينا جسده لنأكله ودمه

---

(١) حينما علم لوتر بصدور مرسوم فورمس ضده نجد رده المفحم فى قوله:
"إن المسيح سيمنحنى روحه لأنتصر على خدام الضلال... لقد قلت إن البابا هو نائب المسيح، أما الآن فأقر أنه عدو ربنا وخصمه ورسول الشيطان." قارن الترجمة العربية لألن هوايت ١٦٦ .
„Christus wird mir seinen Geist geben, daß ich diese Widersacher des Satans besiege...Ich habe früher gesagt, der Papst sei der Statthalter Christi, jetzt widerrufe ich und sage, der Papst ist der Widersacher Christi und der Apostel des Teufels.“

لنشربه فى العشاء الأخير، أو بعث الموتى وأبوة الله للمسيح وحمل مريم العذراء له، حتى يغدوا رجلاً يتعذب ويموت ميتته المحزنة على الصليب. كان العقل عند لوتر أكبر عدو للإيمان، وأفجر صانع للشيطان، ويعود بعد ذلك كله مؤكدًا أساس الإيمان المستند إلى تعاليم الكتاب المقدس، ولتكون ثورته الدينية ضد النظام الكاثوليكى وطقوسه، وليس ضد جوهر العقيدة. ويسير لوتر على نهج أسلافه ويكليف وهوس وجيروم وسافونارولا، ويرفض البابوية ومجالسها الدينية ومراتبها الكهنوتية، وهو الأمر الذى اعتبره مؤرخو الأديان، الخيط الرئيسى للتطور الدينى فى أوروبا، بداية من القرن الرابع عشر و حتى نهاية القرن السادس عشر.

ومن هذا المنظور يرى القس فايز فارس، أن مصطلح البروتستانتية هو الريادة المحركة لحرية الفكر الدينى وحرية الاعتقاد، وهى الحرية التى فتحت أمام العالم باب الحضارة والتقدم فى مختلف المجالات، حتى أصبح حقا أساسيا تكفله جميع دساتير العالم المتحضر، الحرية التى هى حق لكل إنسان، سواء كان ضمن الأغلبية أو الأقلية، ويستشهد بما أورده الصحفى أنيس منصور لترجمته فى كتب ميشائيل هارتMichael Hart "الخالدون مائة"، ومن بينهم مارتن لوتر، صاحب الإنجازات الرائعة، والتى أثرت كثيرًا فى تراث الأدب الألمانى المعاصر، وأن معظم الخالدين الواردة أسماؤهم فى الكتاب، نشأوا فى بلاد تدين بالبروتيستانتينية. ولعلنا نتفق على نهج لوتر فيما نحى إليه أمام قضاته وجلاديه، معبرًا بأن "ضميره مقيد بكلمة الله، وليس من الصواب أو الأمان أن يتصرف الإنسان ضد ضميره"[(١)]، ويتحمل لوتر مسئولية ما نادى به وما وقر فى ضميره ويقول: "وحدى ولدت إلى هذا العالم، ووحدى يجب أن أجابه الحياة ومسؤلياتها، ووحدى سأقف أمام الديان

---

(١) قارن الترجمة الألمانية لكتاب E.G. White و التى ظهرت تحت عنوان:
E.G.White ,der große Konflikt, S. 147.
Wo es heißt : „So bin ich überwunden durch die von mir angeführten Schriften und mein Gewissen gefangen in Gottes Worten; widerrufen kann ich nichts und will ich nichts, weil wider das Gewissen zu handeln beschwerlich, unsicher und nicht lauter ist.“

العظيم، لن يقف أحد مكانى، ولا بينى وبين الله -- لا أسقف، ولا كاهن، ولا مجمع كنسى، ولا قانون كنسى، ولا تقليد كنسى، بل سأقف أمام الله عاريا، وعلىَّ تقع المسئولية تجاه الديان خالقى."[١]

كلمة أخيرة عن مسار أحداث حركات الإصلاح التى عرضنا لها ضد كنيسة روما بداية ممن أطلق عليهم الزنادقة والعصاة أو الهراطقة وما تعرضوا له من اضطهاد من قبل محاكم ديوان التفتيش ونهاية بتعليق الحجج الخمس والتسعين على بوابة كنيسة القصر بمدينة فيتنبرج عام ١٦١٥ الأمر الذى أدى إلى تناقضات فى عقيدة الكنيسة، خاصة الاعتقاد بالتثليث وطبيعة المسيح اللاهوتية والناسوتية والذى أدى إلى ذلك الشقاق بين الكنيسة اللاتينية الرومانية الغربية والكنيسة الأرثوذوكسية الشرقية وحتى اشتد ذلك الشقاق خاصة بعد الدعوة إلى الحروب الصليبية لاستعادة الأراضى المقدسة من أيدى الكفار المسلمين؛ الأمر الذى قاد بدوره بعد فشل هذه الحملات الصليبية وعدم تحقيقها لأهدافها إلى استمرار حروب مريرة كان على الكنيستين أن يوقفاها ونعنى بذلك الزحف التركى والإسلامى نحو أوروبا واستيلاءه على كثير من ممالكها وحصاره لأهم مدنها وحصونها وهى مدينة فيينا، هذا الزحف التركى الذى قادته الدولة العثمانية والذى أثار قلق معظم شعوب أوروبا الذين كان عليهم أن يتدبروا أمرهم بالدفاع عن أنفسهم أمامه ، وحتى يتمكنوا من إيقاف هذا الزحف بعد وصول الفاتحين من المسلمين إلى مشارق مدينتى ليون وأفينيون ويتمكن كارل مارتل عام ٧٣٢ من إيقافهم عند مدينتى تور وبواتيه والتى اعتبرها الغرب نصرًا مؤزرًا له. تلك الحروب المتبادلة بين الشرق والغرب تركت دون شك أثرها الإيجابى فيما يخص التبادل الحضارى والتفاعل بين العقيدة الإسلامية والعقيدة المسيحية، حدث ذلك من قبل أسرى الحرب من كلا الجانبين والاستعانة بمعارفهم وأعرافهم فى أدب المنشورات المتبادلة أو عقد لمعاهدات السلام والهدنة الأمر الذى كثيرا ما كان يحدث بين المسلمين والمسيحيين فى هذه العصور.

---

(١) قارن: فايز فارس: أضواء على حركة الإصلاح الإنجيلى، القاهرة، ط ١، ١٩٨٤ ص ٥٩ .

ورغم اعتراف الإسلام ومعتنقيه بالمسيحية كدين سماوى سابق له إلا أن رجال اللاهوت المسيحيين وقفوا شبه عاجزين عن إعطاء إجابة عقلانية ومنطقية واضحة عن أسرار الطقوس الدينية المسيحية اللاعقلانية؛ ومن هنا اختلفوا فى نظرهم الى الإسلام واعتبروه مجرد مذهب مسيحى مملوء بالهرطقة وآخرون نفوا ألوهية وبنوة المسيح من أمثال آريوس وسابيليوس ونسطوريوس، إلا أن العدد الغالب من المسيحيين الشرقيين اعتبروا المسلمين كحكام جدد يغلب عليهم التسامح المرتبط بعقيدتهم الأمر الذى يفتقدونه تحت حكم البيزنطيين مما أدى إلى اعتناق الكثير منهم للإسلام.(١)

ويشعر لوتر مع بنى جلدته وهو صاحب اللسان المفوه بالقلق والخطر المحدق بشعبه ووطنه من جراء هذا الزحف التركى الخاطف ويستغل موهبته اللغوية والبلاغية الفائقة فى محاربة هذا العدو من منطلقين: منطلق الدفاع عن الوطن ومنطلق حماية العقيدة، ويكون شعاره فى ذلك مواجهة العدو لا بسلاح السيف ولكن بسلاح قوة العقيدة والتقرب إلى الله بالصلوات والدعاء الأمر الذى سنعرض له بالتفصيل فى موضعه فيما بعد.

ثم يجىء تأثيره الفعال على جماهير الألمان من خلال عبارات العزاء والأغانى والمنشورات والكتب والرسائل التى وجهها إلى شعبه متضمنة مبادئه الإصلاحية مثل التنصل من خطيئة آدم الموروثة والمناداة بمبدأ التبرير بالإيمان والمناداة بمنع الرهبانية وحياة العزوبية لرجال اللاهوت، والإقرار بالاستمتاع بمظاهر الحياة الدنيوية لكل المؤمنين، وهى من الأمور التى مست شغاف قلوب الكثيرين من أتباعه ودعت البعض للقول باقتراب لوتر من القيم الإسلامية فى حركته الإصلاحية التى سنعرض لها فى الأبواب التالية بالتفصيل.

---

(١) قارن: Bobzin, Hartmut: Artikel „Islam II“ in: Theologische Realenzyklopädie, S. 336-349

الفصل الرابع

مارتن لوتر ومنهجه الإصلاحى
اقتراب من الإسلام أم ابتعاد عنه

٤ . ١ الديانات السماوية الثلاث من منظور اسلامي

من الأهمية بمكان أن نعرض للقارئ الكريم عجالة موجزة عن الديانات التوحيدية الثلاث والتى يطلق عليها المسلمون ديانات أهل الكتاب: "اليهودية، والمسيحية والإسلام". لقد استقينا هذه العجالة من عديد من المصادر التى سنعرض لها فى موضعها على الصفحات التالية.

٤ . ٢ اليهودية

نشأت اليهودية فى مرحلتها الأولى تحت مسمى ديانة وعقيدة الآباء، وهم مجموعة الأنبياء، بداية من آدم عليه السلام حتى موسى وهارون، وتلى هذه المرحلة ما أُطلق عليها ديانة بنى إسرائيل، أو المرحلة العبرية، وأخيرًا تجىء المرحلة التى أطلق عليها الديانة اليهودية، والتى جاءت بعد آل يعقوب وحتى القرن الثالث الميلادى، هذه الفترة الأخيرة هى العصر الذى حدث فيه السبى البابلى.

تعرضت الديانة اليهودية للعديد من التغيير والتشكيل، نظرًا للظروف الاجتماعية التى عاشها اليهود، أما كتابهم فهو العهد القديم، وهو المسمى "بالتوراة" والذى تم تدوينه وكتابته فى أكثر من ألف عام، بداية من القرن الثالث عشر قبل الميلاد وحتى القرن الرابع الميلادى.

يعتبر عصر النبى إبراهيم عليه السلام بداية للاتجاه التوحيدى للديانة اليهودية، حيث كان سيدنا إبراهيم يمثل المتلقى للوحى الإلهى والمستجيب للأوامر الإلهية فى طاعة تامة نابذًا عبادة الأصنام. أما فى عصر النبى موسى عليه السلام فقد تبلورت فيه عقيدة التوحيد بالإله "يهوه"، المحرك لأحداث التاريخ ومخلص الإسرائيليين من عبودية المصريين من منظورهم: "أن الرب إلهك الذى أخرجك من مصر من بيت العبودية، وتلقينه الوصايا العشر المعروفة: أكرم أباك وأمـك، لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد على قريبك شهادة زور، لا تشتهى بيت

قريبك، لا تشتهى امرأة قريبك، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره... إلخ".[١]

ولعل ما جاء بسفر الخروج من فرار موسى بفكرة التوحيد إلى خارج مصر، إنما كان بقصد إنقاذها وإعطائها قيمة دينية كبيرة، وهذا كله يجعل من اتهام المصريين باستعباد اليهود آنذاك أكذوبة لا أساس لها، وهناك مواضع بالتوراة تذكر أن المصريين كثيرًا ما ترحَّموا على سيدنا موسى عندما تاه مع أتباعه فى الصحراء لمدة أربعين عامًا. إلا أنه إذا كان هناك ثمة استعباد لليهود فإن هذا الاستعباد جاء من قبل فرعون مصر. وهذا ما أكده القرآن الكريم حينما قال المولى سبحانه: "وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم"[٢]. لقد عادت اليهودية أمام غزو الفكر اليونانى، الذى أنكر الوحى وأخذ العقل كمصدر أساسى للمعرفة، واختلفت الردود بين مؤيد ومعارض.[٣]

٤. ٣ المسيحية

أما ما يخص العلاقة بين اليهودية والمسيحية فقد جاءت المسيحية كامتداد للديانة اليهودية، وتصحيح لأوضاعها من داخلها، لأن عيسى عليه السلام نبى مرسـل من أنبياء بنى إسرائيل ودعوته موجهة إليهم فى المقام الأول، فهى دعوة

---

(١) قارن: محمد خليفة: تاريخ مقارنة الأديان دراسة وصفية مقارنة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٨٥.

(٢) سورة البقرة، الآية ٤٩

(٣) يذكر المؤرخ الفرنسى جاى راخيت Guy Rachet فى كتابه: "العهد القديم بين الأسطورة والحقيقة" la Bible mythe et realités" ما يناقض هذا الادعاء الخاص باستعباد المصريين لليهود، بل يؤكد لعديد من الشواهد المصرية الخالصة للنبى موسى عليه السلام أن اسمه مصرى وليس عبرى ويعنى "الذى خرج من الماء" كما أنه كان يتحدث اللغة المصرية؛ لأنه نشأ وتربى فى قصر فرعون مصر، وأن فكرة التوحيد التى جاء بها مصرية خالصة سادت عهد إخناتون المعروف بأمينوفيس الرابع. (دكتور أحمد يوسف، جريدة الأهرام ٢٠-٨-٢٠٠٣) (المؤلف)

لا تمثل خروجًا على اليهودية أو إعلانًا عن دين جديد. وبدأت العلاقة بين المسيحية واليهودية فى التوتر رغم تضمين الديانتين فى كتاب واحد يضم العهدين القديم والجديد.

اتجهت المسيحية بعد ذلك إلى التفرد والاستقلال بعد رفض اليهود لدعوة المسيح وعدم تصديقهم لرسالته، بل ورفضهم أن يكون عيسى هو المسيح المخلص الذى وردت عنه نبوءات العهد القديم، وعمت الاختلافات العقائدية بينهم حول شخص المسيح، وعدم اعترافهم به وفقًا لما جاء فى كتبهم، وهو الأمر الذى سيتحدد من خلال موقف لوثر من اليهود وعقيدتهم، الذى كان مفهوم الله عنده فى البداية مفهومًا يهوديًا باعتباره إلهًا منتقمًا، وفى النهاية صورة المسيح الذى يمثل القاضى الأخير، ثم انتهى إلى المبدأ الذى يقول بأن الإيمان مسألة ترجع إلى ضمير كل إنسان وعلى السلطة الدنيوية ألا تكره أحدًا على شىء بالقوة، لأن الإيمان عمل يتم بحرية، ودون إكراه. وكان تسامحه هذا وحمله لكلمة الله أن يترك لليهود حرية الاعتقاد، إلا أنه تحول بعد أن أصبح موقعه آمنًا أن يقود حملة مسعورة ضد بعض أولى الأمر، وخاصة نواب البابا والأساقفة والرهبان الذين تعاملوا مع اليهود بأسلوب يدفع أى مسيحى أن يكون يهوديًا. وكان يأمل لوثر بهذا الرفق تجاه اليهود فى أن يكسبهم بدخولهم إلى المسيحية ويجيئوا إليه زرافات ووحدانا، وذلك من منظور أن توجهاته الإصلاحية ترجع فى مظاهرها كعودة إلى الدين اليهودى، الذى رفض الرهبانية والعزوبة المفروضة على رجال الكهنوت، وتبنيها لأخلاقيات أشد صرامة من تعاليم الكاثوليكية. ويخيب أمل لوثر فى هذا التوجه وينقلب عليهم وخاصة بعد شيوع الفساد والرذيلة والإقراض بالربا، حتى أنه رفض أن يتوسط لدى أمير سكسونيا الحاكم حينما أصدر فى عام ١٥٣٧ مرسومًا بنفى اليهود من سكسونيا. وفى كتابه المتضمن أحاديث المائدة وصف لوثر اليهود والباباوين بأنهم "تعساء وكفرة وأنهم كجوربين صُنعا من قطعة قماش واحدة"، وساورته فى سنواته الأخيرة نوبة غضب جامح ضد السامية واليهود، ووصفهم بأنهم أمة من أناس

غلاظ، كفرة، متكبرين، خبثاء، ممقوتين، بل وطالب أولى الأمر بإشعال النار فى مدارسهم وهياكلهم، وناشد كل من يستطيع أن يلقى عليهم كبريتًا وزفتًا، وإذا كان فى وســـع أحد أن يقذفهم بوابل من نار جهنم فإنه يحسن صنعًا لو فعل هذا، وهذا ما يجب عمله كرامة لإلهنا وللمسيحية وحتى يرى الله أننا مسيحيون حقا، وتحطم بيوتهم وتدمر وتنتزع منهم كتب صلواتهم وتلمودهم وكتابهم المقدس بأسره، وليحرَّم على حاخاماتهم أن يلقنوا الناس تعاليمهم، وإلا عوقبوا بالإعدام، ولتغلق فى وجوههم الشوارع والطرق العامة، ويحرم عليهم الاشتغال بالربا، ولتأخذ منهم كل أموالهم وكل ما يكنزون من الذهب والفضة، وإذا لم يكف هذا كله، فليُطردوا من البلاد كما لو كانوا كلابًا مسعورة."[1]

لم يكن رأى لوتر هذا بالأمر المستغرب، رغم استغلال فكره من جانب النازيين إبان حكم الرايخ الثالث (١٩٣٣-١٩٤٥) فى اضطهاد اليهود وتشتيتهم. كان لوتر على يقين كمسيحى أن اليهود قتلوا ملوكهم وأنبياءهم، بل وقتلوا المسيح وصلبوه وصفعوه وبصقوا فى وجهه ووضعوا الشوك على رأسه ورأى أنهم يمثلون بالنسبة للأمة الألمانية مشكلة كبيرة؛ لأنهم يمارسون حياتهم على أراضى الأمة الألمانية. ورأى بداية أن التغلب عليهم يتمثل فى استمالتهم لاعتناق الدين المسيحى، وأن يقبلوا ديانة المسيح، والذى يعتبر من أبناء عمومتهم لحمًا ودمًا، وانتسابه إلى نسل سيدنا إبراهيم أبو اليهودية. فإذا ما رفضوا قبول الديانة المسيحية، واستمروا فى إساءتهم لشخص المسيح واتهام السيدة العذراء بالفجور والزنى وأبنها السيد المسيح بأنه ابن سفاح، فعلينا طردهم من ديارنا وإحراق منازلهم ومعابدهم ومدارسهم، لأنهم بذلك يمثلون العدو الأساسى لنا؛ ولأنهم سيفعلون بنا ذلك لو أتيحت لهم الفرصة.[2] وقد يكون من غير المستبعد أن يكون

---

(١) قارن: .Meisner, Michael, a.a.O ص ٢٧٦ وما بعدها.

(٢) قارن: www.christen-und-juden.de/html/luther.htm ، يذكر مارتن لوتر فى خطابه عام ١٥٤٦ "عظات ضد اليهود" "Eine Vermahnung wider die Juden„ ما نصه:

لوتر قد تأثر فى رأيه هذا عن اليهود بما جاء من سمات ومعارف نزل بها الوحى القرآنى فى شأنهم ويمثل ذلك جانبًا من جوانب التقارب بين فكر لوتر وبين ما ورد ذكره فى القرآن الكريم، والذى كان شغله الشاغل فى السنوات الأخيرة من حياته.

ولننظر إلى ما جاء بحقهم فى محكم كتابه حينما تحدوا نبيَّهم:

"لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة" (البقرة:٥٥)

„O Musa, wir werden dir nicht eher glauben, bis wir Allah unverhüllt sehen .“[1]

"فاذهب أنت وربك فقاتلا" (المائدة: ٢٤).

„Geh doch du und dein Herr hin und kämpft ! „

وطلبهم عوضًا عن المن والسلوى، اللذين هما أطيب الأطعمة وأنفعها، البقل والقثاء والثوم والعدس والبصل، ومن يفعل ذلك لا يُستغرب عليه أن يستبدل الكفر بالإيمان والضلالة بالهدى والغضب بالرضى والعقوبة بالرحمة. وقد حرَّفوا الكَلِم عن مواضعه، وأكلوا الربا رغم أن الله نهاهم عنه، وقتلوا الأنبياء بغير حق، وكذبوا عيسى ابن مريم، رسول الله، ورموه وأمه بالبهتان، وحرصوا على قتله

„Über andere habt ihr auch noch die Juden im Lande, die da großen Schaden tun. Nun wollen wir christlich mit ihnen handeln und bieten ihnen erstlich den Christlichen Glauben an, dass sie den Messias wollen annehmen, der doch ihr Vetter ist und von ihrem Fleisch und Blut geboren und rechter Abrahams Same, dessen sie sich rühmen. (..) Wo nicht, so wollen wir sie nicht leiden, (..) sondern sie weg treiben. Wo sie sich aber bekehren, ihren Wucher lassen und Christum annehmen, so wollen wir sie gerne als unsere Brüder halten. Anders wird nichts draus, sie machen´s zu groß, sie sind unsere öffentlichen Feinde, hören nicht auf, unseren Herrn Christum zu lästern, heißen die Jungfrau Maria eine Hure, Christum ein Hurenkind. Uns heißen sie Wechselbälge oder Mahlkälber, und wenn sie uns könnten alle töten, so täten sie es gerne. Und tun´s auch oft, sonderlich, die sich als Ärzte ausgeben, ob sie gleich zu Zeiten helfen“

(١) حرص المؤلف على ترجمة معانى الآيات القرآنية التى ورد ذكرها بالكتاب باللغة الألمانية.

وتفردوا دون الأمم بالخبث والبهت والتكالب على الدنيا. الأمر لا يحتاج إلى تعليق بين ما جاء به القرآن وبين ما قال به مارتن لوتر فى هذا الشأن.(١)

نعرج الآن بالقارئ إلى الديانة المسيحية كما جاء بها السيد المسيح عليه السلام ووفقًا لما نص عليه القرآن أنها: "عقيدة التوحيد بكل شعبه، التوحيد الكامل لله خالق السماء والأرض": (٢)

"ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم". (المائدة:١١٧)
„Ich habe ihnen nur gesagt, was Du mir befohlen hast, (nämlich): Dient Allah meinem und eurem Herrn,,

علاوة على الكتابات والمصادر التى تركها تلاميذ عيسى عليه السلام، والتى تعتبر – من وجهة نظرنا– المصادر الأساسية للمسيحية، وهى التى أُطلق عليها مسميات الأناجيل وأشهرها أربعة: (متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا)، والتى سُجِّل بها سيرة وتعليمات السيد المسيح عليه السلام، وهى فى مجموعها تُعرف بالعهد الجديد، ويذكر الدارسون للمسيحية أن الأناجيل الثلاثة الأول "متى، ومرقس، ولـــوقا" ركزت على العلاقة العضوية بين رسالة المسيح ورسالات بنى إسرائيل، أما الرابع "يوحنا" فيعطى صورة مغايرة تمثل خروجًا وانفصالاً عن اليهودية. ويختلف المؤرخون فى الأوقات التاريخية التى كُتبت فيها هذه الأناجيل، فكُتب إنجيل مرقس حوالى عام ٦٥م بمدينة روما، وإنجيل متى عام ٧٥م ببيت المقدس، وإنجيل لوقا ما بين عامى ٨٠ إلى ٩٥م، أما إنجيل يوحنا فقد كتب بعد ٧٠ عامًا

---

(١) مزيد من التفاصيل، انظر شمس الدين محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية ٦٩١هـ – ٧٥١هـ "هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى" ص ١٧٥ وما بعدها القاهرة ٢٠٠٣.
(٢) قارن الإمام محمد أبوزهرة ، محاضرات فى النصرانية...ص ١٢ .

من موت المسيح عليه السلام، كما يقول بذلك المسيحيون، ويعرض صورة خاصة تتعلق بشخص تعاليم المسيح، وما يخص العشاء الربانى، "مبدأ التناول"، الذى اعتبره يوحنا الوحى الأساسى الذى يفسر حياة المسيح وموته وطبيعته المتمثلة فى عقيدة التجسيد والحلول Inkarnation وفكرة التثليث Trinität "الإله الآب، والإله الابن، والإله الروح القدس"، وكان يوحنا متأثرًا بذلك بأفكار بولس الرسول، الذى سبقه بجيلين من الزمان، والذى كان يهوديًا ثم تحول إلى المسيحية وهو فى الطريق إلى دمشق، وكانت دعوته مشوبة بالأفكار القديمة السائدة فى عصره، والتى اعتبرت خطيئة آدم خطيئة لذريته من بعده، وتصبح هذه الذرية فانية، ويتحرك الرب برحمته وعدالته ويقدم طريقًا للخلاص، ويختار لهذه المهمة عيسى كواسطة للرب فى الخلق الأصلى للعالم فى صورة بشرية أو إنسانية، ويتم الخلاص من خلال موته وقيامته فى إطار من التواضع، مقارنة بما حدث من آدم من نسيان أمر ربه واقترافه للمعصية، وتقبله الموت على الصليب دون أدنى مقاومة. ويوجز بولس الرسول أفكاره هذه، مركِّزًا على قيمة التعميد التى تمثل لديه المشاركة الحقيقية للمسيحى المؤمن لجسد المسيح فى موته وبعثه وليتخلص من طبيعته الآثمة، ومن هنا جاءت احتفالات المسيحية بمولد المسيح بعد قدوم الشتاء مباشرة، وبقيامته مع بداية الربيع. أما القيمة الأخرى فهى الأضحية، التى ترمز للعشاء الربانى واعتبار المسيح حَمَل الرب المضحَّى به كى تزول آثام العالم، وهو هنا يمثل الضحية التى تحمل أوزار الآخرين وذنوبهم – على الرغم من أنه برئ من هذه الأخطاء– إلا أنه يتحمل خطايا العالم من خلال الألم والموت.

وفى إيجاز شديد يمكن القول أن غالبية العقائد المسيحية تبلورت داخل إطار القول بالتثليث، أى وجود ثلاثة أقانيم متساوية: أقنوم الله الآب، والله الابن، والله الروح القدس. فهذه هى المفاهيم التى ظلت موضع جدل وخلاف بين كثير من الطوائف المسيحية وبين غيرهم من أهل الديانات الأخرى حتى يومنا هذا.

نعرض أيضًا لأهم الشعائر المسيحية وعلى رأسها شعيرة التعميد، والعشاء الربانى، فالتعميد يعنى الغُسل بالماء، باسم الأقانيم الثلاثة لتطهير النفس من الخطيئة، أما العشاء الربانى فيتمثل فى تناول قليل من الخبز والخمر، تذكارًا لموت المسيح وبعثه وقدومه مرة أخرى. وساد الخلاف والجدل على هذه القضايا وعُقِدت المجامع الكنسية لحسم هذا الخلاف، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

مجمع نيقية عام ٣٢٥، الذى انعقد بطلب من الإمبراطور قسطنطين، وهو من المجامع الكنسية الشهيرة، الذى دار فيه الخلاف بين شماس الإسكندرية المصرى القديس أثناثيوس وخصمه القديس آريوس السكندرى، الذى أنكر ألوهية المسيح وأبوة الله له، وانتهى قرار المجمع إلى الأمر بطرده وحرمانه من الكنيسة. تلا ذلك مجمع القسطنطينية ٣٨١، مجمع أُوفسوس عام ٤٣١، ومجمع خلقدونية ٤٥١.

ويقر القس فايز فارس بحدوث أول انقسام داخل الكنيسة مع بداية القرن الخامس الميلادى، عندما انفصلت كنيسة بطرياركية الإسكندرية وبعض المؤيدين لها عن سائر الكنائس فى العالم، حينما عُقد مجمع خلقدونية، وفيه يقر المجمع بحرمان بطريرك الإسكندرية وعزله ونفيه واتهامه بالهرطقة، يجيء بعد ذلك مجمع القسطنطينية الثانى عام ٥٥٣، والثالث عام ٦٨٠، ومجمع نيقية عام ٧٨٧، ومجمع القسطنطينية عام ٨٦٩ و٨٧٩، والذى انتهى إلى انفصال الكنيستين إلى كنيسة شرقية يونانية، وأخرى غربية لاتينية، وذلك بسبب الخلاف الشديد بين بطاركة الشرق فى القسطنطينية وبطاركة الغرب فى روما، لأن كنائس الغرب كانت تستخدم اللاتينية فى القداس، أما كنائس الشرق فقد كانت تستخدم لغة أهل البلاد، علاوة على أن كنائس الغرب منعت زواج القساوسة، فى الوقت الذى أباحته كنائس الشرق. وأطلقت الكنيسة الشرقية على نفسها مسمى الكنيسة الأرثوذوكسية، وهو المصطلح الذى يعنى الشخص المستقيم العقيدة. ضمت هذه الكنيسة بلاد اليونان والبلقان وآسيا الصغرى وروسيا، ولها اتباع فى سوريا ومصر، يعرفون

باسم الروم الأرثوذوكس؛ أما الكنيسة الغربية فقد أطلقت على نفسها مسمى الكنيسة الكاثوليكية، وهذا المصطلح يعنى الكنيسة الجامعة دون غيرها. ويبرر السيد فايز فارس أن هذه المجامع المسكونية كانت تقع تحت التأثير السياسى والنزاع على السلطة بين البطرياركيات الكبرى، وحتى يحدث الانقسام الأخير الذى تم فى القرن السادس عشر بسبب أحداث الإصلاح البروتيستانتى، والذى برز نتيجة لتعسف قيادات الكنيسة الكاثوليكية وعدم مرونتها فى تقبل محاولات تجديد حياتها من الداخل. ويأتى على قمة هذه المجامع مجمع تريدنتوا الذى انعقد فى الأعوام ١٥٤٢، ١٥٦٣ بهدف مواجهة توجهات وأحداث الإصلاح البروتيستانتى(١).

من هذا العرض الموجز لأهم الأحداث التاريخية للمسيحية، التى قادت إلى انقسام الكنيسة إلى كاثوليكية وبروتستانتية فى القرن السادس عشر، بعد الانقسامات السابق ذكرها إلى شرقية، وغربية فى القرن التاسع الميلادى، والذى جاء نتيجة للخواء الدينى الذى برزت سماته مع نهايات العصور الوسطى، وكثمرة لفشل حروب الكنيسة الصليبية ضد المسلمين ولجوء رجال اللاهوت وعلى رأسهم البابا إلى طرق الكسب غير المشروع، وهى الأمور التى عرضنا لها بالتفصيل فى حركات الإصلاح التى قام بها الفالدينيون فى القرن الثانى عشر، والويكليفيون فى القرن الرابع عشر، والهوسيون فى القرن الخامس عشر، حيث اتجه فكرهم الإصلاحى إلى مبدأ العودة إلى الأصول، وهو المبدأ الأساسى الذى اعتمد عليه مارتن لوثر فى توجهاته الإصلاحية مع بداية القرن السادس عشر، والتى ما كان لها أن تتحقق من غير المعاناة التى لقيها المسيحيون من رجال الكنيسة وصلفهم،

---

(١) قارن: فايز فارس، ص ٦٥ وما بعدها.
عقد بعد هذا المجمع مجمع فى روما الذى تقرر فيه الأخذ بعصمة البابا، والذى كان مثار خلاف بين الكاثوليك والبروتستانت. ومن المعروف بالضرورة أن شارك الآلاف من الأساقفة والبطاركة والرهبان فى هذه المجامع وهم تائهون وحائرون ومختلفون فى أمور المسيح عليه السلام، فمنهم من يقول إنه إله ومنهم من يقول إنه ابن الله ومنهم من يقول إنه ثالث ثلاثة ومنهم من يقول إنه عبد ومنهم من يقول إنه أقنوم واحد وطبيعة واحده وأخيرًا منهم من يقول أقنومان وطبيعتان. (المؤلف)

والذى يمثل أمرًا طبيعيًا فيه الكفاية لثورة زعماء الإصلاح والمناداة لتحرير العقل البشرى من هذا العنت.ولعل ذلك يحسب لمن قالوا بأن حركة الإصلاح شأن أوروبى بحت.

لقد سارت الأحداث على النحو الذى سارت عليه، من اضطهادات شديدة عنيفة ضد مخالفيها واتباع وسائل القتل والحرق لمن أسمتهم بالهراطقه، وتبعتهم بمحاكم التفتيش وإصدار عقوبات الحرمان، والانفراد بالسلطة على كل فئات الشعب والإسراف فى فرض الضرائب وصرفها فى غير موضعها، والإتجار بصكوك الغفران وبيعها للمذنبين، وهذا هو الأمر الذى كان على لوتر أن يواجهه على نحو ما عرضنا له فى موضعه.

٤ . ٤ الإسلام

ونقدم للقارئ ختامًا لهذه الديانات التوحيدية – ديانات أهل الكتاب- الدين الإسلامى، وهو الدين الذى يمثل من منظور أتباعه المسلمين المعتقد الأصلى والأساسى للبشرية، منذ بدْء الخليقة وحتى قيام الساعة، وهذا يعنى أن الإسلام يمثل الدين الخاتم والمكمل والمصحح للتحريفات التى تعرضت لها اليهودية والمسيحية الأصلية، رغم نشأته وظهوره فى شبه الجزيرة العربية، التى لم تكن ضمن المناطق التى نزلت فيها اليهودية أو المسيحية.

يمثل القرآن كتاب الإسلام المقدس ومصدره الأول، ويعرض للأديان والمعتقدات الأخرى، وخاصة فى ظاهرة الحوار الدينى السائد فى أيامنا هذه، وليدلى فيه القرآن بأسس التقارب:

"ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن". (النحل: ١٢٥)

„Rufe zum Weg deines Herrn mit Weisheit und schöner Ermahnung, und streite mit ihnen in bester Weise.“

"قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء".(آل عمران: ٦٤)
„ Sag: O Leute der Schrift, kommt her zu einem zwischen uns und euch gleichen Wort „.

فالإسلام هنا كدين توحيدى سابق لليهودية والمسيحية، رغم افتراء العديد من مفكرى الغرب، وخاصة المستشرقين ورجال الكنيسة، والهجوم عليه من منطلق أن الإسلام عقيدة مصدرها اليهودية والمسيحية، أو هرطقة ترقيعية من اليهودية والمسيحية. واستمر هذا التوجه الغربى لقرون طويلة يُلصِق بالإسلام الكثير من الشبهات والافتراءات، إلا أنهم لا ينكرون أو يخفون دهشتهم من السرعة الفائقة التى اكتملت بها رسالة الإسلام، والتى لم تتجاوز ثلاثة وعشرين عامًا، بداية من نزول الوحى على محمد (صلى الله عليه وسلم) واكتمالاً بنهايته، وليكون القرآن المُوحَى إلى الرسول الخاتم هو الدستور الثابت، دون أن يَحدُث أى انقسام أو خلاف تجاهه طوال أربعة عشر قرنًا من الزمان. ويواصل الإسلام قوته واستمراريته رغم ضياع السيادة السياسية والاقتصادية والعسكرية لأتباعه، ورغم افتراء كتاب الغرب فى الحديث عن إسلام سنى، وإسلام شيعى، وإسلام صوفى، وآخر بهائى أو قديانى، أو بإسلام مصرى وهندى وسعودى، أو بإسلام رسمى وإسلام شعبى، متجاهلين فى كل ذلك أن الإسلام فى جوهره واحد لا يعرف التجزئة، وأن العديد من الفرق التى ظهرت فى تاريخ المسلمين اختفت بزوال ما أدى إلى نشأتها، ولم يبق منها بجوار المذهب السنى الممثل لأغلبية المسلمين إلا المذهب الشيعى، والممثل لنسبة محدودة منهم، والذى يتفق غالبيتهم فى الأصول وحب آل البيت وفى التوحيد والنبوة مع المذهب السنى.[1] ومن هنا يمكن أن نؤكد باليقين، أن أى

(١) مزيد من التفصيلات انظر، السيد الشاهد، الخطاب الفلسفى المعاصر- من العام إلى الأعم، القاهرة ٢٠٠٠ ص ٢٠٠ وما بعدها، وأنظر أيضًا، محمد خليفة، تاريخ الأديان، ص ٢٤٠ وما بعدها.

منصف من الباحثين لا يمكن له أن يقارن وضع الأرثوذوكس والكاثوليك والبروتستانت فى المسيحية، بوضع أهل الشيعة والسنة، لأن هذه المذاهب المسيحية المشار إليها وصل بها الخلاف إلى اعتبار معتنقيها أصحاب ديانات مستقلة. أما الإسلام فهو دين للجميع، وكل المسلمين يؤمنون بإله واحد وكتاب واحد، ولا فرق بين عربى أو أعجمى إلا بالعمل الصالح والتقوى، بل الأكثر من ذلك أن الإسلام هو جوهر هذه الأديان والدعوات وإن اختلفت مسمياتها.

كان سيدنا آدم عليه السلام، أول الأنبياء وأول المسلمين، وانسحب ذلك على كل من جاء من بعده من الأنبياء والرسل:

"ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل" (الحج ٧٨).

„...dem Glaubensbekenntnis eures Vater Ibrahim: Er hat euch Muslime genannt."

"ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين" (آل عمران ٦٧)

„Ibrahim war weder ein Jude noch ein Christ, sondern er war Anhänger des rechten Glaubens."

"قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهًا واحدًا ونحن له مسلمون" (البقرة ١٣٣).

„Sie sagten: Wir werden deinem Gott und dem Gott deiner Vorväter Ibrahim ,Ismail und Ishak dienen."

"وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأنا مسلمون (المائدة ١١١)

„Und als Ich den Jüngern eingab: Glaubt an Mich und an Meinen Gesandten. Sie sagten :Wir glauben , Bezeuge , dass wir Dir ergeben sind."

"إن الدين عند الله الإسلام" (آل عمران ١٩)

„Gewiss, die Religion , ist bei Allah der Islam ."

"اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا" (المائدة:٣)

„Heute habe Ich euch eure Religion vervollkommnet und Meine Gunst an euch vollendet, und Ich mit dem Islam als Religion für euch zufrieden."

وكان على مارتن لوتر كأحد رجال اللاهوت أن يواجه هذه المبادئ من منظور مسيحى، وهو المنظور الذى لم يعد يقر بعقيدة التوحيد، والتى تغيرت إلى عقيدة التثليث الممثلة فى الإله الآب، والإله الابن، والإله الروح القدس، ويجىء النص القرآنى لنقد وإنكار هذا التغيير:

"يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرًا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السماوات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا" (النساء ١٧١).

„O ,Leute der Schrift, übertreibt nicht in eurer Religion und sagt gegen Allah nur die Wahrheit aus. Al –Masih Issa ,der Sohn Mariam, ist nur Allah Gesandter und Sein Wort, das Er erbot, und Geist von Ihm. Darum glaubt an Allah und an Seine Gesandten und sagt nicht „Drei". Hört auf (damit),das ist besser für euch! Allah ist ein Einziger Gott. Preis sei Ihm,(und Erhaben ist Er darüber),dass Er ein Kind haben sollte! Ihm gehört (alles),was in den Himmeln und was auf der Erde ist, und Allah genügt als Sachwalter."

والسؤال الذى كان على لوتر أن يطرحه بعد دراسته لدين الأتراك "السراسينر" Die Zarazener (المسلمين) وترجمات قرآنهم هو: إذا كان آدم ممثلاً لتاريخ الخطيئة عند المسيحية، وأول الخلق من المسلمين فى الإسلام

وتتوارث ذريته خطيئته الأولى حتى بَعْث عيسى عليه السلام، ويؤدى دوره فى خلاص البشرية من خطيئتها الموروثة منذ آدم ، فكيف توفق المسيحية بين كون الأنبياء والرسل السابقين معصومين من الخطأ، وبين اعتبار البشرية بكاملها مخطئة بالفطرة والوراثة عن خطيئة آدم الأولى؟!

لم يكن الأمر بالسهولة التى كان على لوتر أن يواجهها سواء طُرح السؤال من معارضيه، أو من أتباعه الفضوليين، خاصة وأن مفهوم لوتر عن الله كان مفهومًا يهوديًا باعتباره منتقمًا. أليس هو الذى أغرق كل البشر فى طوفان نوح؟، وأحرق مملكتى السدوم وعمورة؟ واعتبار المسيح القاضى الأخير. وكثيرًا ما كان يُواجَه بحادثة صلب المسيح، الإله والرب، وأين كانت القوة التى تحكم الكون والعالم فى فترة صلب المسيح وموته؟ وأين كان الله قبل خلق هذا العالم؟![(١)]

لقد رفضت اليهودية والمسيحية، ومعهما غالبية زعماء الإصلاح، نبوة محمد، صلى الله عليه وسلم، رغم إقراره بالديانتين السابقتين عليه، ولم يفطن لوتر إلى أن النقد الذى وجه من قبل الإسلام لهاتين الديانتين إنما جاء بهدف التصحيح وليس بهدف الرفض. وهنا تكمن جذور فكر لوتر وتوجهاته، والتى تبين فى جوهرها ابتعادًا ملحوظًا – من وجهة نظرنا– عن قيم الإسلام، ولهذا لم يكن الإسلام – كما وسموه – ترقيعًا أو تلفيقًا أو كما يدعى مؤرخو الأديان فى الغرب، ويجيء القرآن على لسان إبراهيم عليه السلام:

"إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين" (الأنعام٧٩).

„ich wende mein Gesicht Dem zu, Der die Himmel und die Erde erschaffen hat, als Anhänger des rechten Glaubens, Und ich gehöre nicht zu den Götzendienern."

---

(١) مزيد من التفصيلات انظر، ول ديورات، والذى يذكر فيه المؤلف الحوار الذى دار بين أحد علماء اليهود الشباب ومارتن لوتر وسؤاله أين كان الله قبل خلق العالم؟ ص ٥٩ وما بعدها.

"قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينًا قِيَمًا ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين".(الأنعام: ١٦١)

„Sag: Gewiss, mich hat mein Herr zu einem graden Weg geleitet, einer richtigen Religion, dem Glaubensbekenntnis Ibrahims, als Anhänger des rechten Glaubens und er war keiner der Götzendiener.“

لهذا لم يكن الإسلام تلفيقًا لعقائد يهودية ومسيحية، إذ لا يُعقل منطقيا أن يُوجِّه الإسلام نقده الشديد لكلا الديانتين اللتين هما فى نفس الوقت، المصدر الذى يُلفَّق منه ويُبنى عليه مُعتقدٌ جديد. والحقيقة أن الإسلام لم ينقد الديانتين السابقتين إلا بعد تحريفهما، فهو يعتبر بمثابة المصحح لما وقع فيه أهل هاتين الديانتين من الأحبار والرهبان. أما قبل التحريف فالإسلام يتفق تمامًا مع ما جاء بهما من التوحيد والعبادة لله وحده، وإن كان يعتبر أن كل ديانة جاءت لحقبة زمنية محددة قد تختلف فى المنهج والطريقة مع غيرها من الديانات، وذلك انتظارًا للدين الخاتم الأعم الأشمل الذى يصلح لكل زمان ومكان.

اتخذت الدراسات المرتبطة بالفكر البروتستانتى الإصلاحى وصلتها بالإسلام قربًا أو بعدًا – من وجهة نظرنا – مناهج عدة:

- الدارسون المسلمون الذين أظهروا عناصر التقارب، وأغفلوا التباعد.
- رجال اللاهوت من المسيحيين العرب وتحاشيهم ذكر أى صلة بين قيم الإسلام وبين قيم الفكر البروتستانتى.
- بعض علماء الغرب المتخصصين فى هذا الحقل من الدراسات الذين ركزوا على وجود علاقة جوهرية بين فكر لوتر وانشغاله بالإسلام وقيمه، وخاصة بعد استيلاء الأتراك على كثير من الممالك الأوروبية.
- لا تزال هذه الدراسات فى بداياتها وتمثل محاولة للتوفيق بين قيم لوتر الإصلاحية والقيم الإسلامية، الأمر الذى حفزهم إلى المناداة ببدء حوار

بناء بين الأديان وعلى رأسها الإسلام، وما يمثله هذا الدين من ثقل فى أحداث العالم الحالية.

جاءت علاقة الإسلام بالأديان الأخرى السماوية من منطلق إلهى، وهو الأمر الذى أهملته أبحاث ودراسات المستشرقين:

"وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقًا لما بين يديه... ومن أحسن من الله حكمًا لقوم يوقنون" (المائدة، الآية ٥٠).
„Und Wir haben zu dir das Buch mit der Wahrheit hinabgesandt, das zu bestätigen, was von dem Buch vor ihm offenbart war, und als Wächter darüber..“

فالله يأمر هنا رسوله محمدًا (صلى الله عليه وسلم) بتصديق الكتب التى جاءت قبله، وأن يشهد بأنها حق وأنها من عند الله وأن القرآن أمين عليها وخاتمها ومتكفل بالحفاظ عليها، وبهذا يكون الإسلام عودة إلى الدين الواحد والكامل للبشرية:

"ما فرطنا فى الكتاب من شىء" (الأنعام، الآية ٣٨).
„Wir haben im Buch nichts vernachlässigt.“

"لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى".(البقرة: الآية ٢٥٦).
„Es gibt keinen Zwang im Glauben, Der Weg der Besonnenheit ist nunmehr klar unterschieden von dem der Verirrung.“

لقد ترك الإسلام بهذا التوجه للبشر إعمال عقولهم لكى يختاروا بكامل حريتهم بين ما هو صحيح وما هو خاطئ، دونما قهر أو تعسف، دالا على أساس من التسامح، وحرية الاعتقاد:

"إنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء"(القصص، الآية ٥٦).

„Gewiss ,du kannst nicht den rechtleiten, wen du gern rechtleiten sehen möchtest. Allahaber leitet recht, wen Er will.“

"ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء" (البقرة، الآية ٢٧٢)
„Nicht dir obliegt ihre Rechtleitung, sondern Allah leitet recht, wen Er will .“

ونحن نرى أن الإسلام هنا لم يتنازل عن نقده للأوضاع الدينية للشعوب، بل اعتبرها ضرورة عقلية فى إطار من الود والتسامح مع أهل العقائد الأخرى، فالمنظــور الإسلامى يقوم على اكتســاب المعــرفة وتحليلها ونقدهــا، ثم قبولها أو رفضها عن اقتناع كامل، وفى كلتا الحالتين فإن حرية الاعتقاد ممنوحة، والحماية لأهلها مكفولة.

ولعل هذا المنظور يوضح لنا موقف البروتستانت تجاه كتابهم المقدس، الإنجيل، حين تمسكوا بحرية تداوله وتأمينه لكل المؤمنين، وكسر احتكار رجال الدين لتفسيره أو استخدامه، مما جعل من الإنجيل حجر الزاوية فى الفكر البروتيستانتى، وهو أمر لا شك يمثل موقفًا مشابهًا من الموقف الإسلامى، فى العودة إلى الأصول وجعل كتاب المسلمين، القرآن الكريم، متاحًا لكل المسلمين ورفض أى احتكار له بواسطة فئة معينة، وإعطاء المسلم الحق فى تفسيره وفهمه طالما توافرت فيه شروط التفسير.

٤. ٥ حوار الأديان

هناك موجة جارفة تسود بلدان الغرب المسيحى فى السعى نحو إيجاد قاعدة مشتركة للحوار بين الأديان، وخاصة فى العقدين الأخيرين من القرن المنصرم. ونعرض لهذه الموجة من خلال عمل جاد قام به عالمان من أهل اللاهوت المسيحي:

الأول هو عالم اللاهوت السويسرى الدكتور هانس كونج Hans Kung ، والثانى، أستاذ الإستشراق الألمانى يوسف فان إس Joseph van Ess، أستاذ اللاهوت بجامعة توبنجن Tübingen، وقد ضمنا حواريهما هذا فى كتابهما المشترك "المسيحية والديانات العالمية"، الصادر فى مدينة ميونخ عام ١٩٨٤، "Christentum und Weltreligionen, München 1984"، والذى انتهى إلى نتائج طيبة، كإثبات نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأن القرآن مُنزّل من عند الله، والقول بوجود تحريفات فى الأناجيل الحالية، وفى الأصول الخاصة بالعقيدة النصرانية، مثل "إعادة النظر فى عقيدة التثليث وبنوة الله للمسيح وعصمة البابا."[1]

يعرض السيد هانس كونج لمراحل الصراع بين الغرب والإسلام ويقسمها بداية بمرحلة التجاهل والإنكار، مرورًا بمرحلة التكبر والتعالى، وانتهاء بمرحلة المهادنة والتسامح. ويذكر أن بداية الاتصال الفعلى بين الحضارتين والثقافتين تبدأ بزيارة "بطرس المبجل" عام ١١٤٣ إلى إسبانيا العربية، وقيامه بترجمة القرآن إلى اللاتينية. يجيء بعد ذلك زحف الأتراك على أوروبا الذى وصل إلى أوجه عام ١٥٢٩، ويكون من نتائجه صدور مرسوم بابا روما بحرق ترجمة فينيسيا "البندقية" للقرآن الكريم عن العربية عام ١٥٣٠، ويتلوها ترجمة "ببلياندر"، والتى قدم لها مارتن لوتر عام ١٥٤٣، والتى عرفت فيما بعد بطبعة بازل. يلى ذلك مرحلة المهادنة المتسمة بشىء من التسامح فى عصر التنوير ومسرحية ليسنج "ناتان الحكيم" "Nathan der Weise„، وقصة الخواتم الثلاث "Die Ringparabel„، تلَى ذلك دراسات نقدية بداية من القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا[2].

يقرر عالم اللاهوت الألمانى"يوسف فان إس"، أن الإسلام هو دين المساواة، ولا يعرف الفوارق الطبقية التى عرفناها عند الرومان ومسيحى أوروبا فى

---

(١) قارن: السيد الشاهد: المسيحية والإسلام من الجوار إلى الحوار، القاهرة، ٢٠٠١ ص٢٧ وما بعدها.
(٢) قارن: السيد الشاهد: المرجع السابق، ص٤٥ وما بعدها.

العصور الوسطى، ويؤكد على أن الإسلام لم يُجبِر أحدًا من أهل الكتاب على الدخول فيه، وأن من دخل منهم الإسلام، إنما دخله لما رآه من معاملة حسنة، كما يؤكد على عدم انتشاره بالقوة حتى أنه يذكر أن بعض المحاولات القليلة لنشر الإسلام بالقوة مثلما فعل محمود الغزنوى عام ١٠٠٠ م فى الهند قد باءت بالفشل، ويقول ما نصه: "إن الإسلام ينتشر ببساطة ووضوح مبادئه وسماحته التى تصل مباشرة إلى الإنسان أيًّا كان مركزه الاجتماعى أو مستواه الثقافى، ولذلك فالإسلام يتميز على المسيحية بما يلى:

١- أنه مؤسَّسٌ على مبادئ عقلية فى العقيدة.

٢- التسامح والمساواة فى التطبيق واتباع الوسطية والاعتدال.

٣- اعتبار التثليث، الذى تراه المسيحية عقيدة مقدسة، عبثًا منطقيا.

٤- الرهبنة، التى تراها المسيحية تحررًا من قيود الحياة، مبالغة خاطئة.[١]

تنامت قضايا الحوار الدينى فى الغرب بوجه عام بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ – التى وقعت فى الولايات المتحدة الأمريكية – فى الدول الناطقة بالألمانية بوجه خاص، سواء عُقد هذا الحوار على المستوى العام أو على المستوى الفردى. ونلاحظ من تجاربنا الشخصية أن هذا الحوار تسوده سمات الانفعال والعاطفة، والابتعاد عن الموضوعية والحيدة. ويرجع ذلك دون شك إلى الخلط الشديد بين الإسلام وجوهره وقِيَمه ومبادئه وبين سلوك وتصرفات وأخلاقيات أتباعه أو بسبب مجابهات الماضى بالحاضر.

كثيرًا ما يتم هذا الحوار فى مناطق شتى على أرض البسيطة مع المسلمين ومع غيرهم، تصحبه وسائل الإعلام والنشر المقروءة والمسموعة والمرئية. وليس بخاف على كل ذى فطنة أن هذه الحوارات التى تدور تنتهى إلى نتائج مستنبطة

---

(١) قارن المرجع السابق ص ١٨٥ وما بعدها.

من سلوك المسلمين وتصرفاتهم وعلاقاتهم ببعضهم بعضًا، ومدى تطابق كل ذلك مع قيم ومبادئ الإسلام التى جاوزت الأربعة عشر قرنًا من الزمان. وكان بالأحرى أن ينحى الحوار منحى آخر، وهو استخدام الاستقراء، الذى منه وبه ينشأ حوار، يقوم على دراسة إيجابية وموضوعية عن سلوك وتصرفات المسلم، وخاصة ذلك المسلم المغترب الذى ترك ديار وطنه ليعيش فى الغرب كمواطن ملتزم مسالم متعاون.

لذلك لم يكن من المستغرب أن يتم التركيز ولفت الأنظار إلى تعميم مضامين إسلامية ينادى بها بعض المتشددين، أو قلة من المتعصبين، غالبًا ما تكون خاطئة أو مبتورة من سياقها الصحيح الذى جاء به القرآن أو السنة المؤكدة، كما يرتكب الكثيرون من المسلمين، وربما أيضًا من غيرهم، عقد مقارنات ظالمة عن قضايا الإسلام ورسالته من واقع هويات المجتمع الغربى، كما يقع دارسو الإسلام من أهل الغرب فى نفس الخطأ، حينما يضعون نصب أعينهم قيم وأخلاقيات عصر التنوير وأنماط ديمقراطيات الغرب وحقوق الإنسان، وربطها بالواقع الذى تعيشه الدول الإسلامية أو المجتمعات التى تعيش فيها أغلبيات مسلمة.

ينطلق السيد الشاهد فى مؤلفه: "المسيحية والإسلام - من الحوار الى الجوار" فى توجهاته تجاه هذه الموجة من الحوار من منظور:

١- إيمان المسلم بنبوة كل الأنبياء الذين تلقوا الوحى الإلهى بداية من آدم عليه السلام، وحتى محمد خاتم الأنبياء.

٢- تلبية الإسلام لكافة جوانب الحياة الإنسانية المادية منها والروحية.

٣- تحبيذ العمل النافع وطلب العلم.

٤- حرية الرأى والمشاركة فى الحكم والانفتاح على الثقافات الأخرى، مصداقًا للحديث الشريف "الحكمة ضالّة المؤمن، أنّى وجدها فهو أحق الناس بها."

٥- احترام حقوق الملكية الفردية للإنسان، الحفاظ على البيئة، تحريم الظلم الاجتماعى، المساواة بين البشر، والتسامح[١].

ويدعم الدكتور الشاهد وجهات نظره هذه من خلال آيات القرآن الكريم:

١- "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن". (النحل: الآية ١٢٥)

„Rufe zum Weg deines Herrn mit Weisheit und schöner Ermahnung, und streite mit ihnen in bester Weise."

٢- "قل هذه سبيلى أدع إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى". (يوسف: الآية ١٠٨)

„Sag: Das ist mein Weg: ich rufe zu Allah aufgrund eines sichtbaren Hinweises, ich und diejenigen, die mir folgen."

"ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن". (العنكبوت: الآية ٤٦)

„Und streitet mit den Leuten der Schrift nur in bester Weise."

٣- "كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله". (آل عمران: الآية ١١٠)

„Ihr seid die beste Gemeinschaft, die für die Menschen hervorgebracht worden ist. Ihr gebietet das Rechte und verbietet das Verwerfliche und glaubt an Allah."

من هذا المنظور الإسلامى نعرض من جانبنا لمفهوم الحوار ولدوره فى العقيدة الإسلامية، فالحوار هو لغة التجاوب والمراجعة فى أمر ما يُعرض للنقاش.

---

(١) قارن محمد نبيل غنايم (قضايا معاصرة- دراسة فكرية اجتماعية) القاهرة ٢٠٠٣ ص ٥١ وما بعدها.

ويقول المولى عز وجل:

"قال له صاحبه وهو يحاوره" (الكهف: الآية:٣٧)
„Sein Gefährte sagte zu ihm, während er sich mit ihm unterhielt..."

"والله يسمع تحاوركما" (المجادلة: الآية:١)
„...., während Allah euren Wortwechsel hört."

لهذا لم يكن من المستغرب أن يتسع مجال الحوار فى العقيدة الإسلامية ليشمل الكثير من أساليب الحياة والعلاقات بين الناس، ولعل ظاهرة الحوار الإسلامى- المسيحى، والتى تدور فى أيامنا هذه على قدم وساق، يمكن أن تمهد الطريق إلى تقارب صادق بين أهل العقيدتين: كالتركيز على إيجاد المساحات المشتركة بين الدينين كالإيمان بالله واليوم الآخر، وبعث الأنبياء جميعًا، وكرامة الإنسان والخُلُق القويم، والأسرة، وهى أمور لا شك أنها تجمع وتؤلف بين المختلفين. ويرى يوسف القرضاوى: "أننا نحن المسلمين مستعدون للحوار والتقارب، والمهم أن يكون عند الآخرين مثل هذه الروح فيعاملوننا بمثل ما نعاملهم به، ويقتربون منا بقدر ما نقترب منهم"(١)

وينادى الدكتور محمد عماره إلى ضرورة هذا الحوار فى ظل هذا التميز والتعدد والاختلاف باعتبار ذلك سُنَّة إلهية:

"ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين." (الروم: الآية ٢٢).

---

(١) المرجع السابق، ص ٥٤.

„Und zu Seinen Zeichen gehört die Erschaffung der Himmel und der Erde auch die Verschiedenheit eurer Sprachen und Farben. Darin sind wahrlich Zeichen für die Wissenden“.

"ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم." (هود الآية ١١٨والآية ١١٩)

„Und wenn dein Herr wollte, hätte Er die Menschen wahrlich zu einer einzigen Gemeinschaft gemacht. Aber sie bleiben doch uneinig“.

"لكلٍّ جعلنا منكم شِرعة ومنهاجًا" (المائدة: الآية ٤٨)

„Für jeden von euch haben Wir ein Gesetz und einen deutlichen Weg festgelegt...“

"ولكلٍّ وِجهة هو مولّيها فاستبقوا الخيرات" (البقرة، الآية ١٤٨)

„Jeder hat eine Zielrichtung, zu der er sich hinwendet. So wetteifert nach den guten Dingen!...“

من هذه الآيات البينات نتبين رؤية المسلمين للكون والإنسانية والوجود، وبها يرون هذا العالم كمنتدى لأمم وشعوب وثقافات وحضارات وشرائع، تتوازن بينها المصالح، وتتعاون على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان. وأن هذا الاختلاف الواقع بين البشر هو اختلاف تباين وتكامل وليس اختلاف تناحر وتضاد.

بهذه الرؤية يرى محمد عماره أنه على المسلمين أن يتعاملوا مع التحديات، التى يفرضها الغرب على الإسلام وأمته وثقافته وحضارته وعالمه، وصولاً إلى تمكين الإسلام والمسلمين من العيش والتعايش الحر مع الآخرين، ومواجهة سياسة القوة والغطرسة، التى درج عليها الغرب فى التعامل مع الشرق الإسلامى بعد سقوط الشيوعية، والإنفراد بقيادة النظام العالمى. ويجدون أن الإسلام يستعصى على علمنتهم أو التحول إلى صورة من نصرانيتهم، التى اكتفت بما لله لله، وتركت

ما لقيصر لقيصر. ويجيء هينتنجتون وينادى بحرب ضد الإسلام والمسلمين، حتى يقبل الإسلام هذه الحداثة الغربية، وهنا يكمن جوهر المواجهة التى فرضها الغرب على الإسلام وأمته.(١)

جاءت فكرة الحوار بداية من الغرب المسيحى، وذلك بحجة التقارب والتفاهم والتعايش، وهى المقدمات التى تقبع خلفها العولمة والعلمانية، والنظام العالمى الجديد، بعد أن فشل فى حروبه الصليبية وفى استعماره العسكرى الحديث، علاوة على قيامه بزرع إسرائيل فى قلب الأمة الإسلامية، ويكون هدفه البعيد بعد ذلك الغزو الفكرى والثقافى والاجتماعى والاقتصادى الماثل أمامنا فى أيامنا هذه والذى يتم تنفيذه من خلال ثلاث دعائم: الاستشراق، والتبشير، والحوار.

و لما كان الحوار من الأمور المنهجية المقررة فى القرآن الكريم بداية من استخلاف آدم عليه السلام:

"وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون" (البقرة، الآية:٣٠)

„Und als dein Herr zu den Engeln sagte: „Ich bin dabei, auf Erde einen Statthalter einzusetzen“, da sagten sie: „Willst Du auf ihr etwa jemanden einsetzen, der auf ihr Unheil stiftet und Blut vergießt, wo wir Dich doch lobpreisen und Deiner Heiligkeit lobsingen?“ Er sagte: „Ich weiß, was ihr nicht wisst.“

(١) قارن: محمد عماره: فى فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٥ وما بعدها.

وهذه أول قضية يتم فيها تقرير الحوار، واستمرارًا بمحاورة إبليس:

"فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكـان من الكـافرين، قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت أم كنت من العالين." (صٓ: الآية ٧٣-٧٥)

„Da warfen sich die Engel alle zusammen nieder, außer Iblis; er verhielt sich hochmutig und gehö.rte zu den Ungläubigen. Er sagte: „O Iblis, was hat dich davon abgehalten, dich vor dem niederzuwerfen, was Ich mit Meinem Händen verschaffen habe? Verhältst du dich, oder gehörst du etwa zu dem Überheblichen?"

وكذلك حواره مع موسى عليه السلام:

"فلما أتاها نودى يا موسى إنى أنا ربك فاخلع نعليك، إنك بالوادى المقدس طوى" (طه، الآية ١١-١٢)

„Als er dort hinkam, wurde ihm zugerufen, O Musa
Gewiss, ich bin Dein Herr, so ziehe deine Schuhe aus, du befindest dich im geheiligten Tal, Tuwa."

"وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى." (طه، الآية ١٧-١٨)

„Und was ist das da in deiner Rechten, o Musa,
Er sagte: „ Es ist mein Stock, auf den ich mich stütze und mit dem ich für meine Schafe Blätter abschlage; und ich gebrauch ihn auch noch zu anderen Zwecken."

وكذلك الحوار مع سيدنا عيسى عليه السلام:

"وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله، قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق" (المائدة، الآية ١١٦)

„Und wenn Allah sagt: „o Isa, Sohn Mariams, bist des, der zu den Menschen gesagt hat: ‚nimmt mich und meine Mutter außer Allah zu Göttern?,“ , wir er sagen: „ Preis sei Dir! Es steht mir nicht zu, etwas zu sagen, wozu ich keine Recht habe.“

ولا يَغفل القرآن الحوار مع المشركين ومع أهل الكتاب:

"وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون" (المؤمنون، الآية ٧٨)

„ Er ist es, Der euch Gehör, Augenlicht und Herzen hat entstehen lassen. Wie wenig dankbar ihr seid!“

"يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون"(البقرة، الآية ٤٠)

„O Kinder Israels gedenkt Meiner Gunst, die Ich euch erwiesen habe! Und haltet euren Bund Mir gegenüber, so will Ich Meinen Bund euch gegenüber halten! Und von Mir allein sollte ihr Ehrfurcht haben.“

"ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم" (العنكبوت، الآية ٤٦).

„Und streitet mit den Leuten der Schrift nur in bester Weise, außer denjenigen von ihnen, die Unrecht tun.“

ويذكر المؤرخون فى هذا الصدد الحوار الهادئ والرائع بين المسلمين المهاجرين إلى الحبشة فرارًا من ظلم أهل مكة واللاجئين إلى ملك الحبشة، النجاشى، والذى يتبين منه أن الحوار منهج إسلامى قديم يتأسس على العدل والاحترام والاقتناع بظهور الحق. ويستقبلهم النجاشى، ويُعجب بصراحتهم واعتزازهم بعقيدتهم ويفتح لهم دياره ويؤمِّن لهم حياتهم، وذلك من خلال حوار، يكاد يكون الأول من نوعه بين الحضارة الإسلامية فى أول عهدها، والحضارة المسيحية فى

عصرها الوسيط، وهو الحوار الذى يعبر من وجهة نظرنا عن مدى التقارب بين الحضارتين القائمتين على الدين الحنيف، ولهذا لم يكن مستغربًا أن يأمر رسول المسلمين أتباعه بالهجـرة إلى أرض هذا الملك، الذى لا يظلم عنده أحـد، وكذلك لم يجد المسلمون غضاضة فى أن يعلنوا عنده الاعتزاز بدينهم، وعدم سجودهم له من منظور أن السجود لا يجوز إلا لله. ويتقبل الملك ذلك منهم فى رحابة صدر، ويعلن بصدق أن ما ذكره المسلمون هو النبع الذى يخرج من نفس المشكاة التى خرج منها الإنجيل.(١)

والسؤال الذى يفرض نفسه فى هذا المقام هو أين ذلك النبع الصافى، الذى قدمته مسيحية النجاشى، من مسيحية أوروبا الحديثة التى تريد تشويه الإسلام وحضارته وتحقيق السيادة على أتباعه؟!

لقد بدأت أوروبا أسلوبًا جديدًا -كما سبق أن ذكرنا- وهو الحوار، كى تحقق من خلاله ما تدعيه من رغبة فى التعاون والتفاهم واحترام الآخر، إلا أن باطن ذلك هو القضاء على الإسلام وتشويه مبادئه وصورته عند أهله وعند غيرهم. ولعلنا نذكر القارئ بالاجتماع الحاشد الذى دعى إليه البابا "أوربان الثانى"، بمدينة كليرمونت بفرنسا فى نوفمبر١٠٩٥، وحضره كبار الأساقفة والأمراء والإقطاعيين، وفيه يلقى البابا خطبة مؤثرة، تثير حمية المجتمعين تمحورت فى أربع نقاط:

١- الدعوة إلى حملة مقدسة هدفها فلسطين وأراضى المسلمين استنادًا على نصوص من الإنجيل.

٢- أن دعوته إلى هذه الحملة باسم الرب، بوصفه نائبًا عنه فى الأرض.

٣- الحث على نبذ الخلاف بين المسيحيين وتوحيد جهودهم.

---

(١) قارن: محمد نبيل غنايم: قضايا معاصرة – دراسة فقهية اجتماعية ، القاهرة ٢٠٠٣ ،ص٨٢.

٤- منح غفران جزئى لمن يشارك فى هذه الحملة، سواء مات فى الطريق أم قتل.(١)

ويرى الدكتور محمد البهى أن اتصال الغرب المسيحى بالشرق الإسلامى كان اتصال اعتداء مسلح على مدى قرنين من الزمان، بداية من القرن الحادى عشر إلى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى.(٢) وعلى نفس النهج قامت معظم الدراسات الإستشراقية بوحى من الكنيسة بهدف الانتقاص من تعاليم الإسلام ودحضه وإهدار قيمه، بل وكثلكته تعويضًا عما لحقها من هزائم فى حروبها الصليبية، الأمر الذى أشار إليه الدكتور الفيومى محددًا فيه موقف أوروبا العدائى لمدة قرون تجاه الإسلام والمسلمين.(٣) وهو ما يؤكده أيضًا محمد أسد بمقولته: "إن الشر الذى بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح فقط، ولكنه كان قبل كل شيء وفى مقدمة كل شيء شرا ثقافيا قصد به تسميم العقل الأوروبى وخاصة عند الجموع الجاهلة فى الغرب."(٤)

يواصل محمد البهى شكوكه تجاه هذا الحوار القادم من الغرب المسيحى، الذى يعتبر المسلمين مجرد شعوب غير ذى أصالة ثقافية، وعليهم أن ينتقلوا إلى الحضارة الأوروبية الآرية المسيحية، ويذكرنا بكل وضوح تحذير القرآن الكريم من مواقف هؤلاء الغربيين دعاة الحوار الحديث المتمثل فى قوله تعالى:

---

(١) قارن النص الألمانى :
„Ich richte mich an die Anwesenden, ich erkundige es Jenen, die abwesend sind; Überdies befieht es Christus.AllJenen,die dorthin gehen, ob sie auf dem Landweg marschieren oder übers Meer fahren oder im Kampf gegen die Heiden das Ende dieses Leben in Gefangenschaft finden, werden ihre Sünden vergeben. Dies gewähre ich all denen, die gehen, kraft der Vollmacht, mi der Gott mich ausgestattet hat.“ (www.manfredhiebl.de/**urban**.htm)

(٢) قارن محمد البهى، الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى، القاهرة ١٩٧٣ ص ١٩.

(٣) قارن محمد إبراهيم الفيومى: القاءات التاريخية بين الإسلام والغرب، قضايا إسلامية، سلسلة يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، العدد ٨، القاهرة١٤١٦هـ-١٩٩٥م ٢٥ وما بعدها .

(٤) قارن محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، نقله إلى العربية عمر فروخ، بيروت ١٩٤٦ ص ٥٨ وما بعدها.

"ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم." (البقرة: الآية ١٢٠)
„ Weder die Juden noch die Christen werden mit dir zufrieden sein, bis du ihrem Glaubensbekenntnis folgst.“

أين ذلك كله من حوار الإسلام الذى يدعو إلى الحق والتوحيد الخالص لله رب العالمين والذى لا يحمل أحدًا عليه قهرًا:

"لا إكراه فى الدين" (البقرة، الآية ٢٥٦)
“Es gibt keinen Zwang im Glauben„

"فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" (الكهف، الآية ٢٩).
„...., wer nun will, der soll glauben, und wer will, der soll ungläubig sein.“

إن الحوار الذى تتبناه الكنيسة الغربية، يتعارض مع كل الثوابت الإسلامية، فهذا الحوار بالنسبة لهم يمثل جسرًا لنقل الثقافة المسيحية إلى الآخرين وغرسها من خلال استخدام كافة وسائل التقنية الحديثة ومن أخطرها، مشروع القمر الصناعى "نور ٢٠٠٠" والمخصص لبث برامج التنصير عبر القنوات الفضائية، والعمل على تنصير كافة شعوب العالم بشتى الطرق، ومنها الحوار.

تلك هى دعوتهم وليس لنا إلا أن نأخذ بزمام المبادرة والدعوة إلى الحوار الذى أمرنا الله تعالى به:

"قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا، ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون." (آل عمران: الآية ٦٤)
„Sag: „o Leute der Schrift! Kommt ihr zu einem zwischen uns und euch gleichen Wort: das wir niemandem dienen außer Allah und Ihm nichts beigesellen und sich nicht die einen von uns die

anderen zu Herren außer Allah nehmen. Doch wenn sie sich abkehren, dann sagt: Bezeugt, dass wir Allah ergeben sind.“

وعادة ما تتصدى هذه الحوارات لقضايا الصراع الماضى، بمعنى صراع الغرب مع الشرق، مثلما حدث فى الحملات الصليبية وإخراج المسلمين من الأندلس، ثم مواجهات الغزو التركى (الإمبراطورية العثمانية) للعديد من الممالك الأوروبية، والذى بلغ ذروته بحصار فيينا، ويتناسى أولئك وهؤلاء الإسهام العلمى والحضارى، الذى قدمه الشرق للغرب عبر القرون الماضية، والذى اعتبرته زيجريد هونكه Sigrid Hunke فى كتابها المعروف، "شمس الله تسطع على أرض الغرب" "Allahs Sonne auf dem Abendland" ما يمثل الإرث الثالث لأوروبا. وقد أعطت زيجريد هونكه كتابها المشار إليه هذا العنوان، الذى يرمز إلى المعرفة الإسلامية العامة، فهى تربط الشمس الإلهية بمعنى العلم والمعرفة، لأن لفظ الجلالة يعنى بالضرورة العلوم الإسلامية، التى تشرق والتى تعنى أنها مصدر المعرفة للغرب.[1]

يرى الكثيرون من المنصفين أن مثل هذا الحوار إذا صيغ على أسس موضوعية، يمكن أن يسهم إسهامًا إيجابيًا ونافعًا بين الرسالة الإسلامية، وبين واقع المسلمين. إن الإسلام كما نراه، كلٌ متكامل لا يتجزأ، ورغم وجود ما يقرب من مليـــار ونصف مسلم على وجه الأرض، وأن هناك سُنَّة صحيحة ومؤكدة إلا أنها لم تتضمن كافة العادات والتقاليد التى تقبلها الإسلام بعد انتشاره فى هذه الأراضى، وعلى امتداد رقعته، وأخذ بها، إما قياسًا، وإما اجتهادًا. ولنا فى رسول الله القدوة الحسنة حينما يقول فى قضية تأبير النخل: "أنتم أعلم بشئون دنياكم...". من الحقائق الثابتة أن الإسلام كدين، يعطى المسئولية الفردية للإنسان، بمعنى أن كل فرد من هذا المليار والنصف مسئول عن نفسه أمام الله يوم البعث:

---

(١) قارن: زيجريد هونكه. شمس الله تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون/ كمال دسوقى، بيروت ط ٣ ١٩٧٩ الفصل ٣ و ٤ ص٣٦٤... قارن الأصل الألمانى شتوتجارت ١٩٧٨ ص ٢٨١ وما بعدها.

"كل نفس بما كسبت رهينة" (المدثر: الآية ٣٨)
„ Jede Seele haftet für das, was sie erworben hat."

"وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه"(الإسراء، الآية ١٣)
„ Jedem Menschen haben Wir sein Vorzeichen an seinem Hals befestigt."

"ألاَّ تزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى"(النجم، الآية ٣٨-٤١)
„Nämlich, dass keine tragende Seele, die Last einer anderen auf sich nehmen wird. Und das ist für den Menschen nichts anderes geben wird als das, worum er sich selbst bemüht, dass sein Bemühen gesehen wird, dass ihm herauf nach vollem Maß vergolten wird."

ويذكر الدكتور محمد عمارة الأسس التى تستند إليها كنائس الغرب فى نفيها للإسلام وإنكارها له حتى فى عقر دار الإسلام، ويدلل على ذلك بمؤتمر الحوار الإسلامي/المسيحى الذى عقد بالقاهرة بدعوة من المنتدى العالمى للحوار بمدينة جدة ومؤتمر العالم الإسلامى الذى انعقدت جلساته فى فندق شيراتون هليوبوليس بالقاهرة فى ٢٨ و٢٩ أكتوبر ٢٠٠١ والذى انتهى برفض ممثل الفاتيكان ونائب الأمين العام للمجلس البابوى للحوار بين الأديان القس خالد أكاش، وممثل مجلس الكنائس العالمى الدكتور طارق مترى، اللذين رفضا التوقيع على البيان الختامى للمؤتمر ذلك لأنه وضع فى توصياته الإسلام مع اليهودية والنصرانية تحت وصف الأديان السماوية الربانية وقالا: إن وصف الإسلام كدين سماوى وربانى لا يزال محل خلاف لم يحسم بعد. ويندهش الدكتور محمد عمارة لهذا الموقف الغريب، ويذكر تعليق كل من الدكتور يوسف القرضاوى والإمام الأكبر شيخ الأزهر المشاركين فى هذا المؤتمر وليعبرا عن توجس بعض رجال الدين المسيحى من

مجـــرد وصف الإسلام بالربانية والسماوية وإذا كــان الفاتيكان والكنائس العالمية لا تعترف بالإسلام كدين سماوى فلماذا الاجتماع ولماذا اللقاء والحوار؟!

ولا يجد الدكتور عمارة إلا أن يتدثر برأى المستشرق الفرنسى "جاك بيرك" الذى أقر بأن الإسلام هو آخر الأديان السماوية الثلاثة وأنه الدين الذى يعتنقه ويدين به أكثر من مليار نسمة فى العالم وينهى محمد عماره عزاءه هذا بالتأكيد أن المسلمين يجدون أنفسهم فى موقف لا يحسدون عليه من قبل الثقافة الغربية والحضارة الغربية والممارسات الغربية.(١)

ويتمخض من خلال هذا التطور التاريخى العديد من الأحكام المسبقة المنقوصة والمغلوطة عن الإسلام، مقارنة بما حدث فى التطور الأوروبى والغربى عامة. ولنا أن نتساءل مع الكثيرين، "هل الإسلام فى حاجة إلى حركة إصلاح وتجـــديد بالمفهوم الأوروبى والغربى بعد تراجعه وانحساره من وجهة نظرهم؟، أو أنه دين لا يعرف التجديد والإصلاح بالمفهوم الغربى، ولماذا لم تظهر على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان، شخصية رائدة مثل مارتن لوتر، القس الثائر والمصلح والمجدد للكنيسة والعقيدة المسيحية، بعد أن ران عليها العفن والفساد؟(٢)

لعل الإجابة على مثل هذا السؤال تحتاج إلى بحوث طويلة، ولعل وجود كوكبة من رجال الفكر الدينى المستنير، بداية من الإمام محمد عبده، وجمال الدين الأفغانى، والشيخ المراغى، والعقاد، وما أدلوا به من تجديد وقيم إصلاحية لفيه الغِنْية والكفاية. ونذكر مقولة واحدة للإمام المراغى فى حديث له إلى أهل الغرب: "قدموا أى شيء ينفع الناس، وأنا آتيكم بسند له فى الشريعة الإسلامية."(٣)

---

(١) محمد عماره: صورة الإسلام فى الخطاب الغربى ٢، فى: صوت الأزهر.القاهرة، ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٤ الموافق ١٥ رمضان ١٤٢٥.

(٢) قارن: Abdul Hadi Christian H. Hoffmann :Tajdid:Islam und Erneuerung – Musleme und Luther , in : Publikationen des Deutsch- Islamischen Instituts: http://www.dii-edu.de/de/islam-luther.html

(٣) قارن: أمين الخولى: صلة الإسلام بحركة الإصلاح، ج٩.

ولنا أن نذكر شهادة تتسم بالحيدة والموضوعية عن قيم الإسلام الذى حض أتباعه على معاهدة المشركين والذميين وأهل الكتاب والوفاء بالعهود وعدم نقضها ورد الأمانات إلى أصحابها ومعاملتهم بالحسنى وأن لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات، الأمر الذى يؤكده المستشرق الهولندى الكبير دى جويه De Goeje فى كتابه "مذكرات عن فتح الشام" Memoire sur la conquete de la Syrie ويقول: "حقا كان المزاج العربى فى أحسن صوره وقد لاقوا ترحيبًا حارا من أهل هذه البلاد لحسن معاملة العرب المنتصرين عليهم، وعلى النقيض ما وقع عليهم من عنت واضطهاد من حاكميهم البيزنطيين السابقين."(١)

ويذكر الإمام أبوزهرة أنه بعد أن صار للمسلمين السيادة على بعض ممالك الإمبراطورية الشرقية شعر مسيحيو هذه الممالك بنعمة الإسلام عليهم ونعمة حكم المسلمين لهم بعد أن سامتهم الكنيسة الغربية وملوكها ألوانًا من الذل والهوان لقرون طويلة وحتى جاءهم الإسلام فى القسطنطينية وأعطاهم الأمن والاطمئنان لدرجة أن انتشر القول عندهم بتفضيل عمامة السلطان محمد الفاتح على تاج البابا المثلث.(٢)

وليس من قبيل الصدفة أن تعيش الأمة الألمانية هذا التطور، الذى عاشته مثيلاتها من الدول الأوروبية الأخرى، وخاصة بعد فتح الأتراك المسلمين عام ١٤٥٣ للقسطنطينية، التى أسموها فيما بعد "إستانبول"، وهى المدينة التى كانت تمثل عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية، ومركزًا تجاريا مهما لكافة دول أوروبا مع قارتى آسيا وإفريقيا. وكان على هذه الدول الأوروبية أن تبحث عن جديد يعوضها فقدان هذا المركز المهم، واتجهت لإنماء الطرق العابرة للمحيط إلى العالم الجديد، إلى أمريكا عن طريق المحيط الأطلسى. وأدى ذلك إلى ازدهار

---

(١) محمد حميد الله: Der Islam: Geschichte, Religion, Kultur. Aachen 1415H. 1995, S. 449

(٢) الإمام محمد أبو زهرة: محاضرات فى النصرانية تبحث فى الأدوار التى مرت عليها عقائد النصارى وفى كتبهم وفى مجامعهم المقدسة وفرقهم. القاهرة ط ٣، ١٩٦١ ص ١٥٢ وما بعدها.

البرجوازية فى كل من إنجلترا وفرنسا، وتم القضاء على الإقطاع ومساوئه. وما كان ذلك ليحدث إلا كنتيجة من نتائج سقوط القسطنطينية ووقوعها فى يد الأتراك. وكان على ألمانيا الممزقة والمشتتة أن تلحق بركاب إنجلترا وفرنسا، اللتين حققتا استقلالاً كاملاً عن وصاية روما، بل وتحررت من كافة الالتزامات والإتاوات المالية التى تفرضها الفاتيكان، ولا عجب بعد ذلك أن يشتد الصراع من جانب روما، والتى حاولت بكل قوة إعاقة وإيقاف مثل هذا التطور فى ألمانيا.

٤. ٦ انشغال مارتن لوتر بالإسلام من منظور بعض علماء اللاهوت الأوروبيين

اعتمد الفكر الأوروبى فى العصور الوسطى وخاصة فيما يتعلق بالنواحى القانونية والسياسية والاجتماعية على رؤى الكنيسة الكاثوليكية وتوجهاتها، وعلى رأسها بابا الفاتيكان، صاحب الموقع الأعلى فى روما، تلك الرؤى التى تدعو إلى ما أسمته بمفهوم المسيحية العالمية، بحيث ينقسم المسيحيون فيها إلى سلطتين (Zwei Reichlehre): السلطة الأولى، السلطة الدينية، وهى ما يمثلها الإكليروس أو ما يسمونهم برجال الدين. والسلطة الثانية، هو السلطة الدنيوية العِلْمانية المتمثِّلة فى بقية الشعب، وأعطيت السلطة العليا لرجال الإكليروس، أما الرئاسة العلمانية والدنيوية فللفئة الأخرى.

وكان على لوتر بعد دراسته المتعمقة، أن يواجه هذا الفكر بتخطيط وبفكر آخر، وهو ما يمثل – كما سبق ذكره فى موضعه– نقطة البداية فى حركته الإصلاحية، أو كما يقال " القشة التى قصمت ظهر البعير"، وخاصة بعد أن كثرت الشكوى وعم الفساد بين رجال الإكليروس، وفرض شراء صكوك الغفران والتى علق مارتن لوتر بسببها حجج إصلاحه الخمس والتسعين فى أكتوبر عام ١٥١٧، وأعد لها العديد من رسائله ومنشوراته إلى نبلاء الأمة الألمانية المسيحيين، والتى انتشرت

انتشار النار فى الهشيم، أو على حد قول أحد رفاقه، يوهانس لينك Johannes Link "كانتشار دوى دق الطبول".(١)

ولهذا فإننا نرى أن فكر لوتر وتخطيطه لم يكن دافعه إثارة للشغب والتخريب بين طبقات الشعب الألمانى، إنما هدفه الفصل فى قضايا النزاع والخلاف مع روما والبابا بصورة سلمية.

ويرى العديد من المؤرخين أن علاقات حركة الإصلاح البروتستانتى بالإسلام، ترجع جذورها بداية من دوافع الأوروبيين المسيحيين المشوبة بالخوف من الخطر التركى الزاحف على أوروبا. فمع تولى السلطان سليمان القانونى العظيم الثانى Der Sultan Suleiman dem Prächtigen II السلطة فى ١٥٢٠، استولى على المجر فى معركة موهاكس ١٥٢٦، والتى قُتل فيها ملكها لودفيج الثانى (لويس) أثناء انسحابه، وبعدها صارت المجر ولاية تابعة للإمبراطورية العثمانية، إبان خلفه يانوس تسابولاى Janos Zapolyaai، ثم حصار الأتراك الأول لفيينا عام ١٥٢٩، والحصار الثانى عام ١٦٨٣.

يتولى حكم الإمبراطورية الرومانية فى خضم هذا التهديد التركى الزاحف على أوروبا القيصر الشاب الإسبانى الأصل كارل الخامس، أحد أفراد الأسرة الحاكمة آنذاك وهى أسرة الهابسبورج، ولم يكن يتجاوز عمره العشرين عامًا. ورغم انتماء هذا الإمبراطور للكنيسة الكاثوليكية، فإنه اضطر إلى مهادنة حركة الإصلاح البروتستانتى بهدف توحيد صفوف جيشه، وخشيته من أن يتحالف البروتستانت مع هذا العدو التركى، وهو تحالف كان دافعه بالدرجة الأولى تغليب الجوانب السياسية والاقتصادية للإمبراطورية ودون النظر للخلاف اللاهوتى الدائر آنذاك، ويرى المؤرخون المحايدون أنه رغم تحالف مملكة البندقية مع ملك فرنسا

(١) قارن Landgraf, S. 96.

"فرانس الأول" مع الأتراك، فإن البابوية لم تتردد فى إقامة علاقات ودية مع الباب العالى Der hohe Pforte.

كان موقف مارتن لوثر من البداية موقفا عدائيا ومضادا للأتراك، رغم مشاهداته من ميل أمراء المناطق البروتستانتية فى ألمانيا لجانبهم والعمل على مودتهم، وذلك لدوافع سياسية ودون النظر لمذاهبهم العقائدية المتباينة، وكان يدعم لوثر موقفه العدائى هذا نحو الأتراك، شعوره بالخوف على المسيحية عامة بجانبيها الكاثوليكى والبروتستانتى، وخاصة بعد ما رأى من ارتداد للمسيحيين الذين دخلوا الإسلام فى الممالك التى فتحها الأتراك.

بدأت ردود أفعال لوثر الأولى فى خطاب وجهه إلى حاكم إمارة هيسن، الأمير "فليب فون هيسن" Landgraf Philipp von Hessen بعنوان: "الحرب ضد الأتراك" Der Krieg wider den Türken عام ١٥٢٩، عارضًا على الأمير وجهات نظره لمواجهة الأمر، الذى شغله وشغل غيره من أدباء الرحلات ومؤرخى القرن السادس عشر. وفى نفس العام وجه لوثر منشوره: "عظات للجيش الألمانى ضد الأتراك" "Heerespredigt wider den Türken". وانتهى فى عام ١٥٣١ بتأليف كتاب عن الأتراك وخطرهم تلبية لتوصية من النبيل حاكم ولاية ساكسونيا، "يوهان فريدرش الحكيم""Johann Friedrich der Weise" ، والذى ناشد فيه الأمير والمسيحيين بإقامة الدعاء والصلوات ضد الأتراك.

وفى عام ١٥٣٢ ألف مارتن لوثر كتابًا بعنوان: "دحض القرآن ونقده"، كشروح وهوامش توضيحية لترجمة القرآن للاتينية، والتى أنجزها القس "ريكاردى توليتانر"Richardi Toletaner ، كما وضع فى عام ١٥٤٣ مقدمة لترجمة "ببلياندر" Bibliander الألمانية للقرآن، التى صدرت فى مدينة بازل بسويسرا.

يرى العديد من الباحثين والمتخصصين من أمثال "هارتموت بوبتسن" Hartmut Bobzin و"فالتر بيلتز" Walter Beltz " و"لودفج هاجيمان"

"Ludwig Hagemann " وأدموند فيبر وEdmund Weber "فرنسيس نيجل لى" Francis Nigel Lee و"باول راجاشيكار" Paul Rajashekar و"جيرنوت روتر" Gernot Rotter، وآخرين؛ أن انشغال مارتن لوتر بالإسلام لم يكن أمرًا فرعيا أو جانبيا، بل كان من القضايا الجوهرية التى كابدها وعايشها، وأدلى فيها بدلوه فى الكثير من مؤلفاته وحواراته.

لقد حاول مارتن لوتر كما سبق أن أشرنا — فى مواضع كثيرة — مقاومة اتجاه بعض الجماعات المتعاطفة مع الوجود التركى، الأمر الذى استمر الجدل حوله لسنوات طوال، مما حدا بلوتر أن يؤلف بالاشتراك مع صديقه "ميلانشتون" Melanchthon عام ١٥٢٨ مجموعة من التعاليم، موجَّهة لمطارنة وقساوسة سكسونيا.

اتخذت هذه التعاليم والمواعظ اتجاهين: الاتجاه الأول وهو كتابته لهذه التعاليم كواعظ لذاته يرى أن من واجبه أن يؤدى ذلك بنفسه كمثل يحتذى به، وأما الاتجاه الثانى كاسترشاد لغيره من الواعظين بهدف مواجهة هذا الخطر التركى الجاسم على صدر الأمة الألمانية. وهذا يعنى أن لوتر عاش فى عصر كانت كل الكتابات أو غالبيتها عدائية تجاه الإسلام، وعدائية بوجه خاص تجاه الأتراك كقوة معتدية، ورغمًا من هذا فلم تكن كتابات مارتن لوتر العدائية هذه نابعة من منظور تبشيرى، ولا موجهة توجيهًا مباشرًا إلى الإسلام. فهو لا يريد أن يبين للمسلمين نقائص وأغاليط عقيدتهم - من وجهة نظره - ولكنه ركز تعاليمه إلى المسيحيين من أبناء جلدته؛ لكى يوضح لهم بدقة وحسب فهمه عقيدة ودين هؤلاء الأتراك. وهذا يؤكد أن لوتر لم يقصد أو يهدف عملاً تبشيريا بين صفوف الأتراك، بل كان جُل تفكيره كمسيحى أن الإسلام لا يمثل سوى ظاهرة خارجة عن إطار الكنيسة أو أنه دين غريب عنها، بل نظر إليه على أنه خطر محيق، يصيب جوهر وقيم الكنيسة المسيحية فى مقتل. وقد يلعب دورًا كبيرًا فى ازدياد انقسام العقيدة المسيحية فى وسط أوروبا.

أشار مارتن لوتر فى حجته الخامسة من الحجج الخمس والتسعين، التى سبق له أن علقها على باب كنيسة القصر فى أكتوبر ١٥١٧ مؤكدًا فيها إدانته الكاملة لممارسة الأعمال المخجلة لبابا روما، فيما يتعلق بإصداره صكوك الغفران، مدعيًا أن إيراداتها تموّل الحروب الصليبية ضد الأتراك، بل واعتبر ذلك نوعًا من الخداع يقوم به البابا تجاه المسيحيين؛ لأن أموال الصكوك هذه كانت تجمع عنوة من أجل ترف وفساد رجال الإكليروس فى روما، وقد ترسخ لدى لوتر أن الحرب ضد الأتراك لا طائل من ورائها؛ لأن كافة الكفار من وجهة نظره من أتراك وتتار وغيرهم من الملحدين، ما هم إلا رمز لغضب الله على المسيحيين، مما أدى بخصومه وأعدائه إلى القول بأن توجهاته هذه كانت سببًا فى هزيمة المسيحيين الساحقة على يد الأتراك فى موقعة "موهاكس" بالمجر ١٥٢٦.

ولا شك أن لوتر ربط أفكاره هذه نحو الإسلام بالأحوال السيئة التى عمت المسيحية والمسيحيين. ولهذا لم يكن من المستغرب مقولته بأن نجاحات الأتراك المسلمين تمثل عقوبة وابتلاء من الرب بسبب ذنوب المسيحيين، وخاصة غير المخلصين منهم. وكان يرى أن الحرب ضد الأتراك لا طائل من ورائها بالوسائل التى يتبعها بابا روما، مثلما حدث فى الحروب الصليبية، أى استخدام سلاح السيف والقوة، ولكنه رأى أن حرب المسلمين لا مفر من أن تتم بسلاح العقيدة والإيمان، لأنهم كأعداء يمثلون حقيقة الشيطان، ولهذا لا تتأتى هزيمتهم ودحرهم إلا باللجوء إلى الله وبالتوبة من المعصية والابتهال والصلاة والبكاء.

لقد عبر لوتر مرارًا وبصراحة عن عدم قناعته بالسلاح العسكرى أو السلاح التبشيرى ضد المسلمين، والذى ثبت عدم جدواه فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر، والذى مارسته العديد من البعثات التبشيرية، التى اضطلع بها جماعات التبشير من الفرنسيسكان والدومنيكان. ويؤكد لوتر نظرته وقناعته فى مناسبات عدة بأن قوة الإسلام وانتشاره تمثل عقوبة وابتلاء إلهيا للمسيحيين أنفسهم، ومن هنا جاء نقده الساخر بتقسيم السلطة بين البابا والقيصر. وهذا يعنى أن واجب البابا هو

الحرص الشديد على رعاية ونقاء العقيدة، وواجب القيصر هو اتخاذ الوسائل المناسبة للدفاع والحرب إذا لزم الأمر. وقد تضامن إيرازموس الروتردامى Erasmus مع توجهات لوتر، ناصحًا البابا "ليو العاشر LeoX" بأن الوسيلة الأفضل لحرب الأتراك تكون من خلال عرض روح وتعليمات الكتاب المقدس، وليس عن طريق السيف والقوة العسكرية. ورفض لوتر بذلك أن تُشن حرب عقائدية ضد الأتراك عام ١٥٣٥، اللهم إذا لزم الأمر فسوف تكون حربًا دفاعية تتولاها السلطة الدنيوية.

٤. ٦. ١ دراسة بوبسين (لوتر والقرآن)

انشغل الباحث "هارتموت بوبتسن Hartmut Bobzin"، والذى يعتبر من أكبر الدارسين فيما يخص لوتر وعلاقته بالقرآن وبالمسلمين، وذلك فى رسالته التى نال بها درجة العالمية عام ١٩٨٣ من جامعة إيرلانجن نورنبرج Erlangen-Nürrenberg Universität بعنوان: "القرآن وعصر الإصلاح – دراسات فى التاريخ التمهيدى للعلوم العربية والإسلامية فى أوروبا"، نشرتها دار نشر فرنتس شتاينر، Franz Steiner Verlag بمدينة شتوتجارت عام ١٩٩٥، بدعم من معهد الإستشراق التابع لجمعية الإستشراق الألمانية فى بيروت، المجلد الثانى والأربعين(١) بعرض وجهات نظر لوتر السلبية عن الإسلام والتى كان يعتبرها لوتر قوة مضادة داخل الكنيسة ومن الجوانب النشطة والفعالة فى أعمال لوتر الفكرية، التى لم تنل الحظ الكافى من البحث أو التى تكاد تكون أهملت فى الكثير من دراسات رجال اللاهوت آنذاك وحتى أيامنا هذه. وعلينا أن نعيد النظر فى دراستها وبحثها.

(١) قارن:
Bobzin, Hartmut: Der Qura´n im Zeitalter der Reformation – Studien zur Frühgeschichte der Arabistik und Islamkunde in Europa, Stuttgart: Franzsteinert, Herg. vom Orient Institut der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft – Beirut, Bd. 42, 1995

وينتهى "بوبتسين" إلى مقولة فحواها أن فكر لوتر هذا يقودنا إلى القول بأنه اعتبر القرآن أهم وثيقة للعقيدة الإسلامية من منطلق مؤلفه "دحض القرآن" "Die Widerlegung des Korans" عام ١٥٤٢، والذى يعبر فيه متسائلا "لماذا ارتضى المرء لفترة طويلة بمعرفة ضئيلة ومعلومات سطحية عن هذا القرآن، وعدم نقله فى الوقت المناسب إلى اللاتينية."[١] ذلك أن منطقه فى هذا القول أن معرفة العدو الجيد تفتح الأبواب على مصراعيها لمهاجمته مهاجمة جيدة، ومن أجل دحض زيف هذا القرآن وخرافاته لا يتأتى إلا بوسيلة عرض هذه العقيدة عرضًا موضوعيا، من خلال المعرفة الجيدة لها، وكانت مصادره المتاحة لهذه الدراسة هى:

١- ترجمة القرآن لفراتر ريكاردو ديمونتى كروسى Frater Ricardo de Monte Croce (Confutatio Alcoranie)، وهو راهب دومينيكى توفى عام ١٣٢٠، عاش فى منطقة مجاورة لمدينة فلورنتسا، كما تجول لفترة طويلة فى الشرق الأدنى، ومارس أعمال التبشير هناك، وكان يجيد العربية، وكثيرًا ما كان يحاور العديد من علماء القرآن وقام بتأليف كتاب بعنوان "ضد شريعة المسلمين"، تضمن العديد من الخطايا وسجل فيه ما يجعل من القرآن كتابًا غير مستساغ، كما كان يرى أن هذا القرآن يفتقر كلية إلى الترتيب للأحداث على عكس ما جاء فى الإنجيل، فالإصحاح الأول لسفر التكوين يبدأ بقصة الخلق كما يقتضيه الترتيب والسياق التاريخى، كذلك ما يتعلق بقصة عيسى. فبالنسبة للقرآن يرى أنه لا يمكن أن نقف فيه على ترتيب زمنى، بل على العكس من ذلك يرى بعد السورة الأولى، المسماة بالفاتحة، تأتى سورة البقرة، المسماة طبقًا لحادثة البقرة الحمراء، والتى يجدها المرء فى سفر العدد، الإصحاح ١٩، أما فى السورة الثالثة، وهى سورة آل عمران، فنجد إخبارات عن مولد عيسى إلى آخره. ويقول أنه بجانب الافتقار إلى الترتيب وفقدان التناسق، يعرض للعديد من المتناقضات داخل النص القرآنى،

---

(١) قارن: المرجع السابق ص ١٠ وما بعدها.

إذ يذكر أن القرآن يأمر معتنقيه مجادلة معتنقى الديانات الأخرى بالحسنى، ومرة أخرى بمحاربتهم أو حتى بقتلهم. ويستهجن بعض القصص الواردة بالقرآن، مثل قصة سليمان والنمل، ورحلة الإسراء والمعراج الشهيرة، من مكة إلى بيت المقدس، واستخدام محمد (صلى الله عليه وسلم) فى رحلته البراق، وعدم استخدامه فى عروجه إلى السماء السابعة.

وكان تأثر ريكاردو فى وجهات نظره هذه، بالاعتقاد السائد فى المسيحية من قبله لقرون عديدة. وحاول ريكاردو وآخرون من أقرانه الطعن فى الإسلام من خلال إظهار التناقض بين القرآن والإنجيل، وركزوا طعونهم فى تعارض القرآن الواضح مع المبادئ اللاهوتية للمسيحية، كمسألة بنوة عيسى لله، ومسألة التثليث،[١] واستشهدوا على ذلك بما جاء فى سورة المائدة الآية ٧٣ والنساء الآية ١٧١:

"لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة"

„Fürwahr, ungläubig sind diejenigen, die sagen: Gewiss, Allah ist einer von dreien."

"يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسله ولا تقـــولـــوا ثلاثة، انتهوا خير لكم إنما الله إله واحد، سبحانه أن يكون له ولد له ما فى السماوات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا."

„O Leute der Schrift, übertreibt nicht in eurer Religion und sagt gegen Allah nur die Wahrheit aus! Almasieh Isa, der Sohn Mariams, ist nur Allahs Gesandter und sein Wort, das Er Mariam entbot und Geist von Ihm. Darum glaubt an Allah und Seine Gesandten und sagt nicht „Drei". Hört auf damit, das ist besser für euch! Allah ist nur ein Einziger Gott, Preis sei Ihm, und Erhaben ist Er darüber, dass Er ein Kind haben sollte! Ihm gehrt

---

(١) قارن: المرجع السابق ص ٩٣ وما بعدها.

alles, was in den Himmeln und was auf der Erde ist, und Allah genügt als Sachwalter.“

وعيسى فى القرآن هو عبد الله ورسوله ليس إلا، وهو الأمر الذى كان صعبًا للغاية أن يستوعبه الكثيرون من علماء اللاهوت النصارى. وكان عليهم أن يفسروا ويعرضوا هذا التناقض الجوهرى مع العقيدة المسيحية بطرق عدة:

الطريقة الأولى باتهام محمد، وهو الذى كان يُنظر إليه على أنه مؤلف للقرآن وكاتبه، وقيامه بتحريف العقيدة المسيحية عَمدًا، وجعله مثل الملاحدة القدامى المشهورين أمثال آريو السكندرى المتوفى عام ٣٣٦ أو نسطور المتوفى عام ٥١٤، وهما اللذان شككا فى ألوهية المسيح وفى التثليث. وعلى هذا النحو استطاع هؤلاء المبشرون أن يركزوا هجومهم الجدلى ضد القرآن من خلال الحجج المحفوظة، من مجادلة أتباع آريو ونسطور.[١]

والطريقة الثانية هى افتراض أن يكون فَهْم الكثيرين للعقيدة المسيحية بطريقة خاطئة، وذلك بسبب عدم المعرفة الكافية، أو اطلاعهم على مراجع غير موثوق فى صحتها، ولهذا ينبغى أن يُصحَحَ القرآن، الذى يرون فيه أنه كتاب مبتدع، وليس وحيًا صحيحًا. وإذا رجعنا إلى مملكة بيزنطة، نجد أنها تجاور الدولة الإسلامية، والتى اعتبرت القرآن لفترة طويلة كتاب فرقة مسيحية مرتدة، ولم تعر هذه المملكة -الإسلام وقضيته- اهتمامًا خاصا، إلا أنه يذكر أن عالم اللاهوت نكتاس فون بيتسانسNiketas von Byzanz والذى عاش فى القرن التاسع الميلادى، كان يملك نسخة من ترجمة للقرآن إلى اليونانية الشعبية، وقد استقى منها الكثير فى مؤلفه عن القرآن: "مُعارضة الكتاب المزور لمحمد العربى".

(١) عبد الرحمن بدوى :دفاع عن القرآن ضد منتقديه ،القاهرة ١٩٩٩ ، ص ٥ وما بعدها .

"Widerlegung des gefälschten Buches von dem Arabern Muhammad"

والذى ألفه بتكليف من القيصر ميخائيل الثالث الذى حكم هذه الإمبراطورية من عام ٨٤٢ إلى ٨٦٧. هذه الترجمة لم يعد لها وجود، إلا أنها معروفة من خلال الاقتباسات التى استشهد بها نكتاس هذا فى الكتاب المشار إليه. ويتعرف مسيحيو أوروبا على القرآن مع مطلع القرن الثانى عشر عام ١١٤٣ على أول ترجمة لاتينية لمعانى القرآن، والتى ظهرت طبعتها الأولى فى نفس العام، وقام بترجمتها الراهب الإنجليزى روبرت فون كيتون Robert von Ketton وذلك بتكليف من الأسقف بطرس فنرابيلس Petrus Venrabilis ويعنى بطرس المبجل، الذى كان رئيسًا لدير مدينة كولون، وهى الترجمة ذات الصلة المباشرة بالحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٦-١٠٩٩.

كانت وجهة نظر بطرس المبجل هذا أن خطر الإسلام لا يمكن مواجهته بالسلاح، ولا مفر من مواجهته عن طريق الكلمة، وهذا لا يتأتى إلا بمقتضى التعرف على التعاليم الرئيسية للإسلام، كما هى معروضة بالقرآن، ومن خلال رحلاته التفقدية للجزء المسيحى من إسبانيا فى عام ١١٤٢، استطاع أن يقنع روبرت فون كيتون، والذى كان يعمل آنذاك فى حقل الترجمة لبعض الأعمال الرياضية والفلكية، بأن يترجم القرآن إلى اللاتينية. وعلى الرغم من احتواء ترجمة كيتون هذه - والتى يروى أنه قد ساعده فيها رجل عربى - على كثير من الأخطاء، إلا أنها لاقت نجاحًا كبيرًا وبقيت لفترة تربو على الخمسمائة عام المرجع الأهم للتعرف على القرآن فى الغرب المسيحى، بل وكانت نقطة انطلاق لترجمات عديدة إلى لغات شعبية مثل الإيطالية والهولندية والألمانية. ويروى أنه من أكثر العوامل التى ساعدت على انتشار هذه الترجمة، أنها طبعت فى مدينة بازل عام ١٥٤٣ أى بعد ٤٠٠ عام مضت على ترجمتها الأولى ١١٤٣.

لم يكن صدور هذه الترجمة ١٤٥٣ أمرًا سهلا، وإنما تقرر بعد صراع وجدل مريرين، حول كيفية وإمكانية طباعة كتاب يقول بإلحاد اليهود والمسيحيين فى مدينة مسيحية مثل مدينة بازل. وكان رأى المؤيدين ومن بينهم لوتر وصديقه عالم اللاهوت تيودور بيبلياندر Theodor Bibliander(١٥٠٤-١٥٦٤)، الذى قام بنشر الترجمة، أن الحاجة ماسة فى قطاع عريض من المجتمع، لمعرفة دقيقة لعقيدة العدو، وعلى العكس من ذلك بالطبع، فقد حذر المعارضون لذلك، من الخطر الذى قد ينشأ من طبع وتداول كتاب، مثل القرآن، وتأثيره السلبى لاسيما على الكثير من العوام. ويرى البعض أن خلفية هذا الصراع فى هذا العصر، ترجع لوجود تيار قوى من البعض، ضد عقيدة التثليث، وقد اعتقد أن مجيء ذلك قد يكون من البراهين أو الأدلة المستقاة من القرآن. وكان لتدخل لوتر الفعال لصالح المؤيدين أن سمح مجلس بلدية مدينة بازل بنشر وطبع هذه الترجمة، التى ذاع صيتها بشكل كبير، لدرجة أنها طبعت مرة أخرى بعد سبع سنوات من الطبعة الأولى.(١)

٢- ترجمة القرآن لنيقولاوس فون كوزNikolaus von Kues ، تحت عنوان: "كبرياتو القرآن" (Cribartio Alcoranie)

٣- ترجمة القرآن تحت اسم "كوربوس توليتانوم" (Corpus Toletanum) ١٥٤٢، والتى رأى فيها لوتر أنها ترجمة ركيكة وسيئة للغاية. وترجع أهمية هذه الترجمة الركيكة إلى أنها قادت لوتر إلى أمرين:

---

(١) قارن: Hartmut, Bobzin, a.a.O., ص ١٥٦ وما بعدها.

الأول، مراجعة وجهة نظره فى ترجمة ريكاردو. والثانى، الشروع فى محاولة ترجمتها إلى الألمانية بنفسه وإدخالها ضمن خطط أعماله فى الترجمة.

ولما كان القرآن من وجهة نظر المسلمين يمثل معجزة بلاغية ووحيًا إلهيا بالنسبة للقارئ، أيما كان هذا القارئ، مسلمًا أو غير مسلم، ويتعرف القارئ المسلم على جوهر القرآن ليس فقط من خلال القراءة، وإنما أيضًا من خلال السماع، واستخدام محتوى آياته فى حياته اليومية، ولهذا علينا أن نفرق بداية، بين التعرف على النص، وبين فهمه واستيعابه، وهنا تكمن الصعوبات الجمة نحو فهم النص القرآنى للقارئ غير المسلم.

نذكر فى هذا الصدد أديب ألمانيا الأكبر يوهان فولفجانج فون جوته، الذى كان يتعاطف إلى حد كبير مع الإسلام، فى عرضه لهذه القضية بالنسبة له شخصيا، فيعبر بطريقة بلاغية مؤثرة عام ١٨١٩ فى ملاحظاته ومذكراته من أجل فهم أفضل "للديوان الغربى الشرقى"، أن القرآن هو ذلك الكتاب:

"الذى كلما حـــاولنا أن نقترب منه، يبعدنا عنه، ثم يجذبنا إليه مرة أخرى، ثم يحملنا على الدهشة، ثم لا نملك بعد ذلك الا أن نحترمه[١].

ولا تعليق بالنسبة لنا أن يكون النص القرآنى بهذه الصعوبة على أديب كبير مثل جوته الذى يخشى الاقتراب منه، وهو الكتاب الذى ظل يُنظر إليه فى الغرب المسيحى لفترة طويلة على أنه ليس سوى تحريف مخل للإنجيل.

هذه الطبعة التى نُشرت فى مدينة بازل عام ١٥٤٣ ، نُسجت حولها العديد من الأساطير، وأبانت الاهتمام البالغ لدراسة الإسلام ومحتواه فى أهم المراكز

---

(١) قارن:
http://www.ansary.de/Islam/IslForsch1.html–Anfangszeit der Qura'nüberstzungen , S.1
"Das uns, so oft wir auch daran gehen, immer von neuen anwidert, dann aber anzieht, in Erstaunen setzt und am Ende Verehrung abnötigt"

الحضارية، والمدن الكبرى لحركة الإصلاح الدينى، مثل مدينة بازل وزيورخ وشتراسبورج وفيتنبرج ونورنبرج. كما شهدت هذه الطبعة بداية مرحلة تاريخية لقى فيها المصلح تسفينجلى Zwinglli حتفه ١٥٣٢ فى مدينة Kappel، وتولى مواصلة رسالة تسفينجلى بعد موته رجلان: الأول، هو القس هاينرش بولينجر Heinrich Bulinger، والثانى، هو عالم اللاهوت تيودور بوخمان Theodor Buchmann، والذى لُقب فيما بعد بالأستاذ ببلياندر Bibliander، وكلاهما تربطهما علاقات واهتمامات بالغة بالإسلام وعلومه، وقاما بتأليف كتاب عن الأتراك. واعتبر بعض المؤرخين أن Bibliander من رجال الإصلاح المعتدلين، وأحد كبار علماء اللغة، مثله فى ذلك مثل العالم اللغوى غليوم بوستيل Gullaome Postel ويوهان البرشت فيدمان شتتر Johann Albrecht Widmannstetter، كما يُذكر عنه أنه كان يجيد اللغة العبرية، التى تعلمها على يد أستاذيه بيليكان Pellikan وكولمباد Kolampad. وقد عرض بولينجر وببلياندر بالتفصيل فى كتابيهما عن الأتراك لقضاياهم، علاوة على ذلك فقد تقلد ببلياندر بشكل مؤقت رئاسة مجمع Zwinglli، وله كتاب فى قواعد اللغة العبرية، وكتب أخرى فى علم اللغة المقارن، وكان أولا وأخيرا أستاذا فى تدريس العهد القديم.

يعد العالم يوهانس هربست Johannes Herbst والملقب بأبورينس Oporinus ، والذى ترك عمله بجامعة بازل كأستاذ اللغة اليونانية، ممن تفرغوا للعمل بالطباعة بداية من عام ١٥٤٢، وأنشأ مطبعة خاصة به كان من ثمارها طبعة القرآن البازلية. ويُروى أن اهتمام ببلياندر Bibliander بالإسلام بدأ من عام ١٥٣٠ حينما طلب من صديقه أبورينوس Oporinus فى عام ١٥٣٦ شراء كل ما تقع عليـــه عينيه من مصادر لاتينية أو عربية عـــن القرآن أو الإسلام أينما يجدها، وأيا كان ثمنها،[١] غير أن نشاطه قد توقف لفترة مؤقتة خاصة بعد استيلاء

(١) قارن النص الأصلى: Bobzin, Hartmut, a.a.O., ص ١٧٦.

السلطان سليمان القانونى على مدينة بوداس Budas. وبعد توقفه قام بتأليف كتاب بعنوان: "نصائح إلى الرفاق المسيحيين فى التغلب على وحشية الأتراك."

"Ratschlag an den Genossen christlichen Namens, wie die grausige Gewalt des Türken von Christen ferngehalten werden kann und soll."

وقام بنشر هذا الكتاب لدى الناشر المعروف آنذاك نيقولاوس برايلنجر Nikolaus Praylinger واعتبر هذا الكتاب المقدمة أو التوطئة لطبعة القرآن المشار إليها والتى بذل فيها Bibliander قصارى جهده لإخراجها والانتهاء منها، وفقا لتشريعات وقوانين مدينة بازل. ويتم إعطاء تصريح بالطبع لمثل هذه المؤلفات بعد إقرارها من لجنة ثلاثية مختصة، وإن كانت بعض المطابع لا تلتزم بهذه التشريعات التزامًا كاملاً، بدافع الوقت والتكاليف، وخوفًا من أن يكون المخطوط المراد طبعه يُسئ إلى الشرائع المسيحية. وقد حاول فى هذه الأثناء الناشر Heinrich Petri إعادة طبع ترجمة لاتينية للقرآن، انتهت بعدم الموافقة، كما أن ترجمة الطبعة العربية التى تم إنجازها فى فينيسيا (البندقية) فى القرن السادس عشر، قد منعت الفاتيكان انتشارها والحد من توزيعها، ولكن الناشر أوبورينوس Oporinus استمر فى طباعة ترجمة القرآن، رغم تحذيرات بلدية بازل المتكررة بالتوقف، بل وانتهى الأمر بسجنه لهذا السبب لفترة قصيرة، وشاع أمره فى مدن أخــرى كزيورخ وفيتنبرج وشتراسبورج، ويحــاط لوتر وميلانكتون علمًا بذلك، كما حدث له عام ١٥٤٢. وعليه فقد اتُّفق على أن تُضم إلى هذه الترجمة مقدمة شارحة من قبل ميلانشتون ولوتر، وتحمس لهذا الاقتراح المستشرق مارتن بوسر Martin Pucer فى شتراسبورج، وقُدِّم المشروع لبرلمان مدينة ريجينسبورج Regensburg

---

„ Bibliander bat dem Freund Opirinus, ihm aus Italien Bücher gegen den Quran, ja auch den Quran selber in Lateinischer und arabischer Sprache zu verschaffen, was immer das Koste und dieser Bitte habe er auch entsprochen."

بتدعيم إضافى من المستشرق يوهان ألبرشت فيدمان شتتر، وتحمس أحد المؤيدين لطباعة هذه الترجمة وتداولها فى مدينة بازل، وهو المستشرق انتيستس أوزفالد ميكونيوس Antistes Oswald Myconius وذلك من منظورين: الأول، أن يتيقن المرء من تعليمات الكفر التى يحويها هذا الكتاب، والمراد مقاومتها ودحضها؛ والثانى، درء خطر استخدام محتواها استخدامًا خاطئًا قد يلحق الضرر بقارئيها ومستخدميها من العامة. وفى السادس من سبتمبر ١٥٤٢ تقدم المستشرق بوسر بالرجاء ومناشدة دوق سكسونيا الأمير فيليب الشجاع Landgraf Philipp den Großmutigen بالتوسط لدى بلدية بازل أن تسمح بالطباعة، وكتب مارتن لوتر خطابًا فى هذا الشأن إلى بلدية شتراسبورج وبازل، يبدى موافقته على إصدار هذه الطبعة، وعدم الخوف من تداولها. ويؤكد مايكونس تضامنه مرة أخرى بدفاعه السابق الإشارة إليه بأن معرفة العقيدة المناهضة الكافرة أمر لا خلاف عليه، وحتى يتسنى محاربتها، إلى جانب إرفاق ملاحق وإضافات هامشية لهذه الترجمة، لتفادى التأثير السلبى على البسطاء من القراء، ودللوا بأمثلة سابقة على هذا استنادًا على ما حدث من توجيهات بابا روما المنبثقة من مجمع فيينا المنعقد عام ١٣١١- ١٣١٢ لرجال اللاهوت Nikolaus von Kues, Bernhard von Clairvaux أن يدرسوا اللغة العربية لمزيد من معرفة هذه الترجمات.

وما من شك أن موافقة لوتر على إصدار الطبعة بما كان يتمتع به من سمعة وشهرة ومكانة، هو الداعم الأكبر للحصول على موافقة بلدية بازل بإصدار طبعة ترجمة القرآن، وكانت حجة لوتر فى هذا الشأن ممثلة فى مقولته بعدم الإساءة أو تكدير محمد (صلى الله عليه وسلم) أو الأتراك، أو إلحاق الأذى بهم، لأن أية محاولة منهم، أى من الأتراك، فى إيصال محتوى القرآن إلينا، ستجعلهم يتيقنون بأنفسهم كم هو ملىء بالأخطاء والزيف والأساطير، التى كثيرًا ما يحاول الأتراك إخفاءها أو تزيينها، مما يجعل المرء يحجم عن ترجمته إلى لغة أخرى. ويعتبر هذا التغيير من قبل لوتر من منطلق المقولة التى ترى أن الرسالة الإسلامية لا تحبذ

ترجمة القرآن بما فيه من زيف وتحفيز للقساوسة والوعاظ المسيحيين بأن المعرفة الجيدة للقرآن هى بمثابة الوسيلة المثلى بالنسبة لهم لتوعية الشعب المسيحى بجبروت محمد، كما هى السلاح القوى للصراع ضد الأتراك والإسلام، ومن هذا المنطلق أيضًا كانت مناشدة لوتر فى ختام خطابه لبلدية بازل، أن تنشر هوامشه وتعليقاته الداحضة للقرآن كمرفق، وإذا لم تتم هذه الموافقة فإنه سيعمل على الحصول على موافقة طباعة هذه الترجمة فى مدينة Wittenberg، ولهذا وافق مجلس بلدية بازل على الطباعة فى خلال أسبوعين من خلال وصول الخطاب إليه.(١)

وفى ١٥٤٢/١٢/٨ ألمح لوتر من منطلق ما جاء فى خطابه المشار إليه أن يتحلل السيد أبورينوس من موقف بلدية بازل، ويقوم بطبع الترجمة فى أى دار نشر، وفى أى بلد تقبل ذلك، على ألا يقوم بتوزيعه وتداوله فى مدينه بازل، وسرعان ما لبى أبورينوس هذه المناشدة، وكتب لرئاسة كنيسة زيورخ التى وافق رئيسها هاينرش بولينجر على الطباعة، مع مراعاة الشروط التى وضعتها مدينة بازل، وعلى أن يتحمل أبو رينوس المسؤولية كاملة كمؤلف وكناشر.

ولنا هنا أن نذكر أن دور لوتر كان مهما فى هذا الاتفاق، وخاصة للمقدمة التى شاركه فيها صديقه ميلانشتون كى ترفق بالطبعة. وتظهر طبعة ببلياندر Bibliander عام ١٥٤٣ أى بعد أربعمائة عام من الترجمة الإنجليزية التى قام بها روبرت فون كيتون Robert von Ketton ١١٤٣ كما سبق القول بذلك، والتى أنجزها آنذاك بتفويض من بطرس المبجل، الذى كان يقوم بجولة تفقدية فى طليطلة بإسبانيا، وهى الترجمة التى تعتبر من أهم ترجمات العصور الوسطى، والتى توافق ظهورها مع ظهور عدد غير قليل من المؤلفات المضادة للعقيدة الإسلامية.

---

(١) قارن النص الأصلى:

"Das man dem Mahmet oder Turcken nichts verdrieslichers thun, noch mehr schaden zu fugen kan (mehr denn mit allen waffen), denn das man yhren alcoran bey den Christen an den tag bringe, darinnen sie sehen mugen, wie gar ein verflucht, schendlich, verzweivelt buch es sey, voller lugen, fabeln und aller grewel, welche die Turcken bergen und schmucken und zu warzeichen ungern sehen, das man den alcoran ynn andere sprache verdolmetscht"

لم ترق هذه الترجمة لدى لوتر، وكان حكمه عليها حكما سلبيا، معتبرًا أن أسلوبها ركيك ومعقد، مما أدى إلى تردده فى تنفيذ خطته، التى أشرنا إليها فى رغبته فى أن يترجم القرآن بنفسه إلى الألمانية، واتجه إلى ترجمة ريكاردو اللاتينية، والتى رأى أنها أنسب فى محتواها. ومن المعروف أن ريكاردو نشأ فى فلورانتسا وهو أحد مبشرى الدومينيكان، وأهم رجال التبشير فى الشرق الإسلامى، الذى أقام فيه فترة ليست بالقصيرة، وعاش بين المسلمين وتعلم العربية وأجادها، وذلك فى نهاية القرن الرابع عشر. وكان يهدف فى رحلته بحث التقريب المذهبى بين الكنائس الشرقية، إلى جانب مهمة التبشير بين المسلمين بالمسيحية. واعتبرت هذه الترجمة ذات أهمية بالغة فى العصور الوسطى، وكثيرًا ما كانت تتكرر طباعتها جنبا إلى جنب مع طبعة ببلياندر Bibliander. وقد قدم لوتر لترجمة ريكاردو إلى الألمانية، والتى لم تأخذ حقها من البحث حتى يومنا هذا. ويلاحظ المرء أن النص الألمانى كان أقصر من اللاتينية، وفى مقابل ذلك أضاف لوتر فى هذه الترجمة العديد من الهوامش والتعليقات، بهدف فهم متن النص وإضافة وجهات نظر جديدة، بأسلوب أكثر قوة من الأسلوب المعتدل لريكاردو.(١)

توالت بعد ترجمة ببلياندر والتى قدم لها مارتن لوتر، والمعروفة بترجمة بازل عام ١٥٤٣ ترجمات عديدة تبين مدى تقبل العديد من شعوب العالم ورغبته فى معرفة محتوى القرآن، إلى معظم اللغات الأوروبية وعلى رأسها بالطبع الإنجليزية والفرنسية والألمانية، ولو رغبنا فى سرد إحصاء لها منذ حركة الإصلاح البروتيستانتى حتى يومنا هذا لاحتاج الأمر إلى أكثر من مجلد لإحصائها، ويعرض فى إيجاز الدكتور محمد أحمد منصور فى كتابه Deutsche Orientalistik und "Islamwissenschaft, Geschichte und Ziele، لأهمها(٢)

---

(١) ١٤٨ ص Bobzin, Hartmut, a.a.O قارن النص الأصلى.

(٢) ترجمة سالمون شفايجر Salmon Schweiger فى مدينة نورنبرج، عام ١٦١٦.

- ترجمة المستشرق الألمانى أ. ج. هابل E. G. Happel إلى اللاتينية فى عام ١٦٨٨.

وكان اتهام لوتر الأساسى الموجه ضد الإسلام، هو زعمه أن محمدًا نفسه أقر بأن كل ما جاء فى القرآن ليس صحيحًا، وعليه لا يمكن للمرء أن يمنح ثقته لنفس النص، طالما أن جزءًا به غير صحيح، إذ إن زيف الجزء ينتهى بالتالى إلى زيف الكل، وربما دعم لوتر هذا الزعم من بعض المبالغات التى تم إسنادها إلى

- ترجمة المستشرق الإيطالى لودفيكو ماراسى Ludovico Marraci عام ١٦٩٨.
- ترجمة ديفد نيرتر David Nerreter عام ١٧٠٣ .
- Theodor Arnold ترجمة المستشرق تيودور أرنولد عام ١٧٤٣.
- ترجمة ج. سيل G. Salle عام ١٧٣٤ والتى ترجمت فى عام ١٧٤٦ إلى الألمانية.
- ١٧٧٢ ترجمة ديفد فريدرش ميجرلين David Friedrich Megerlin.
- ١٧٧٣ ترجمة فريدرش إبرهارت بويزن Friedrich Eberhardt Boysen.
- ١٧٩٨ترجمة يوهان كريستيان فيلهلم أوجستى Johann Christian Wilhelm Augusti.
- ١٨٣٤ ترجمة جوستاف ليبريشت فلوجل Gustav Leberecht Flugel.
- ١٨٤٠ ترجمة لودفيج أولمان Ludwig Ullmann.
- ترجمة فريدريش ريكرت Friedrich Rückert، والتى ظهرت بعد وفاته بعامين فى عام ١٨٨٨.
- ١٩٠١ ترجمة ماكس هننج Max Henning.
- ١٩١٦ ترجمة جولدشميت لاتساروس Goldschmidt Lazarus.
- ١٩٣٩ ترجمة صدرالدين Sadrudin.
- ١٩٥٤ ترجمة الأحمدية Ahmadiyya.
- ١٩٦٣ ترجمة رودى بارت Rudi Paret.
- ١٩٦٨ ترجمة محمد رسول Muhammad Rassoul.
- ١٩٨٧ ترجمة عادل خورى Adel Khory.
- ١٩٨٢-١٩٩٦ ترجمة دار نشر بافاريا Bavaria-Verlag .
- ١٩٩٦ ترجمة أحمد فون دنفر Ahmed von Dennfer.
- ١٩٩٨ ترجمة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف المصرية Das Hohe Rat für islamische Angelegenheiten, das gyptische Al-Waqf-Ministerium.

يضاف إلى تلك الترجمات ترجمات استجدت وأهمها :

- ١٩٩٩ ترجمة تجويد القرآن الكريم دار المعرفة، دمشق سوريا- ترجمة جامعية بدون.
- ٢٠٠٠ ترجمة أمير محمد أديب زيدان، والتى نشرت فى مدينة أفنباخ على نهر الماين Offenbach am Main
- وأخيرًا وليس آخرًا ترجمة مجمع الملك فهد بالمدينة المنورة بالمملكة العربية السعودية K-nig-Fahd-Komplex zum Druck von Quran والتى أنجزها الشيخ عبد الله الصامت فرانك بوبنهايم Abdullah as-Samit Frank Bubenheim والدكتور نديم إلياس Dr. Nadim Elias

بعض فلاسفة المسلمين كابن سينا وابن ماسويه والفرغانى، الذين ينسب إليهم أنهم نادوا بالعقل وعدم الاعتبار بتعاليم القرآن، وإذا كان غالبية علماء المسلمين نهجوا عكس ذلك فى اتباع تعليمات القرآن[١] ، فمرجع ذلك عند لوتر هو أن تاريخ الإسلام ملئ بالنجاحات والانتصارات المتتالية.

لم تكن معرفة لوتر بالإسلام التفصيلية مختلفة عن الأمور الشائعة والمتوارثة والمحصورة فى ثوب الكنيسة، إلا أن لوتر اختلف عن صديقه ميـلانكتون، فى أنه أوصى ونصـح بقراءة القرآن قراءة جادة، من أجل فهمه، ولا يمكن لنا كمسلمين أن نتوقع من لوتر أن يخرج عن هذا الإطار، الذى حددته له عقيدته، بل كان عليه كمسيحى وعالم لاهوت يبغى الإصلاح لكنيسته ولأقرانه من رجال اللاهوت، أن يؤكد للجميع توجهه العدائى للعقيدة الإسلامية. ويرى لوتر فى حجج الإسلام أنها على نقيض كامل، من توجهاته وخاصة فى ما يتعلق ببنوة المسيح وألوهيته وموته وبعثه ومقولة الإيمان به كمخلص للبشر وغافر لذنوبهم. إضافة إلى ذلك يرى لوتر أن الإسلام قلل من شأن المسيح وسمو مكانته، مقارنة بعلو مكانة محمد وتفضيل الأتراك له عن المسيح. ويخلص بوبتسين فى بحثه بأن الإسلام جاء لينهى مهمة المسيح كنبى ورسول وأن هذه المهمة وُكِّلت الآن إلى محمد كخاتم الأنبياء والرسل وأن دعوته تقوم على توقير واحترام كل الرسل من قبله، وعدم الخلط وتجاوز الحدود بين الله والإنسان. ولهذا كان دور محمد المهم يوم القيامة فى الشفاعة للبشر. وقد استند لوتر فى كافة توجهاته لنقد الإسلام، انطلاقًا من الصراع الدائم فى دوائر الدولة البيزنطية والغرب عامة، ويضاف إلى ذلك أمران آخران: الأمر الأول، هو الإحساس بالطابع المعادى للمسيحية من قبل الإسلام وهو اختلاط الأمور فى التفريق بين السلطة المدنية والدينية، وحيث تعطى

---

(١) قارن: Bobzin, Hartmut, a.a.O., ص ١٤٨.

الأولوية للسلطة الدينية على المدنية، وعدم الالتجاء إلى الجهاد بحد السيف إلا لضرورة شرعية.[١]

من هنا كان يرى لوتر عدم شرعية السلطات التركية كسلطة دينية، لأنها ليست كغيرها من السلطات الإلهية التى تجنح للسلم، وتحمى الأتقياء وتعاقب الأشرار. الأمر الثانى هو السماح بالزواج بالعديد من النساء. هذه السلبيات - فى رأى لوتر- لم تُنسخ فى الإسلام لبجئ ما هو أفضل منها. فالإسلام عند لوتر كعقيدة، يخاطب العقل البشرى وبذلك تغلب العقلانية فى الإسلام، عما هو الحال فى المسيحية، مقارنة بتعاليم الإنجيل التى يصعب على العقل البشرى استيعابها[٢]. ولهذا أهمل القرآن حسب وجهة نظر لوتر، كل ما جاء بالإنجيل وكان حكم لوتر هنا على الأتراك من خلال تعليمات الإنجيل. وانتهى لوتر بطرح السؤال المزدوج: من هو التركى؟ وماذا يريد من سعيه؟ ويجيب لوتر عن أسئلته هذه فى خطبته الموجهة للجيش الألمانى، بأن هناك طاغيان جباران يريدان هدم العالم على من فيه: الأول، يستخدم الوسائل الدينية، وهو البابا، والثانى، يستخدم الوسائل الدنيوية وهو التركى.

لقد وقر فى ضمير مارتن لوتر بعد معايشته للهزيمة المفجعة التى لقيها المسيحيون على يد الأتراك فى موقعة موهاكس بالمجر ١٥٢٦ أن هذه الهزيمة علامة كبرى من علامات الساعة، ولا شك أنها آتية، مدللا على ذلك بمجريات التاريخ للأتراك والفرس والمماليك أصحاب القوى العظمى فى العالم آنذاك. ومن هنا لم يستطع لوتر كبح جماحه، فى استمراره دحض ونقد محتوى القرآن وتحبيذه التبشير فى أوساطهم. وركز كل همّه بالدرجة الأولى فى تعريف وشرح الكتاب المقدس، من أجل تعرية الإسلام وكشف زيفه كمنافس كبير للمسيحية فى آخر الزمان.

---

(١) قارن: المرجع السابق ص ٩٣.
(٢) قارن: المرجع السابق ص ٩٠، ويذكر لوتر ما نصه.

لم يكن لوتر فى هذا الاتجاه صاحب السبق الأول، بل سبقه يوحنا الدمشقى الذى قال بأن العقيدة الإسماعيلية، من العقائد المنافسة للمسيحية وكذلك ما ذكره الإسبانى باولوس الفاروسى فى القرن التاسع عشر ضد الخليفة الأموى محمد الأول حاكم قرطبة، وانتهى به الأمر بتشبيه البابا والمسلمين بيأجوج ومأجوج كشعبين نشب بينهما الصراع، وهما الشعبان اللذان طاردهما إسكندر ذو القرنين والوارد ذكرهما فى القرآن والتوراة. ويواصل لوتر تشبيهه لهذه الشعوب بالتتار والملحدين واعتبار الخطر التركى الداهم كآخر عدو للمسيحية، وأن هذا العدو سيلقى عقابه بلهيب نار السماء وليس بالسلاح البشرى. وتبلغ ذروة آراء لوتر بقوله أن مجيء الأتراك على مسرح الأحداث ليس سوى علامة مؤكدة على نهاية العالم الدنيوى ونهاية لعقيدتهم القائمة على السيف والعقل البشرى بطريق الغواية والتضليل. ومن هنا لزم الأمر العكوف على دراستها والتعرف على جوهرها.

لقد اعتبر لوتر الإسلام من هذا المنظور، رجسًا من عمل الشيطان وأن محمدًا والشيطان شخصان فى شخص واحد. لقد مثل البابا والتركى عنده كطاغيتين من طغاة الجبروت يوم البعث، لمناصبتهم العداء للمسيحية. فالتركى يحارب بسيفه وجسده، والبابا بإقامة الشعائر الدينية الخاطئة والمزيفة والمناقضة لما فى الإنجيل. وكانت مطابقة لوتر هذه لقوى الشر والطغيان ممثلة فى البابا والأتراك، إلا أنه رأى البابا كعدو أول وحقيقى ضد المسيحية، أما الأتراك فهم مجرد أعداء من الدرجة التالية أو كأشرار للعقيدة المسيحية وكرمز من رموز الخصم داخل الكنيسة[1]. واتجهت التوجيهات اللوترية لمحاربة ذلك من خلال الأناشيد مثل "احفظنا يا رب فى كلمتك" "Erhalt uns Herr bei deinem Wort" أو "أرحنا يا رب بموت البابا والتركى" "Steure uns des Papst und der Türken Mord."

(١) قارن: المرجع السابق ص ١٤٧.

واعتُبرت التوجيهات اللوترية – من وجهة نظر أعداء لوتر – متعاطفة تجاه المذهب "المحمدى"، وأن الكاثوليك اعتبروا لوتر أحد حماة الأتراك والمدافعين عنهم، لأنه كان منحازًا لنوع من الحوار والتفاهم بين الإسلام والكاثوليكية. ويرى البعض أن التعرض لقضية الإسلام فى عهد الإصلاح، لم تكن هدفًا فى ذاتها، سواء أكـــان ذلك من قبل لوتـــر أو من قبل غيره من رجال الإصلاح، مثل ميلانشتون أو ببلياندر أو حتى من قبل الكاثوليك المعارضين له، وإنما جاء هذا التعرض كأحد العناصر المهمة فى الجدل القائم بين المذاهب العقائدية القائمة، وبرز هذا العنصر نتيجة للتهديد الجاسم على صدور مسيحى أوروبا من قبل القوة العسكرية للأتراك العثمانيين. وربما كانت هذه القوة الغاشمة سببًا فى شدة وحدة النغمة والتعبيرات، التى عرضت وقيلت ضد الإسلام كخصم لدود لهم. وبالطبع لم يكن لوتر استثناء من هذا، خاصة بما عرف عنه من فصاحة اللسان، الذى أدى به إلى التهور فى بعض صياغاته ضد الإسلام ونقده، وهو الأمر الذى قاد العديد من علماء المسلمين إلى الدفاع عن هذا التجنى، بل والتقدم بصفة رسمية لقيادات الكنيسة الإنجيلية عام ١٩٨٣ فى محاولة لتصحيح الصورة هذه فيما يخص أقوال لوتر العدائية تجاه الإسلام.

ويدافع بوبتسين فى هذا الصدد بأنه إذا ما وضع الإنسان أقوال لوتر فى سياقها التاريخى والدينى للعصر، فسيكون تفهُّمه لها أفضل من بترها من سياقها، وقد يجد له العذر والمبرر، ويختتم دفاعه هذا بأن فَهْم لوتر للإسلام لا يزال حتى يومنا هذا قضية حية، لم تخمد أوارها بعد، وأن الإسلام دين جاء بعد المسيحية، ليكون حافزًا ودافعًا للنقد الذاتى لما أصاب الكنسية والدعوة إلى التوبة والتكفير عن الذنوب. ولعل فى هذا ما يمثل التلاقى والاقتراب الذى يعرضه المسلمون فى أيامنا هذه على الغرب المسيحى، وهو الأمر الذى عجز عنه لوتر حتى فى إمكانية إجراء الحوار مع بنى جلدته وأتباع كنيسته، ولكن النقد الذاتى الذى اضطلع به لوتر فى مؤلفه: "عظات الدعاء

ضد الأتراك" Die Vermahnung zum Gebet wider den Türken " يمكن أن يؤتى ثماره فى الحوار الدائر الآن بين المسيحية والإسلام.

ونحن نعتبر أن لهجة لوتر وصياغاته الحادة كانت من الأسباب التى جعلت صديقه الحميم ميلانشتون يقدم الاعتذار عنها فى كلمته أثناء تأبينه فيقول: "قد يلام لوتر فى حدته فيما كتب، ولكن موقعه كمناضل ضد أعداء أقوياء، البابا والأتراك لابد وأن يؤخذ له فى الحسبان. غير أن كل من كان يعرفه عن قرب، يشهد له أنه كان مخلصًا ونقيا، وأن لسانه كان رطبًا وساحرًا، لهذا كانت هذه الحدة أثرًا مباشرًا نبع من ضغوط الزحف التركى من الخارج ومن الضغوط النفسية وظروفه الأسرية مع الكنيسة من الداخل[١].

٤. ٦. ٢ لوتر وفالتر بيلتس

نعرض الآن لوجهة نظر الدكتور فالتر بيلتس Walter Beltz، أستاذ علوم مقارنة الأديان، بمعهد الدراسات الشرقية – جامعة مارتن لوتر– هالى فيتنبرج، والتى نشرها فى إطار مقال له، صدر عام ١٩٨٣ بالمجلة العلمية للجامعة، وبمناسبة مرور خمسمائة عام على مولد لوتر، ضمن كتاب تذكارى لمؤلف لوتر: عن حرية الإنسان المسيحى، الذى ألفه عام ١٥٢٠ وذلك تحت عنوان: "فهم لوتر للإسلام والقرآن" "Luthers Verständnis von Islam und Koran"،[٢].

يعرض الدكتور فالتر بيلتس فى مقاله هذا، أن الدراسات البحثية التى عنيت بعلاقات لوتر تجاه الإسلام والقرآن لم تكن فى بؤرة الاهتمام حتى من أهل

(١) قارن: Michael Meisner:Martin Luther, Heiliger oder Rebell, S.272 حيث يؤكد ذلك:
„Aber nicht nur draußen im Reich zieht eine drohende Gewitterwand auf. Auch im Innern“des Schwarzen Klosters“ schlägt das Schicksal zu und bringt über die Familie Luther schweres Leid.“

(٢) قارن: Wiss. Z. Univ. Halle XXXII’ 83 G, H. 5, ص ٨٥-٩١

التخصص. ويُرجع ذلك إلى عدم كفاية مراجعة وتحقيق أعمال لوتر الكاملة، والتى أصدرتها دار نشر بيلاو بمدينة فايمار Weimar–Böhlau Verlag ، وانصب التركيز من جانب لوتر على المسألة التركية التى مثلت له تهديدًا ملموسًا ومباشرًا للقارة الأوروبية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وكانت عظاته للجيش الألمانى ضد الأتراك عام ١٥٢٩ Heerespredigt wider die Türken، والتى ألفها بعد هزيمة المجر الساحقة فى معركة موهاكس ١٥٢٦، والتى سبقها بمؤلف آخر هو: "الحرب ضد الأتراك" "vom Kriege gegen die Türken"، يهاجم فيه تعاليم البابا من أجل شن الحملات الصليبية، التى لم يقرها، لأنها حرب تمت تحت شعار الصليب. وكان يرى أنه إذا كان لا مفر من حرب الأتراك، فإنما يكون ذلك من منظور الدفاع عن الأوطان التى احتلوها دون مبرر.

ويؤكد بيلتس أن معظم المؤلفات التى صدرت عن الحروب الصليبية، اتسمت بطابع عقائدى عدائى نحو المسلمين، وكان على رأسها الكتب الخمسة التى ألفها الأسقف، بطرس المبجل، أسقف دير كولونيا، والمتوفى عام ١١٥٥، والذى ترجع إليه مبادرة أول ترجمة لاتينية مشهورة للقرآن. وتتوالى تراجم أخرى بعد ذلك تتسم بنفس العداء والكراهية كمظهر طبيعى خلفته العصور الوسطى، وهو الأمر الذى عايشه مارتن لوتر أثناء انشغاله العميق بترجمة تيودور ببلياندر للقرآن. يرى بيلتس فى هذه الترجمة أنها تعد أول ترجمة علمية، وهى الترجمة التى كتب لوتر مقدمتها بناء على طلب بلدية مدينة بازل، ويدلل على ذلك بنص من قول لوتر: "إذا أراد المرء أن يكدر الأتراك ويلحق الأذى بهم، فلن يتسنى له ذلك إلا بسلاح فهم وتعريف محتوى القرآن من قبل المسيحيين، حتى يتيقنوا بأنفسهم كم هو كتاب سيئ، ملئ بالأكاذيب والأساطير والهرطقات."[١]

---

(١) قارن، النص الأصلى فى المرجع السابق ص ٨٦ .
„Man könne dem Türken nicht erdrießlich tun noch mehr Schaden zu fügen (mehr als mit den Waffen), denn daß man den Koran bei den Christen an den Tag bringe, damit sie sehen, welch ein Buch das sei, *„voller Lügen, Fabeln und aller Greul“*

أخذ لوتر هذه المفاهيم عن الإسلام من معظم المصادر ذات السمات الدعائية والشائعة فى عصره، ويتعرف على ترجمة أخرى للقرآن، قام بها الراهب نيقولاوس كوزانوس، وهذا يعنى انتشار إدخال الدراسات الإسلامية وتعلم اللغة العربية ضمن مناهج الجامعات الألمانية، وذلك لتدريسها من منظور أن على رجال اللاهوت قراءة كتب الكفار وحتى يتسنى لهم دحضها ومجابهتها، وإبراز السموم التى تضمنتها. ومن خلال هذا المنظور يفكر لوتر مليًا، أن يترجم القرآن بنفسه إلى الألمانية الذى سبق أن ترجمه القس ريكاردو، ذلك الراهب الذى جال فى بلاد الشرق وأجاد العربية، إلا أنه توقف ولم يسعفه الوقت لذلك، واكتفى بترجمة ببلياندر الكاملة عام ١٥٤٢. ويذكر بيلتس أن هذا قد نبع أيضًا من منطلق قلق وخوف لوتر على صمود واستمرارية حركة الإصلاح أمام التهديد التركى مما جعلته لا يفرق فى عداوته بين الأتراك والبابا، لأن كليهما عدو للكتاب المقدس.

ويعرض لوتر على هذا النحو فى مؤلفه "عظات ضد الأتراك" "Vermahnung zum Gebet wider die Türken" والذى جاء به موقع البابا، موقع العدو الأول والأكبر للكنيسة، بغض النظر أن يرتبط ذلك بفهم أكبر للإسلام وقيمه من قبل لوتر، مقارنة بالمسيحية، والتى قادت به فى سنواته الأخيرة إلى حالة من اليأس والإحباط فى أنه فعل ما عليه من واجب لصالح الكتاب المقدس، ومن لم يأخذ بما يقول فليفعل.[١]

هذا اليأس الذى عاشه لوتر وإحساسه أنه مغلوب على أمره وأنه فقد كل أمل فى توحيد معارضيه من المذاهب المختلفة المتصارعة تجاه حركته الإصلاحية،

---

(١) قارن: النص الأصلى فى المرجع السابق ص ٨٦ .
„Ich habe das meine getan, als ein treuer Prophet und Prediger, wer nicht hören will, mag es lassen:“

ويفقد لذلك الحماس الذى كان يريد أن يستغله فى تنصير الأتراك دعمًا لبنى جلدته من المسيحيين.(١)

· ويوضح بيلتس أن لوتر أراد من وراء نشر القرآن وتداوله بما فيه من دجل وزندقة، تقوية وشد أزر من ضعفت عقيدتهم من المسيحيين، الذين أراد أن يذكرهم بما جاء فى هذا الكتاب من هرطقات ومتناقضات، وليؤكد لهم أن الإنجيل هو الكتاب المقدس الوحيد الذى لا بديل عنه، والذى يمكن قراءته بالعديد من اللغات الحية، وذلك على النقيض من القرآن، الذى تحرُم قراءته بلغة أخرى غير العربية(٢).

ويرد على ذلك أن القرآن لا تحرم قراءته بلغة أخرى غير العربية وأنه يمكن نقل معانيه إلى أية لغة، وإنما التعبد به فى الصلاة لا يتم إلا باللغة العربية، فالمخصوص باللغة العربية – الذى أساء مارتن لوتر فهمه – هو التعبد وليس مطلق القراءة لترجمات القرآن، وإلا فكيف كان الإسلام سينتشر بين غير العرب وغير المتحدثين بالعربية.

ويختتم بيلتس وجهات نظره عن موقف لوتر من الإسلام والقرآن، بأن الهزيمة التى لحقت بالمسيحيين من قبل الأتراك، ما هى إلا هزيمة سياسية، وليست هزيمة للعقيدة المسيحية. وكان يرى أن نصر الأتراك هذا الذى أحرزوه، أفضل عنده من نصر يحرزه البابا، العدو الحقيقى للمسيحية. ويحاول بيلتس أن يبرر الأوصاف والسمات العدائية التى قال بها لوتر عن القرآن، أنها جاءت من منظور موقعه كرجل للاهوت، وليس كعالم للأديان، يمتلك القدرة على التحليل التاريخى

---

(١) قارن: النص الأصلى فى المرجع السابق ٨٦ .

(٢) قارن: النص الأصلى فى المرجع السابق ص ٨٨ وما بعدها.

„Bibel und Evangelium... übertreffen in allem den Koran und sind, weil sie in viele Sprachen übertragen seien, schon deshalb ein Zeichen für die Allmacht des wahren Gottes, wohingegen der Koran doch nur als arabisches Buch gelesen werden durfte.“

للنص، واضعًا نصب عينيه كمصلح مقولته الأساسية: "إن الإنجيل، وليس شيئًا غيره هو المقياس لكل الأشياء[1]".

٤ . ٦. ٣ لوتر ولودفيج هاجيمان

ننتقل إلى توجهات باحث آخر، وهو السيد لودفيج هاجيمان Ludwig Hagemann، وهو أحد القلائل الذين عرضوا لمارتن لوتر وعلاقته بالإسلام فى كثير من الإسهامات وعلى رأسها كتابه: "مارتن لوتر والإسلام" „Luther und der Islam“[2].

يعرض هاجيمان فى كتابه هذا، للأحكام القديمة المسبقة فى ضوء نور جديد، لفهم الإسلام وقضاياه، وذلك من خلال توجهات مارتن لوتر أثناء أحداث حركة الإصلاح، التى دارت رحاها فى البيئة الألمانية، ويرى بداية أن الصلات التى ربطت بين المسيحيين والمسلمين كثيرًا ما شابها العديد من الصراعات العدائية، وذلك من منطلق رفض المسيحيين للرسالة المحمدية أو الاعتراف بها، بالرغم من أن محمدًا تحدث ولفترة طويلة بكلام ودى عن المسيحيين، إلا أن الإسلام أصبح السلطة الوحيدة فى شبه الجزيرة العربية، وليضم تحت لوائه غيره من أهل الملل الأخرى. وحدد هاجيمان موقف محمد فى ثلاث نقاط فيما يخص علاقة الإسلام بالمسيحية:

١- حسمه لقضية يسوع المسيح، بأنه ليس ابن الله كما تعتقد المسيحية.

---

(١) قارن: النص الأصلى فى المرجع السابق ص ٨٩ .
„Luther war kein Religionswissenschaftler, sondern von dem theologischen Grundansatz, dass nur die Bibel, die scriptura sancta, der Maßstab, mensura una, sei:“

(٢) قارن: Hagemann, Ludwig: Martin Luther und der Islam, Altenberg: Christlich-Islamisches Schrifttum, 1988

٢- مقولته أنه خاتم الأنبياء والمرسلين من منطلق القرآن، سورة ٣٣ آية ٤٠.

٣- إقراره أن الدين الحق عند الله هو الإسلام، من منطلق القرآن سورة٣ آية ١٩[١].

ولقد كان رد فعل المسيحيين على ذلك، سواء فى الشرق أو الغرب، إصابتهم بالفزع لادعاء محمد، أنه كُلف بتجديد دين أبيه إبراهيم وإتمامه، ونظروا إليه على أنه نبى مزيف، أخذ تعاليمه من هرطقات سابقة من اليهودية والمسيحية. واتسعت الصراعات بين المسلمين والمسيحيين لقرون طويلة بالتهديدات والحروب المتبادلة، فمع الانتشار السريع للإسلام وفتح إمبراطورية الفرس وبيزنطة وأجزاء مسيحية أخرى فى سوريا ومصر، خضعت كلها تحت لوائه، بل امتد الأمر إلى صقلية وشمال إفريقيا وإسبانيا إلى أن تم توقفه فى عام ٧٣٢م على يد كارل مارتل Carl Martell. وكان هذا التهديد الإسلامى مبعثًا لخوف وكراهية المسيحيين للمسلمين، وأنهم الأعداء الحقيقيون للمسيح، ومن هذا المنطلق تمت الدعوة لحركة الحملات الصليبية على يد البابا أوربان الثانى أثناء انعقاد مجمع كليرمونت ١٠٩٥، والتى لم تحقق أهدافها. وسقطت القسطنطينية فى أيدى المسلمين عام ١٤٥٣، وتدفقت حمامات الدم، ورأى المسيحيون أنّ المدينة المقدسة التى أسسها قسطنطين، تقع فى يد الكفار وفقًا لتعبير الأسقف إينيا سيلفو بيكولومونى Enea Silvio Piccolomini، والذى أصبح فيما بعد البابا بيوس الثانى، الذى بعث برسالة إلى الكردينال نيقولاس فون كوز أكد فيها هذا المضمون.[٢]

---

(١) قارن: المرجع السابق، ص ٧.

(٢) قارن: النص الأصلى:

"So viel Blutvergießen ist angerichtet worden, was Bäche von Blut durch die Stadt flossen. So ist die edle, von Konstantin gegründete Stadt in die Hand der Ungläubigen gekommen..."

استغل السلطان العثمانى الصراع الدائر بين الطوائف المسيحية أثناء أحداث حركة الإصلاح فى أوروبا، واعتبرها الفرصة السانحة المناسبة لضرب أوروبا فى الصميم. وسقطت أمام جحافل جيوشه مدينة بلجراد ١٥٢١، وجزيرة رودوس ١٥٢٣، وفى يوليو ١٥٢٦ قُتل الملك لودفيج الثانى ملك المجر أثناء تقهقره أمام الجيوش العثمانية، وأصبحت فيينا محاصرة أمام هذا الجيش عام ١٥٢٩ ووقعت بودابست تحت قبضتهم ١٥٤١، وأصبح العثمانيون يسيطرون على معظم شواطئ البحر المتوسط، كقوة بحرية عالمية، كما تم فى الفترة من ١٥٣٧-١٥٤١ طرد أهل البندقية من أملاكهم، وسقوط جزيرة قبرص تحت أيادى العثمانيين، التى كانت تمثل المعقل الأخير للمسيحية داخل البحر المتوسط.

من هذا الموقف السياسى والعسكرى الذى خلقه العثمانيون، يمكن فهم لوتر فى توجهاته وآرائه التى قال بها تجاه الإسلام والمسلمين، حيث يعبر فى رسالة له عن خوفه وقلقه الداخلى لهذا الخطر التركى الزاحف إلى أوروبا، والذى بدأ يقترب فى زحفه إلى أراضى الأمة الألمانية، بعد استيلاء الأتراك على مدينة لوفن الألمانية Lauffen. فيناشد فى خطابه المشار إليه عام ١٥٢٩ الذى ضمنه مؤلفه المشهور "Vom Krieg wider die Türken" عن الحرب ضد الأتراك إلى الأمير الألمانى فيليب فون هيسن وتحذيره باقتراب الأتراك. [١]

ووفق هذه الأحوال السياسية حدد لوتر موقفه، من القوى العسكرية الإسلامية، وظهر ذلك جليا فى مؤلفه بعنوان: "عظات للجيش الألمانى ضد الأتراك" "Heerespredigt wider den Türken" الذى صدر أيضا عام ١٥٢٩. وفى عام ١٥٢٦ عبر لوتر عن هلعه وعزائه - بعد موت الملك المجرى لودفج الثانى فى موقعة موهاكس- إلى أرملته، لأن لوتر رأى فى هذا النصر، أن الطريق أصبح مفتوحًا أمام السلطان العثمانى، سليمان القانونى إلى فيينا، العاصمة

---

(١) قارن: النص الأصلى: "weil eben der Türck uns nahe komt..." المرجع السابق، ص ٩.

الأوربية آنذاك. وجاءت كل الجهود التى بذلها إمبراطور النمسا فردناند Ferdinand لعقد سلام مع السلطان العثمانى دون جدوى. وأحس لوتر بالقدوم الوشيك للصدام العثمانى مع الألمان. وعبْر هذا الموقف المتوتر، حسم لوتر توجهاته بمقاومة الأتراك بنفس سلاحهم. واعتبر لوتر من منظور لاهوتى أن التركى هو عقوبة الله وخادم الشيطان[1] ، رغم أن بابا روما، ليو العاشر، سفّه رأى لوتر هذا، وأصدر فى ١٥ يونيو ١٥٢٠ نقده لوجهة نظره. ولكن لوتر لم يأبه بذلك وواصل تأكيده لرأيه بأن الخطر التركى: "ليس سوى عقوبة إلهية وأن الصراع ضد الأتراك ليس سوى صراع ضد الرب والذى جعل من الأتراك عقوبة لخطايانا."[2]

ويواصل لوتر مقولته هذه بأنه: "لا ينادى بحرب الأتراك، بقدر ما يدعو إلى تحسين سلوك الألمان تجاه الرب."[3]

وذلك بالتكفير عن ذنوبهم والتصالح مع الرب، لأن هذا الخطر التركى يمثل أولا وأخيرًا عقوبة عادلة إلهية، وهى الرسالة التى توجه بها إلى أمير سكسونيا يوهان فريدريش الحكيم عام ١٥٤١ فى عظاته وصلاته ضد الأتراك. وفى موضع آخر يقول: "إننى لا أملك معجزة لإنقاذ ألمانيا، إلا بتحسين أخلاق الناس وسعيهم لرحمة الله، واحترام كلمته أكثر مما هم عليه الآن."[4]

---

(١) قارن النص الأصلى: "der Türke ist Gottes rute und des Teuffels diener"
المرجع السابق، ص ١٠

(٢) قارن النص الأصلى:
"Widder die Turcken streitten ist nit andersz denn widder Got streben, der durch den Turcken unszer sund strafft."

المرجع السابق، ص ١١

(٣) قارن النص الأصلى:
"wydder den Turcken nit zu streitten sey, szondern wyr sollten zuvor unsz bessernn und eynen gnedygen got machen."

(٤) قارن النص الأصلى:
"nu kann ich mich keines wunderzeichens noch sonderlicher Gottes gnaden uber Deudschland versehen, wo man sich nicht bessert und das Wort Gottes anders ehret, denn bisher geschehen."

لهذا كان يرى: "أن التركى معلم لنا، ويعنى بذلك أهله الألمان، وأن لزامًا عليه تربيتنا وإرشادنا إلى خشية الله وأن نصلى، وإلا سنقع جميعا فى بحار الخطايا كما هو حالنا الآن." [١]

ويناشد لوتر الأمة الألمانية بأنهم لابد وأن يصلوا، حتى يتقوا شر هذا البلاء، وغضب الله عليهم، ويؤكد هـــذا فى رســـالة له فى مقدمته لترجمة ريكـــاردو: Ricardo de Monte Crucis: "ولهذا كان التركى يمثل فى نفس الوقت عقوبة الله وابتلائه على خطايا المسيحيين المخلصين منهم والفاسدين" [٢]

أما من ناحية توجهات لوتر فقد كان رافضًا لسياسة الحروب الصليبية، منذ البداية، التى كانت منذ عام ١٠٩٦ عنصرًا أساسيا فى الصراع الذى اشتعل فى الغرب ضد الإسلام والمسلمين، ورغم أن فكرة الحروب الصليبية، أصبحت الآن من تراث الماضى، إلا أن الصراع مع الإسلام قد بقى، والذى اختلف فقط، هو نوعية إستراتيجية هذا الصراع، وانقسم الغرب المسيحى إلى فريقين تجاه هذه الإستراتيجية:

الأول: يجد أن حل هذا الصراع هو القوة العسكرية وكان يمثله من رجال اللاهوت: برنهارد فون كليرفو، يواخيم فون فيور، جان جيرمان، اينياس سيلفيو بيلوكومونى.

Bernhard von Clairvaux, Joachim von Fiore, Jean Germain, Aeneas Silvio Piccolomini

---

(١) قارن النص الأصلى:

"also ist der Turck auch unser Schulmeister und mus uns steupen (d.i. züchtigen) unnd leren, Gott furchten und beten, sonst verfaulen wir gantz in sunden und aller sicherheit, wie bisher geschehen."

(٢) قارن النص الأصلى:

"aber weil der Turcke gleichwohl Gottes rute und eine Plage ist über die sunde beide der christen und unchristen odder falschen christen..."

المرجع السابق، ص ١٢.

أما الفريق الثانى ويمثله مجموعة من الرهبان المثقفين، الذين كانوا يرون أن حل الصراع يتأتى من خلال الوسائل السلمية، وعلى رأسهم: بطرس المبجل، روجر بيكون، جون وكليف، جون سيجونيا، ونيقولاس فون كوز

Petrus Venerabilis, Roger Bacon, Johann Wyclif, Johannes Segonua, Nikolaus von Kues.

ويعتبر هؤلاء الرواد من الفريق الثانى ممن مهدوا لأحداث حركة الإصلاح الدينى، والذى انضم لوتر إلى صفوفهم، لأنه رأى أن حل هذا الصراع عن طريق الحرب، يعتبر حلا مضادا للسيد المسيح، وعلامة سلبية للصليب، وحجته فى ذلك: "إذا رأيت أنى ذاهب إلى الحرب كقسيس وحاملا الصليب لأحارب باسمه، فإننى أجد لزامًا علىَّ الهروب كما لو كان يطاردنى فى ذلك الشيطان." (١)

وهذا يعنى رفض لوتر التام لأى حرب ضد الأتراك تنشأ باسم الصليب، وإذا كان ولابد من حرب الأتراك بحد السيف، فلا مفر من أن تتم من قِبل القيصر وتحت إمرته وتعليماته، وأن تكون لضرورة ماسة، وهى الدفاع عن الوطن والمواطنين، وذلك من منطلق أن الحرب هنا أمر واجب لطاعة ولى الأمر، لأن طاعة ولى الأمر من طاعة الله، وعصيان ولى الأمر عصيان لله، وبهذا فرق لوتر بين السلطتين: السلطة الروحية الدينية، والسلطة العلمانية الدنيوية، التى أدت به فى النهاية إلى رفض مبدأ الحروب الصليبية. وانطلاقًا من رأى لوتر هذا، جاءت حجته باعتبار الصراع ضد الإسلام قضية غير دينية، وكانت موافقته على الحرب ضد الأتراك كاختيار إستراتيجى لدرء الخطر التركى من أجل حماية الشعب الألمانى، وإيقاف هذا الخطر، ويحاول لوتر انطلاقًا من أحكام الإنجيل، اعتبار الإسـلام قوة آخـر هذا الزمان. ورأى لوتر هذا من منطلق وجهة نظر هاجيمان

---

(١) قارن: النص الأصلى:
"und sehe zu Felde ein Pfaffen, odder Creutz Pannier, wenns gleich ein Crucifix selbs were so solt ich davon lauffen als iagt mich der Teuffel."
المرجع السابق، ص ١٣.

لم يكن جديدًا، فقد قال أسقف طليطلة أولوجيوس Eulogius والراهب باول الفاروسى Paul Alfaros القرطبى بأن سيادة الإسلام ما هى إلا تهيئة مبدئية، لظهور الأفخارستية وقضية التناول الخاصة بالعشاء الربانى ضد المسيح، واستوحى هذه النظرة فى القرن الثانى عشر الراهب يوخيم فون فيور Joachim von Foire فى اسبانيا فى عصر الموحدين، وفى فلسطين فى فترة حكم صلاح الدين الأيوبى. وشاعت هذه الظاهرة أيضا فى روما، بأن عدو المسيح، الذى سيظهر فى آخر هذا الزمان سيتقلد عرش البابوية، وليكون فى نفس الوقت ثمرة أنضجتها الكنيسة، وأن الإسلام هو المبشر لذلك. وكانت الرؤيا التى رويت عن Joachim Foire فى القرن الثانى عشر بإحياء الإسلام على يد الموحدين فى الأندلس، وصلاح الدين فى فلسطين، بل ومتحققة فى باباوية روما، ليكون بذلك البابا نفسه هو عدو المسيح، كمحصلة من داخل الكنيسة.

كل ذلك تضمنته أحاديث لوتر مع أصدقائه ميلانشتون وفريدريش مايكونيس فى ماربورج وأيزناخ، وحديثه المستقى من أقوال الراهب الدومينكانى يوهانس هيلن Johannes Helen من رؤية دانيال وما تنبأ به من مجابهات الأتراك ... فالتركى عند لوتر هو "عدو المسيح والإسلام هو نفس الشىء، هو عدو آخر الزمان، لهذا نظر لوتر إلى الإسلام كقوة دينية، وليس كقوة عسكرية أو سياسية.[1]"

واعتبر أن هناك عدوين: "عدوا من الخارج المتمثل فى الإسلام والترك، وعدوا من الداخل المتمثل فى البابا، وهو العدو الأول والحقيقى للمسيح".[2]

---

(١) قارن النص الأصلى:

"denn der Teuffel sucht durch seinen zeug den Türcken, freilich nicht allein die weltliche herrschaft, sonden auch das reich Christi und seine heiligen und glieder, von glauben zu stossen..."

المرجع السابق، ص ١٧.

(٢) قارن النص الأصلى:

"und ich halt den Mahmet nicht für den Endechrist, Er machts zu grob und hat einen kendlichen schwartzen Teuffel, der weder Glauben noch vernunfft betriegen kan,

لم يكن ظهور الأتراك على مسرح الأحداث فى أوروبا مجرد قضية عسكرية فقط، إنما كان تحديًا عقائديا عند لوتر، الذى لم ينظر إلى محمد على أنه عدو المسيح المتوقع، ولكنه مثل بالنسبة له: "العدو لآخر هذا الزمان، وسينتهى العالم بنصر مؤزر بعد هلاك هذه القوة." (يوحنا ٤٤،٨)

ويخرج الشيطان ليضل الأمم فى كل الأزمنة. ويجمع الأمم التى عددها مثل زبد البحر. (يوحنا ٨/٤٤) "أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم، ذاك كان قتالا للناس من البدء ولم يثبت فى الحق، لأنه ليس فيه حق، ومتى تكلم بالكذب، فإنما يتكلم مما له، لأنه الكذاب وأبو الكذاب."[1]

ويرى هاجيمان – مثله فى ذلك مثل الكثير من أهل الغرب– أن التوسع الإسلامى تم بقوة السيف وبالحرب، وهذا كان السبب فى عداوة الغرب المسيحى للإسلام، ولم يكن لوتر استثناءً من هذا، والذى انتهى بالقول بأن: "فى شريعة المسلمين الذين يدَّعون أنها موحاة من عند الله، حث على القتل والنهب والفساد فى الأرض، ظانين بذلك أنهم يقدمون لله خدمات جليلة."[2]

ويرى لوتر أن الإسلام كقوة شيطانية هدفها هدم العقيدة المسيحية، إلى جانب السلطة العثمانية التى شرعها الرب. وجاء ذلك من منظور لوتر فى تفريقه بين

Und ist wie ein Heide, der von aussen die Christenheit verfolgt, wie die Rö.mer und andere Heiden gethan haben... Aber der Bapst bey uns ist der echte Endechrist, der hat den hohen, subtilen, schnen, gleissenden Teuffel, der sitzt innwendig in der Christenheit..."

المرجع السابق، ص ١٩ وما بعدها.

(١) قارن، الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد.

(٢) قارن النص الأصلى:

"Es wird yhm yhrem gesetz gebotten als ein gut Gottlich werck, schreibt er, das sie rauben, morden, und ymer weiter unb sich fressen und verderben sollen, wie sie denn auch thun und meinen, sie thun Got einen dienst dran."

المرجع السابق، ص ٢٣.

السلطتين الروحية الدينية والدنيوية العلمانية. وهو الأمر الذى لا يقول به الإسلام منذ نشأته الأولى، بأنه مبنى على مجتمع دينى وسياسى (الإسلام دين ودولة) أى أنه مجتمع دينى وثقافى وسياسى فى وحدة واحدة، وهذا يعنى أن قانون الدولة (الشريعة) والدين بكافة عباداته والسياسة أمور يصعب فصل بعضها عن البعض.

كما ينتقد مارتن لوتر شرائع الزواج التى قال بها القرآن –من وجهة نظره– استنادًا إلى حرية الرجل فى الزواج بأربع وبأعداد لا حصر لها ممن يسمونهم (ملك اليمين) واعتبار أن ذلك نوع من الرق والعبودية للنساء وكذا من النقائص التى جاء بها الإسلام. ويُدين لوتر هذا بعبارات شائنة فى: "أن للرجل أن يختار من النساء ما شاء، وأن المرأة مجرد سلعة للبيع مثلها فى ذلك مثل البهائم."[١]

وأخيرًا يعرض هاجيمان للصراع والخلاف بين المسيحية والإسلام، بأن المسيحية تقر بألوهية المسيح، وببنوتة لله، وبروح قدسه وبمولده من خلال مريم، ومعاناته وصلبه وموته ودفنه وبعثه بعد اليوم الثالث من موته إلى السماء، ليجلس فى مملكته الإلهية عن يمين الآب القوى، الذى يسيطر على الأحياء والأموات، وأن أتباع المسيح يناشدهم الإنجيل بالتعميد، لكى يصيروا من أتباع المسيحية الحقة، وليتطهروا من الخطايا حتى يعيشوا الحياة الأبدية بعد البعث. واعتبر لوتر أن ذلك هو الدين الصحيح، الذى لا مثيل له عند اليهود أو الأتراك، ولهذا كان الإسلام بالنسبة للوتر مرفوضًا كلية لعدم وجود أيَّة أوجه لاهوتية مشتركة، رغم الصفات التى امتدح بها القرآن المسيح كنبى مرسل، وكذا مدحه الجيد للسيدة مريم وطهارتها من الخطايا، فيسوع بالنسبة للقرآن نبى مقدس، مثله فى ذلك مثل النبى أرميا والنبى

(١) قارن النص الأصلى:

"Yderman zu gibt weiber zu nemen wie viel er wil … solch wesen ist aber kein ehe und Kan Kein ehe sein, weil Keiner ein weib der mynung nim pt odder hat, ewigkich bey yhr zu bleiben als ein Leib, wie Gottes Wort spricht Gen."

"Der Türcke resist Man und Weib von einander und gibt und verkaufft die Frawen, als werens Kue oder Kelber. Das ist hunde und saw hochzeit, Keine Ehe."

المرجع السابق، ص ٢٥.

يونس، ولكنه ينزع عنه وينفى ألوهيته وبنوته لله، وذلك لما جاء بالقرآن: "يا أهل الكتاب لا تغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق..." (النساء: ١٥٧)

كما أن الإسلام يحسم قضية صلب المسيح، بعد ادعاء اليهود بقتله وينفى نفيًا قاطعًا مبنيا على علم الله الدقيق والصحيح أن يكون المسيح قد صلب، وهذه مسألة يقينية فى الإسلام لأن الله هو الذى أخبر بها: "وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم..." ، فالقـــرآن يرى أن هذا القتل كان لشبيه لـــه من اليهود، وأنه لم يصلب ولم يقتل. وهنا يكمن الخلاف الحاسم بين العقيدتين، والذى جعل لوتر ينظر إلى الإسلام نظرة سلبية شديدة، لأن الإسلام بذلك يفرِّغ عقيدته، التى عاش يناضل من أجلها، من جوهر محتواها. فعيسى عليه السلام، لم يعد هو المخلص والفادى، والملك والغافر للذنوب، والرحيم والأب والابن والروح القدس، والمعمد وصاحب الأسرار الإنجيلية. كل هذا قد أفرغه الإسلام من محتواه. ويعضد هاجيمان وجهة النظر اللوترية بأن التهديد التركى والإسلامى بوجه عام لقيا اهتمامًا كبيرًا من جانب لوتر، وأنه كان يرغب بشدة فى المزيد من التعرف على محتوى القرآن بعمق، ونجده يكتب فى مقدمته لترجمة القرآن عام ١٥٤٢ الخاصة بالمبشر ريكاردو ديمونت كروسى Recardo de Monte Croce أنه لو سمح له الوقت لشرع فى ترجمته بنفسه إلى الألمانية، وهى الخطة التى لم تتحقق له، كما سبق أن ذكرنا فى موضع آخر، وخاصة بسبب عدم معرفته باللغة العربية والضغوط النفسية والأسرية التى تكاثرت عليه بعد اشتداد زحف الأتراك على الممالك الأوروبية[1].

---

(١) قارن النص الأصلى:

"Ich habe des Mahomets Alkoran etlich stück, welchs auff deudsch mocht predigt oder lerebuch heissen, wie des Bapsts Decretal heist. Und er fügt hinzu: "Hab ich zeit, so mus ichs ia verdeudschen, auff das yderman sehe welch faul schendlich buch es ist."

المرجع السابق، ص ٢٩.

ويذكر فى مقدمته أنه تعرف على ترجمتين للقرآن: ترجمة ريكاردو، والأخرى ترجمة كريبراتيو Ricardo und Cribratio والتى قام بترجمتها نيقولاوس فون كوز. وكان تقييم لوتر لكلا العملين سلبيا، من منظور أن الهدف من وراء ذلك هو ترهيب بسطاء المسيحيين من الإسلام. فكلا الترجمتين ليستا سوى مقتطعات من بعض المواضع فى القرآن التى يرى فيها أنها تمثل نقضًا للقرآن، إلا أن لوتر لم ترق له ترجمة كوزانوس باعتباره هرقل البابا وساعده الأيمن. وليس بغريب بعد ذلك أن يكرس لوتر جهده، فى السعى عام ١٥٤٢ لدى بلدية بازل فى الموافقة على طبع الترجمة اللاتينية التى انجزها الراهب روبرت فون كيتون، بتكليف من بطرس المبجل عام ١١٤٣. وكان لتوسط لوتر فى هذا الأمر أن تم منح الترخيص بطبع هذه الترجمة، التى ضمنها لوتر المقدمة فى ١١ يناير عام ١٥٤٣ وعبر فيها من ضمن ما اعتقد به بأن ما حفزه إلى ذلك اتقاء لأى ضرر يلحق بجماهير المسيحيين من خلال تناقضات قرآن المسلمين حتى يتيقنوا من محتواه الملىء بالأخطاء والشرور والأكاذيب والأساطير. [١]

٤. ٦. ٤ لوتر وإدموند فيبر

نأتى إلى ما عرضه إدموند فيبر، الأستاذ بجامعة يوهان فولفجانج فون جوته بفرانكفورت، فى دراسة نشرها فى المجلة المتخصصة فى العلوم والتراث الدينى بالعدد رقم ١ لسنة، ١٩٩٧ تحت عنوان "أهمية لاهوت مارتن لوتر فى تأسيس مجتمع متعدد الأديان." [٢]

---

(١) قارن النص الأصلى:

"Mich hat das bewogen, das man yhren schaden zu fugen kan, denn das man yhren alcoran bey den christen an den Tag bringe, darinnen sie sehen mugen, wi gar ein verflucht, schendlich, verzwievelt buch es sey, voller lugen, fabeln und aller grewel."

المرجع السابق، ص ٣٣.

(٢) قارن:

Weber, Edmund: Die Bedeutung der Theologie Martin Luthers für die Begründung einer multireligiösen Gesellschaft, in: Journal of Religious Culture, Nr.01- 19970

يتفق فيبر مع معظم الباحثين الغربيين، أن مفهوم التركى كان يعنى به المسلم، والدين التركى أى الدين الإسلامى، وأن الإسلام جاء بمثابة عقوبة وغضب من عند الله، تجاه سيئات المسيحيين. ويحاول إدموند فيبر أن يجد نوعا من التوفيق الإيجابى، لإسباغ نوع من التعاطف اللوثرى تجاه الترك والمسلمين عن غيره، ممن تطرقوا لوجهات نظر لوثر، وعلى سبيل المثال فإنه يرجع اضطهاد ومطاردة الأتراك للمسيحيين إلى سبب إيجابى، لأن المسيح هدف بذلك أن تمتلئ مملكته بالشهداء والقديسين، وهى خدمة لا شك جليلة يقدمها الأتراك لمملكة المسيح باعتبارهم خدمًا وعونًا لكل المسيحيين فى محنتهم رغم ما ارتكبوه ضدهم من آثام مصحوبة بالغضب والقسوة. (١)

ولهذا كان لوثر معارضًا لمبدأ شن حرب تحت اسم الصليب أو العقيدة المسيحية، من منطلق رسالة المسيح الذى آثر حياة الزهد والمعاناة، من أجل تخليص أتباعه المسيحيين الأتقياء والتائبين، أما إذا كانت هناك ضرورة للحرب من أجل الدفاع عن النفس والوطن، فهى مهمة السلطة الدنيوية أى القيصر والبابا.

يواصل فيبر تعاطفه مع لوثر، ويحاول إيجاد مخرج إيجابى فيقول، إن لوثر لم ينظر إلى النبى محمد كعدو خطير مثل بابا روما، وإنه لا يمثل خطورة للإنجيل باعتبار أنه لا يمثل العدو الأساسى للمسيحية رغم فظاظة سلوكه وشيطنة أفعاله التى يصعب الإيمان بها. فعلى النقيض من ذلك البابا الذى يجلس على قمة تاج المسيحية

---

(١) قارن النص الأصلى:

"Er (der Türke) sey zornig und wuetig als er ymer will, mit allen teufeln dazu, so mus er knecht und diener sein der Christen. Und eben damit zu yhrem besten helffen, damit er sie meynet zu verderben."

المرجع السابق ص٢.

ويكون العدو الأكبر داخل الكنيسة، وأن منصبه قد استخلفه عليه الشيطان، وعلى العكس تماما منصب السلطان التركى، الذى ولاه الله إياه."[١]

ويرى فيبر فى هذه التعبيرات، أن لوتر لم يهاجم محمد أو يضمر عداوة شخصية له، وإنما كان ناقدًا من خلال توجهاته لرسالته وتعاليمه، التى فرغت عقيدته من مضمونها، وهى ألوهية المسيح وبنوته والتثليث وغيرها من أصول المسيحية، والتى يتفق معظم المؤرخين على ذكرها، وفى أنها كانت توحى للوتر بأنها مبادئ منغصة، للسيد المسيح ومملكته، وهى المبادئ التى تكمن داخل قلوب المسيحيين وعقيدتهم.

من هذا المنظور يرى لوتر أن الخلاف العقائدى بين المسيحيين والمسلمين يمكن تناوله بالجدل والحوار على النقيض من استحالة مثل هذا الحوار مع أصحاب الدين اليهودى[٢].

وهذا يعنى أن لوتر أقر نوعًا من القرابة اللصيقة، بين المسيحية والإسلام، وهذا يقدم من وجهة نظره، أساسًا لقيام حوار بين العقيدتين[٣]

---

(١) قارن النص الأصلى:

"Ich halte den Mahmet nicht für den Endechrist, Er machts zu grob und hat einen kendlichen schwartzen Teuffel, der weder Glauben noch vernunfft bekriegen kann." Ganz anders der Papst; der sitzt im Tempel Gottes und betrügt die auserwählten Christen durch subtilen Täuschung: "Aber der Bapst bey uns ist der rechte Endechrist, der hat den hohen, subtilen, schönen, gleissenden Teuffel, Der sitzt inwendig in der Christenheit... Dieser Teuffel betreugt... die auserweleten Gottes", sein Amt ist vom Teufel selbst gestiftet. Das Amt des Sultans dagegen ist weltliche Oberkeit, von Gott eingesetzt“

المرجع السابق، ص٢ .

(٢) قارن النص الأصلى:"es leichter mitt inen wirt zu streiten sein denn mitt den Juden“

المرجع السابق ، ص٣.

(٣) قارن النص الأصلى:

"... deshalb der christlich-isalmische Dialog, so muß das Streiten wohl verstanden werden leichter zu bewerkstelligen ist, scheint sehr schnell vergessen worden zu sein: erst langsam bricht sie sich heute wieder Bahn:

المرجع السابق ، ص٣.

وتبلغ قمة تعاطف لوتر تجاه الإسلام- من منظور إدموند فيبر- فى نقده الشديد لأولى الأمر من رجال اللاهوت والسياسة والعلماء، لقلة معرفتهم بالمسلمين ودينهم، واعترض على الكثير من الأكاذيب التى كانت تلصق أو تقال عن الأتراك، واعتبرها نوعًا من الدعاية لإثارة غضب الألمان عليهم دون وجه حق(١).

وبهذا يقف لوتر من وجهة نظر فيبر، إلى جانب المسلمين وغيرهم من أهل العقائد الأخرى، ضد موجة العداء الغير مبرر من جموع المسيحيين نحو المسلمين وعقيدتهم.

ويختتم فيبر تعاطف لوتر وجنوحه إلى فهم الإسلام فهما أفضل، بأن عقيدة الإسلام يصعب محاربتها، والتغلب عليها بقوة السيف، وإنما تكمن هزيمتها فى مواجهتها بسلاح المعتقد الدينى، وقوة كلمة الله. وهذا يمثل لدى لوتر -كما يعبر فيبر بذلك- القوة الروحية الهائلة لهذا الإسلام، مقارنة بالاعتقاد المسيحى، الذى نخر فيه الوهن والضعف آنذاك، والذى يصعب عليه أن يقف ندا فى هذا الصراع بين العقيدتين.

وينتهى فيبر من عرض توجهات لوتر، بأن يجد له العذر الكافى، فى اعتراضه الصريح عن قلة معلوماته ومعارفه عن هذا الدين، والذى واجهه المسيحيون بأسلوب دعائى صرف، وليس بأسلوب نقدى، وأنه على قدر المعلومات والمعارف التى وقعت بين يدى لوتر جاء نقده للإسلام، والذى كان كثيرًا ما يطوره وفقًا لما يحصل عليه من معارف جديدة لاشك أنها إيجابية، على سبيل المثال مدحه

---

(١) قارن النص الأصلى:

Man könne... lügen von den Türken ertichtet werden, die nur den Zweck haben "uns Deüdschen widder sie zu reitzen

المرجع السابق، ص٣.

• لم يكن هذا تعاطفًا مع الإسلام من وجهة نظرنا، لأن تقييم لوتر النهائى للإسلام كان مبنيا على أنه ادعاءات وهرطقات شيطانية مؤكدا كذب نبى الإسلام (صلى الله عليه وسلم) وإنما ما أظهر رأيه على أنه تعاطف هو أنه لا يرى محاربة الإسلام بالسيف وإنما بالرجوع إلى المبادئ الحقيقية للمسيحية كما يزعم. (المؤلف)

لعديد من الفضائل التى يتمتع بها الأتراك فى تصرفاتهم الدينية والخلقية التى افتقدها عند الكثير من المسيحيين.(١)

ولا شك أن أقواله هذه تعكس جانبًا إيجابيا من نقد لوتر للأتراك، باعتبار أنهم مسلمو هذا العصر مادحًا إياهم، وهو يعظ جموع شعبه من الألمان حين يعتبر الأتراك وسلوكهم كمسلمين يمثلون قدوة طيبة وشجاعة منقطعة النظير، نراها فى خشوعهم وصلواتهم، وجدية وصرامة حياتهم وطاعتهم لسلطانهم وأولى أمرهم، وهى الأمور التى كان يتمناها لشعبه أن يكتسبها ويفعل مثلها.(٢)

وليس معنى هذا أن مارتن لوتر يتعاطف مع الإسلام ولكن معناه أنه يرى أن هـؤلاء الأعـداء المسلمين قد تحلوا بفضائل وصفات يستكثرها عليهم ويتمنى لو تحلى بها أبناء دينه المسيحيين.

٤. ٦. ٥ لوتر وفرانسيس نيجل لى

يعد الدكتور فرنسيس Francis Nigel Lee من كبار العلماء اللوتريين فى العصر الحالى، وخاصة بما كتبه عن علاقة لوتر وصلته بالعقيدة الإسلامية، وهو

---

(١) قارن النص الأصلى:

"bei den Türken viel "feiner tugent" sei; ja, daß das moralische und religise Verhalten der muslimischen Geistlichkeit keinen anderen Schluß zulasse, als "das man sie mcht für Engel und nicht für Menschen ansehen."

المرجع السابق، ص٤.

(٢) قارن النص الأصلى:

"wirstu sehen bey den Türcken nach dem eusserlichen wandel ein tapffer strenge und ehrbarlich wesen: Sie trincken nicht wein, sauffen und fressen nicht nicht so, wie wir thun, kleiden sich nicht so leichtfretiglich und flich, bawen nicht so prechtig, brangen auch nicht so, schweren, und fluchen nicht so, haben grossen trefflichen gehorsam zucht und ehre gegen yhren Keiser und herrn, und haben yhr regiment eusserlich gefasset und ym schwanck, wie wirs gern haben wollten ynn Deudschen landen."

المرجع السابق ، ص٤ .

يشغل أستاذ علم اللاهوت النظامى وتاريخ الكنيسة بكلية اللاهوت بجامعة بريسبان، بولاية كوينس لاند، باستراليا. قدم الدكتور دراسته فى ٣١ اكتوبر عام ٢٠٠٠ بمناسبة يوم الإصلاح تحت عنوان "لوتر والإسلام والبابوية ,,Luther on Islam and Papacy" [١]

يستهل العالم "نيجل لى" عرضه بأن الإسلام عند لوتر كان مجرد نتاج نبع طائفة مسيحية أطلق عليها مسمى الموحدين الآريانيين، وهى الطائفة التى أنكرت عقيدة التثليث وألوهية المسيح، انطلاقا من وجهة نظر مؤسسها أريوس الإسكندرانى، ولم يكن أمام لوتر من مفر، من أن يقر بكفر وإلحاد وحرق آريو والذى اتهم من قبل كنيسة روما بالهرطقة وتم إعدامه عام ٣٣٦م.

يعرض "نيجل لى" لظهور الإسلام عام ٦١٠م ويدعو لوحدة الرأى فى العالم المسيحى، فى الوقت الذى يستأثر فيه بابا روما، باعتباره صاحب القداسة الوحيد واضطهاده لكل من يخرج عن طوعه أو رئاسته وبلغ هذا الاضطهاد قمته فى عهد البابا أنوسنت الثالث، الذى توفى عام ١٢١٦. وكما سبق أن ذكرنا انتشار الإسلام وفتح أكثر من نصف الممالك الأوروبية وابتلاع معظم مناطق الكنيسة الشرقية فى وقت وجيز، وتتكون بالتدريج صورة لوتر عن الإسلام من منطلق ما جاء بكتاب النبى دانيال، والذى كتب لوتر مقدمته عام ١٥٣٠ وذلك عن رؤيا لصورة رجل يمثل أربعة قطاعات تمثل تواريخ متتابعة، لحلم الملك نبوخذ نصر، ويؤول لوتر هذا الحلم على النحو التالى: القطاع الأول الممثل فى الرأس بمملكة بابل وآشور، والقطاع الثانى الممثل فى الأكتاف لمملكة ميديس وفارس، والقطاع الثالث الممثل فى الصدر لمملكة الإسكندر الأكبر واليونان، والقطاع الرابع الممثل فى الساق

---

(١) قارن:
Francis Nigel Lee: Luther on Islam and The Papacy, Brisbane, Queensland, AUSTRALIA – FOR THE Reformatin Day 31:10 2000. http://dr-frnlee.org/

ويعنى به الرومان والتى تمثل نهاية العالم والتى أراد أن يقسمها إلى ثلاثة قطاعات أخرى من الساق: تقسيم أصابع القدم إلى عشر أصابع وهو ما حدث للإمبراطورية من تفتيت دولها فى القرن الخامس الميلادى. ويؤول لوتر تفكك الإمبراطورية بأجزاء اعتراها الضعف ولتنهض ممالك أخرى بهدف الاستيلاء عليها، وهو ما حدث من ازدهار مملكة الأتراك الزاحفة إلى أوروبا، وكان لوتر يرى أن على هذه الإمبراطورية أن تقوم بالدفاع عن المسيح ومملكته فى نهاية الأمر. ويواصل لوتر بذلك تصوره بأن ليس هناك ثمة خلاف بين العدو التركى، وعداوة البابا، فإذا كانت تركيا لا تحترم شعائر موسى من وجهة نظره ، فإن البابا ينتهك على الدوام أسرار القربان المقدس. ويركز لوتر على أن الأتراك أفضل بكثير من البابا وأفعاله، لأنهم لا يرغمون أحدًا على الاستخفاف بالمسيحيين، وأنهم شديدو الإخلاص لعقيدتهم، أما البابا فكانت أعماله، تؤدى إلى ملء جهنم بالمسيحيين. ويمثل البابا للوتر المضطهد للمسيحيين، والصديق المزيف باعتباره فى موقع القمة، وما يمثله من السوء والخزيان. أما العدو التركى، فتأتى عداوته عند لوتر فى المرتبة الثانية، واعتبر مجيء الأتراك وانتصاراتهم فى أوروبا، يمثل عقوبة وغضب من عند الله. لم يكن البابا عند لوتر منشغلاً سوى بجمع إيرادات صكوك الغفران، والإتاوات والهدايا لنفسه ولحاشيته، حتى أنه يروى أن رجل اللاهوت من حاشية البابا كان يبلغ دخله أكثر من عشرة آلاف جولدن سنويا، وهى مبالغ تكفى لإعاشة ملك بحاشيته.

ويركز هذا الباحث على الجانب الآخر، وهو العرض لوجهة نظر لوتر المتعلقة بالأتراك، ويقول إن لوتر كان لا يعتبر محمدًا، العدو الأساسى للمسيح، رغم أنه كان يرى فى محمد إنسانًا فظا وشيطانًا أسود، مثله فى ذلك مثل غيره من الوثنيين والملحدين، الذين يريدون هدم المسيحية من خارجها، ولرفضه الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، وإنكاره لكل أصول المسيحية الخاصة بالغفران والتوبة والخلاص.

فإذا كان محمد قد ارتكب المحرمات، فى أمور الزواج وتعدد الزوجات واقتناء العشرات مما ملكت الأيدى، فإن البابا تجاوز كل هذا وجعل الأعداد الغفيرة من النساء عشيقات له، حتى ولو كن من الغوانى والعاهرات. لقد شبه لوتر العدوين بيأجوج ومأجوج. كان لوتر يواجه هذين العدوين بكلمات الكتاب المقدس النقية والطاهرة وحتى ينال دعم المسيح له من خلال الأخذ بتعاليمه، ومن خلال تحسين سلوك المسيحيين. ورفض لوتر لهذا السبب وجهة نظر البابوية، فى شن الحروب الصليبية باعتبارها حرب عدوانية واستعمارية، وإذا كان لوتر قد سمح بالحرب ضد الأتراك فقد كان ذلك من منطلق أنهم يقومون بالاستيلاء على أراضى الغير، رغم أن مجيأهم هذا كان يمثل غضب الله على المسيحيين.

يذكر هذا الباحث وجهات نظر لوتر فيما يخص القرآن ونبى الإسلام، ويذكر عن لوتر قوله أنه لو أسعفه الوقت لشرع فى نقل القرآن إلى الألمانية رغم رؤيته أنه كتاب ملئ بالزيف والأكاذيب، ويذكر أن هناك مديح جيد من قبل قرآن المسلمين، للمسيح ومريم وأنهما طاهران وبلا خطايا، إلا أنه يعتبر المسيح مجرد نبى كأرميا ويونس ونوح، ثم يدعى محمد لنفسه بأنه آخر مبلغ للرسالات، وبذلك يهدم محمد الإله يسوع ومملكته، مثله فى ذلك مثل البابا، جاء برسالة لتحطيم المسيحية بقوة السيف، فإذا كان البابا هو العدو الأول للمسيح، فإن التركى والمسلم هو الشيطان الأكبر وعلى المملكة المسيحية جمعاء أن تصلى ضد كليهما. وبالغ لوتر فى الكلام عن الحياة الزوجية فى الإسلام وأن الزواج بأى عدد من النساء مرهون برغبة الرجل، فتكون المرأة بذلك مجرد سلعة تباع كقطعان الماشية، رغم أنه لم ينكر أن الأتراك والمسلمين أقروا الإنجيل ككلمة الله التى أوحى بها إلى نبيه عيسى عليه السلام، كما وقروا المسيح وأمه. ولكن محمدًا – من وجهة نظره – كان لديهم أعلى رتبة منه وأن المسيح ليس إلهًا.

وقد تكلم لوتر أيضًا عن وحشية الأتراك فى الحرب، وحث نبلاء الأمة الألمانية على الاستعداد لحربهم، وكان ذلك نتيجة لما حدث من هزيمة للمسيحيين

من الأتراك بالمجر فى معركة موهاكس، والتى قتل فيها ملكهم لويس الثانى فى عام ١٥٢٦ والتى قتل فيها أيضًا أكثر من ١٢٠٠٠٠ من جنود المجر، وكان يرى أن هزيمة الأتراك لن تتم إلا بعون من المسيح ودعمه. فقد رأى أن عداوة البابا للمسيحية كانت عداوة فى صميم روحها، أما عداوة الأتراك فكانت فى صميم جسدها، البابا عدو من داخل الكنيسة والتركى عدو من خارجها. ويذكر لوتر من ضمن ما يذكر بعض فضائل المسلمين وسلوكهم، من خلال مشاهداته للأتراك كعدم شربهم للخمر، التى يرى أنها من أسباب يقظتهم وكسبهم للحروب، ولأن الشراب مفسدة للجسد ومهلكة للأموال. كما أن الأتراك لا يعيشون عيشة الترف التى شاعت فى البابوية، ويميلون إلى الزهد فى المأكل والملبس، ومع هذا لا يتوانى لوتر عن الدعوة لقتالهم والقضاء عليهم، مثلهم فى ذلك مثل البابا فى روما، ويؤلف فى هذا الشأن الكثير من الأناشيد الدينية الحماسية متوجهًا إلى الرب فيها، بدعمه فى محاربة البابا والأتراك اللذين شبههما فى أحد عظاته عام ١٥٤٤ بأن كليهما، ويعنى هنا البابا والأتراك، بالمعلمين غلاظ القلوب يعملان فى مدرسة تلاميذها من الثيران والحمير وهو الأسلوب الذى أشرنا إلى غلظته ورداءته وعنفوانه ولكنها هى سمة العدو فى نظره الذى لم يؤمن بالمسيح.

٤. ٦. ٦ لوتر وباول راجشور

يشغل الباحث "باول راجشور" Paul Rajschaur حاليًا سكرتيرًا للحوار مع أهل العقائد الأخرى فى المؤسسة الدولية اللوترية، بجنيف بسويسرا، وكان قبلها أستاذًا للاهوت النظامى بكلية اللاهوت، جامعة بانجالير بالهند، ويعمل حاليًا أستاذا للاهوت بكلية للاهوت، جامعة أسلو بالسويد.

يركز باول رجاشيكار Paul Rajashekar فى بحثه، عن لوتر وأهم الأبحاث التى أنجزت فى القارة الآسيوية، علاوة على صلة لوتر بالأديان الأخرى

وعلى رأسها الدين الإسلامى وخاصة صورة الإسلام فى العصور الوسطى التى استند إليها فى فهمه لهذا الدين من هذا المنظور وذلك على النحو الآتى(١):

يعرض الباحث هنا عن مجمل الأبحاث التى أنجزت فى القارة الآسيوية عن مارتن لوتر ويرى أنها قليلة للغاية نظرًا لاتساع القارة الآسيوية وقلة عدد المسيحيين من أنصار العقيدة اللوترية باستثناء اليابان والذين يبلغ عددهم حوالى خمسة ملايين إلا أنه رغما من ذلك فقد ترجمت معظم أعمال لوتر إلى العديد من اللغات الآسيوية، ويعرض إلى جوار ذلك أهم الباحثين فى هذا المجال وعلى رأسهم كارل بارنو، إيميل برونر، ورينهولد نيبور، وأنشئت أول بعثه تبشيرية للبروتستانت فى الهند عام ١٩٥٠، بمناسبة مرور ٤٥٠ عام على ميلاد مارتن لوتر، ولم يكن هناك توجهات محددة عند لوتر نحو الديانات فى آسيا، باستثناء دين الأتراك والذى كانت صورته سلبية عنده، ويعرض أيضًا استخدام لوتر لمفهوم الترك، بمصطلح عام وشائع من مصطلحات العصور الوسطى، وهو ما يعتبر مرادفًا فى أيامنا هذه لمصطلح الإسلام والمسلمين. ويمكن النظر إلى توجهات لوتر تجاه الإسلام، من منطلق زوايا سياسية وتاريخية متعددة، ومن خلال وجهات نظره، عند تواجد مملكتين، مملكة الحرب ومملكة السلم، انطلاقًا من توجهاته القومية ومن خلال أفكاره اللاهوتية المرتبطة بالتبرير بالإيمان، من خلال الكتاب المقدس، وبمبدأ التناول، الذى يخبر بظهور الشيطان كعقوبة إلهية فى نهاية الزمان، ضد فساد المسيحيين. وتجمعت كافة توجهات لوتر عن الإسلام مستندة إلى تقاليد طويلة، من تفسيرات العصور الوسطى لدى مسيحى الغرب، وبعض المصادر اللاتينية التى تحدثت عن الفكر الإسلامى، على أنه عقيدة ناجحة، انتشرت فى وقت قصير ومدهش، ومثلث قوة ضخمة لما تضمن محتواها ميراث العلم والفلسفة اليونانية. وازدهرت الفلسفة المدرسية الإسلامية فى الوقت الذى عم فيه الجهل

---

(١) www.tf.uio.no/lo/lck/rajashekar.html , J.P. Rajashekar: Luther and Islam: An Asian Perspective, S. 15

والعزلة لمسيحى الغرب. ويذكر فضل ابن سينا والغزالى وابن رشد، فى تعريف المسيحية ورجال اللاهوت فى هذا العصر بمبادئ الإسلام وقيمه، ومع هذا فكانت نظرة الأوروبيين عدائية للإسلام، كقوة سياسية بداية من الحملة الصليبية الأولى، وحتى فتوحات الإمبراطورية العثمانية فى أوروبا فى القرن الثالث عشر. ويعتبر الباحث توجهات لوتر وأحكامه على الإسلام، من وجهة نظر مبادئه وتعاليمه الاصلاحية، ومن منظور وظيفته، كأحد رجال اللاهوت وتأملاته وقناعته بآراء أسلافه، أمثال روجر بيكون، ويان هوس، وجون سافينيون، وإيرازموس، والذى عارض مثلهم فكرة الحروب الصليبية وفكرة تمويلها من قبل المسيحيين، لأن نصر الأتراك كان بالنسبة له عقوبة من عند الله للغرب المسيحى، وعلى رأسه البابا فى روما وأتباعه، والذى كان يعتبره لوتر أكثر عداوة وضراوة على المسيحيين، من العدو التركى نفسه.

التوجه الثانى للوتر والذى رأى فيه عن قناعة، خطورة الزحف التركى بعد استيلاء الأتراك على بلجراد ١٥٢١، وعلى المجر ١٥٢٦ على يد السلطان العثمانى سليمان القانونى الثانى، وعلى أن يحارب الأتراك بمثل سلاحهم تحت قيادة وريادة القيصر. ومن خلال هذين التوجهين لجأ لوتر إلى دراسة كنه وماهية المسلمين من خلال كتابهم المقدس القرآن، والذى رغب فى ترجمته بنفسه إلى الألمانية، هذه الرغبة التى لم تتحقق. وكتب مقدمة الترجمة اللاتينية المعروفة بترجمة بيبلياندر التى تمت بمباركة بطرس المبجل ١٥٤٣، واشتهرت هذه الطبعة بعد ذلك بطبعة بازل. ويحاول الباحث أن يلفت النظر إلى التغيرَ الطفيف، الذى طرأ على توجهات لوتر بعد تقديمه لترجمة القرآن المشار إليها بما يلى:

"إن الإيمان التركى ما هو إلا ترقيع من اليهودية والمسيحية، وبعض الاعتقادات الوثنية الأخرى، حيث يطلق نبيهم محمد مديحه عن المسيح، وعن مريم والحواريين، وغيرهم من القديسين المسيحيين، وأنهم قد أخذوا رفض شرب النبيذ والخمور والصوم لفترات معينة من العام عن اليهود، وشعائر الاغتسال والوضوء

عن بعض الطوائف النصرانية، وأن الأتراك "المسلمين" يقدسون الأعمال الدينية المقدسة مثل ما يفعل رهباننا، ويعتقدون بحياة أخرى، فى يوم الحساب كما أنهم يؤمنون بالبعث بعد الموت، وهو ما لم يؤمن به بعض الباباوات فى عقيدتنا(١)".

ويلخص الباحث بقية وجهات نظر لوتر عن الإسلام، وفق عديد من الاقتباسات أخذها من بطون مؤلفات مارتن لوتر فى هذا الشأن وعلى رأسها مؤلفه: "عظات ضد الأتراك" و"حياة وعادات الأتراك".

يقدم لوتر فى هذين المؤلفين النقاط الجوهرية التى يرى فيها الخلاف الجذرى بين المسيحية وبين الإسلام، ونذكر على سبيل المثال بعض الاقتباسات التى قال بها لتبين ذلك الخلاف.

فيعرض فى اقتباسه الأول ما نصه: "إن نبى المسلمين محمدا يمدح فى المقام الأول بكل إجلال المسيح وأمه مريم، وأنهم أطهار بلا خطايا، إلا أنه رغم هذا المديح فإن المسيح عنده ما هو إلا نبى مثله فى ذلك مثل غيره من الأنبياء المرسلين كالنبى أرميا والنبى نوح، وبذلك يكون نبى المسلمين قد أنكر بنوة الله لعيسى وألوهيته، علاوة على عدم اعتقاده فى المسيح بأنه مخلص هذا العالم والذى من أجل خطاياه مات بعد أن أتم رسالته.(٢)

---

(١) قارن لنص الأصلى:

" Turk's faith is a patchwork of jewish, christian and heathen beliefs. He (Muhammad) gets his praise of christ, Mary, the apostles, and other sants from the Christians. From the jews he gets abstinence from wine and fasting at certain times of the year, washing like the Nazarites (Num.6:1-2) and eating of the ground. And the Turks perform the same holy works as some of our monks and hope for ever lasting life at the judgment= =Day, for, holy people that they are an, they belive in the resurrection of the dead, though few of papists believe in it."
www.tf.uio.no/lo/lck/rajashekar.html , J.P. Rajashekar: Luther and Islam: An Asian Perspective, S. 15

(٢) قارن النص الأصلى:

"In the first place, he (Muhammad) greatly praises Christ and Mary as being the only ones without sin, and yet he believes nothing more of Christ than that he is a

أما الاقتباس الثانى الذى قال به لوتر فيتضمن "أن محمدًا قد بالغ فى مدحه لنفسه، وأنه قد جاء ليتمم ما جاء به عيسى من قبله وحث العالم على الدخول فى حظيرة الإيمان، حتى ولو اضطر لتحقيق ذلك بالسيف. ولهذا فإن الأتراك المسلمين كانوا يعظمون محمدًا أكثر من تعظيمهم للمسيح الذى انتهت رسالته وتولاها من بعده نبيهم محمد.(١)

أما الاقتباس الثالث والذى رأى لوتر فيه تفريغًا كاملا لما جاء به المسيح: "لقد أنكر محمد أن المسيح ابن الله وأنه مات من أجل خطايانا، وأنه رفع إلى السماء لنكون فى حياة أفضل معه، كما أنكر الإيمان به وبعدله، وأنكر الروح القدس وكل العطايا التى يهبها لنا المسيح.(٢)

---

holy prophet, like Jeremiah or Jonah and denies that he is God's son and true God. Furthermore, he does not believe in Christ as the saviors of the world, who died for our sins, but that he preached to his own time and completed his work before his death, just like any other prophet...

المرجع السابق، ص ١٥.

(١) قارن النص الأصلى:

On the other hand, Muhammad highly exalts and praises himself and boasts that he had talked with God and the angels, and that since Christ's office of prophet is now complete he had been commanded to bring the world to his faith, and if the world is not willing, to compel it or punish it with the word; there is much glorification of the sword in it. Therefore the Turks think that their Muhammad is much higher and greater than Christ, for the office of Christ has come to an end and Muhammad's office is still in force....

المرجع السابق ص ١٥.

(٢) قارن النص الأصلى:

Muhammad denies that Christ is the son of God. He denies that He has died for our sins. He denies that he rose for our life. He denies faith in Him remits sin and justifies us. He denies that His coming judgment of the living and the dead. Perhaps there is a resurrection of the dead, but he believes in a judgment by God. He denies the Holy spirit and His gifts.

المرجع السابق ص ١٥ .

٤٠٦٠٧ لوتر ومؤسسات المجتمع اللوترى

تذكر مؤسسة الدعم المالى للمجتمع اللوترى فى مقال لها بالإنترنت www.lutheramsonline.com تحت عنوان: "السير على درب مارتن لوتر، لوتر والإسلام" والذى نرى فيه توجهات مارتن لوتر وتقديمه للإسلام منذ أن كان شابا ١٥١٨ ، وحتى آخر يوم فى حياته، أن الإسلام ليس سوى عقوبة أنزلها الرب لمملكة المسيحيين، التى عم فيها العفن والفساد والجحود بنعم الله، والتعامل مع جماعات الكفر والمال والجنس، مما أدى إلى تصدع بنيانها وإلحاق غضب الله عليها، ويناشد معلمى ورهبان الكنيسة الألمانية، أن يأخذوا على عاتقهم إيقاظ الوعى الدينى لدى أمتهم، من خلال التقوى وخشية الله، للتكفير عن ذنوبهم.

وكان دائمًا ما يطرح السؤال على نفسه، وعلى أفراد شعبه، عن ضيقه لصبر الرب على استمرار هذا الفساد، والذى سبق له أن عاقب أمة نوح فى القرون الماضية لغيهم وفسادهم، وآن الأوان عليه أن يحمى عزته بهذه العقوبة الممثلة فى الإسلام، التى ابتُلى بها الشعب الألمانى. وقد كان معروفًا أن لوتر ظل طوال حياته أستاذًا بالجامعة ومحاضرًا لطلابه للعهد القديم والجديد، واستقى لوتر بذلك مفهومه عن الإسلام من كتاب النبى دانيال، الوارد بالفصل السابع، والذى يقدم رؤية الملك نبوخذ نصر، ومجملها، وجود حيوانات أربعة تمثل مملكة الإمبراطورية الرومانية. ويذكر هذا المقال الشيق، المكتوب بالإنجليزية محتوى خطاب لوتر إلى الراهب نيقولاوس هاوسمان Nicolaus Hausmann، يضمنه فهمه لمصطلحى يأجوج ومأجوج، وأن المسلمين يمثلون العدو الدنيوى لشعب الله فى المملكة المسيحية، أما البابا فهو العدو الروحى للمسيح والكنيسة. ويوضح هذا المقال رأى لوتر فى الإسلام المأخوذ -من وجهة نظره- عن العقيدة اليهودية والمسيحية وعبادات وثنية أخرى، وهو بذلك يمثل مجرد عمل ترقيعى من كل هذه

الأصول. ويناشد المسيحيين أنه من الحماقة، أن يستبدلوا عقيدتهم التى تمثل عقيدة الأمل فى الخلاص، بنظام دينى آخر ليس فيه الوعد الإلهى، والذى يتضمن عبادات، إن دلت على شيء، فإنما تدل على سوء فهم طبيعة الإله، الذى رفض رسالة المسيح كمخلص ووسيط، مما أفرغ المسيحية من جوهرها. كما أنها مثلت المعارف اللاهوتية فى هذا القرآن، الرافضة لما جاء بالإنجيل[1].

ويبتدع المسلمون إنجيلاً خاصا بهم أسموه القرآن، وهذا يعنى أن المسلمين قاموا بخلق نظام لاهوتى ضد نظام الخلاص المسيحى، والذى يرى فيه لوتر صعوبة فهمه عن طريق الحس البشرى والعقل القاصر عن إدراك مكنونات العقيدة المسيحية. ولهذا اختلفت العقيدة الإسلامية اختلافًا جذريا عن المسيحية، الممثلة فى التثليث والتجسيد. وكل ذلك يمثل نوعًا من الهرطقة، التى أنكرت التثليث وسلب الألوهية عن الرب واختلاق إله جديد، وهذا يعد من عمل الشيطان، الذى دأب على مهاجمة المسيح من منظور ثلاث حجج:

أولها، عدم تحميله موضع الألوهية، وثانيها، عدم تحميله أن يموت إنسانًا، وثالثها، عدم تميزه بصفة الخلاص للمسيحيين.

وهذا يؤدى إلى أن الطعن فى أى جزء، يعنى عدم مصداقية بقية الأجزاء.

ويستكمل لوتر وجهات نظره فى السنوات الأخيرة من حياته، أن المسلمين بقوا على عقيدة النساطرة، والتى تعنى أن المسيح، هو ابن مريم، وليس ابن الله، وأنه نبى مميز، ورجل عظيم بعثه الإله برسالة، أكملها قبل موته، كأى نبى آخر، لكنه لم يكن عظيمًا فى عظمة النبى محمد، الذى استبدل رسالة المسيح برسالته الإسلامية. ومن هنا جاءت تعاليم الإسلام كعاصفة كاسحة ضد ألوهية المسيح.

---

(١) هذا الادعاء من جانب لوتر يمثل دلالة واضحة على عدم استيعابه للمرات العديدة التى ذكرها القرآن بشأن الوعد الإلهى والبشارة بالجنة، وخاصة ما ذكر عن سيد المرسلين عن بعثه بشيرا ونذيرا. (المؤلف)

واعتبر لوتر ذلك حجر عثرة عند المسلمين تجاه بنوة الله للمسيح وجعله كلمته، وأنه أراد أن يجعل له إلهًا غير المسيح، باحثين عنه فى السماء دون جدوى.

ويواصل لوتر رأيه فى العقيدة الإسلامية بأنها العقيدة التى ترى – من وجهة نظره- إغفال دور السلطة الدنيوية[١]. فالمسلم لا يهمه كحاكم المحافظة على المال والعرض ومعاقبة الأشرار ومستغلى السلطة، بقدر ما يدعو إلى القتل والتدمير لأرواح البشر، من خلال تعليمات القرآن، وتدميرهم جسديا وروحيا، من خلال أكاذيبه واحتقاره لمسائل الزواج والنساء.

ويواصل لوتر عظاته ونصائحه، التى يمجد فيها المواطن المسيحى باعتباره المواطن الأول، لأنه لا جدوى من أن يحارب هذا المواطن المسلمين بقوة السيف، وإنما بقوة الكلمة والتقوى، الأمر الذى لم تأخذ به الكنيسة الرومانية.

أما فيما يخص الحروب الصليبية، فقد اعتبرها لوتر نوعًا من الخلط بين السلطة الدنيوية والدينية، وكانت سببًا فى غضب الله على المسيحيين بنصر الإسلام والمسلمين، ونادى بحرب المسلمين-إذا كان لا مفر من حربهم- من خلال الرجوع عن ارتكاب المعاصى، وتوقير الرب وكلمته، لأن لوتر اعتبر الألمان ممثلين لصوت الله، وأنهم منوط بهم هذا الواجب. كما كان يرى أن قرار شن حرب على المسلمين، هو أمر يخص القيصر، كارل الخامس، فهى مهمته الموكلة إليه من الرب، لحفظ رعيته والدفاع عنهم. وهنا تكون الحرب مشروعة، إذا جاءت بأمر من القيصر وتحت لوائه، وعلى كل أفراد الرعية طاعة ذلك، لأن طاعة القيصر من طاعة الله والعكس.

---

(١) هذا الادعاء اللوترى يمثل قصورًا لفهمه للعقيدة الإسلامية وإلقائه التهم جذافا، فكيف كان الإسلام مغفلا لدور السلطة الدنيوية، فالمعروف عن الإسلام هو توازنه بين الدين والدنيا وبين الدين والسياسة. ومعروف للقاصى والدانى أن الإسلام دين ودولة وأنه أمر بالمحافظة على العرض والمال لانهما يعدا فى الإسلام من الكليات الخمسة الأساسية التى أمر الإسلام بالمحافظة عليها.

وينتهى هذا المقال بإدانة مسيحى أوروبا عامة، وألمانيا خاصة، لأنهم يعيشون حياة فاسدة، ولا يشكرون نعم الله عليهم. ولهذا جاءت عقوبتهم بانتصار الإسلام، الأمر الذى يعنى من وجهة نظر لوتر، تحطيم عقيدة الناس وتفريغ المسيحية من مضمونها، وعلى رأسها تحطيم المسيح ذاته. ولهذا يناشد السلطتين أن يحاربوا بكلمة الرب، حتى يكونوا كفئًا وندا لهذا العدو المسلم.(١)

٤. ٦. ٨ لوتر وجيرنوت روتر

ونختتم هذه التوجهات التى أدلى بها البعض من علماء الغرب المسيحى بمقال نرى فيه توازنًا وموضوعية، قلما نجدها عند الكثيرين صاغها صاحبها فى قالب أدبى، وهو السيد "جيرنوت روتر، Gernot Rotter الأستاذ بجامعة هامبورج تحت عنوان: "الإسلام والغرب – التقارب المفقود(٢) " Islam und der Westen. Die verlorene Nähe"

وقد سبق لنا التنويه عن هذا المقال فى مقدمة الكتاب لما به من إيجابيات تعرض مباشرة صور العداء المتواصل، التى يتبناها الغرب تجاه الإسلام والعرب والشرق عمومًا. فماذا يقول:

– "أهل الغرب هم أهل الخير والعطاء، أما الآخرون فهم الأشرار والأعداء."
"Die Guten sind wir- die Bösen, der Feind jeweils die anderen".

– "تبنى الغرب مقولة صدام الحضارات، التى قال بها صامويل هانتنجتن Samuel Hantington، والتى ستقود دون أدنى شك لحرب ضروس، بين حضارات الغرب والشرق وخاصة بين الغرب والإسلام"

---

(١) مزيد من التفصيلات انظر: www.lutheramsonline.com
(٢) قارن : – Rotter,Gernot: Islam und der Westen – Die verlorene Nähe
http://stud-www.uni-marburg.de/~Alm.htm

"Künftige Konflikten zwischen den großen Kulturräumen, vor allem zwischen den islamischen und den westlichen Raum".

– اعتقاد المسيحيين فى الشرق والغرب أن الإسلام ما هو إلا لون جديد من المسيحية.

"der Islam sei eine neue Variante des Christentums."

– تقييم وسائل الإعلام فى الغرب للحرب الأهلية فى لبنان، بأن وراءها المسلمين اليساريين ضد المسيحيين اليمينيين.

"der Bürge Krieg in Libanon sind die Moslems die Linken und die Christlichen die Rechten ."

– المسلمون الأصوليون مقبولون فى السعودية، ولكنهم مرفوضون فى إيران.

"Die guten Fundamentalisten sind die guten in Saudie Arabien und die bösen in Iran."

– ثلاثة صدامات عسكرية تبرز صورة عداء الغرب تجاه الإسلام:

١. معركة توروبواتيه عام ٧٣٢ م والتى أنقذ فيها كارل مارتل الغرب، من شرور المسلمين. Carl Martell und Schlacht Tours und Bouaters

٢. الحروب الصليبية التى لم يعد لها فى الوقت الحالى البريق الكافى للانتصار المسيحى على المسلمين، ولكن تبقى مرارتها فى حلوق أهل الغرب، بعد فقدانهم مدينة القدس الشريف على يد صلاح الدين الأيوبى.

٣. إيقاف الزحف التركى على وسط أوروبا والبلقان من قبل الأمير أويجن Prinz Eugen.

- الادعاء الباطل بأن الإسلام انتشر بالحديد والنار، وأن المسلمين معتدون ومجرمون ويمثلون خطرًا على الحضارة الأوروبية، وهي الصورة التى انطبعت لدى الغرب منذ العصور الوسطى، ولطوال أربعة عشر قرنًا من الزمان.

- اتهام الغرب للإسلام بأنه دين عدوانى، الأمر الذى تدحضه الوقائع والأحداث التاريخية، بداية من الحروب الصليبية، ثم طرد واضطهاد اليهود والمسلمين، بل وتقتيلهم حرقًا فى إسبانيا، وفرض السيطرة على العالم العربى، وتأسيس دولة إسرائيل تحت زعامة أمريكا، بهدف استغلال ثروات المنطقة ونهب نفطها، من خلال تثبيت حكومات مطيعة للغرب، حتى ولو أدى الأمر إلى التدخل العسكرى، مثل ما حدث فى حرب الكويت والعراق وحروب التطهير العرقى فى البوسنة وفلسطين.(١)

- التفكير العقلانى عند الغرب، والعاطفى عند المسلمين، يؤدى إلى مزيد من القلق والخوف تجاه فقدان الهوية بين كلا الطرفين.

- تصوير الإسلام للمرأة من تعدد للزوجات، والكلام عن الحور العين بالجنة، يقدم الإسلام على أنه دين شهوانى جنسى، الأمر الذى ما زال يستمر الاعتقاد به حتى العصر الحاضر، ولننظر إلى مصطلح كلمة حريم. والرد على ذلك الادعاء، أن الإسلام يفضل كقاعدة عامة، الزواج بواحدة، أما التعدد فهو الاستثناء.(٢) وهذا ما نجده فى الآية الكريمة من سورة النساء:

" فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة" (الآية٣)

"Wenn ihr aber befürchtet, nicht gerecht zu handeln, dann (nur) eine ..."

---

(١) تواصل أمريكا هذا المسلسل من خلال الحرب فى أفغانستان والعراق مخفية نواياها الإمبريالية بحجة القضاء على الإرهاب، علاوة على تهديدها لدول أطلقت عليها دول محور الشر إيران، وكوريا الشمالية...(المؤلف)

(٢) قارن النص الأصلى:

Die Einehe bildet die Regel, die Mehrehe bildet die Ausnahme.

فهل حان للغرب أن يفهم ذلك؟! للأسف لا، بل وحاول مواصلة عدائه وهجومه على المرأة المسلمة، ضاربًا المثل بذلك الكتاب المشبوه، الذى تحول إلى فيلم سينمائى للسيدة، بيتى محمودى، "ليس بغير ابنتى[1]" " Nicht ohne meine Tochter"، والذى أصبح يمثل نمطًا إكليشيا لدى الغرب، وليكون ستارًا لإخفاء عورات نسائهم فى الغرب، وما هو متفش بينهم من فساد ودعارة وانحطاط خلقى، الأمر الذى يراه المسلمون نوعًا من الإهانة والتحقير للمرأة فى الغرب.

- يواصل العداء الغربى تجاه الإسلام والممتدة جذوره لأكثر من ألف عام مضت، ونادرًا ما يطفو على السطح أصوات قليلة، تنادى بحوار سلمى بناء بين الحضارتين، وإن حدث ذلك فإنما يكون من باب الاستثناء من بعض دوائر المثقفين العقلاء، وخاصة أولئك الذين أبرزوا دور الحضارة العربية فى العصور الوسطى.

- سقوط القلعة الحصينة المتمثلة فى مدينة عكا عام ١٢٩١ فى أيدى المسلمين، وخروج الصليبيين منها مدحورين، أدى إلى تخفيف وضعف حدة الصراع لفترة غير طويلة، بين أوروبا اللاتينية المسيحية، وبين العرب الملقبين بالساراسينيين (المسلمين)، ويسود من جراء ذلك نوع من ازدراء وإهمال الثقافة العربية إبان عصر النهضة، التى قامت على أسس الحضارة اليونانية والرومانية.

- بعد فتح المسلمين للقسطنطينية فى القرن الخامس عشر وزحف الأتراك على أوروبا، يعاد سيناريو التهديد الإسلامى، الذى أدى بالمصلح مارتن لوتر أن يبرز هذا التهديد بين ضفتى كتابه الذى ألفه عام ١٥٤١: "عظات الصلاة ضد

---

(١) كتاب "ليس بدون ابنتى"Nicht ohne meine Tochter" يتضمن رواية أدبية وتحولت إلى فيلم سينيمانى للأديبة الأمريكية "بيتى محمودى" Betty Mahmoody، صاحب نشر الكتاب ضجة واسعة فى نهاية ثمانينيات القرن العشرين فى عالم الغرب، ويعرض لقصة زوجة أمريكية سافرت مع زوجها الإيرانى الجنسية فى زيارة لأهله بمدينة طهران، وهناك يتغير سلوك الزوج ويسىء معاملتها مما يجعلها تفكر فى تدبير خطة للهروب إلى بلدها مع ابنتها. عرضت الكاتبة لكثير من الأمور الدعائية المشوبة بالسطحية وعدم مطابقتها لواقع المجتمع الإيرانى وحضارته وعاداته وتقاليده، مرتكزة فى ذلك الى موجة الكراهية الأمريكية للمجتمع الإيرانى بعد الثورة الإسلامية، الأمر الذى حدا بكثير من القراء أن يحكموا على الكتاب بأنه يمثل سلسلة من الأساطيروالأغاليط غير الموجودة فى المجتمع الإيرانى. (المؤلف)

الأتراك"، والذى يقول فيه "إن الإسلام هو العدو الخارجى، أما البابا فهو العدو الداخلى".

– مع ظهور فكر التسامح فى عصر التنوير، وتجليات الفكر الرومانسى وازدهار علوم الشرق، تغيرت حدة العداء وتحولت إلى لون من المهادنة والتصالح، وإلقاء بعض الإشعاعات الإيجابية على العقيدة الإسلامية، فيكتب الفيلسوف الألمانى ليبنتس Leibnitz عام ١٧١٠ "نظرية العدالة الإلهية"، وأن محمدًا لم يبتعد فى ما جاء به عن التعاليم الأساسية الكبرى للدين، وقد تنامت أعداد أتباعه بين شعوب آسيا وإفريقيا، الأمر الذى عجزت أن تحققه المسيحية"، لقد قضى المسلمون فى البلاد التى فتحوها على كافة ألوان الإلحاد. ويجيء الأدب الكلاسيكى ممثلا فى ليسنج وجوته وروكرت، عارضين لوحات إيجابية عن الإسلام والعرب.

– رغم النجاح الشعبى والجماهيرى الذى لقيه الأديب الألمانى كارل ماى فى وطنه، وفى الغرب، لتقديمه صورة مغلوطة عن الإسلام والعرب، دون سابق معرفة بهم، مقدما إياهم على أنهم أشخاص سذج أغبياء بدائيين ومتوحشين، فى مقابل تحضر ومدنية الغرب، ممثلا فى شخصية الألمانى الآرى، كارا بن نمسى، Kara bin Nemsi والذى رفع عظمته إلى عظمة المسيح، وهو الأمر الذى سلكه نابليون بونابرت فى غزوته على مصر والشرق، كرسالة وكواجب تبشيرى لتحضير وتنوير شعوب الشرق.

– استمرار ادعاء التفوق لدى الغرب أثناء الاستعمار المدعم بالسلاح والتكنولوجيا حتى يومنا هذا.

– محاولات مضادة من قبل أهل الشرق والمسلمين للوقوف على أقدامهم عن طريق اللجوء لدعم دول المعسكر الشرقى السابق لهم كى يمدهم بالسلاح الضرورى للدفاع عن أنفسهم أو التوصل لتصنيع القنبلة الذرية الإسلامية أو نزوح

العديد من المسلمين إلى دول الغرب فهى كلها من الأمور التى أدت إلى ازدياد العداء تجاههم من قبل الغرب.

- استمرار العداوة من قبل الغرب للمسلمين، تحت رموز أخرى مثل منع الحجاب عن المسلمات، على اعتبار أنه رمز من رموز الدين الإسلامى. أو توتر العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، وأزمة الهويات الحضارية القادمة من الغرب، التى لم تجد القبول لدى المسلمين، مما يزيد العداوة بين كلا الطرفين، ووصف الإسلام بالرجعية والأصولية المتشددة، الأمر الذى حدث واستمر لأكثر من ألف عام.

- يختتم جيرنوت روتر ملحمته هذه، بالإشارة إلى هدف كان قد وضعه الأسقف بطرس المبجل، رئيس أساقفة دير كلونى، Coluny والذى أقدم على تشجيع أول ترجمة للقرآن بهدف مناهضة الإسلام ودحضه وتبيان مساوئه، من خـــلال محتواه، الأمر الذى كان يمثل خطوة تقدمية شجاعة يخاطب فيه المسلمين بما يلى:

"إننى أهـــاجمكم – ليس كمـــا يفعل بنى جلدتى بســـلاح السيف والمـــدفع، بل أهاجمكم بسلاح العقل والرشد، وليس بسلاح الكراهية، بل بالحب والمودة". ويعلق روتر على أن الأمر لو استمر فى هذا الاتجاه، لتحقق المزيد من التآلف بين الحضارات والثقافات ولما كنا وصلنا إلى ما نحن عليه الآن.

ولعلنا نضيف توضيحًا لما قال به روتر فى مقولاته هذه، قد يفهم من بين السطور. فحينما بدأ المسيحيون بطرد واضطهاد المسلمين من إسبانيا عام ١٤٩٩ لم يتورع الجنود الإسبان، عن قتل آلاف المسلمين فى غرناطة وغيرها، بل وحرق الآلاف من كتب التراث العربى والإسلامى. وحـــدث آخـــر أشد ضراوة من ذلك لم يشأ روتر أن يذكره، وهو ما صرح به القائد الأعلى لقوات حلف الناتو، الجنرال

جون جالفين John Galven ، حينما كان يودع قوات الحلف بمدينة بروكسل قائلا ما نصه: "إننا (الغرب) قد كسبنا الحرب الباردة بعد سبعين سنة من الصراع، والآن علينا أن نواجه محور الصراع الأساسى الذى استمر تجاهنا لأكثر من ألف وثلاثمائة عام، وهو الصراع الكبير ضد الإسلام. "إنها العبارة التى وجدت انتشارا سريعا فى إعلام الغرب، مدعمة بشبح الإسلام الجاثم على أوروبا الذى يمثل بالنسبة لهم ما أسموه بالخطر الأخضر(الإسلام وأتباعه)، بعد زوال الخطر الأحمر (المعسكر الشيوعى ودوله)[١]، وهو الأمر الذى علق عليه الكثير من أهل السياسة، أن أوروبا وأمريكا يبدو أنهما لا تستطيعان أن تعيشا دون أن تصورا لنفسيهما عدوا، عليهما مواجهته، وحينما تنتهيان من الخلاص، من صراع ما، تكونا قد فقدتا أهميتهما، فسرعان ما تسعيان دون توقف للبحث عن صراع وخطر جديد.

ولعل الدراسة التى قاما بها كل من الدكتورة لطيفة إبراهيم خضر[٢] فى كتابها "الإسلام فى الفكر الغربي" والسيد إبراهيم نافع[٣] رئيس تحرير جريدة

---

(١) قارن: Schweizer, Gerhard: Islam und Abendland – ein Dauerkonflikt, Stuttgart, 1995, S. 9

(٢) قارن لطيفة إبراهيم خضر: الإسلام فى الفكر الغربى ، ط١ القاهرة ٢٠٠٢
تعرض الباحثة فى دراستها هذه لأطروحة فرنسيس فكوياما الخبير بمركز بحوث الخارجية الأمريكية عن نهاية التاريخ ورفض الدين وقيوده وأطروحة صمويل هانتنجتون أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفرد عن صدام الحضارات والتى كشفت الحقد الغربى الدفين ضد الإسلام وحضارته (ص ٢٦، ٧٧ وما بعدها) وتذكر الباحثة الكثير من تصريحات قيادات الغرب المحمومة للقضاء على الخطر الأخضر الذى حل محل الخطر الأحمر، ولا مفر عندهم من تحقيق ذلك إلا بحرب دينية تهدم فيها مكة ويدمر الحجر الأسود ويذهب المتطرفون المحمديون إلى الجحيم بداية من ريتشارد نيكسون وهينرى كسنجر ومارجريت تاتشر وفرانسوا ميترا وكثيرين غيرهم. (ص ٨٠ وما بعدها)

(٣) قارن إبراهيم نافع: جنون الخطر الأخضر وحملة تشويه الإسلام ، ط١ القاهرة ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
ويعلق الباحث على تصرفات قيادات الغرب على مدى التاريخ بداية من الحملات الصليبية التى وعدت المتطوعين فيها بالغفران فى قتالهم ضد الملاحدة المسلمين وهى بذلك تمثل تصرفات محترفين وتنم عن ثقافة وتقاليد راسخة هدفها القضاء على عقيدة المسلمين الدينية الخاطئة وتنصيرهم بكل وسائل التبشير ويتبن ذلك بكل وضوح فى تعامل الغرب مع شعوب العالم الإسلامى معاملة تتسم بالدونية والبربرية من منظور أنها شعوب قاصرة بيولوجيا وفكريا وغير ناضجة فى أن تدير أمورها بنفسها (ص ٢٦، ٤١،٥١). هذا ويواصل الباحث فى إظهار وكشف محاولات الغرب الرامية إلى إسلام معدل من وجهة نظرهم وذلك من خلال تعديل مناهج التعليم الدينى والزعم بأن كل مسلم هو إرهابى بتحريض من دينه

الأهرام القاهرية لخير دليل على ترويض وإخضاع العالم الإسلامى، وذلك بفرض نموذج سياسى واقتصادى واجتماعى معين عليه.

نكتفى بهذا كختام لسلسلة الأبحاث والمقالات التى أدلى بها علماء الغرب فى هذا الشأن، ونعرض فى إيجاز لأهم المؤلفات العربية أو المترجمة من لغات أخرى إليها.

وعقيدته (ص ٥٧). ويواصل الباحث ذكر العديد من هذه المحاولات التى تهدف إلى تشويه سمعة المسلمين وزعزعة إيمانهم بمعتقادتهم وإشعارهم بالدونية، وتبلغ قمة هذا التعصب الممقوت أن تنشر صحيفة أمريكية رسمًا كاريكاتيريا يصور نبى المسلمين يجر سيارة محملة بالقنابل ص(٩٠).

٧ • ٤ دراسات استهلالية لبعض علماء المسلمين

نود الإشارة فى هذا الصدد أن هناك العديد من المصادر والمؤلفات التى عرضت لحركة الاصلاح الدينى قد صدرت باللغة العربية، إلا أن غالبيتها أُلفت من قبل رجال الدين المسيحيين، وتضمنت فى معظمها عروضًا مسهبة عن سيرة وحياة هذا المصلح الكبير، وأهم القيم والتغييرات الجذرية التى أحدثها فى العقيدة المسيحية، ومن قراءاتنا لهذه المؤلفات، وجدنا أن معظم مصادرها أُخذت عن الإنجليزية أو الفرنسية، والنادر منها ما أخذ عن اللغة الأم لمارتن لوتر، ونعنى بها الألمانية. هذا من جانب. ومن جانب آخر، أن معظم هذه المؤلفات أغفلت – من وجهة نظرنا– أمرين: الأول المتمثل فى الإسهام اللغوى، ودور اللغة وقوتها، والتى كانت سلاحًا داعمًا، لنجاح حركة لوتر الإصلاحية. والثانى هو تجنب ذكر انشغال هذا المصلح بالعقيدة الإسلامية، عقيدة الأتراك المهددين لوطنه وعقيدته. رغم أن هذا الانشغال لدى لوتر كان من القضايا المركزية التى أثارت اهتمام هذا المصلح والتى عرضنا لها فى مواضع سابقة وسنعرض لها بمزيد من التفصيلات على الصفحات التالية.

و كما ذكرنا سالفًا نؤكد القول بأن ما وقع تحت أيدينا من مصادر كتبها علماء مسلمون، عن حركة الإصلاح وزعيمها مارتن لوتر مازالت – من وجهة نظرنا – محدودة للغاية، وأهمها:

- مقال الدكتور حسين مؤنس المنشور فى كتابه: "صور من البطولات العربية والأجنبية" تحت عنوان: "راهب يهز الدنيا".
- "رسالة التوحيد"، الإمام محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) تحقيق الدكتور محمد عمارة.
- كتابا الدكتور السيد الشاهد "الخطاب الفلسفى المعاصر(من العام الى الأعم)" و"المسيحية والإسلام، من الجوار الى الحوار".

- كتاب الدكتور محمد خليفة حسن "تاريخ الأديان".
- كتاب الدكتور جاد طه: "ألمانيا إلى أين المصير"، رقم ٥٥٧ من سلسلة إقرأ.
- كتاب الشيخ محمد أبوزهرة محاضرات فى النصرانية.
- كتاب الشيخ أمين الخولى "صلة الإسلام بإصلاح المسيحية".

٤. ٧. ١ دراسة الدكتور حسين مؤنس

يرى الدكتور حسين مؤنس فى مقاله المشار إليه، أن لوتر كان رجلا أقرب إلى أن يكون وليا من أولياء الله الصالحين، وأن إيمانه لم يكن مقصودًا به خداع الناس، وإنما كان حربًا على الفساد والمفسدين، وتجلت عظمته فى كونها ليست فى حاجة إلى تأكيدها، أو البرهان عليها، لأنها برهان نفسها وإعلان جلالها، بما تركته من أثر فى حياة الملايين من البروتستانت وما قدمته من فكر ساهم فى تحرير العقل البشرى فى هذا العصر[1]. وعلى هذا النسق يواصل كاتب هذا المقال عرض حياة وسيرة هذا الراهب، معددًا جهاده المتواصل ومعاناته مع أصدقائه وأعدائه على السواء، بصورة إيجابية لم يكتب مثلها من الأوروبيين حتى من أقرب الناس تعضيدًا وتأييدًا له. كان يرى فيه شجاعة وجرأة فى الحق، ومتصديًا لأكبر قوة عاتية، ممثلة فى البابا وكل رجال اللاهوت الممثلين له، ونادى بتوجهات مثلت الأساس لهدم سلطان البابوية، جاعلا صلته بذلك بالله مباشرة ودون وسيط، معتبرًا أن ما تفعله البابوية فى روما من فرض لصكوك الغفران، وإهداء الشموع، وتقديس مخلفات الرسل، على أنها عقبات تحول بين الإنسان وخالقه، وأن الإيمان

(١) قارن: حسين مؤنس، صور من البطولات العربية والأجنبية، القاهرة ط١ ١٩٩٢، ط٢ ٢٠٠٠ ص ٢١٣ وما بعدها.

بالله وحده هو سبيل الرحمة والمغفرة، التى هى الجزاء الأوفى للمؤمن، ويكون البابا بذلك وكنيسته خارجين عن الدين.

ويواصل صاحب المقال عرض إنجازات هذا الراهب البسيط، الذى نشأ فى مدينة صغيرة فى ألمانيا أيسليبن، ويتوج هذا الإنجاز للوتر فى زعزعة الكنيسة الكاثوليكية بأجمعها والبابوية بجلالها.

ولا يغفل هذا المقال فى مدحه لهذا الراهب، أن يذكر إيقاظه للوعى الوطنى الألمانى، وأنه قاد أمته الألمانية إلى تحقيق حلمها القديم، وتخليصها من استبداد باباوية روما وتسلطها. ويشحذ قلمه بكتاباته التى عمت أرجاء ألمانيا كلها وعلى رأسها: "حول حرية رجل مسيحى"، و"خطاب إلى نبلاء الشعب الألمانى المسيحى"، و"مدخل فى الأسر البابلى للكنيسة". وكان ميدان تدريس ونشر هذه المؤلفات الوطنية جامعة فيتنبرج، والتى أصبحت تمثل مركزًا مهما لتعاليم لوتر ودراستها، متحدية بذلك التعاليم القديمة، التى كانت تضطلع بها الجامعات القديمة مثل جامعة السوربون. وجاءت جماهير وطلاب العلم من كل صوب وحدب ليتلقوا أصول الدين عن مارتن لوتر وزملائه، وليخرج من رحابها العديد من المؤلفات لدعم هذه العقيدة الجديدة وتنمية الشعور القومى الألمانى.

يختتم الدكتور مؤنس مقاله الذى يمثل ترنيمة غنائية عن نجاح حركته الإصلاحية، والتى ارتكن فيها إلى ثلاثة محاور يسَّرها له الله سبحانه وتعالى، وهى وجود حماية له من قبل ولى الأمر، ووجود عدد من الأصدقاء المخلصين له، المدعِّمين لفكره، وأخيرًا وجود الميدان الخصب لفكره ودعوته. وجاءت حماية ولى الأمر له، ممثلة فى كنف أمير سكسونيا فريدريش الحكيم، الذى تعاطف معه ولم يسلمه لأعدائه المغالين فى الضلال، وفى إنشائه لجامعة فيتنبرج، والتى كان لوتر أحد أساتذتها. أما الأصدقاء المخلصين، وكان على رأسهم أستاذه ومعلمه، فيليب ميلانكتون، أستاذ اليونانية بجامعة فيتنبرج، ومؤلف كتاب الأسس القويمة للكنيسة Luci communis، والذى كان عونًا كبيرًا للوتر فى ترجمة الإنجيل إلى

الألمانية[1]. أما الميدان الخصب فكان ممثلا فى جامعة فيتنبرج، والتى أُلِّفت فى رحابها الكتب الكثيرة المؤيدة للعقيدة الجديدة، ووُلِد تحت سقفها الشعور القومى الألمانى، وظهرت أوائل الكتب باللغة الألمانية.[2]

يأخذ الدكتور مؤنس على لوتر موقفه الغريب والمستهجَن تجاه مطالب الفلاحين العادلة، والتى نادوا بها فى ثورتهم ضد حكامهم من النبلاء والأمراء، واعتبر أن هذا الموقف من الأخطاء التى لا تغفر له، لأنه بموقفه هذا يكون قد ساعد على انتصار الأمراء وسيادة إقطاعيات العصور الوسطى على البلاد، والتى لم تستطع التخلص منها إلا خلال الحرب العالمية الأولى. رغمًا من ذلك فإن الدكتور مؤنس يحاول أن يبرر خطأ لوتر هذا وانضمامه إلى الأمراء من منظور أنه كراهب يجهل الكثير من أسرار السياسة وتطور تاريخ الأمم، إلى جانب أنه كان يكره الثورات وسفك الدماء، وكان لا يرغب أن تصبح حركته الإصلاحية البروتستانتية مرادفة للفوضى. ولعل الأمر الجدير بالذكر هنا أن الدكتور مؤنس استقى معلوماته فى هذا المقال عن مصادر ألمانية، وهو أمر يحسب له فى أنه أخذ المعلومة من مصادرها الأولى، خلافًا لما درج عليه رجال اللاهوت المسيحيين، الذين كانت معظم مصادرهم غير ألمانية، وقد عرضنا ذلك بالتفصيل فى الفصول

---

(١) يذكر الدكتور حسين مؤنس فى مقاله حديثًا عن لوتر يصف فيه نفسه مقارنة بهذا الصديق: "كنت جلفًا كثير الضوضاء تثور فى نفسى العواصف وأتشوق إلى الكفاح تشوقًا، وقد برأنى الله على طبع كفيل بأن يعيننى على حرب عدد لا يحصى من الجبابرة والشياطين، وأن أقتلع الجذور والأحجار، وأن أجتث الشوك والقتاد، وأن أزيل أشجار الغابات الواسعة، ولكن الأستاذ فيليب أقبل على رقيقًا عطوفًا مستبشرًا بما وهبه الله من صفات أفاض الله خيراتها عليه..." ص٢٢٢.

قارن:

Zitelmann , Arnulf : Ich , Martin Luther- Starke Sprüche über Weiber, Fürsten,Pfaffen undsoweiter ,Frankfurt / Main 1982, Kap. eins :„ Ich muss die Klötze und Stämme roden, Dornen und Hecken weghauen, die Pfützen ausfüllen und bin der grobe Holtfäller, der die Bahn brechen und zurichten muss."

(٢) قارن: حسين مؤنس، صور من البطولات العربية والأجنبية، القاهرة ط١ ١٩٩٢، ط٢ ٢٠٠٠، ص٢٢٢.

السابقه من الكتاب وهى المصادر التى تتناول أحداث حركة الإصلاح الدينى بوجه عام.[1]

وكان على رأس المصادر التى أخذ منها الدكتور مؤنس والتى ذكرها فى نهاية المقال المشار إليه.[2]

ونكتفى بهذا القليل من الكثير الذى عرض له هذا المقال، والذى يعطى القارئ بكافة تفصيلاته صورة إيجابية بهيجة لا تحتاج إلى تعليق، غير إضافة ما وقر فى عقل وقلب، كاتب المقال من موضوعية وحيدة ونقاء سريرة وصفاء نفس تجاه هذا المصلح، وما قدمه من اجتهاد والذى يراه الإنسان المسلم من منطلق عقيدته أنه حتى فى حالة الخطأ يثاب بأجر، وإذا أصاب فيضاعف له هذا الأجر.

---

(١) نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- الدكتور القس فايز فارس: "أضواء على الإصلاح الإنجيلى"، القاهرة، ١٩٨٤.
- موريسون: "حياة لوتر"، والذى قام بترجمته القس "باقى صدقة"، القاهرة ١٩٧٧.
- الدكتور القس حنا جرجس الخضرى: "المصلح مارتن لوتر- حياته وتعاليمه"، القاهرة، ١٩٧٧.
- ألن هوايت: "الصراع الكبير"، وترجمه إسحق فرج الله، ونقحه أنطوان عبيد، ط ٣، بيروت، ١٩٧٧. (طبع من هذا الكتاب عشرون مليون نسخة)

ويؤخذ على هذه المصادر ، أنها أغفلت كلية صلة مارتن لوتر وحركته الإصلاحية بالإسلام، ولعل فى هذا الإغفال ما يبرره من منطلق معتقدهم الراسخ الذى سبق أن أشرنا إليه، وهو عدم إقرارهم بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام وبعقيدته. (المؤلف)

(٢) قارن: حسين مؤنس:

Berger, A.E: Martin Luther in kulturgeschichtlicher Darstellung, 2 Bände, Berlin, 1895
Enders, L.: Dr. Martin Luther – Briefwechsel, 5 Bände, Frankfurt und Stuttgart, 1884-93
Kolde, Th.: Martin Luther. Eine Biographie. Gotha, 1884-93
Kostlin, J.: Martin Luther. Sein Leben und seine Schriften, 2 Bände, 1875
Lang, H.: Martin Luther. Eine religiö.se Charakterbild, Berlin, 1890

٤. ٧. ٢ دراسة الدكتور محمد خليفة حسن

نعود الى ما عرض له بعض العلماء الباحثين من المسلمين، وهو يمثل فى هذا الميدان الواسع نقطة من بحر. ونواصل عرض الدراسة التى اضطلع بها الباحث الدكتور محمد خليفة حسن، أستاذ تاريخ الأديان، بجامعة القاهرة فى كتابه: "تاريخ الأديان- دراسة وصفية مقارنة". فبعد دراسة وعرض مستفيضين لأديان العالم التوحيدية وغير التوحيدية، يبلور آراء مارتن لوتر الإصلاحية وعلاقتها بالإسلام فى النقاط التالية:

١- الاعتقاد برمزية التعميد والعشاء الربانى انطلاقًا من مقولة التبرير بالإيمان، أى أن الإيمان وحده هو وسيلة الخلاص.

٢- منع الوساطة الدينية بين الإنسان والله ودحض دور القس أو الكاهن فى قيامه بدور الوسيط، انطلاقًا من عدم قدرته على التأكد من توبة وندم الخاطئ.

٣- اعتبار القداس عقبة أمام الإيمان الذاتى حتى أنه جاهر بإلغائه، كى تزول أية وساطة بين الله والناس عدا وساطة المسيح.

٤- الله وهب الخاطئ نعمة الصفح وجعله عضوًا فى كهنوت كل المؤمنين.

٥- الإنسان المُبَرَّر بالإيمان يتعامل مباشرة وبشكل حر مع الله وبدون واسطة القداس أو الكهنة.

٦- رفض مبدأ عصمة الباباوات والمجامع الكنسية.

٧- التركيز على الكتاب المقدس كأساس وحيد للعقيدة النقية.

٨- الإيمان الصحيح هو الثقة الشخصية فى المسيح وفى الخلاص الذى يقدمه.

٩- كل مسيحى ينال بالروح القدس، نعمة الفهم ونعمة تفسير الوحى.

١٠- اعتبار الكهنة مغتصبون لكافة حقوق المؤمنين.

١١- الحرية الدينية للمؤمنين هى الطريق الأمثل لحريتهم السياسية والاجتماعية.

١٢- الاحتكام إلى نصوص الكتاب المقدس فقط، بمعنى الرجوع إلى الأصول وإتاحة نصوصه للجميع، والعمل على ترجمته إلى اللغات القومية حتى يستطيع الجميع قراءتها وفهمها.

١٣- إلغاء عزوبة رجال الكهنوت والاتجاه إلى الزواج وتكوين الأسرة.

١٤- عدم تقديس المخلفات الأثرية وآثار القديسين والشهداء.

١٥- تحقيق الحرية الكاملة للأمة الألمانية والجهاد لاستقلالها دينيا وسياسيا واقتصاديا عن روما.

١٦- نقض الحكم البابا وى وتعاليمه والذى كان يمنح لكل شئ ثمنه.

١٧- إزالة الفوارق بين رجال الدين والكهنوت وغيرهم من المدنيين والعلمانيين.

١٨- الاهتمام بالروح الفردية وسيادة الفرد واكتسابه ذاتية من خلال قوة الإيمان، التى فيها تكمن الحرية الحقيقية للمسيحى المؤمن بشركته مع المسيح.

١٩- إلغاء الفروق بين الكاهن وغير الكاهن، اللهم فى ممارسة العمل الذى يشغله، وهو لا يعلو شأنًا عن عمل الفلاح فى الحقل أو السيدة فى المنزل.

٢٠- إبراز أهمية العمل فى الحياة الدنيا وربطه بممارسة الشعائر الدينية، فالعمل حلاوة وعذوبة ولا مكان للرهبانية.

وينتهى الباحث محمد خليفة إلى قيم سبع فى المعتقد البروتيستانتى، يرى فيها أنها تعكس اتفاقًا تاما فى أصولها مع الرؤية الإسلامية، وتتجاوب مع النقد الإسلامى للمسيحية، والذى جاء فى القرآن وبعض المصادر الإسلامية الأخرى(١).

ويقرر على استحياء أنه قد يكون هناك استجابات أخرى لهذا الإصلاح البروتيستانتى جاء من داخل المجتمع الألمانى، ولكن هذا التصور لا يقف عقبة فى إمكانية حدوث هذا التأثير الإسلامى، على بعض زعماء الإصلاح وبخاصة على مارتن لوتر نفسه، وهو الأمر الذى يؤيده فى العصر الحاضر الكثير من الدراسات الغربية والعلماء فى الغرب والشرق. ولا ينكر محايد فى أن موقف البروتستانت المسيحى من استخدام الكتاب المقدس كأصل لا بديل له، وتمسكهم بحرية تداوله وتأمينه لجميع المؤمنين به، وكسْر احتكاره على رجال الدين، واستخدامه الأمر الذى يمثل حجر الزاوية فى الفكر البروتيستانتى، وهو أمر مشابه إلى حد كبير بموقف العقيدة الإسلامية من العودة إلى الأصول والعودة إلى الكتاب المقدس، القرآن الكريم، ويكون متاحًا لكل المسلمين ورفض أى احتكار لقراءته وتفسيره وفهمه.

---

(١) يلخص الدكتور محمد خليفة هذه القيم السبعة على النحو الآتى:

١- الإعتراف بالسلطة للكتاب المقدس وحده والاحتكام إليه وقياس أعمال الكنائس وقرارات المجامع عليه.
٢- منح حق قراءة وفهم الكتاب المقدس لكل المؤمنين به فأصبح حق الفهم والتفسير متاحًا للجميع.
٣- لكل كنيسة رئاسة خاصة بها ولا توجد رئاسة عامة.
٤- إنكار استحالة الخبز إلى جسد المسيح والخمر إلى دمه فى العشاء الربانى، ويكون العشاء بذلك ذكرى لأعمال المسيح.
٥- إنكار حق الكنيسة فى منح الغفران واعتباره مرتبطا بعمل الإنسان.
٦- إنكار الرهبنة لعدم وجود أصل لها فى الكتاب المقدس.
٧- عدم تقديس الصور والتماثيل فى الكنائس والسجود لها.

قارن: محمد خليفة: تاريخ الأديان، ص ٢٣٥ وما بعدها.

٤. ٧. ٣ دراسة الدكتور السيد الشاهد

نعرض لباحث آخر شغل نفسه لفترات طويلة بدراسات متنوعة لقضايا الحوار بين الأديان، وهو "السيد الشاهد"، والذى ضمن آراءه فيما يخص مسائل الإصلاح البروتيستانتى فى كتابيه: الكتاب الأول: "الخطاب الفلسفى المعاصر من العام إلى الأعم، القاهرة، ٢٠٠٠، والكتاب الثانى: "المسيحية والإسلام – من الجوار إلى الحوار، القاهرة، ٢٠٠١، علاوة على ذلك فقد أسهم بالعديد من المقالات، والتى شارك بها فى مؤتمرات عدة فى هذا الشأن.

يعرض السيد الشاهد لمارتن لوتر ولمحاولاته المستمرة فى إصلاح الكنيسة، مؤكدًا "أن ثورة مارتن لوتر والمصلحين من قبله، لم يكن سببها الوحيد الأوضاع الداخلية، ممثلة فى فساد الكنيسة الاجتماعى والخلقى، أما السبب الذى يقول به، فهو دخول الفكر الإسلامى عقيدة وفكرًا إلى الغرب، وهو الأمر الذى يتطابق مع رأى جوستاف لوبون فى كتابه: "حضارة العرب" حيث يقول: "وظلت أوروبا زمنًا طويلا لم يبدُ فيها بعض الميل إلى العلم، إلا فى القرن الحادى عشر والثانى عشر، حيث رفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم، وولوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمة لأهل الغرب، فلم يكن فقط فكر ابن رشد أو غيره من الفلاسفة المسلمين هو السبب الرئيسى، بل الإسلام فى مجمله عقيدة وفكرًا، كان هو المحرك للعقل الأوروبى بعد أن أيقظه من سبات، دام طوال عصبور الظلام والعصور الوسطى"(١) وحجة السيد الشاهد فى ذلك، أن القرآن الكريم قد ترجم إلى اللاتينية عام ١١٤٣، بتأييد ودعم بطرس المبجل، وتلاه وضع قاموس لاتينى- عربى، مكّن علماء الغرب من ترجمة ما يريدون من الكتب، إلى جانب وجود رجال من أهل الكنيسة

---

(١) قارن: غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠، ص ١٢٥ وما بعدها، قارن أيضًا: السيد الشاهد، الخطاب الفلسفى المعاصر- من العام إلى الأعم، ص ٢٢٣ وما بعدها.

فى القرن الثالث عشر، ممن كانوا على معرفة جيدة بالقرآن، وعلى رأس هؤلاء مارتن لوتر، الذى كان يعرف القرآن معرفة متعمقة، وله كتابات وأبحاث علمية تدل على مدى اهتمامه وتأثره به، مما حدا ببعض رجال الكنيسة المحافظين آنذاك، اتهامه بأنه يريد إقامة مملكة محمد فى أوروبا، بدلا من مملكة عيسى، كما يستشهد السيد الشاهد، علاوة على ذلك بعدد من رفاق لوتر، الذين دخلوا الإسلام. ويواصل السيد الشاهد دراسته ويقول إن من ينظر إلى المذهب البروتيستانتى وتعاليمه، فسيجد بسهولة أثرًا واضحًا لتعاليم الإسلام، وخاصة فيما يتصل بعقيدة التثليث وتفسيرات بنوة عيسى لله، فهى الأعمدة التى مثلت عقيدة الكنيسة آنذاك، ويردد مقولة مأثورة عن لوتر: "أولى أن نكون تحت حكم الأتراك، من أن نكون تحت حكم البابا وات"، وكذلك قوله: "إن المسيح الدجال الحقيقى ليس محمدًا، بل البابا فى روما، وأن كنيسة روما هى كنيسة الشيطان." وخص لوتر ذلك فى كتابه الذى أطلق عليه مسمى "ضد البابا وية التى أسسها الشيطان".(١)

يذكر السيد الشاهد أن التأثر بثقافة أخرى لا شك يفيد الثقافة المتأثرة، قوة أو ضعفًا وهو الأمر الذى قاد أوروبا، إلى شن ما أطلق عليه الحروب الصليبية والتى هدفت فى المقام الأول، إلى إرهاب المسلمين وخلعهم من عقيدتهم والتى هى مصدر تراثهم وثقافتهم والعمل على تنصيرهم، وكانت الثقافة الإسلامية تشكل خطرًا كبيرًا على ثقافة المجتمع فى الغرب المتسمة بالضحالة، والتى سوف تؤدى لا محالة إلى إلغاء أو إضعاف سلطة الكنيسة التعسفية على أفراد المجتمع، ومن هنا انبثقت فكرتها من داخل الكنيسة، وكانت قياداتها من رجال الكنيسة. يدعم هذا الرأى سازيرن Sazern فى كتابه: "صورة الإسلام فى أوروبا فى العصور الوسطى": "كان كثير من رجالات الغرب المسيحى يرقبون بقلق كيف تؤثر القيم الإسلامية على الفهم المسيحى، تأثيرًا تدميريا -كما يدعون- عندما تواجهها، لهذا

---

(١) قارن: السيد الشاهد، الخطاب الفلسفى المعاصر- من العام إلى الأعم، ص ١٩٧ وما بعدها.

قال رجال اللاهوت أن حماية المسيحية من الإسلام لا تكون إلا بضربة عسكرية، يتم فيها الاستيلاء على أرضه وإقناع معتنقيه باتخاذ المسيحية دينًا لهم."[١] ويبدى السيد الشاهد اندهاشه من انتظام النصرانية فى جيوش ترفع شعار الدين، الصليب، إذ إن الحروب الصليبية هى أول حرب من النصارى ترفع شعار الدين وتتسمى به. والسؤال الذى يفرض نفسه هنا، كيف يتفق ذلك مع مبادئ النصرانية المسالمة والتى تدعو ألا يرد النصرانى على الإيذاء بالمثل:

"وأما أنا فأقول لكم:لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن، فحول له الآخر أيضًا. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضًا. ومن يسخرك ميلا واحدًا فاذهب معه اثنين. ومن سألك فأعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده ".[٢]

فكيف يحدث هذا فى مجتمع يدين بهذه التعاليم، ويشن حربًا هجومية خارج حدود بلاده، أليس ذلك مناقضًا لما يدعون التدين به؟![٣]

لقد كانت هذه الحروب من وجهة نظرنا، محصلة حتمية من آثار احتكاك النصارى بالمسلمين، ومعرفة مكانة الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال عندهم، ويكتشف هنا رجال الكنيسة هذه الحقيقة التى قادتهم للدعوة لهذه الحرب، ولأول مرة فى تاريخ النصرانية يصدر النداء إلى القتال من البابا، وليس من القيصر، وهى المقولة التى دعمتها ودللتها الكاتبة الألمانية "زيجريد هونكه" فى كتابها

---

(١) قارن سازرن: "صورة الإسلام فى أوروبا فى العصور الوسطى"، ص ٢٩٧ .

(٢) الإنجيل – العهد الجديد، القاهرة ١٩٩٩، متى:٥ / ٣٩-٤٢ ص ٦.قارن أيضًا:

Matthäus 5 / 39- $2 „ Ich aber sage euch, dass ihr euch dem Bösen nicht widersetzen sollt, sondern wenn dich jemand an deine rechte Backe schlägt, dem halte die andere auch hin. und wenn jemand gegen dich klagen und dir deinen Rock nehmen will, dem lass auch den Mantel. Und wenn dich jemand nötigt, eine Meile mitzugehen, so geh mit ihm zwei. Gib dem, der dich bittet, und wende dich nicht von dem, der etwas von dir borgen will „ S.7 ,in :Die Bibel – nach der Übersetzung von Martin Luther ,„ 2.Auflage Berlin 1981.

(٣) قارن السيد الشاهد ص ٢٩٨ .

المشهور: "جمال على قباء القيصر" Kamele auf dem Kaisermantel Stuttgart 1976 حينما عرضت لنداء ودعوة البابا أوربان الثانى عام ١٠٩٥ بالمجمع الكنسى بمدينة كليرمونت بفرنسا لشن هذه الحرب قائلا: "إن الذين يموتون وهم فى الطريق إلى القتال ضد العرب والأتراك المسلمين، أو بعد وصولهم إلى الشواطئ أو قبل ذلك فى الماء، أو أثناء القتال ضد الكفار، سوف تغفر لهم جميع ذنوبهم، وأنا أضمن لهؤلاء هذا الغفران بقدرة الله التى أعطيت لى، لعل الذين كانوا جنودًا مقابل أجر زهيد يلقون الآن الثواب الأبدى."[١]

هذه العبارات التى قال بها البابا أوربان الثانى ليست سوى ترديد لما جاء فى القرآن:

"ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا" (النساء ٧٤)

„ So sollen denn diejenigen auf Allahs Weg kämpfen, die das diesseitige Leben für das Jenseits verkaufen. Und wer auf Allahs Weg kämpft unbd dann getötet wird oder siegt, dem werden Wir großartigen Lohn geben“ (Sure 4/74)

"ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون." (آل عمران: الآية ١٥٧)

"Und wenn ihr auf Allahs Weg getötet werdet odxer sterbt, so sind Vergebung von Allah und Erbarmen fürwahr besser als all, dass sie zusammentragen." (Sure 3/157)

وتدور عمليات إشغال الفكر وإعمال العقل عن تعليمات الكنيسة بداية من شكوك بيرنجر التورى، فى أمر الأفخارستية الخاصة بالعشاء الربانى، حيث يتم تحول الخبز والنبيذ إلى لحم ودم المسيح، وشكوك روسلين الكمينى (١٠٥٠-١١٢٠)،

---

(١) قارن السيد الشاهد: الخطاب الفلسفى المعاصر، ص ٢٩٩ وما بعدها.

وبيتروس أبيلارد (١٠٧٩-١١٤٢) اللذين قالا بأنه لا ينبغى أن نؤمن بشىء قبل أن نفهمه، وتلاهم فى هذا التوجه عالم الطبيعة روجر بيكون، ومارسيليوا البادوانى، ووليم فون أوكام.

كانت الحروب الصليبية من منظور الحَبر البابَاوى، دفاعًا من جانب الكنيسة عن نفسها بعد أن رأت الزحف الإسلامى الثقافى يكاد أن يطيح بسلطانها، واستمرت المواجهة بعد ذلك إلى فترة أطلق عليها مرحلة الغضب والكراهية العمياء والعمل على دحض الإسلام ونقده، والتى تلتها بعد ذلك مرحلة الفهم، التى جاءت من علوم الإستشراق، وأخيرًا مرحلة الإفادة والتأثر، بداية من عصر التنوير وما تلاه من عصور بعد ذلك. ويؤكد العديد من المؤرخين المنصفين أن الحضارة الغربية، لم يكن لها أن تقوم أصلا لولا تأثرها البالغ بالفكر الإسلامى، وهذه قضية مسلم بها فى الشرق والغرب. وهذا يدل على أن الغرب المسيحى لم يكن يرفض كل شىء فى الإسلام، وإنما كان يرفض فقط الاعتراف به كدين صحيح، بعد أن تكشفت له عناصر قوته المتمثلة فى أنه دين يرتكز على وحى وعقل وعلم ودين ودنيا وعمل بلا انفصال، مشمولا بمبادئ سهلة الفهم لكل المستويات العقلية، وهى لا شك صفات لا تتوافر فى النصرانية الكنسية.

لقد وجدت الكنيسة نفسها فى موقف حرج مصيرى، خاصة بعد انتشار الفكر الإسلامى وبعد ظهور النزعة العقلية والعلمية فى بلادها، بداية من القرن الثالث عشر الميلادى، ومع ازدياد النداء لتحديد سلطة الكنيسة وتقليصها وقصرها على أمور الدين. وكان عليها أن تختار بين أن تتنازل عن سلطة الدنيا، وتحتفظ بالسلطة الدينية أو تخسرهما معًا، واختارت الأولى، بعد تردد دام عدة قرون، ثم سمحت لرجالها أن ينكبوا على دراسة الفكر الإسلامى، رغم اختلاف مواقفهم، إلا أنه لا يمكن إنكار تأثرهم بهذا الفكر، وخاصة فى مجال العقيدة، وخير دليل على ذلك هو أن مارتن لوتر الذى انشق عن الكنيسة الكاثوليكية، وأسس المذهب البروتيستانتى فى النصف الأول من القرن السادس عشر، كان متأثرًا إلى حد بعيد فى عقيدته

بالإسلام، رغم قسوته الظاهرة على الإسلام والمسلمين وخاصة شخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم)، يثبت وجهة النظر هذه تعاليمه التى خالف بها الكنيسة الكاثوليكية فى أمور أساسية منها:

١- رفضه الوساطة بين العبد وربه عن طريق البابا أو القس فى العبادة أو الاعتراف أو طلب الغفران.

٢- رفضه عصمة البابا والنظام البابوى من أساسه.

٣- تفسيره المخالف فى ما يخص عقيدة التثليث وتحريمه القول به فى الصلاة.

٤- إمكانية معرفة الله عن طريق الفطرة، أى الطبيعة والوصول إلى المبادئ والقيم الخلقية عن طريق العقل، بشرط الإيمان لأن العقل لا يمكن أن يناقض الله أو يتفوق عليه.

٥- أمره بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات الحية.

٦- الإيمان بالقضاء والقدر مع تحمل الإنسان لمسئولية فعله.

٧- وصفه لكنيسة روما بأنها كنيسة الشيطان والبابا بالمسيح الدجال.

٨- تحريم التماثيل والصور[1].

٤. ٧. ٤ دراسة الإمام محمد عبده

قبل أن نعرض لمحاضرات الإمام أبوزهرة ولمقال الشيخ أمين الخولى، المشار إليهما فى مقدمة الكتاب، فإننا نعرض فى عجالة سريعة لما ذكره المجدد

---

(١) قارن: K. Heusi. Kompendium der Kirchengeschichte, Tübingen, 1981 ص ٣٠٣ وما بعدها

الكبير، الإمام محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥)، فى "رسالة التوحيد"، الجزء الثالث، تحت عنوان: "الإصلاح الفكرى والتربوى والإلهيات".[١]

يقدم الإمام الشيخ محمد عبده فى كتابه المشار إليه، أصول المسيحية الستة، المتمثلة فى: الاعتقاد بالخوارق، وسلطة التدرج الرئاسى، والزهد فى أمور الدنيا، واللجوء إلى الرهبنة، والإيمان بغير المعقول، والاعتقاد باحتواء الكتاب المقدس لكل ما يحتاج إليه البشر، فى المعاش والمعاد، والتفريق بين المسيحيين وغيرهم حتى ولو من الأقربين.[٢]

يواصل الإمام محمد عبده فى عرضه لانقسام وتفرق شيع وأحزاب الإصلاح المسيحى تجاه الكنيسة الكاثوليكية، ويرجع نشأة حركة الإصلاح هذه بوجه عام إلى تعاليم الإسلام، ويشيد بالآداب التى جمعها الصليبيون المحاربون فى المشرق، وبالمكاسب العلمية، التى اقتبسها سفراء أوروبا فى الأندلس الإسلامية. وكانت الثمرة لكل ذلك مجسدة فى حركة الإصلاح الدينى المسيحى، وأن المذهب البروتستانتى الجديد أصبح قاب قوسين أو أدنى من الإسلام.[٣]

وينتهى الإمام بإبراز الكراهية الشديدة التى كان يكنها مارتن لوتر لأرسطو وفلسفته، وإسباغه لقب الخنزير الدنس والكذاب عليه. ويقارن الإمام ذلك الرأى الخاطئ – من وجهة نظره –بالمقولة المضادة، التى قال بها علماء المسلمين وفلاسفتهم، حينما مدحوا أرسطو ولقبوه، فى تواضع جم، بالمعلم الأول، على اعتبار أن فيلسوفهم الكبير، الفارابى المعلم الثانى.[٤]

---

(١) قارن: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، تحقيق وتقديم الدكتور. محمد عمارة، ج٣، الإصلاح الفكرى والتربوى والإلهيات، ط١، القاهرة، ١٩٩٣، ص ١٨٣ وما بعدها.
(٢) قارن: المرجع السابق، ص ٢٧٧ وما بعدها.
(٣) قارن: المرجع السابق، ص ٤٧٨ وما بعدها.
(٤) قارن: المرجع السابق، ص ٢٩٣.

ويقر الإمام محمد عبده بأن حركة الإصلاح المسيحية أدت إلى رفع السيطرة عن ضمائر الناس وعقولهم، وبزوغ شمس العلم، إلا أنه يعيب على أحد كبارهم، المصلح كالفين Calvin، الذى أصر على عقوبة الإعدام لكل من يخالف مبادئ مسيحيته.(١)

٤. ٧. ٥ دراسة الشيخ محمد أبوزهرة

نعرض الآن فى إيجاز لما جاء فى محاضرات الإمام أبوزهرة عن الإصلاح البروتستانتى والتى يذكر فيها الضغط الكبير الذى مارسته الكنيسة الكاثوليكية على المسيحيين وفرض الآراء الى حد الغلو، بل وحرق وتعذيب كل من تراه يخالف رأيها بلا رفق وبما لا يليق برجال الدين(٢)، الذين حكموا بالموت على العديد من العلماء والمفكرين أمثال هوس وجيروم وأبيلارد وجاليليو وغيرهم. كما فرضت الكنيسة سلطانها على الملوك والأمراء، وأصبح للبابا السلطان الكامل والمطلق على كل المسيحيين لا فرق بين سائس ومسوس أو حاكم ومحكوم. ويقوم البابا إنوسنت الرابع فى عام ١٢٥٠ بعزل ملك فرنسا فريدريش وحرمانه من بركة الكنيسة. علاوة على ذلك فقد أرهقت الكنيسة جماهير المسيحيين بفرض إتاوات مالية باهظة وعلى رأسها صكوك الغفران، لينفقوها وفقًا لرغبات قياداتها وفى غير محلها. وتواصل الكنيسة استبدادها بإعطاء نفسها الحق المطلق فى فهم نصوص الكتاب المقدس وتفسيرها دون سائر الناس ولا معقب لما تقول.(٣)

يذكر الإمام أبوزهرة مسألتين رئيسيتين حفزت رجال الإصلاح فى جرأة نحو إصلاح الكنيسة بالحسنى أو بغيرها، وهما مسألة استحالة الخبز إلى جسد المسيح والخمر إلى دمه يوم الفصح ومسألة امتلاك الكنيسة حق الغفران والإفراط

---

(١) قارن: المرجع السابق، ص ٢٩٢ وما بعدها.
(٢) محمد أبوزهرة : محاضرات فى النصرانية... ص١٥٣ .
(٣) المرجع السابق، ص١٥٥.

فى تطبيقه. الأمر الذى أدى الى تفشى الحياة العابثة والفاسقة بين رجالاتها. ويستنكر البعض منهم هذا الوضع ورفضوا الأخذ بما يسمى بالأسرار المقدسة للكنيسة وعلى رأسها سر الاعتراف ومحو الإثم أو تقريره، ويبرز من بين أولئك المصلحين إيرازموس، وتسفنجلى، وكلفن، ومارتن لوتر.

يعرض الإمام أبوزهرة لسيرة لوتر الذاتية ولنزعته الدينية القوية، رغم دراسته للفلسفة التى لم تبعده عن دراسته للاهوت، بل ظلت عنده خادمة ومتممة له، ويعود لوتر بعد رحلة حج إلى مقر الكنيسة المقدسة فى روما منزعجًا ومصدومًا إلى وطنه ألمانيا، مستنكرًا المفاسد والخطايا التى كان يرتكبها رجال الدين، وتشتد ثورته على الكنيسة التى تأمر بمحاكمته وحرمانه فى اجتماع مدينة فورمس ١٥٢١.

يستخلص الإمام أبوزهرة أهم القيم التى نادى بها لوتر وذلك على النحو التالى:

١- إصلاح حال الكنيسة ورجالها لا إلى هدمها ومحاربة سلطانها.

٢- عدم النظر إلى البابا على أنه خليفة للمسيح لأنه بشر يخطئ ويصيب.

٣- إقرار حق الزواج لرجال الدين.

٤- إلغاء حق الكنيسة فى احتكار فهم نصوص الإنجيل وشرحه، وإعطاء هذا الحق لكل مسيحى مثقف.

٥- ترجمته الإنجيل إلى الألمانية ليقرأه كل الألمان.

٦- اعتبار العشاء الربانى تذكيرًا لما قام به المسيح من فداء للخليقة.

٧- إنكار حق الكنيسة فى الغفران.

٨- انشاء كنائس جديدة للمذهب الإصلاحى الجديد ترعى آراءهم وتوجهاتهم الدينية سميت بالكنائس الإنجيلية من منظور أنها لا تخضع إلا لأحكام الكتاب المقدس (الإنجيل).

٩- انتشار المذهب الإنجيلى فى ألمانيا، والدنمارك، وسويسرا، وإنجلترا وأمريكا الشمالية.

١٠- إلغاء رئاسة الكنيسة العامة، وإعطاء الحق لكل كنيسة فى أى مكان فى الوعظ الدينى والإرشاد لمن يريد المزيد من المعرفة.

١١- عدم الصلاة بلغة غير مفهومة للمتعبد ووجوب كون الصلاة بألفاظ يفهمها العابد يردد معانيها ويقصد مراميها.

١٢- إنكار تحول الخبز إلى جسد المسيح والخمر إلى دمه.

١٣- انكار الرهبنة لأنها تمثل كبت للجسد الإنسانى وتعذيب له من غير ضرورة.

١٤- عدم تقديس الصور والتماثيل فى الكنائس.

وينتهى عرض الإمام أبوزهرة فى بحثه هذا بالاتفاق التام مع ما عرضه أستاذ الجيل أمين الخولى بأن معظم هذه القيم التى نادت بها حركة الإصلاح البروتستانتية بريادة مصلحها الأكبر مارتن لوتر قد اقتبسها فى الغالب أولئك المصلحون من نور الإسلام.(١)

٤. ٧. ٦ دراسة الشيخ أمين الخولى

يمثل بحث أستاذ الجيل، الأستاذ أمين الخولى بالنسبة لنا رؤية علمية عميقة، لعالم جليل وقمة خالدة من القمم الإسلامية، لهذا لم يكن مستغربًا من الإمام الأكبر

(١) قارن المرجع السابق، ص١٧٢ وم بعدها .

الشيخ مصطفى المراغى، حينما فوضه، ليتحدث باسم الأزهر أمام المؤتمر الدولى السادس لعلوم الأديان، والذى انعقد فى بروكسل ببلجيكا عام ١٩٣٥، وذلك عن أحداث حركة الإصلاح الدينى المسيحى وعلاقاتها بالقيم والمبادئ الإسلامية، والذى عقب عليه فضيلة الإمام، بأن بحث الأستاذ الخولى يعد من الموضوعات البكر، وهو بحث طريف وغريب. ونحن لا نملك إلا أن نقول إن هذا البحث يمثل القدوة الحسنة فى حرية الفكر ونزاهة النظر الدينى عند كبار علماء المسلمين. ويعتبر صاحب البحث أن مثل تلك الدراسات المتعلقة باتصال الأديان تعد خطوة صالحة فى سبيل السلام العالمى والأخوة الإنسانية.[١]

وينشأ الاتصال فى العادة بين الأقوام، وخاصة بمخالطتهم ودراسة حياتهم الاجتماعية للأقطار، التى يجاور فيها المسلمون إخوانهم من المسيحيين، ويعتبر أمين الخولى زعيم حركة الإصلاح، مارتن لوتر، رجلا شجاعًا وجعل من الإصلاح حقيقة واقعة. ويعرض فى مبحثه لثلاث نقاط رئيسية:

أولها، الاتصال المادى بين العقيدتين.

وثانيها، الاتصال المعنوى والروحى.

والثالث، الاتصال الذى تمخض عن أحداث حركة الإصلاح من منظور إسلامى. ولعله من المفيد أن نوجز هذه النقاط الثلاث على النحو التالى:

بدأ الاتصال المادى مباشرة بعد ظهور الإسلام فى القرن السابع، وانتشاره السريع واستقراره لفترات تطول أو تقصر، فى شرق وجنوب وغرب أوروبا وغالبية شواطئ البحر المتوسط، بل ويذكر المؤرخون أن المسلمين استقر بعضهم فى القرن الثامن والتاسع والعاشر عند مضايق جبال الألب، بل وسيطروا على

---

(١) قارن: السيد الشاهد، ص١٧ وما بعدها.

مناطق الاتصال بين فرنسا وإيطاليا وإسبانيا التى تؤدى إلى بقية الممالك الأوروبية وعاشوا هناك ليزرعوا ويعمروا ويتزوجوا ويتناسلوا.(١)

وتدور الدائرة مع نهاية القرن العاشر ومطلع القرن الحادى عشر، وتلقى أوروبا برجالها وشبابها فى حرب ضروس، أطلقوا عليها الحروب الصليبية، وقاموا بتأسيس إمارات أوروبية مسيحية فى قلب العالم الإسلامى.

إن انتشار الإسلام السريع ونشوب الحروب الصليبية على ما عرضنا، ليمثل لونًا من التصادم والتلاقى فى نفس الوقت، بين أهل العقيدتين، ويقدم المزيد من المعارف بينهما، سواء من خلال الأسرى الذين يتم أسرهم من كلا الجانبين أو من خلال التفاوض بين قيادات الطرفين. ويذكر ابن خلدون فى مقدمته، عن هذه الفترة، أن العديد من الأوربيين كانوا يقاتلون تحت اللواء الإسلامى بالأندلس، وأحيانًا ما كان يحدث العكس فى استخدام الإفرنج جندًا من المسلمين للحرب فى صفوفهم. وساهم ذلك أيضًا فى الاتصال بشكل مباشر، بل ويذكر بعض المؤرخين أن الإمبراطور فريدريش الثانى الأكبر، فون اشتاوفن، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، استخدم جيشًا عربيا كاملا ضد البابا فى روما. ومن طبائع الأمور أن يصاحب هذه الحروب المتبادلة، وهذا الصراع، ألوان من الدعايه لكلا الفريقين من المقاتلين، وبخاصة الدعاية التى تخص الجوانب الروحية والدينية، والتى تضعف أو تقوى الروح المعنوية للمقاتلين، وكثيرًا ما كان يحدث ذلك من خلال المنشورات وقصائد الشعر. ويذكر الكامل لابن الأثير ألوانًا من دعايات الإمبراطور البيزنطى ناقفور فوقاس الثانى، فى حروبه ضد المسلمين، التى استهدف بها الفت فى عضد الجيش الإسلامى. ويذكر الخولى أن ناقفور هذا كان ابنًا لأحد المسلمين من أهل طرسوس، يعرف بابن الفقاس، وتنصر وعلا شأنه حتى ملك الروم وتُوج

---

(١) لمزيد من المعلومات يرجع لكتابى Ferdinand Keller, M. Renaud عن غارات العرب على فرنسا وسويسرا فى القرن الثامن والتاسع ولعاشر(وقام بترجمة الكتابين إلى العربية الأمير شكيب أرسلان تحت عنوان "غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزر البحر المتوسط")

إمبراطورًا عليهم، وقد استخدم فى حربه المعنوية ضد المسلمين القصائد الشعرية، والذى أعلن من خلالها عزمه على طرد العرب من الأراضى التى فتحوها، وإرجاعهم إلى أرض الحجاز، وكان يرد على مثل هذه الوسائل الدعائية بأخرى مضادة من جانب قيادات جيوش المسلمين، وكثيرًا ما كانت تمس قضايا وأسس دينية.

أثمرت هذه الحرب المتبادلة عن ما يمكن أن نطلق عليه المحطات الدينية، وهى الأماكن التى يتم اختيارها من قبل الجيش الفاتح، لاستقرار جالية من جنوده ويتبع ذلك بالطبع إنشاء دور للعبادة لهذه الجالية. ويذكر المؤرخون أن ملك الروم أنشأ مسجدًا بالقسطنطينية فى عام ٤٤٠ من الهجرة والموافق ١٠٤٨ من الميلاد، وأهداه للخليفة الناصر لدين الله، بهدف أن تقيم فيه الجالية الإسلامية شعائر الصلاة. وحدث نفس الأمر من الجانب المسيحى حينما أسسوا الكثير من دور العبادة فى معاقلهم بالشام. وكانت تنتهى هذه الحروب بعقد الهدنة وطلب الصلح وتوطيد الصلات بين الطرفين، وتتبادل الوفود التى كان من بينها رجال الدين، مثل اختيار القاضى أبى محمد بن الطيب الباقلانى سفيرًا مفاوضًا بين المسلمين والروم الشرقيين.

يحدثنا ابن الأثير عن أحداث عام ٣٧١هـ عن حوار دار بين الإمبراطور الرومانى وبين الباقلانى، وكان الرومانى يقصد من هذا الحوار السخرية وإحراج هذا العالم، موجهًا إليه السؤال التالى مطالبًا الإجابة عنه: "تخبرنى عن قصة عائشة زوج نبيكم وما قيل فيها؟" فرد عليه القاضى أبو بكر بما يلى: "هما اثنتان، قيل فيهما ما قيل، زوج نبينا ومريم بنت عمران. فأما زوج نبينا فلم تلد، وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها، وكل قد برأها الله مما رميت به." وهذا الرد المفحم للباقلانى على الإمبراطور إن دل على شيء، فإنما يدل على سرعة خاطر أولئك الرسل والمبعوثين لأولى الأمر، معبرين عن هذه المواقف بكل شجاعة ودون خوف أو وجل. ومقابل ذلك على الجانب الآخر ما فعله الملك أوتو Otto

الجرمانى، فى القرن العاشر عندما أوفد إلى قرطبة أحد علماء اللاهوت، الراهب جان، من دير جورس، بالقرب من مدينة ميتس Metz ، وكان الهدف من إيفاده أن يقيم حوارًا يجادل فيه، الخليفة الناصر الأندلسى، بقصد اعتناقه المسيحية، ومثل هذا الاتصال حدث فى صور أخرى، وخاصة بعد انحسار المد الإسلامى، وبعد استرداد جزر البحر المتوسط، وتنصر معظم مسلميها أو بقاء بعضهم كعبيد وأقليات ضعيفة. حدث هذا فى أسبانيا وفرنسا والمجر، حتى أن من بقى منهم على إسلامه كان لسانه لا يختلف عن لسان الغالبية من الفرنجة.

وهناك نوع آخر من الصلات بين أهل الدينين على مستوى القيادات الحاكمة، تدفعهم فى ذلك المصالح الخاصة أو السياسية، من خلال وسائل التودد لكلا الطرفين، حتى لو أدى ذلك إلى تجاوز الخلاف وتخطى الحدود الدينية. وكثيرًا ما حدث ذلك الاتصال عن طريق المصاهرة كزواج السلطان العثمانى أورخان من تيودورا، ابنة الإمبراطور، والراهب كانتا كوزينو، والتى أبقاها على دينها المسيحى، أو زواج أمير الأندلس عبد العزيز بن موسى بن نصير بأرملة الملك لوزريق، وأطلق عليها اسم وردة المسيحيين، والأمثلة فى هذا المجال كثيرة.

وفى مجال آخر تستبين العلاقات بين أهل الديانتين، وذلك فى سعى رجال الدين من كلا الطرفين، سلمًا أو حربًا، بهدف نشر دين الطرف تجاه الآخر وكسب المزيد من الأتباع، ولا عجب أن ظلت الكنيستان الشرقية والغربية متحدتين حتى القرن العاشر الميلادى، وظل التعاون بينهما حتى بعد انفصالهما. ويتوجه علماء التبشير ورجال الكنيستين نحو الشرق، مع بداية القرن الثالث عشر للتبشير بين المسلمين، ومثالا لذلك توجه الراهب سان فرانسيسكو[1] إلى الملك الكامل الأيوبى

---

(١) مشهور تحت اسم، فرانس فون أسيسى Franz von Assisi ، نسبة إلى المدينة التى عاش فيها عام ١١٨٢ كابن لأحد التجار الأغنياء، توفى عام ١٢٢٦، واتجه إلى التصوف والدعوة إلى المسيحية، عن طريق التجوال بين البلاد، وأسس جماعة الآباء الفرنسيسكيين. وكان من ضمن رحلاته العديدة بلاد المغرب التى حا ول أن يقوم بالتبشير فيها، كما شارك فى الحملة الصليبية الخامسة على مصر، وحاول مرارًا أن يقنع السلطان محمد الكامل، فى دمياط، لاعتناق المسيحية.

فى دمياط ١٢١٦ يدعوه لاعتناق المسيحية هو وأتباعه، والراهب رامون لول (١٢٣٢-١٣١٦)[١]، الذى كثيرًا ما كانت تنتابه مشاعر جادة للتبشير بين المسلمين بالشرق. ويذكر فى هذا الصدد الرسالة المشهورة التى بعث بها البابا ليو الثانى إلى السلطان محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية، يدعوه فيها إلى اعتناق المسيحية شارحًا له محاسنها لترغيبه فى ذلك.

يضاف إلى كل ذلك، رحلات وسياحات أهل الملتين من الشرق والغرب، التى كان يقوم بها التجار ورجال الأعمال، والتى كان لها الأثر القوى فى دعم الصلات بين هذه الشعوب. ويذكر فى هذا الصدد الآثار التى تركها تجار المسلمين لدى الأقوام فى إفريقيا وآسيا، مما ساعد على نشر عقيدتهم نتيجة لاختلاطهم مع أهل هذه البلاد وجوهر ومبادئ عقيدتهم، وينسحب ذلك بلا شك على رحلات المسلمين إلى أرض الغرب، وما تركوه من آثار فى فكرهم وعقائدهم.

نعرض الآن إلى العامل الثانى، والذى يتمثل فى الاتصال المعنوى والفكرى والروحى، وهو الاتصال الذى رمزت له الباحثة "زيجريد ونكى" بالميراث الثالث لأوروبا، قاصدة بذلك الفترة التاريخية من القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر،

---

(١) "أحد الفلاسفة الكبار المتصوفين فى القرون الوسطى، بلغت مؤلفاته فى هذا المجال ما يربو عن ستين مجلدًا باللاتينية، وأكثر من عشرين بالإسبانية القديمة (الكاتالانية). عاش فترة طفولته وشبابه فى جزيرة مايوركا الإسبانية، إبان الحكم الإسلامى لها. كان من هواة قرض الشعر، كما كان من الدعاة المسيحيين شديدى البأس، وكان من مقصده الأساسى دعوة المسلمين إلى المسيحية، كما كان يميل إلى التصوف، وهو أول من اقترح على رؤساء الكنيسة فى أوروبا تأسيس أقسام علمية لتدريس اللغة العربية فى الجامعات الأوروبية، وهى الفكرة التى تحققت قبل وفاته عندما تم إقرارها فى المجمع الكنسى، بمدينة فينا ١٣١٢، وتأسست خمسة أقسام لتدريس العربية واللغات الشرقية بجامعات باريس، وأكسفورد، وبولونيا، وسلامانكا، والجامعة الباباوية فى روما. بلغت شدة حماسه للدعوة الدينية أثناء شيخوخته، فقد سافر عدة مرات إلى المغرب، وتونس ليدعو المسلمين إلى دين المسيح، وسُجن من جرّاء هذا الأمر ورجم. توفى عن عمر يناهز ٨٤ عاما. من أهم مؤلفاته، التى تُبين تأثره الشديد بالدين الإسلامى وفلسفته وكتابه: "التأمل فى الله"، و"الكافر والعارفون الثلاثة". كان رامون لول يجيد العربية ويؤلف بها، وقرأ مؤلفات ابن سينا، والفارابى، وابن رشد."

مزيد من التفصيلات انظر، براند مانوئيل فايشر: الشرق فى مرآة الغرب، دار سراس للنشر، تونس، ١٩٨٣، ص ٣٧ وما بعدها.

حيث ازدهرت الأمة الإسلامية واضعة كافة إمكانياتها فى خدمة الإنسانية شرقًا وغربًا، فى الوقت الذى ساد الأمم الأوروبية الجهل والأمية، بداية من أشرافها وأمرائها، وانتهاء بأدنى مواطنيها، وهى الفترة التى كان للعرب والمسلمين فيها أستاذيتهم وريادتهم وقيامهم بدور المرشد الأمين، فى مد الأوروبيين بفروع العلم والمعرفة. ويروى أن البابا سلفستر الثانى عام ٩٩٩ تعلم على أيدى أساتذة من العرب المسلمين، وأن مترجمًا يسمى قسطنطين الإفريقى ترجم الكثير من العلوم العربية فى القرن الحادى عشر، وحذا حذوه مترجمين آخرين أمثال يوحنا بن داود الأندلسى، وجيرار الكريمونى، وأفلاطون التيفولى، فى القرن الثانى عشر وازدهرت حركة الترجمة وحلقاتها فى صقلية ونابولى وطليطلة وقشطالة وفرنسا، حيث يرعاها الأمراء والملوك وعلى رأسهم الإمبراطور فريدريك الثانى فون اشتاوفون، وابنه مانفريد فريدريك، والفونس الحكيم القشطالى. وترجمت أعمال أرسطو من العربية إلى اللاتينية وغيرها من المؤلفات العربية والإسلامية التى انتشرت فى معظم الممالك الأوروبية، ويقودنا هذا إلى أن مثقفى الأوروبيين كانوا على دراية جيدة بالعلوم العربية والإسلامية وخاصة بالفلسفة الإسلامية، وقد دفع هذا الكثير منهم إلى التعمق فى دراستها، أو نقل العلوم منها حتى أنه يذكر أن بعض الباباوات والملوك، كانوا يجيدون التحدث بها. ويذكر الراهب بيكون فى القرن الثالث عشر أن الفلسفة أخذت عن العرب، ولا يستطيع المرء أن يفهمها كما يجب إلا إذا عرف اللغة التى أخذت منها، وخاصة فلسفة ابن سينا وابن رشد. ومن هذا المنظور أمكن قيام حركات مضادة تجاه الإسلام من الكثيرين فى أوروبا، من خلال تعلم العربية والدراسات الشرقية، كأداة لحرب صليبية معنوية. وكان صاحب السبق فى هذا المجال الراهب المحب للعربية رامون لُول، الذى أسس معاهد ومدارس لنشر التبشير بين المسلمين، وحذت حذوه العديد من الجامعات الأوروبية فى إنشاء أماكن مخصصة للدراسات العربية والإسلامية، وساهم فى هذا العمل التبشيرى اللغة العبرية شقيقة العربية ومشاركة العديد من علماء اليهود، كما ترجمت أعمال كثيرة عربية وإسلامية من العبرية إلى اللاتينية، ولهذا كان لا مفر لزعماء حركة

الإصلاح الديني في أوروبا وألمانيا، من أن يتعلموا اللغة العبرية ويجيدوها من أمثال القس يان هوس التشيكي وجون ويكليف الانجليزي ومارتن لوتر الألماني والكثيرين من أقرانهم. وساد هذا الاتصال الفكري عبر تراث العربية والعبرية الفلسفة التي عمت أوروبا في هذا العصر والتي كان جل اهتمامها الجانب اللاهوتي. ولا ينكر محايد ودارس للفلسفة في هذا العصر، أنها كانت ذات ريادة إسلامية، وخاصة بعد ترجمة أعمال الغزالي والكندي والفارابي وابن سينا وابن رشد وغيرهم، وقد تجلت سمات هذه الريادة الإسلامية في أفكار فلاسفة الغرب، من أمثال يوحنا دينيس، اسكوت الاسكتلندي، وكبار المتصوفين من أمثال إيكهارد، وتاولر، والبرشت الكبير، وتوماس الإكويني. لقد أثرت هذه الريادة الإسلامية على الفكر العقلي والديني للباحثين من النصارى، الذين وعوا ودرسوا العلوم الإسلامية من مصادرها. ونجد الراهب بطرس المبجل، رئيس دير مدينة كولون بفرنسا، يعضد ترجمة القرآن إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر ١١٢٢م وهي الترجمة التي جاهد لوتر مرارًا للحصول على موافقة السلطات على إصدارها من بلدية بازل ١٥٤٣م، علاوة على ذلك فقد تمت ترجمات كثيرة من العربية إلى اليونانية في القرن الرابع عشر تحت رعاية إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية في بيزنطة، يوحنا كنتا كوزيني والملقب بيوحنا السادس، بل وصل الأمر ببعض القساوسة أنهم كانوا يقرأون القرآن بالعربية، وفقًا لرواية القس الإيطالي ريكاردوا المتوفي ١٤٢٠. ولا نغفل في هذا الشأن البطريارك يحيي، والملقب بحنا الدمشقي، الذي عاش في القرن الثامن، هو وأبيه، في قصر الخليفة الأموي، عبد الملك بن مروان في دمشق، والذي اعتبره الأوربيون أحد كبار علماء اللاهوت المدافعين عن المسيحية، ويجيء من بعده تيودور أبو قرة، عالم اليونانية والعربية، والذي ألَّف أكثر من أربعين كتابًا عن الإسلام واليهودية والمسيحية.

لقد ارتبطت هذه الصلات المعنوية بمجال اللاهوت والفلسفة بهؤلاء العلماء من أمثال بطرس المبجل ١١٤١، الذى درس أصول النظريات الإسلامية فى إسبانيا، ورامون لول، الذى صاغ لاهوته عن العرب ورسالته عن أسماء الله المائة، كل هذا وإن دل على شيء فإنما يدل على قوة اتصال الغرب بالفكر الدينى الإسلامى، وما يتعلق به وبأتباعه.

ولعل دراستنا هذه تقودنا إلى دُرر فترة تاريخية عايشها المسلمون فى الأندلس وذلك من خلال سطور رسالتين متبادلتين منذ أكثر من ألف سنة بين عاهل إنجلترا والخليفة العربى فى الأندلس . تكشف هاتان الرسالتان عن مدى عمق التلاحم بين الحضارات وسمو الحضارة العربية ودورها الرائد فى تقدم الحضارة العالمية. نقدم سطور الرسالتين ونترك التعليق للقارىء :

"من جورج الثانى ملك إنجلترا وغالة والسويد والنرويج إلى الخليفة ملك المسلمين فى مملكة الأندلس، صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام، بعد التعظيم والاحترام ، فقد سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضه الصافى معاهد العلم والصناعات فى بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة فى اقتفاء أثركم ونشر أنوار العلم فى بلادنا. وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة (دوبانت) على رأس بعثة من بنات أشراف الإنجليز لتكون موضع عناية عظمتكم ورعاية الحاشية الكريمة، وحدب من لدن اللاتى سيتولين تعليمهن. وقد أرفقت مع الأميرة الصغيرة هدية متواضعة لمقامكم الجليل، أرجو التكرم بقبولها ، مع التعظيم والحب الخالص، جورج"(١)

ولنا أن نمعن النظر فى إجابة الخليفة العربى على هذه الرسالة:

---

(١) تضمنت هدية سمو ملك إنجلترا ، الملك جورج إلى الخليفة العربى شمعدانين من الذهب الخالص مع أوان ذهبية للطعام عددها ٢٢ قطعة من روائع الفنون السكسونية، قارن : حسن أغا : الرقى العظيم ،الأهرام القاهرية ،٢٧ /١٠ /٢٠٠٤ ص. البريد الألكترونى.

"بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه سيد المرسلين، وبعد: إلى ملك إنجلترا وإيكوسيا وإسكندناوة الأجل، لقد اطلعت على التماسكم فوافقت بعد استشارة من يعنيهم الأمر على طلبكم. وعليه فإننا نعلمكم بأنه سينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم الملكى، أما هديتكم فقد تلقيتها بموفور السرور، وبالمقابل أبعث إليكم بغالى الطنافس الأندلسية، وهى من صنع أبنائنا هدية لحضرتكم وفيها المغزى الكافى على التفاتنا ومحبتنا والسلام ،،،هشام "(١)

نعود مرة أخرى إلى أستاذ الجيل أمين الخولى ، ونرى عرضه الموضوعى لحركة الإصلاح البروتيستانتى، وارتباطها بالعلوم الإسلامية، وإلى الدور الرائد والكبير الذى تركه العالم الأندلسى أبو محمد على بن أحمد بن حزم الظاهرى، الذى جعل من إسبانيا الإسلامية، مرآة صافية تتجلى فيها شتى المذاهب الإسلامية، وأداة مهمة وفعالة فى نقل تأثير العرب المسلمين للغرب المسيحى، أليس هو العالم الذى أخذ المعنى الظاهرى للقرآن والأحاديث الموثوق بها، ناقلا كافة أفكار الفرق الإسلامية، التى وُصفت بالشطط ونقدت نقدًا شديدًا، وأجاب على مواضع الاختلاف اليهودية والمسيحية وفاقت شهرته الآفاق لسنوات طويلة بعد وفاته وحتى يومنا هذا. ويرى الكثير من الدارسين الغربيين أن كبار رجال اللاهوت أمثال بطرس المبجل، استفادوا وعرفوا عن قرب آراء ابن حزم وعلى الأخص قيادات وزعماء حركة الإصلاح الدينى التى وجدت فى البيئة الألمانية تربة خصبة لها.

---

(١) - يضيف السيد حسن أغا فى مقاله المشار إليه بأنه كان على رأس هذه البعثة الأميرة دوبانت ومعها ١٨ (ثمانى عشرة) من بنات الأشراف والأعيان، يرافقهن إلى إشبيلية كبير موظفى القصر الملكى النبيل سيفليك. ويبلغ التلاحم الإنسانى ذروته إذا علمنا أن كثيرًا من هؤلاء المبعوثات لم يعدن بعد ذلك إلى ديارهن ،بعد أن ربط الحب والزواج بينهن وبين زملاء الدراسة من الفتية العرب ، منهن الأميرة البلجيكية مارى جوبيه التى أحبها وتزوجها الأمير حسن بن المهدى، وشونا ابنة الكونت سيرجاك الهولندى، وربيكا ستلرت من بنات العائلات الألمانية النبيلة. قارن : نفس المصدر السابق.

من جانب آخر لا يمكن أن نغفل أثر الإمبراطور الجرمانى، فريدريك الثانى، وتفضيله الثقافة العربية الإسلامية على الثقافة اليونانية، حتى لقبه الناس بالسلطان المعمد. وكان يعيش هذا الإمبراطور وفقًا لأسلوب عربى إسلامى، حتى أنه أنشأ قصورًا مستقلة خاصة للنساء. وهى ما يطلق عليها الغرب حاليًا لفظ "حريم". وقد كانت علاقة فريدريك الثانى هذا بالشرق حميمة، وبلغت أعلى قممها مع مصر وتونس، وخلدته زيجريد هونكه فى كتابها: "شمس الله تسطع على أرض الغرب" "Allahs Sonne auf dem Abendlan" و"جِمالٌ على معطف القيصر" "Kamele auf dem Kaisermantel".

ولا نغفل أن نذكر الفونس الحكيم ووالدته الأميرة سيفيفيا، الأسرة الحاكمة، لدولة بافاريا، وهو الأمير الذى يضارع فريدرش الثانى فى حبه للشرق والثقافة الإسلامية، ويُضم إليه الفيلسوف البرت الكبير، الذى كان أحد أصدقاء ابن الأمير فريدرش. وكل هؤلاء وغيرهم من المحبين للثقافة الإسلامية، لا شك أنه قد أصابهم حظ غير متواضع منها، ويعطى هذا الحب للثقافة الإسلامية القناعة بوجود صلات قوية مع البيئة الألمانية فى القرن الرابع عشر وهو القرن السابق مباشرة لحركة الإصلاح.

كانت مملكة بافاريا تمثل مركزًا للاهوت الكاثوليكى، على الرغم من أنها كانت معقلا لأعداء السلطة الكنسية من رهبان الفرنسيسكان، الذين عملوا فى بلاط الملك لودفيج (لويس)، وهم ما يُروى عنهم أنهم من أنصار الفلسفة الرشدية من أمثال مارسيليو دى بادوفا، وأوكام Occam، صاحب التأثير الفكرى القوى على مارتن لوتر، وهو الذى واجه ملك بافاريا فى هذا الشأن بقولته المشهورة: "دافع عنى بسيفك، أدافع عنك بقلمى."[١]

وإن دل هذا على شيء إنما يدل على قوة التأثير الإسلامى على الرهبان والفلاسفة والمتصوفة، وكذلك أيضًا على الجماعات الدينية، مثل جماعة "أخوة

---

(١) قارن أمين الخولى، ص٥٣ .

وأخوات الفكر الحر"، وذلك على المستوى الأوروبى بوجه عام، وعلى المستوى الألمانى "الميدان الأخير لحركة الإصلاح"، بوجه خاص. ونحن نتفق مع الأستاذ الخولى فى مبحثه الشيق المتعمق اتفاقًا تاما تجاه عرض النتائج التى تمخضت عن هذه الحركة، بداية من القرن الخامس عشر وحتى نهاية القرن السادس عشر، والذى يبين بجلاء ارتباط العقيدة الإسلامية كأحد العناصر القوية والمؤثرة فى حركة الإصلاح هذه وذلك على النحو التالى:

إلغاء سلطة الكنيسة والحد من هيمنتها على حياة الناس فى المجتمعات المسيحية. وكان ذلك انطلاقًا من تحرر بعض الكنائس فى الممالك الشرقية، التى دخلها الإسلام ووضعت تحت رعايته وحمايته. كما ساعد على ترسيخ هذا الأصل ما نتج من ضعف الحمية الدينية بعد انتهاء الحملات الصليبية.

١- تحرير العقل والفكر انطلاقًا من تأثير المعارف العلمية والفلسفة القادمة من الشرق الإسلامى، وخاصة فلسفة ابن رشد والتى قال عنها رينان فى مؤلفه "تراث الإسلام": "إن الرهبان الفرنسسكان كانوا الأنصار الأقوياء للفلسفة الإسلامية ومبادئ ابن رشد فى أوروبا...".[١] بهذا كان هؤلاء الرهبان أشد المقاومين للسلطة الكنسية، ولذلك كانت فلسفاتهم الملقبة بالفلسفة المدرسية تلقى مصير الحروب الصليبية، بعد أن أخذت على عاتقها فى البداية حماية العقيدة، على يد ألبرت الكبير وتوماس الإكوينى، ولكنها سرعان ما انتهت فيما بعد إلى إحياء حركة عقلية ترفض كل تدعيم للعقيدة أو حماية لها.

٢- ظهور حركات التجديد والخروج على الكنيسة، الذى كان نتيجة لصدى التقدم العقلى المتأثر بالفكر الإسلامى، مثل جماعة الفالدينيين المنتسبين إلى بطرس فالدوس فى مدينة ليون، والذين خرجوا على الكنيسة اقتناعًا منهم بأنها ابتعدت عن أصول الإنجيل، ولم يعتدوا بوساطة رجال اللاهوت، بل عملوا على هدم سلطة

---

(١) المرجع السابق ص٥٧ .

البابا. وقد عاش رواد حركة الفرنسيسكان والدومنيكان كمبشرين فى الشرق الإسلامى، واستمرت محاولاتهم إلى جانب التبشير بين المسلمين إعادة المسيحيين إلى الحياة المسيحية وفقًا لما جاء فى الكتاب المقدس[١].

وأخيرًا وليس آخرًا، فإننا نذكر فرقة "أخوة وأخوات الفكر الحر" فى بافاريا وسويسرا، التى يجنح أعضاؤها إلى شىء من التطرف، وهى الفرقة التى كانت توجهاتها متأثرة بآراء الفيلسوف إيمالاريكو ديبينا، الذى كانت صلته الوثيقة بالفلسفة الإسلامية معروفة، وقد نفت هذه الفرقة ألوهية المسيح ووساطة رجال الإكليروس.

هذا فيما يخص الآثار العامة، أما ما يخص الآثار الخاصة ذات الصلة والعلاقة الوثيقة بقيم ومبادئ الإصلاح البروتيستانتى فيمكن أن نرجعها إلى الأصول الآتية:

١- الأصل الأول، والذى غطى جميع الولايات الألمانية وشاع بين مؤيدى هذه الحركة والمتمثل فى رفض السلطة الكنسية الممثلة فى البابا ورفض المجامع اللاهوتية. وقد تمخض هذا الأصل بداية، على يد الفالديين فى القرن الثانى عشر فى جنوب فرنسا. ومن المعروف صلتهم الوثيقة بالثقافة الإسلامية القريبة منهم فى إسبانيا، وكما سبق أن ذكرنا أن رواد هذه الفرقة، هم من أشد القوى فى نقد السلطة الكنسية، وانتشار الكثير من الأعمال الأدبية بعد ذلك، ولنا فى مسرحية ليسسنج "ناتان الحكيم" قدوة حسنة كمسرحية تناقش فيها، قضايا الأديان الثلاثة. لقد أسست جماعة الفالديين حججها لنقد تأليه البابا والاعتراف بالقضايا وبيع صكوك الغفران التى قررتها كنيسة روما بمقولة: "إن كنوز الصالحات تدخر من أعمال الصالحين،

---

(١) تنتسب حركة الفرنسيسكان إلى الراهب فرنسيسكو الأسيسى الذى عمل مبشرًا بالشرق وهو صاحب اللقاء المشهور مع الملك الكامل فى دمياط، أما حركة الدومنيكان فترجع إلى الراهب دومنيكوس الإسبانى الأصل والمؤسس لديوان التفتيش فى طليطلة ١٢١٦". وكما سبق ان ذكرنا ان رواد هاتين الحركتين كانوا على صلة وثيقة بالبيئة الإسلامية مثل ألبرت الكبير وروجر بيكون وديننس سكوت وتوماس الإكوينى والإسكندر هليسى وغيرهم. (المؤلف)

ليباع منها لغيرهم" وكان تأثير الإسلام واضحًا على فكر هذه الجماعة لدحضهم فكرة بيع التوبة، التى كانت كفكرة أو كأصل تمثل إنجازًا كبيرًا من إنجازات الإصلاح البروتيستانتى التى استقاها لوتر من فكر الفيلسوف أوكام، وصاحبه بييل وائييل، وكان الإسلام فى ذلك حاسمًا قاطعًا:

"ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير" (فاطر، الآية ١٨)

„Keine Last tragende Seele nehmt die Last einer anderen auf sich. Und wenn eine Schwerbeladene zum Mittragen ihrer Last aufruft, wird nichts davon für sie getragen, und handelte es sich dabei um einen Verwandten. Du kannst nur diejenigen warnen, die ihren Herrn im Verborgenen fürchten und das Gebet verrichten. Und wer sich läutert, läutert sich nur zu seinem eigenen Vorteil. Und zu Allah ist der Ausgang."

"كل نفس بما كسبت رهينة" (المدثر، الآية ٣٨)

„Jede Seele haftet für das, was sie erworben hat"

"لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت" (البقرة، الآية ٢٨٦)

„ Allah erlegt keiner Seele mehr auf, als sie zu leiste vermag. Ihr kommt nur zu, was sie verdient hat, und angelastet wird hier nur, was sie verdient hat."

"يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يومًا لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا" (لقمان، الآية ٣٣)

„ o ihr Menschen, fürchtet euren Herrn und habt Angst vor einem Tag, an dem weder ein Vater etwas für sein Kind begleichen kann, noch ein Kind für seinen Vater etwas wird begleichen können."

كل هذه الآيات القرآنية كان يعرفها العديد من المثقفين الأوروبيين، الذين كانوا يجيدون اللاتينية، ولا شك أن المسيحية قد عرفتها، عندما كانت الكنيسة تبيع صكوك الغفران وتستغلها لتأييد سلطاتها. وقد تأثر لوتر بفلسفة أوكام التى اعتبرت أن حكومة الخلفاء الراشدين أفضل الحكومات، وأن أشد أنواع الظلم يجىء من ظلم رجال الدين، هذه الحكومة الراشدة التى لا تعطى لنفسها شيئا من السلطان الدينى على الأشخاص، ولا تحتفظ لنفسها بشىء من التميز.

٢- الأصل الثانى، من أصول الإصلاح اعتمد على فكرة أن النجاة والخلاص مرتبط بتصحيح العقيدة. فالنجاة منحة من الله يتلقاها كل إنسان من ربه، ودون العمل التوسطى للكنيسة فى ذلك، إذ لا وساطة للكنيسة بين الله والناس. إنها عبارات لوتر التى أراد بها إبعاد العقيدة، عن رجال الكنيسة وأن يجعلها حقًا لكل فرد، ولا احتكار لأحد فيها، وهى الأفكار التى أدت إلى إلغاء سلطة البابا، بل بدا لبعض الأوروبيين أن هذه الفكرة وجدت صداها فى تصوف مايستر إيكهارت الألمانى، والذى تغنى "بأن الروح الإنسانية، نفحة من الأذى وشرارة إلهية، فلا ينبغى أن يقوم شيء من الوسائط بين الله والعقل، بل يتم الاتصال السريع بينهما مباشرة، ولا شك أن هذا المتصوف الألمانى كان متأثرًا بفلسفة الإمام الغزالى بشهادة العديد من الأوروبيين أنفسهم.[١]

٣- الأصل الثالث، ويتمثل فى أن كلمة الله، هى الرابط الوحيد وأن السلطة مرجعها الكتاب المقدس وحده، ولا شىء غيره ونبذ ما هو غير ذلك، سواء جاء من البابا، أو من المجامع، أو من رجال اللاهوت، وهى فكرة تلاءمت وروح

(١) ولد إيكهارت فى عام ١٢٦٠ فى مدينة شتراسبورج ودرس اللاهوت فى باريس، وعرفت مدرسته باسم المدرسة الصوفية الألمانية وهو أحد كبار الدومنيكان. (المؤلف)

التجديد الديني. ويرى البعض أن هذه الفكرة هي تلك التي قال بها الفالدينيون، متأثرين بإسبانيا الإسلامية المجاورة لهم والمستندة لفلسفة ابن حزم الذي نادى بأخذ العقيدة من الكتاب وصحيح السنة فقط.

٤- الأصل الرابع، وهو تفسير الكتاب المقدس وحق شرحه وتأويله، وهي الفكرة التي نادت بها حركة الإصلاح البروتيستانتي، بأن كل مسيحي له الحق في تفسير الكتاب المقدس وتأويله، ولقد اصطدمت هذه الفكرة مع الكنيسة الكاثوليكية، كما يرجع هذا الأصل الذي نادى به لوتر إلى العلاقة المتشابهة بين الدين والفلسفة، التي سادت العصور الوسطى، وإلى آراء ابن رشد التي ضمنها كتابه: "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال"، وهي الفكرة التي حاولت الكنيسة الكاثوليكية أن تقضي عليها في مهدها، من منطلق أنها السلطة الوحيدة صاحبة الحق في تفسير نصوص الإنجيل. ومعروف أن هذا الأصل يقول به علماء التفسير في الإسلام، وينادون بتحكيم الأصول الأدبية والعقلية عند الاشتغال به، ودون سلطة لأحد بعينه في ذلك، أو الرجوع لسلطة معينة تتولى مراقبة هذا التفسير.

٥- الأصل الخامس، الذي صار حوله جدل كبير وهو قضية سر التناول، سواء أكان هذا الجدل بين المذاهب المسيحية المختلفة، أو بين المدارس الإسلامية. ويطلق على هذا المصطلح "الأفخارستية"، وهو المبدأ الذي يعني التحول الحقيقي لجسد المسيح ودمه في القربان، إلى الخبز والنبيذ. وقد اعتمد زعماء الإصلاح في فكرتهم هذه، بما قال به الراهب بطرس اللومباردي والفلاسفة أوكام، وإيلي ومن بعدهم، مارتن لوتر. وتمخضت هذه الفكرة من المعاناة المتعلقة بالتوفيق بين الدين والفلسفة ، ويطلق رجال اللاهوت "مصطلح التناول" إستنادًا إلى العشاء الأخير الذي تناوله المسيح مع تلاميذه وحواريه.

٦- الأصل السادس، "قضية الصور"، وهي القضية التي نادت بإبطال عبادة الصور ورفعها من الكنائس. بل وصل الأمر في بعض الأحيان إلى تدنيسها وتحطيمها، ويرى المؤرخون أنها قضية قديمة قدم التاريخ المسيحي نفسه، وأنها نشأت في عصور مبكرة قبل عصر الإصلاح، بل يقال إن فكرتها نشأت قبل ظهور

الإسلام. ويروى عن إمبراطور القسطنطينية الملقب باليساويرى ٧٢٦م أنه أقلق سلام الكنيسة وقام بتحطيم الأصنام داخلها.

وينهى أستاذ الجيل الأستاذ أمين الخولى مبحثه الفريد هذا، بعبارة لألفريد جيوم، تضمنها كتابه: "تراث الإسلام- الترجمة العربية"، تتسم - من وجهة نظرنا- بالموضوعية والحيدة العلمية الحقة، ونصها:

"سوف نرى عندما تخرج إلى النور الكنوز المودعة فى دور الكتب الأوروبية، أن تأثير العرب الخالد فى حضارة العصور الوسطى، كان أجل شأنًا وأكبر قدرًا مما عرفناه حتى الآن." (١)

ويعلق الأستاذ الخولى بأن ذلك قد يحدث، إذا ما توافرت الرغبة العلمية لدراسة هذه الصلة بين الديانتين فى نزاهة وإخلاص. وحتى يتيقن المرء أن أثر الإسلام فى حياة أوروبا الدينية لا يقل قيد أُنملة عن أثره فى حياتها الفلسفية والعلمية والفنية.

---

(١) قارن أمين الخولى: صلة الإسلام بإصلاح المسيحية، ج ٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٧٨.

كلمة ختامية

الخلاصة والنتائج

بعد العرض الذي تضمنته فصول الكتاب السابقة عن مارتن لوتر وحركة الإصـــلاح البروتستانتي والتي يتبين منها مـــدى اقترابها من قيم الإسلام ومبادئه أو ابتعادها عنه، كان لزامًا علينا أن نستخلص ما يلي:

١- لم تنل الأبحاث العلمية المتعلقة بحركة الإصلاح المسيحي ومدى صـــلتها بالإسلام حظها من الاهتمام إلا بعد انشغال الغرب بأحداث الثورة الإيرانية عام ١٩٧٨م وانهيار المعسكر الشيوعي كقوة عظمى أمام قـــوة الولايـــات المتحدة الأمريكية التي بدأت تظهر على الساحة الدولية. وهنا نشأت فكرة حوار الحضارات وحوار الأديان؛ سواء كان هذا الحوار بين الإسلام كدين وبين غيره من الأديان الأخرى أو بين حضارة الإسلام وحـــضارات دول العالم، شرقه وغربه، شماله وجنوبه.

٢- من بين هذه الدراسات القليلة ما تعرض للصلة بـــين الإســـلام والحركـــة الإصلاحية التي قادها الراهب "مارتن لوثر"، والتي يستبان فـــي بعـــضها تقارب ما بين قيم الإسلام ومبادئه، وفي بعضها الآخر تباعد عنه. ويعـــد هذا التقارب من الإسلام أو التباعد عنه نابعًا من الخوف والقلق الذي تركه زحف الأتراك الساحق داخل الممالك الأوروبية، والـــذي لـــم تـــنج منـــه الأراضي الألمانية التي اندلعت فيها حركة الإصلاح الديني آنذاك، الأمـــر الذي أدى إلى قيام علاقات وصلات دبلوماسية مـــع العاصـــمة التركيـــة "إستانبول" من قِبل القيصر الكاثوليكي الشاب "كارل الخـــامس" و"مملكـــة البندقية" وبعض أمراء المناطق البروتستانتية الألمانية.

٣- خلق هذا الزحف التركي والقلق الذي انتاب مسيحي أوروبا والغرب موقفًا مشابهًا كالذي نعيشه في عصرنا الحاضر، وهو قيام أولي الأمـــر آنـــذاك بالعمل على تأمين ممالكهم من هذا الخطر المتجسد في الأتراك المسلمين، وفي الاهتمام المتزايد لدى الطبقة المثقفة في معرفة المزيد عن حـــضارة وديانة هذا العدو الزاحف، ولتكون هذه المعرفة سلاحًا جيدًا في مواجهـــة

هذا الخطر، الأمر الذى حفز شعوب هذه الممالك إلى المزيد من دراسة القرآن والعلوم الإسلامية، والذى أدى بدوره إلى ظهور العديد من المؤلفات والمطبوعات للتعريف بالأتراك وإحياء حركة ترجمة القرآن، التى صدرت بداياتها فى العصور الوسطى. وهذا ما نلاحظه بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ من رواج ملحوظ لدور النشر التى تهتم بكل صغيرة وكبيرة لها صلة بالعقيدة الإسلامية ومن نفاذ الطبعات فى هذا المجال نتيجة الإقبال الشديد على اقتنائها ودراستها. وكان لمارتن لوتر إسهامه الواضح فى هذا الصراع المحتدم من منظور خوفه كراهب ومصلح على مسيحيته وأتباعها، وخاصةً حينما شاهد العديد من أتباع ديانته يعتنقون الدين الإسلامى فى البلاد التى حكمها الأتراك.

٤- اتجهت نية مارتن لوتر إلى محاولة ترجمة القرآن بنفسه إلى الألمانية، مثلما فعل فى ترجمة الإنجيل، إلا أن عدم معرفته بالعربية، وتزايد مشاغله مع المناوئين لحركته والرافضين لتوجهاته الإصلاحية ولعقيدة التثليث والمعمِّدين الجدد أعاقه عن تنفيذ هذا المشروع. ولهذا ترسخت معرفة لوتر للإسلام من خلال ما سمعه عن الأتراك وهى معرفة اتسمت بالسطحية، مما نتج عنها بأن وضعهم ضمن أعداء عقيدته من الملاحدة واليهود علاوة على كونهم غزاة قضوا على الأخضر واليابس فى الممالك الأوروبية التى استولوا عليها. وهو الأمر الذى زاد من حدة مارتن لوتر فى هجومه عليهم وعلى عقيدتهم، التى اعتبرت نبيهم محمدًا خاتم الأنبياء، وهو بذلك قد احتل موقع المسيح، مما بدا للوتر أن تلك العقيدة تمثل العدو الثانى للعقيدة المسيحية وتفريغًا لمضمونها.

٥- يشرع لوتر فى تأليف بعض الكتب عن هذا العدو التركى بهدف تحفيز شعبه للوقوف ضد هذا العدو من منظور سياسى وليس من منظور لاهوتى، ولأن حربه بالسيف – حسب معتقده – ليست وسيلة من وسائل

الكنيسة، اللهم إذا كان الأمر يتعلق بالدفاع عن الوطن وحمايته. واعتبر لوتر الإسلام بأنه عقيدة جماعة مسيحية ضالة من الهراطقة وخليط من اليهودية والمسيحية وبعض الأديان الوثنية الأخرى. إلا أنه لم يغفل في نفس الوقت الإقرار بعقلانية المفاهيم الإسلامية وخاصة في سنواته الأخيرة، التى رأى فيها الخطر المحدق بالكنيسة وبمشروع حركته الإصلاحية.

٦- انتهى لوتر إلى القناعة بأن انتصار الأتراك ما هو إلا عقوبة إلهية ضد الفساد الذى شاع بين المسيحيين، وأن نهاية العالم لاشك قادمة، ويجعل من البابا والتركى العدوين الأساسيين للمسيحية، فالبابا يمثل العدو الأول والأكبر والأخطر؛ لأنه يمثل الشيطان القابع فى عقر دار المسيحية، أما التركى ونبيه محمد فتأتى عداوته فى المرتبة الثانية بعد البابا- ولهذا جاء تفسيره لنصرهم ونجاحاتهم بأنها عقوبة إلهية. فالخطر التركى عنده هنا خطر عدو قادم من خارج الكنيسة مثله فى ذلك مثل خطر اليونان والرومان وغيرهم من الوثنيين.

٧- اعتمد مارتن لوتر فى حكمه على الأتراك وعقيدتهم على المعارف السائدة التى قال بها من سبقوه من علماء اللاهوت المسيحى فى العصور الوسطى من منظور معايشته الشخصية للدمار الذى ألحقه الأتراك بالممالك الأوروبية، هذا علاوة على عدم احتكاكه بالمسلمين العرب بسبب بعدهم الجغرافى عنه. إلا أنه لم ينكر العديد من العناصر الإيجابية لحضارة الأتراك مقارنة بمثيلتها فى ألمانيا، وشجبه للسلوك الفاحش الذى يحدث كثيرًا من النساء الألمانيات، وكثيرًا ما كان يُذكِّر بنى جلدته بالنقاط الإيجابية عند الأتراك المسلمين الذين لا يشربون الخمر ويقتصدون فى الطعام والشراب ويرتدون الثياب المتواضعة والنظيفة ويؤدون الصلاة فى صفوف متجانسة ومتآلفة، بالإضافة إلى ترابطهم وتسامحهم وشجاعتهم فى

قول الحق وهى الأمور التى لا تتوافر عند الكثير من مسيحى أوروبا آنذاك.

٨- أسهم مارتن لوتر فى إصدار الترجمة الألمانية للقرآن، والتى اضطلع بها صديقه الراهب "ببلياندر" عام ١٥٤٣ فى مدينة بازل، رغم الخطورة التى أبداها رجال اللاهوت حيال هذا الأمر. وما كان لهذه الترجمة أن تصدر إلا بعد أن قدم لها "مارتن لوتر" ، وضمَّنها وجهات نظره، الأمر الذى دفع أولى الأمر إلى الموافقة على طبعها ونشرها.

وكان لا مفر أن يستعين "مارتن لوتر" بالمعارف السائدة آنذاك داخل الكنيسة والتى تتعلق بدحض القرآن، وإبراز ما جاء فيه من تناقضات تضمنتها الترجمة اللاتينية لـ"ريكاردو دى مونت كروز"، الأمر الذى جعل بعض المؤرخين لسيرة لوتر يعيبون عليه أنه كان من الأحرى به أن يسترشد بترجمة الراهب "نيقولاوس الكوزاني"، والتى كانت تمثل آنذاك معبرًا جيدًا ومحاولة جادة لفهم الإسلام. إلا أن عقيدة " مارتن لوتر" كراهب ومصلح دينى أصبحت راسخة فى أعماقه، ويصعب عليه تغييرها أو الإقلاع عنها، وخاصة بعد قناعته الكاملة بعدم إمكانية تحقيق مشروعه التبشيرى فى تنصير الأتراك واليهود، ومحاولة إدخالهم حظيرة المسيحية، الأمر الذى سبب له المزيد من الاحباط واليأس:

"لم يكن فى استطاعتنا البتة تنصير هؤلاء المسلمين، وخاصة الأتراك منهم، ذلك لأنهم شديدو الثبات فى عقيدتهم، وبالمثل فإنهم شديدو الثبات فى السخرية من عقيدتنا، ولا يتحرجون من إبداء هذه السخرية عبر الضحك والاستهانة بنا، علاوة على ذلك فإن الأتراك واليهود كليهما يعتبران أن الإنجيل كتاب مقزز لا يريدون حتى مجرد ذكره أو سماع اسمه."

ومن هنا جاء رد فعله فى نهاية الأمر بأن الأتراك من بين أشد الأعداء الذين ينبغى محاربتهم، من خلال معرفة دقيقة لكتبهم وعقيدتهم، حتى يمكن الانتصار عليهم.

٩- تيقن لوتر أن الإسلام يخلو من عقيدة التثليث ويرفض ألوهية المسيح وبنوته، ومن هنا جاء حكم لوتر السلبى عن الإسلام، الأمر الذى يكاد أن يكون قلبًا لنظرية التحريف من جانب "ريكاردو" والتى قال بها المسلمون عن المسيحية، وهو إن دل على شيء فإنما يدل على تناقض واضح، إذ كيف يكون محتوى القرآن خليطًا من كتبهم السابقة، وكيف يكون فى نفس الوقت أمرًا خاطئًا رغم إغفالهم التام ذكر القرآن في العهد القديم أو الجديد.

١٠- ينتقد لوتر ما تضمنه القرآن من أساليب بلاغية وتعبيرات جمالية، وخاصة فيما يتعلق بتأثيرها حينما تتلى على السامعين من المسلمين، واعتبر هذا الأمر غير مرغوب فيه ومَعيب فى نفس الوقت، من منظور أنه على الكتب المنزلة والموحى بها أن تنأى عن ذلك. ويمثل هذا الرأى من وجهة نظرنا تناقضًا لا يتفق وقيم حركته الإصلاحية الإنجيلية، التى اعتمدت أساسًا على تمجيد لوتر للغناء والموسيقى والإنشاد، وسلاح اللغة وجمال أساليبها وقوة تأثيرها على جماهير الشعب، وهى القيم التى لولاها ما كتب لحركته الإصلاحية النجاح. ورغما من تناقضه هذا إلا أنه اعتبر دراسة القرآن وفهمه أداة فعالة لمحاربة أعدائه، الأتراك وغيرهم، وعلى رأسهم عدوه الأساسى المتمثل فى بابا روما، وكافة الحركات المناهضة له والذين خالفوه الرأى، وعلى رأسهم الراهب العالم "ميشائيل سيرفيت".

١١- أبانت دراستنا لتوجهات "لوتر" الإصلاحية أمورًا مثيرة وغريبة ومتناقضة فيما يخص صلة العقيدة المسيحية بالعقل الإنسانى وإنكاره لقدرات هذا العقل، بل واعتبر استخدام العقل فى الأمور العقائدية ضربًا

من الحماقة ونوعًا من الغباء، رغم أنه فى سنواته الأخيرة تقبل توجهات الفلسفة المدرسية التى نادى بها "توماس الأكوينى"، والتى حاولت أن تجد حلاً توافقيا لهذا التناقض بين المسيحية والعقل، وذلك من خلال إحياء آراء "أرسطو" و"ابن سينا" و"ابن رشد" و"ويليام فون أوكام"، والتى حددت قدرات العقل الإنسانى تجاه الرب، وأن الأعمال الصالحة كثرت أو قلت فهى مجرد جهد إنسانى لعقله، الذى هو فى الأصل منة من الإله، الأمر الذى قاد "لوتر" أن يرى فى هذا العقل نبعا إنسانيًا مبتكرًا، ومنحة إلهية يتمتع بها المؤمن والكافر. إلا أنه لم يذهب بعيدًا عما انتهت إليه المدرسة الفلسفية انطلاقًا من مبدأه أن تكون الفلسفة خادمة للعقيدة وليس العكس، واعتبر أن العقل من هذا المنظور أمرًا تحوطه الغرابة، حتى أنه شبه العقل الأرسطى بامرأة عاهرة. ومن ثم يرى "لوتر" أن العقل ينبغى ألا يخرج عن إطار وظيفته الدنيوية المحدودة، وألا يتدخل فى أمور العقيدة، وألا يكون وصيًا أو رقيبًا على الرب. وهنا يمكن الإشارة إلى مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية البالغة الأهمية فى هذا الموضوع التى أعطت فكرا غير مسبوق فى بيان العلاقة بين العقل والنقل وإزالة التناقض الظاهرى الذى قد ينشأ بينهما بسبب عدم صحة النقل أو عدم صراحة العقل.

ثمة تناقض آخر نجده أيضًا عند "مارتن لوتر" فى صياغته لحكايات "إيسوب" والتى صاغها على لسان الحيوان والطير، وفى إكسابها قيمًا تقوم على العقل والحكمة، فضلاً عن ذلك إطراؤه للعلم الوافر الذى أفاء به علماء المسلمين على الغرب المسيحى فى مجال الفلك والطبيعة والطب والرياضيات، وواصفًا إياهم بالعقلانيين مثلهم فى ذلك مثل مفكرى اليونان والرومان مثل "أفلاطون" و"شايشرون"، ورغم تمجيده إياهم اعتبرهم فى نفس الوقت ممن ضلوا الطريق لاستخدامهم العقل والفلسفة.

١٢- رغم هذه التناقضات التى وقع فيها "لوتر" إلا أننا نرى فى قيم حركته الإصلاحية أنها اعتمدت فى المقام الأول على تقديم الرأى العقلانى ضد العقيدة المسيحية السائدة آنذاك والتى أصابها الجمود والركود وطغيان المادة واستغلال البسطاء، الأمر الذى انتهى "بلوتر" إلى نقده المرير لصكوك الغفران وحياة العزوبة والرهبنة لرجال الإكليروس وتقديس رفات الأولياء وتماثيلهم وصورهم وتوسط رجال اللاهوت بين العبد والرب، وانتهى إلى رفضها، الأمر الذى دعا كثيرًا من الدارسين شرقًا وغربًا إلى القول بالتقارب الشديد بين قيم حركته الإصلاحية وبين قيم ومبادئ الإسلام.

١٣- تطرقت كوكبة من كبار المفكرين المسلمين فى دراستهم لحركة الإصلاح الدينى فى أوربا بوجه عام وألمانيا بوجه خاص، وبالتالى لرائد هذه الحركة وزعيمها الراهب "مارتن لوتر". وانتهى هؤلاء المفكرون فى دراساتهم المرتكزة على عقلانية الدين الإسلامى وقيمه الرافضة أوجه الفساد فى المجتمع، وذلك قياسًا بما كان سائدًا فى تقاليد الكنيسة الكاثوليكية الجامدة، والتى ثارت عليها حركة الإصلاح البروتستانتى، مقدمة بذلك مجموعة من المبادئ والحجج الإصلاحية مضيفة تقاربًا مع المنظور الإسلامى، وخاصة فيما أدلت به فى قضايا عصمة البابا، وسلطاته المطلقة فى تفسير الكتاب المقدس، وتوسط رجال اللاهوت فى غفران خطايا البشر، علاوة على رفض الرهبنة وحياة العزوبية، وتقديس رفات القديسين وصورهم ومخلفاتهم.

١٤- حفز أولئك المفكرون المسلمون فى حكمهم وتقييمهم لحركة الإصلاح الدينى وذلك لما تدعو إليه من الأمور الإيجابية مثل رفض حياة المعاناة والبؤس التى لقيها بسطاء المؤمنين الفقراء، والأخذ بالجوانب المشرقة الإنسانية، وأن يكون رجوع أولئك المؤمنين إلى الله مباشرة ودون

وساطة، ودعوة رجال الإكليروس للزواج كشريعة إلهية، وحق التعلم والعمل، والاستمتاع بكافة مباهج الطبيعة كمنةٍ وهبةٍ عظيمةٍ من قبل الرب.

١٥- ويلاحظ على وجهات نظر الدارسين من المسلمين بداية من "الإمام محمد عبده" وحتى يومنا هذا أنهم أغفلوا الجوانب السلبية والتناقضات التى وقع فيها مارتن لوتر وعلى رأسها آراؤه السلبية ضد الإسلام والمسلمين المتمثلين فى الأتراك الذين عرفهم عن قرب.

واقتصرت دراستهم فى التركيز على أوجه التقارب بين حركة الإصلاح وبين المفاهيم الإسلامية، ولعل أبرز مثال واضح لذلك هو ما عرض له المؤرخ الإسلامى "الدكتور حسين مؤنس" من تمجيد لشخصية مارتن لوتر كراهب قدوة، وكرجل من رجال الله الصالحين، رغم موقفه العدائى الواضح من ثورة الفلاحين فى وطنه، ودعمه للأمراء والنظام الإقطاعى.

١٦- اعتبر "الدكتور/ محمد خليفة حسن" حركة الإصلاح الدينى المسيحى مجرد تغيير كنسى داخلى بهدف معالجة الأحوال المتدهورة فى الإكليروس الكاثوليكى داخل بابوية روما، بداية من حركة الفالدينيين، وجماعات الرهبان المتسولين أمثال "الوكليفيين" و"الهوسيتيين"، وعلماء حركة الإنسانيات أمثال "أولريش فون هوتن" و"جون ويكلف" و"يان هوس" و"جيروم البراجي"و"سافونا رولا"، ونهاية "بمارتن لوتر"، و"كالفين"، و"إرازموس فون روتردام"، و"تسفنجلي". ويستقر فى وعى "الدكتور خليفة" وجود تطابق واقتراب للتوجهات البروتستانتية مع الرؤية الإسلامية، إلى جانب تجاوبها مع النقد الاسلامى للمسيحية، كما ورد فى القرآن الكريم وفى المصادر الإسلامية الأخرى.

أما ما أثاره الدكتور محمد خليفة بشأن إمكانية حدوث تأثير إسلامى من عدمه على زعماء حركة الإصلاح، وعلى رأسهم مارتن لوتر نفسه، تأتى إجابته على النحو التالى وهو أن هناك بعضًا من الدراسات الغربية فى هذا الشأن، إلا أنه أغفل ذكرها تمامًا، متعللاً بأنها غير وافية.

ولعل الدراسات التى عرضنا لها فى هذا الشأن – وهى دراسات تفصيلية – تتعلق بحركة "لوتر" الإصلاحية والإسلام لتعد بمثابة رد كاف على تساؤل "الدكتور خليفة". وعلى رأسها العديد من مقالات "لودفيج هاجمان" و"إدموند فيير" و"فالتر بلتز"، "هارتموت بوبتسين" و"جيرنوت روتر" وغيرهم، علاوة على اشتغال "لوتر" بترجمة القرآن، ومحاولة دحضه، ولم يكن اهتمام مارتن لوتر بالإسلام أمرًا فرعيا، ولكن كان من القضايا الجوهرية التى كابدها وعايشها كما أسلفنا.

١٧- ذهب الدكتور "السيد محمد الشاهد" فى عرضه الموجز لأهم الشخصيات التى عارضت سلطة رجال الكنيسة المطلقة، الأمر الذى أدى إلى تأخر تطور الحضارة الأوروبية فى العصور الوسطى عن غيرها، واعتبر دخول الفكر الإسلامى كعقيدة إلى الغرب، كمحرك للعقل الأوربى، وأن "مارتن لوتر" على رأس من اهتموا بدراسة القرآن، بل وعقد العزم على ترجمته، ورغم حملته القاسية على القرآن ونبى المسلمين، إلا أنه لم ينج من اتهام معارضيه من رجال الإكليروس بأنه يريد إقامة "مملكة محمد" فى أوروبا بدلاً من "مملكة عيسي"، وينتهى "الدكتور الشاهد" إلى تقارب واضح بين تعاليم المذهب البروتستانتى وبين تعاليم الإسلام.

١٨- يخلص "الإمام محمد أبو زهرة" فى محاضراته عن النصرانية إلى وجود تقارب جلى بين قيم الإصلاح الدينى البروتستانتى وبين قيم الإسلام، ولم يكن هذا ليحدث إلا مع سيادة العقل الإنسانى لدى مثقفى أوروبا، الذين رأوا عن قناعة ومن خلال الدراسات التى تلقوها على يد أساتذة مسلمين، مستبشرين

بروح عقيدتهم التى ترفض أية سلطة لأحد من رجال الدين على قلوب المؤمنين، وأنه لا توجد وساطة بين الله والعبد، ويستطيع العبد أن يدعوه فى كل وقت، فيجده قريبا منه.

ونجد ثمة تشابه بين رأى "الإمام محمد أبو زهرة" والاتجاه الذى عرض له "الدكتور الفيومي" حينما ذكر أنه لولا المسلمون لبقى الأوروبيون يهيمون فى ظلمات الجهل، ولو لم يأت المسلمون إلى أوروبا لَما نشأت البروتستانتية.

علاوة على هذا ينتقد "أبو زهرة" دور الكنيسة الكاثوليكية وطريقها الخاطئ الذى ظهر واضحًا فى قرارات المجامع الكنسية التى عقدتها، وإصدارها للعديد من قرارات الحرمان والطرد لكل مفكر يوافق رأيه العقل ويخالف رأى الكنيسة، ووصل هذا الاستبداد الكنسى قمته فى إرهاق المسيحيين وفرض الضرائب الباهظة عليهم من قبل الكنيسة، وإذا بهم ينفقونها بترف بالغ فى متاع الدنيا العارض، حتى أنها سنت بدعة " صكوك الغفران"، التى مكنت رجال الكنيسة من ابتزاز أموال الناس لينالوا بها عرض الدنيا، وفى نفس الوقت لينال بها العصاة الهراطقة دون حرج مغفرة الرب، مما جعلهم يرتكبون ما يشاءون من معاصٍ لقناعتهم بأن هذه الصكوك سوف تغفر لهم ما تقدم وما تأخر من ذنوبهم. ويعرض "الإمام/ أبو زهرة" فى إيجاز شديد للسيرة الذاتية "لمارتن لوتر" وإلى نزعته الدينية وزيارته لروما مقر الكنيسة المقدسة، ليجدها مدينة لاهية عابثة، حيث يرى بنفسه أقرانه من رجال الإكليروس الذين دنستهم المفاسد زاعمين أن بيدهم مفاتيح الملكوت فى السماوات والأرض، وسر التوبة، وأبواب الغفران. ورغم ثورة لوتر على أولئك الغلاة فى الفساد فإنه لم يكن يرغب على الإطلاق هدم الكنيسة وإنما كان يريد إصلاح حالها، وحال رجالها، وإعطائهم من الحق ما أعطته لهم الكتب المقدسة. وكان من أهم إنجازه فى هذا الشأن

انشغاله بترجمة الإنجيل إلى الألمانية ليجعل لكل مسيحى مثقف الحق فى فهم نصوصه، وليتمكن كل ألمانى من قراءته واستخدامه فى أمور دينه ودنياه، هذا ولا ينسى "الإمام/ أبوزهرة" إبراز آراء بعض زعماء حركة الإصلاح الآخرين أمثال: "تسفنجلي" فى سويسرا و"كلفين" فى فرنسا.

وينتهى "الإمام أبو زهرة" فى دراسته القيمة إلى حصر لأهم قيم ومبادئ الإصلاح المتمثلة فى الرجوع لنصوص الكتاب المقدس وفى رفض مبدأ الرئاسة والتدرج الوظيفى فى الكنيسة، كذلك رفض سلطة الغفران لرجل الدين، وعدم الصلاة بلغة غير معروفة أو مفهومة، ورفض الرهبنة والعزوبية، وأخيرًا إنكار قدسية الصور والتماثيل ورفات القديسين. ورغمًا من كل هذه الايجابيات يرى "الامام أبو زهرة" أن حركة الإصلاح لم تسر إلى مسك ختامها وذلك بعودة تلك الديانة إلى جذورها الأولى التوحيدية وسارت فى طريق آخر وذلك بسبب ما دعت إليه كافة المجامع الكنسية، وأن يتجه المسيحيون إلى لب العقيدة، مستشهدًا فى ذلك برأى "رينان" و"تولستوى"، واعتبار المسيح رسولاً كغيره من الرسل، وأن الله واحد أحد يعتقد به اليهود والمسيحيون والمسلمون.

١٩- عرضت دراسة "الشيخ أمين الخولى" لصلة الإسلام بالإصلاح المسيحى فى أوروبا والتى أعدها أثناء إقامته فى إيطاليا (روما)، وعرض بعض قطوف منها فى مؤتمر "بروكسل" عام ١٩٣٦ بتكليف من شيخ الأزهر آنذاك "الشيخ محمد مصطفى المراغي". إلا أن هذه الدراسة لم تجد الاهتمام الكافى من قبل الدارسين المسلمين أو من غيرهم، اللهم ما جاء بشكل هامشى عابر من بعض أقرانه وتلاميذه من أمثال "الإمام أبو زهرة" و"محمد الفيومي" و"عبد الرحمن بدوى" و"محمد عمارة"، بل أن البعض منهم للأسف قد أغفلها إغفالاً تامًا – رغم أنها دراسة سابقة لدراساتهم بأكثر من سبعين عامًا – خاصة فيما عرض له " محمد خليفة" و" السيد الشاهد".

ولا شك أن الدراسة التى قام بها "الشيخ الخولي" تعد من الدراسات الجادة، والتى تُعدد الصلات والتأثيرات المتبادلة بين حركة الإصلاح البروتستانتى وبين القيم والمبادئ الإسلامية التى سادت أوربا فى العصور الوسطى.

وانتهج "الشيخ الخولي" منهاجًا علميًا مقبولاً، حيث أبرز محتوى الاتصال المادى والمعنوى بين قيم الإصلاح البروتستانتى وقيم الإسلام، وما تركته حركة الاصلاح من آثار على الحياة الفكرية الأوروبية، كما يعرض "الشيخ الخولي" بعضا مما ذكره مؤرخو الغرب عن فلول الجنود المسلمين الذين انقطعت بهم السبل أثناء الفتوحات الاسلامية فى أوروبا، وطاب لهم المقام، وأن ما تبقى منهم بعد هزيمتهم فى فرنسا على يد "كارل مارتل" فى معركة "توروبواتيه" عام ٧٣٢م، أن انتشروا فى أنحاء عديدة فى جنوب أوروبا، وسيطروا على العديد من المناطق فى إيطاليا وفرنسا وألمانيا فى الفترة من القرن الثامن وحتى القرن الرابع عشر، وأحكموا سيطرتهم على الطرق بين جنوب وشمال أوروبا، بل ويذكر "الشيخ الخولى" أنهم أقاموا لسنوات طوال بمدينة "أفنيون" التى أصبحت فيما بعد مقرا أساسيا للبابا؛ وهو الأمر الذى يعنى به "الشيخ الخولى" بالاتصال المادى. وينهى الشيخ الخولى مقولته هذه بأن هؤلاء استوطنوا فى هذه المناطق من أوروبا وعمروا وتزوجوا ونسلوا فيها. ويرى "الشيخ الخولى" أن هذا الاتصال قريب الشبه بما حدث فى الممالك الصليبية فى الشرق والأندلس وجزر البحر المتوسط، وفى النهاية يخلص "الشيخ الخولى" بأن هؤلاء الجنود الذين أصبحوا فيما بعد من سكان أوروبا يمثلون نواة المصلحين والثائرين على ظلم الكنيسة الكاثوليكية واندلاع حركات الإصلاح السابقة "لمارتن لوتر" من منظور تشبعهم بالفكر الإسلامى قبل استقرارهم النهائى فى هذه المناطق واحتكاكهم بسكانها.

أما فيما يخص الاتصال الروحى فقد تمثل فيما عرف بحرب المنشورات المتبادلة، وتوظيف سلاح اللغة نثرًا وشعرًا بين كلا الطرفين المتحاربين، وكانت هذه المنشورات تحوى الكثير من القيم لكلا الديانتين. وخاصة فى

أوقات الهدنة، حيث يسود السلام بين كلا الطرفين وليلعب الاتصال الدبلوماسى والسياسى دوره فيها بين قيادات الطرفين، ويركز "الشيخ الخولى" فى دراسته هذه على اهتمام الأوربيين البالغ بالعلم العربى وباللغة العربية، وعلى رأسهم الإمبراطور "فريدريش الثانى" وابنه "مانفريد"، وتشجيعهم لحركة الترجمة من العلم الإسلامى والفلسفة الإسلامية، وتظهر أسماء عربية فى سماء أوروبا أمثال: "الكندى" و"الفارابى" و"ابن سينا" و"ابن رشد" و"الغزالى"، وهم الأعلام الذين ترجمت معظم أعمالهم إلى اللغة اللاتينية، واستقبلها كثير من علماء أوروبا استقبالا طيبًا، مما حدا بمجموعات منهم إلى انتقاد سلطة الكنيسة وسيطرتها على الحياة العامة، وكان ذلك نتيجة منطقية للتأثير الإسلامى على آرائهم، وباعثًا على حركة الإصلاح البروتستانتى التى قامت فيما بعد .

٢٠- توضح دراسة "الشيخ الخولى" أهم مظاهر التأثير الاسلامى على حياة المسيحيين فى الغرب، وأبرزها الحد من سلطان الكنيسة وتحرير العقل وظهور حركات التجديد والتى سميت فيما بعد بحركات الخروج على الكنيسة، ورفض سلطة الباب، ورفض قرارات المجامع الكنسية، والعودة إلى كلمة الله فى الكتاب المقدس، وأن يكون لكل مسيحى الحق فى قراءة وتفسير الإنجيل بلغة مفهومة، وأخيرًا موضوع التناول، وإنكار الاستحالة الحقيقية لجسد المسيح ودمه إلى الخبز والنبيذ. ولا ينسى "الشيخ الخولى" فى نهاية بحثه ذكر تحريم الصور والتماثيل فى بيوت العبادة المسيحية كأحد المفاهيم البروتستانتية؛ الأمر الذى يتبين منه وجود ثمة تقارب بين قيم الاسلام وقيم الاصلاح البروتستانتى.

٢١- كان أول من عرض للتقارب بين قيم الإسلام وقيم الإصلاح هو ما أدلى به "الإمام محمد عبده" فى الجزء التاسع من رسالة التوحيد، والتى قام بتحقيقها "الدكتور محمد عمارة"، حيث انتهى فيها إلى العديد من أوجه التشابه باستثناء عدم الإقرار بنبوة محمد (صلى الله عليه وسلم).

٢٢- يعد موضوع لوتر والإسلام من أكثر الموضوعات التى لقيت فى الآونة الاخيرة دراسات مستفيضة ومناقشات عدة واهتمامات بالغة، إلا أنه لم يتبين منها بوضوح ذلك التقارب والتباعد بين كلا الفكرين.

ويرى فريق من المفكرين الأوروبيين أن التاريخ الأوروبى نشأ نتيجة تطور أفكار نابعة من داخل المجتمع الأوروبى نفسه، وأن حركة الإصلاح ما هى إلا نتيجة الموقف الداخلى المتدهور فى الكنيسة الكاثوليكية فى ذلك الوقت.

يتفق مع هذا الرأى الباحث المصرى "الدكتور محمد خليفه حسن"، والذى يرى أن حركة الإصلاح قضية داخلية تمس الكنيسة والديانة المسيحية بالدرجة الأولى. ويرى الفريق الآخر بوجود تقارب بين قيم حركة الإصلاح والقيم الاسلامية وعلى رأسهم "الشيخ أمين الخولى" و"الإمام محمد أبوزهرة"، وهى دراسات لم تجد طريقًا ممهدًا بين علماء اللاهوت.

كما ظهر فريق مثقف آخر استولت عليه نزعة الفكر الأوروبى، وما ينشر فى وسائل الإعلام الغربية عن احتياج الإسلام إلى مصلح ومجدد مثل "مارتن لوتر"، الأمر الذى شجع كثيرًا من علماء الإسلام على الرد على هؤلاء المثقفين، وذلك من خلال دراساتهم لما نادى به "لوتر" من وجهة النظر الإسلامية، وهو الأمر الذى عرضنا له فى فصول سابقة من هذا الكتاب.

لعل كتابنا هذا يمثل إضافة لما قدمه "الأستاذ الخولي" استمرارًا لهذه الرسالة السامية ولأهمية هذا الأمر ولجديته، وحتى تزول الغشاوة عن أعين المتشددين والمتعصبين، من أتباع الديانتين متوخين فى ذلك منهج إمامنا "الخولى" بالحيدة الكاملة والأمانة العلمية، وعرض وجهات النظر من مصادرها الأصلية، لكل من أدلى بدلوه فى هذا الموضوع.

سجل بالأحداث التاريخية المهمة لحركة الإصلاح الدينى

- ١٤٨٣ مولد مارتن لوتر فى العاشر من نوفمبر بمدينة أيسليبن.
- ١٤٨٤ نزوح هانس لوتر والإقامة بمدينة مانسفيلد التى اشتغل فيها بأعمال التعدين، ومولد المصلح السويسرى تسفنجلى، وصدور مرسوم البابا أنوسنت الثامن الخاص بمطاردة المشعوذين والسحرة باعتبارهم هراطقة.
- ١٤٨٦ تولى الأمير فريدريش الحكيم كأمير منتخب لولاية سكسونيا، وتولى ماكسميليان الأول ملكًا لألمانيا.
- ١٤٨٧ رحلة برتولوميو دياز الى رأس الرجاء الصالح.
- ١٤٨٨ أول التحاق للوتر بالمدرسة فى مدينة مانسفيلد.
- ١٤٩٢ بداية ولاية البابا الكسندر الخامس لعرش البابوية فى روما، واكتشاف كولومبس كوبا وجزر هاييتى وأمريكا، واختراع العالم الألمانى مارتن بيهايم أول كرة أرضية.
- ١٤٩٣ بداية تولى ماكسيميليان قيصرًا للإمبراطورية الألمانية.
- ١٤٩٦ مولد القيصر كارل الخامس، حفيد ماكسميليان.
- ١٤٩٧ انتقال لوتر لمدرسة ماجدبورج ثم مدرسة أيزناخ، ومولد فيليب ميلانشتون فى ١٦ فبراير.
- ١٤٩٨ انتشار رسومات الفنان الألمانى ألبرشت دورر: عن نهاية العالم وعن الفارس والموت والشيطان، واكتشاف فاسكو ديجاما للهند.
- ١٤٩٩ نشوب الحرب التى دارت بين القيصر المتحالف مع الشفابيين ضد سويسرا.
- ١٥٠٠ اختراع العالم الألمانى بيتر هينلين لأول ساعة جيب.

- ١٥٠١ بداية دراسة لوتر بجامعة إيرفورت التى حصل منها فى عام ١٥٠٢ على درجة البكالوريوس.
- ١٥٠٣ بداية ولاية يوليوس الثانى عرش البابوية.
- ١٥٠٥ حصول لوتر على درجة الماجستير وقراره فى ١٧ يوليو دخول دير الرهبان الأوجستينيين، وتعيين الرسام الالمانى المشهور لوكاس كراناخ فى بلاط الأمير فريدرش بمدينة فيتنبرج.
- ١٥٠٦ شروع البابوية فى إعادة بناء كاتدرائية القديس بطرس فى روما.
- ١٥٠٧ الممارسات الأولى لأداء الصلاة وشعائر البركة الكنسية داخل الدير الأوجستينى من قبل لوتر.
- ١٥٠٨ إلقاء لوتر لفترة مؤقتة محاضرات بجامعة فتنبرج، وجامعة إيرفورت ١٥٠٩.
- ١٥١٠ رحلة لوتر فى نوفمبر إلى روما بتكليف من رئاسة الدير الأوجستينى، المؤسسة الدينية التابع لها.
- ١٥١٢ حصول لوتر على درجة الدكتوراه فى ١٩ اكتوبر.
- ١٥١٣ بداية ولاية ليو العاشر عرش البابوية.
- ١٥١٥ حصول لوتر على منصب نائب الأسقف لمقاطعتى تور نجن وما يسن، وليكون رئيسًا لأحد عشر ديرًا من أديرة الرهبان الأوجستينيين.
- ١٥١٦ تأسيس أول إدارة نظامية للبريد فى ألمانيا، اقتناع لوتر بمبدأ (البار بالإيمان يحيا) من خلال محاضراته فى علم اللاهوت.
- ١٥١٧ تعليق لوتر فى ٣١ اكتوبر حججه الـــ ٩٥ على باب كنيسة القصر، بمدينة فتنبرج وتضمينها شجب محاولات تتسل Tetzel فى الترويج لصكوك الغفران وتطبيق مبدأ التبرير بالإيمان.

- ١٥١٨ كتاب لوتر فى مارس عن عظاته ضد صكوك الغفران ورحمة الله، واستدعاء لوتر فى ١٠ أكتوبر للتحقيق معه بمدينة أوجسبورج من قبل مندوب البابا كاجيتان، وتولى صديقه ميلانشتون منصب الأستاذية بجامعة فيتنبرج، وزعامة تسفنجلى لحركة الاصلاح الدينى فى سويسرا.
- ١٥١٩ مناقشات ليبتزج المفتوحة، وإمكانية تخطئة المجامع البابوية وفقًا لمبادئ يان هوس وويكليف، وموت الإمبراطور ماكسميليان، وانتخاب القيصر كارل الخامس وتتويجه فى مدينة آخن Aachen إمبراطورًا لألمانيا، ورحلة ماجلان حول العالم.
- ١٥٢٠ رسالة لوتر إلى نبلاء الأمة الألمانية، ورسالة "السبى البابلى للكنيسة"، وصدور مرسوم بابوى بهرطقة لوتر، ورد فعل لوتر بحرق المرسوم البابوى وكتابة رسالة: "حرية الإنسان المسيحى" ثم حرق مرسوم البابا ضد لوتر، وتعيين القس مونتسر Müntzer واعظًا بمدينة تسفيكاو Zwickau بناء على توصية من لوتر.
- ١٥٢١ انتشار مرسوم فى كافة أرجاء ألمانيا بشان إلحاد لوتر وحرق مؤلفاته، والإقامة فى قلعة الفارتبورج والبدء فى ترجمة الإنجيل، ونشوب قلاقل فى فيتنبرج.
- ١٥٢٢ عودة لوتر الى فيتنبرج، وإخماده القلاقل وظهور أول طبعة من ترجمة العهد الجديد بالألمانية، محاولة لوتر إيقاف تيار المتشددين أمثال كارل شتيت ومونتسر وكذلك المنادين بإعادة التعميد كخطر يهدد حركة الإصلاح ويخرجها عن مسارها.
- ١٥٢٣ كتاب لوتر عن سلطة أولى الأمر الدنيوية.

- ١٥٢٤ رسالة لوتر إلى كل مستشارى المدن الألمانية، وكتابه الذى رد فيه على حجج إيرازموس عن حرية الارادة، واندلاع حرب الفلاحين الألمانية الكبرى فى يونيو ووقوف لوتر ضد هذه الثورة إلى جانب الأمراء.
- ١٥٢٥ كتاب لوتر:" ضد أعمال السلب والنهب والقتل" التى قام بها الفلاحون. الزواج من الراهبة كاترينا فون بورا وجولاته التفقدية ورسائله وعظاته عن السلام، ووفاة أمير سكسونيا فريدرش الحكيم، وهزيمة الفلاحين الكبرى فى مدينة فرانكنهاوس والتى تلاها باثنى عشر يومًا إعدام زعيم حركة الفلاحين مونتسر شنقًا، ومعركة بافيا بين كارل الخامس وفرانس الأول ملك فرنسا.
- ١٥٢٦ انتصار الأتراك الساحق فى معركة موهاكس بالمجر وقتل ملكها لويس الثانى.
- ١٥٢٩:١٥٢٧ استمرار الحوار مع تسفنجلى حول العشاء الربانى ولقاءات مدينة ماربورج، وتأليف كتابى قواعد تعليم الدين المسيحى الكبير والصغير.
- ١٥٣٠ موت والد لوتر، وتأليف كتاب رسالة للمترجم، وتتويج كارل الخامس إمبراطورا على ألمانيا على يد البابا كليمنتس السابع.
- ١٥٣١ تأسيس ولايات تحت إمرة حكام بروتستانت ونشأت المدن البروتستانتية تحت مسمى اتحاد شمالكالدن، وموت تسفنجلى فى معركة كابل. وتغدو القضية البروتستانتية الشغل الشاغل للأمراء.
- ١٥٣٢ وفاة أمير ساكسن يوهانس فون ساكسن وعقد الصلح الدينى فى نورنبرج.
- ١٥٣٤ إكمال لوتر ترجمة الإنجيل وذيوع حركة الإصلاح بشمال ألمانيا وخاصة فى منطقة بومرن.،
- ١٥٣٥ هزيمة زعماء المعمدين الجدد والمتحمسين فى مدينة مونستر.

- ١٥٣٦ وفاة إيرازموس.
- ١٥٣٧ جولة لوتر إلى مدينة شمالكالدن، وتأسيس أول شركة لاستخراج الفحم الحجرى بمدينة تسفيكاو.
- ١٥٣٩ الإقرار بالزواج الثانى لأمير هيسن وموت الأمير جورج السكسونى.
- ١٥٤١ اشتداد مرض لوتر واجتماع برلمان الرايخ بمدينة ريجينسبورج، التى تم فيها عقد اتفاق سرى بين الأمير فيليب فون هيسسن مع القيصر كارل الخامس.
- ١٥٤٢ تولى نيقولاوس أمسدورف أسقفية نومبورج تسايتس.
- ١٥٤٥ كتاب لوتر ضد البابوية فى روما " إهداء من الشيطان"، وظهور العديد من المؤلفات المعادية لليهود التى استقاها لوتر من قيم العصور الوسطى ودمغهم بأسوأ الصفات، حتى أن البعض اعتبره أبًا للنازية التى أحرقت اليهود فى أوروبا فى القرن العشرين.
- ١٥٤٦ رحلة لوتر الى أيسليبن واشتداد المرض عليه وموته فى ١٨ فبراير، بداية الحروب الشمالكالدينية.
- ١٥٤٧ معركة ميلبورج، وقوع أمير ساكسن يوهان فريدريش أسيرًا، واستسلام مدينة فيتنبرج للإمبراطور كارل الخامس.
- ١٥٤٨ ظهور حركات مضادة لحركة الإصلاح البروتستانتى.

المؤلف فى سطـــور

- الاسم : محمد أبو حطب خالد
- تاريخ الميلاد :١٨ أكتوبر ١٩٣٧
- محل الميلاد : أبنوب – أسيوط
- عنوان المنزل :٦ شارع عبد الواحد فهمى شقة ٨ – هليوبوليس (غرب) – مصر الجديدة – القاهرة
- الحالة الاجتماعية : متزوج
- إجادة اللغات : العربية - الألمانية - الإنجليزية
- تليفون المنزل :٠٠٢٠٢٦٣٥١٧٩٠
- محمول : ٠٠٢٠١٢٣٤٢٧٤٥٧
- البريد الألكترونى: abuhattab@hotmail.com
abuhattabm@yahoo.com

- آخر مؤهل علمى:

- دكتوراة الفلسفة فى اللغة الألمانية و آدابها – كلية علوم اللغة الألمانية و آدابها - جامعة ليبزيج – بتقدير امتياز- ١٩٧٣ م.

- التدرج الوظيفى:

رئيس قسم اللغة الألمانية – كلية اللغات و الترجمة – جامعة الأزهر (١٩٧٣ – ١٩٩٨)
وكيل كلية اللغات و الترجمة – جامعة الأزهر (١٩٧٨ – ١٩٨٠)
عميد كلية اللغات والترجمة – جامعة الأزهر (١٩٨٠ –١٩٨٤)- (١٩٨٦- ١٩٨٩)
عميد كلية الألسن ورئيس قسم اللغة الألمانية - جامعة المنيا (١٩٩٧-٢٠٠٢)

- عضوية المؤسسات العلمية والثقافية:

- عضو الاتحاد الدولى لمعلمى اللغة الألمانية منذ ١٩٦٩.
- عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – وزارة الأوقاف (مصر) منذ ١٩٨٥.
- رئيس اللجنة التخصصية الألمانية – وزارة التربية و التعليم منذ ١٩٨٠.
- رئيس اللجنة الفرعية للغة الألمانية- المركز القومى للامتحانات والتقويم التربوى منذ١٩٨٥.
- عضو الرابطة المصرية لخريجى المعاهد الألمانية منذ١٩٧٥.
- عضو الهيئة الألمانية للتبادل العلمى فرع القاهرة منذ ١٩٨٨.
- عضو المجالس القومية المتخصصة – شعبة التعليم الأزهرى منذ ١٩٨٨.

- مقرر اللجنة العلمية الدائمة لترقية أساتذة اللغة الألمانية – المجلس الأعلى للأزهر منذ١٩٨٣.
-عضو اللجنة الفرعية الفنية لمشروع تطوير كليات التربية بجمهورية مصر العربية- وزارة التعليم العالى ٢٠٠٥ .

- الأبحاث و المؤلفات العلمية :
تجاوزت الأعمال العلمية المائه (حتى نهاية عام٢٠٠٤) مابين بحث ومقال وكتاب (تأليف أو ترجمة أو مراجعة لترجمة) وأغلب هذه الأعمال منشور باللغة الألمانية.

- الأشراف العلمى:
إشراف وتحكيم ما يربو عن ٦٠ (ستين رسالة ماجستير ودبلوم ودكتوراه إلى جانب تحكيم عشرات الأبحاث المقدمة من أصحابها للنشر فى المجلات والحوليات العلمية، علاوة على الأبحاث المقدمة للترقية إلى درجة أستاذ مساعد ودرجة أستاذ بالجامعات المصرية.

- جوائز وأوسمة:
- جائزة ووسام ياكوب وفيلهلم جريم – ألمانيا ١٩٨٣ .
- وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى – ألمانيا ١٩٨٤ .
- إسهامات أخرى :
- تدريس اللغة الألمانية وآدابها بالجامعات المصرية وبعض الجامعات الأجنبية.
- المشاركة فى العديد من الترجمات الشفوية والتحريرية والفورية فى الداخل و الخارج.
- المشاركة فى العشرات من المؤتمرات العلمية فى الداخل والخارج.
- المساهمة فى تأسيس أقسام اللغة الألمانية بجامعات الأزهر وحلوان والمنوفية والمنيا.
- المساهمة فى تأسيس كلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر وكلية الألسن بجامعة المنيا.

Muhammad Abu-Hattab Khaled, Dr. phil.
Professor, geb. 1937 (Abnub Assiut, Oberägypten).
Al Azhar Universität
Sprachen- und Übersetzungsfakultät
Deutschabteilung
Kairo – Nasr City
T. (002 02) 61 88 07, 61 88 08
Private Anschrift
6 Str. Abdel-Wahed Fahmy/ 8 Heliopolis (West)

Kairo - Ägypten
T: 002 02 6351790
Handy: 012 3427457
0104978038
E-mail: abuhattab@hotmail.com
abuhattabm@yahoo.com

F Sprachwissenschaft, Deutsch als Fremdsprache, Literaturwissenschaft,
Übersetzungswissenschaft, Komparatistik.

Pr Leipzig 1973, Ernennung zum Ass.-Prof. 1978. Ernennung zum Prof. 1983

M ***Internationaler Deutschlehrerverband. – Bund der Ägypter deutscher Bildung.***
Kairoer DAAD.

St Seit 1964 fortlaufend Stipendien, Forschungsaufenthalte und Ehreneinladungen von der BRD, DDR. BRÖ, der Schweiz und den arabischen Staaten –
Grimm-Preis der DDR (1983) –
Bundesverdienstkreuz 1. Kl. (1984).

B Vizedekan 1978 -1982,
Dekan der Sprachen- und Übersetzungsfakultät der Al Azhar Universität. 1982-1989.
Leiter des Komitees für das Fach Deutsch im ägyptischen

Unterrichtsministerium. Ex- Leiter des Übersetzungskomitees im

internationalen Hohen Rat für islamische Angelegenheiten.

Dekan der al-Alsun- Fakultät der al- Minia Universität und Abteilungsleiter der Deutschabteilung – 1997 - 2002

Pda - Analyse und Wertung vom Inhalt und Struktur des Lehrbuches: "Deutsch für Araber" von Steppat-Klopfer, Diplomarbeit (M.A.), Leipzig 1971.

- Zur Entwicklung und zu einigen gegenwärtigen Problemen des Deutschunterrichts: in Ägypten. Diss. Leipzig 1973.
- Aussprache Probleme der deutschen Sprache für Araber und ihre Überwindung im Unterricht. Kairo 1977.
- Österreichische Literatur in Ägypten. Kritische Gedanken zu Barbara Frischmuths Roman: "Das Verschwinden des Schattens in der Sonne", (Autorenkollektiv Mitvrfasser, Heinz Gstrein,Heinz), Kairo 1978.
- Einführung in die deutsche Rechtschreibung: Geschichte, Reform und Regelwerk für deutsehlernende und -lehrende Araber. Kairo 1980.
- Zur Interpunktion im Deutschen mit Hinweisen für deutschlernende Araber. Kairo 1980.
- Zur deutschen Intonation. Lehr- und Übungsmaterial für arabische Studenten. Kairo 1981.
- Al Azhar: Eine Universität. Eine Institution und ein religiöses Zentrum. Zum Anlaß des 1000jährigen Jubiläums. Kairo 1983.
- Zur Landeskunde des deutschsprachigen Raums. Kairo 1983.
- Einführung in die deutsche Sprache: Grundkurs (1). Kairo 1983.
- Einführung zum Al-Azhar Symposium über György Sebestyen, (Autorenkollektiv,Hr..Abu-Hattab / Huber), Kairo 1983.
- Informationen zur Landeskunde der deutschsprachigen Länder – mit einem deutsch- arabischen Glossar. Mitverfasser: Kristian Bosselmann / Mohammed Ahmed Mansour, Kairo 1996

- Einführung in die deutsche Sprache – Grundkurs ,Mitverfasser Mohammed Ahmed Mansour / Heinrich Schlemmer. Kairo, 1998
- Einführung in die richtige Artikulation des Deutschen für Araber, Kairo 1999/2000
- Auslese aus der deutschen Dichtung, Kairo 2000.
- Zur Neuregelung der deutschen Rechtschreibung, Kairo 2000.
- Grundgedanken zur Methodik der germanistischen Forschung, Kairo 2000.
  (Autorekollektiv, Mitverfasser M. A.Mansour , H.N. Günther)
- Leitfaden für die Evaluation des Schüler, 1. Schuljahr, Kairo 1999/2000.
  (Autorenkollektiv)
- Leitfaden für die Evaluation des Schüler, 2. Schuljahr, Kairo 1999/2000.
  (Autorenkllektiv)
- Leitfaden für die Evaluation des Schüler, 1. Schuljahr, Kairo 2000/2001.
  (Autorenkollektiv)
- Leitfaden für die Evaluation des Schüler, 2. Schuljahr, Kairo 2000/2001.
  (Autorenkollektiv)
- Leitfaden für die Evaluation des Schüler, 1. Schuljahr, Kairo 2001/2002.
  (Autorenkollektiv)
- Leitfaden für die Evaluation des Schüler, 2. Schuljahr, Kairo 2001/2002.
  (Autorenkollektiv)
- Leitfaden für die Evaluation des Schüler, 1. Schuljahr, Kairo 2002/2003.
  (Autorenkollektiv)
- Leitfaden für die Evaluation des Schüler, 2. Schuljahr, Kairo 2002/2003.
  (Autorenkollektiv)

- Leitfaden für die Evaluation des Schüler, 1. Schuljahr, Kairo 2003/2004.
  (Autorenkollektiv)
- Leitfaden für die Evaluation des Schüler, 2. Schuljahr, Kairo 2003/2004.
  (Autorenkollektiv)
- Die deutschsprachigen Länder: Tatsachen und Informationen,(mit einem deutsch- arabischen Glossar von Mohamed Ahmed Mansour) , Kairo 2002/2003.
- Deutsche Phonetik für Araber – Deutsch-arabisches Glossar, Kairo 2003/2004.
- Reiseführungstipps für das ewige Nilland Ägypten, Kairo 2003/2004.

Pdb – Zu einigen Schwierigkeiten für Araber beim Erlernen der deutschen Sprache,
Teil I,In: DaF Leipzig(1976) H. 3. S. 166 - 171

– Zu einigen Schwierigkeiten für Araber beim Elernen der deutschen Sprache, Teil II, In: DaF (1976) H. 4, S. 235 - 241
– Zu einigen Schwierigkeiten der deutschen Phonetik im Deutschunterricht für Araber. In: FLTS 2 (1978). S. 3- 33
– Versuch einer kritischen Analyse zum Bild der islamischen Mystik in Barbara Frischmuths Roman, "Das Verschwinden des Schattens in der Sonne". In: FLTS 2 (1978). S. 37- 56
– Zu Möglichkeiten und Grenzen des Sprachvergleiches: Deutsch/Arabisch, In: FLTS 3 (1980). S. 3- 28
– Kritische Betrachtungens zum Deutschtum in Ägypten vor dem ersten Weltkrieg. In: FLTS 3 (1980). S. 31- 55
– Das Werk Borcherts im Hinblick auf die Wirkungsmöglichkeit in Ägypten. In: FLTS 4 (1980). S. 56-80
– Der Koran als eine Quelle für Thomas Manns Roman ,"Joseph und seine Brüder". In: FLTS 4 (1980). S.81- 98
– Zum Bild des Propheten Muhammad In bezug auf seine Darstellung in Europa. In: FLTS 6 (1982). S.3-20

– Stefan Zweig (1881-1942). Aus Anlaß der Stefan Zweig-Ausstellung vom 17.4-30.4.1982 an der Al Azhar Universität. In: FLTS 6 (1982). S.27- 35
– Zu den Funktionen und Verwendungsbereichen des Artikels im Deutschen
und Arabischen. Versuch eines syntaktischen Vergleichs. In: FLTS 6 (1982).
S. 3- 18
– Johannes Tralows Roman "Mohammed". Eine kritische Analyse aus arabisch-islamischer Sicht. In: FLTS 7 (1982). Supplement. S.1- 22
– Zur Stellung der österrelchisehen Literatur innerhaib des deutschsprachigen Raumes und ihre Beziehungen zum Orient. In: Panonnia [Wien/Eisenstadt] 4 (1983). S.3- 8
– Arthur Schnitzler. Ein österreichischer Schriftsteller der Jahrhundertwende. Aus Anlaß einer Ausstellung vom 22.3.-29.3.1983 an der Al Azhar-Universität. In: FLTS 9 (1983). S.1- 12
– Al AzharUniyersitat. Vergangenheit und Gegenwart. In: JahrbWGoetheV, Wien 1984. S. 633 - 645
– Einführung zum AI-Azhar Symposium über György Sebestyen. In: Al Azhar Symposium. Kairo 1983. S. 1-10
– Kulinarische Literatur zwischen literarischem Erbgut und modernem Lebensgefühl. Anmerkungen und Reflexionen zu György Sebestyen. In: Al Azhar Symposium. Kairo , 1983. S. 69- 73
– Die deutschen Partikeln. Aus Anlaß des Erscheinens eines neuen Übungsbuches. Rez. In: FLTS 10 (1985). S. 1- 6
– Jürgen Weil in Kairo. Ein österreichischer Schriftsteller und Arabist besucht Ägypten. In FLTS 11 (1985). S. 3-10
– Situation und Perspektiven des Deutschunterrichts an der Al Azhar. In: FLTS 12
(1985), S. 1- 7
– Sprachdidaktik und die deutschen Partikeln. Rez. In: FLTS 12 (1985). S.9- 15

– Semantische Übersetzungsprobleme am Beispiel von Barbara Frischmuths Roman "Das Verschwinden des Schattens in der Sonne". In: STZ 1985. S.
285 - 287
– Zum interkulturellen Beitrag des Deutschunterrichts in Agypten. In: DaF 6 (1985).
– Übersetzungsprobleme semantischer Natur im Deutschen und Arabischen. Zur Übersetzung von B. Frischmuths Roman "Das Verschwinden des Schattens in der Sonne". In: FLTS 13 (1986). S. 1 - 10
– Blick auf ein buntes Feld. Anmerkungen zur frühen DDR-Lyrik. In: FLTS 14 (1986). S.157 - 166
– Die Groß-Kleinschreibung im Deutschen. Eine aktuelle Stellungnahme. In: FLTS 15 (1986). S. 3 - 8
– Zur Rolle der Al Azhar bei der Aufbewahrung und Verifizierung des arabisch-
islamischen Erbes. Vortrag aus Anlaß des 1000. Jahrtages der Abfassung des
Kitab Al Fihrist durch Muhammad b. Ishaq an-Nadim, gehalten an der Martin-
Luther-Üniversität, Halle. In: Vorträge zum Internationalen Johann-Fück-
Kolloquium zur Arabistik und Islamkunde. 1987.
– Al- Azhar - Universität und die Kulturbeziehungen zwischen Österreich und
– Ägypten,FLTS , 16 (1987)
– Versuch einer kritischen Würdigung von Rückerts Übersetzung von Al Hariri-
Makkamen. In: FLTS 19 (1989): [Wieder in: Festschrift der 24. Orientalistentagung. Köln 1989].S. 7- 13
– Besonderheiten eines DaF-Lehrbuches für arabischsprechende Lerner. In: Moderner Unterricht. Deutsch als Fremdsprache. Anspruch und Wirklichkeit. Wien 1989. [Wieder in: FLTS 20 (1990)]. S. 1- 17

– Islamische Mystik in der deutschsprachigen Belletristik. Der Roman "Das Verschwinden des Schattens in der Sonne" von Barbara Frischmuth. In: Gott gehört der Osten und der Westen. Islamisches Morgenland und christliches Abendland. Köln 1990/1991. (-Kölner Veröffentlichungen zur Religions-geschichte). S.299 - 308
– Zur Vermittlung des deutschen Alphabets für deutschlernende Araber, In :KGS 7 (1993),S.37-51
– Deutsch an der Al Azhar. In: Minbar (1983).
– Zum Bild des Islam und des Propheten in der deutschen Literatur. In: Minbar ,(1983).
– Zur Stellung der Frau im Islam. In: Minbar (1984).
– Aspekte der germanistischen Forschungstätigkeit an der Al-Azhar Universität in Kairo – Translationsprobleme im Deutschen und Arabischen am Beispiel von Friedrich Rückert Übersetzung der Makamen von al-hariri unter dem Titel : „Die Verwandlung des Abuzeid von Serug und der arabischen Übersetzung des Romans“ Das Verschwinden des Schattens in der Sonne “von Barbara Frischmuth, In :KGS,Bd 8 / 1994-1995 ,S.151-166.
_ Al-Azhar Beitrag zur österreichischen Literatur- gehalten als Referat auf dem
Symposium Ingeborg Bachmanns, Kairo (22-23 November 10993) ,publiziert
in : Festschrift zum 60 . Geburtstag von Nabil Kassem - Ain Shams Universität,
Siehe Iman Schalabi / Ellen Tichy / Dietlinde Gisper (Hr.): Das nahe Fremde
und das entfremdete Eigene im Dialog zwischen den Kulturen, Hamburg.
Kairo, 1996 , S. 107- 114.
_ Die Rolle der Al- Azhar und das arabisch-islamische Kulturerbe, In :Ibn an-
Nadim

und die mittelalterliche arabische Literatur – Beiträge zum ersten Johann

Wilhelm Fück Kolloqium, Halle (1987) – Wiesbaden 1996, S. 127 – 135

_ Karl May- Opfer, Mitläufer und Gestalter seiner Zeit, In :KGS.,Bd.10,1997, S.
67- 87

Pa – الألمانية فى الأزهر،العدد الخامس، المجلة، برلين١٩٧٥ ، ص ٢٦.

Deutsch an der Al -Azhar . In: AI Majallah [Berlin] (1975). H. 5. S. 26

– التدريس والتعليم والبحث العلمى فى خدمة المجتمع، المجلة، العدد الثالث، برلين١٩٧٦ص٢٢-٢٥.

Unterricht, Erziehung und Forschung im Dienste der Gesellschaft. In: AI Majallah [Berlin] (1976). H. 3. S.22-25

- الألسنية فى خدمة التفاهم بين الشعوب، حديث مع أ.د. محمد أبو حطب الحائز على جائزة ياكوب و فيلهلم غريم ص ١٨، المجلة، العدد الثانى ، برلين ١٩٨٤

Die Sprache im Dienste der Völkerverständigung- Gespräch mit Prof. M. Abu-

Hattab zum Anlass der Grimm-Preis-Verleihung in Berlin.

- مدخل فى دراسة الزمن بين العربية و الألمانية ، مجلة كلية اللغات و الترجمة ، جامعة الأزهر،القاهرة ٥-١٩٨١ ص٦٧- ٨٩.

- Einführung in das Tempussystem Arabisch/Deutsch. In: FLTS 5, Kairo 1981, S.
67-89

- زمن المضارع بين العربية و الألمانية،مجلة كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر، القاهرة، العدد ٥-
١٩٨١ ص٩١-١٠٩

Das Präsens im Arabischen und Deutschen. In: FLTS 5, Kairo1981, S.91-109.

- زمن الماضى بين العربية والألمانية، مجلة كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر، القاهرة، العدد ٧-١٩٨٢ ص ١- ١٦.

Das Präteritum im Arabischen und Deutschen. In: FLTS 7, Kairo1982, S.1-16.

- هيرمان هيسه، أحد عمالقة الأدب الألمانى ، مجلة كلية اللغات و الترجمة، جامعة الأزهر، القاهرة، العدد ٨-١٩٨٤ ص ١٠١-١٢٢ .

Hermann Hesse (1877-1962). Eine Größe deutscher Literatur der Gegenwart. In: FLTS 8 , Kairo 1984, S.101-122.

- مكانة هيرمان هيسه الأدبية بين الشرق و الغرب، مجلة اللسان ، العدد الثانى يونيو ١٩٨٤،
القاهرة ص ٤٥-٤٨ .

Zur Stellung Hermann Hesses Werk zwischen Orient und Okzident. In: Majallatu Allissaan (1984),Kairo 2-1984,S. 45-48.

- الاسلام فى الكتاب التعليمى بمدارس جمهورية ألمانيا الاتحادية وأهمية كتاب(تحليل الكتب التاريخية حول موضوع الاسلام)، مجلة كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر، القاهرة، العدد١٦-١٩٨٧ ص١-٨

- Der Islam in den Schulbüchern der Bundesrepublik Deutschland. Analyse der
Geschichtsbücher zum Thema Islam. In: FLTS 16, Kairo 16-1987, S.1-8.

- واقع الاسلام فى ألمانيا الاتحادية، مجلة كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر، القاهرة، العدد١٧- ١٩٨٨،ص١-٩.

Zur Stellung des Islam in der Bundesrepublik Deutschland. In: FLTS 17, Kairo 17-1988, S. 1-9.

- دور الأزهر فى المحافظة على التراث الاسلامى و تحقيقه، مجلة كلية اللغات و الترجمة، جامعة الأزهر، القاهرة، العدد ١٨-١٩٨٩ ص ١-١٢.

- Zum Beitrag der Al Azhar in der Aufbewahrung des islamischen und arabischen
Kulturerbes. In: FLTS 18, kairo 18-1989, S.1-12.

- الإمام القرطبى وبعض انطباعاته عن مصر من خلال تفسيره: الجامع لأحكام القرآن، الكتاب التذكارى للمؤتمر السنوى: أعلام الصعيد: المؤتمر السنوى كلية الدراسات الإسلامية جامعة المنيا فى الفترة من١٤-١٦ مارس ١٩٩٨ ص٤٧٥-٤٩٠.

- Der Imam Al-Qurtubi und seine Eindrücke über Ägypten anhand - seiner Quranauslegung "Al-Gamaع Li-Ahkaam El-Quran": gehalten an der internationalen jährlichen Tagung der daru lulum Fakultät der Al-Minia Universität (14-16 März 1998), In : Festschrift und Jahrbuch

der "Ober-ägyptischen Prominenten–Gelehrten–Tagung" al-Minia, 1998.

– رفاعة الطهطاوى اللغوى و المترجم الموسوعى و المؤلف: الكتاب التذكارى لمؤتمر أعلام الصعيد: المؤتمر السنوى كلية دار العلوم جامعة المنيا فى الفترة من ١٢-١٥ مارس ١٩٩٩ ص٣٧٣-٣٩٥.

- Rifaa al-Tahtawi der Phililoge, der Übersetzer und der Literat, gehalten an der internationalen jährlichen Tagung der dar ululum Fakultät der Al-Minia Universität (12-15 März 1999), In : Festschrift und Jahrbuch der „Oberägyptischen Prominenten–Gelehrten–Tagung" al-Minia, 1999.

- اللغة و دورها فى هوية متكلميها، المؤتمر العلمى السنوى، كلية دار ا لعلوم - جامعة المنيا ١٩ - ٢١ نوفمبر ٢٠٠٠ الكتاب التذكارى ، ص ١٣٥- ١٣٨.

- Die Sprache und ihre Rolle zur Identität ihrer Sprecher) gehalten an der jährlichen Tagung der Da al-ulum- Fakultät der Al-Minia Universität (19-21November 2000, Minia),In: Festschrift der Tagung ,Minia 2000. S.135-138.

اللغة كظاهرة إنسانية - حدود المقارنة بين اللغة العربية كلغة سامية والألمانية كلغة هندوجرمانية، مؤتمر العلوم الأنسانية وتكاملها(رؤية مقارنة) كلية الآداب جامعة المنيا ١٩-٢١ مارس ٢٠٠٢ الكتاب التذكارى ، ص ٦١- ٦٨!

- Die Sprache als ein menschliches Zeichen – Die Grenzen eines Vergleichs
zwischen dem Arabischen als einer semitischen Sprache und dem Deutschen
als einer indoeuropäischen Sprache – Jährliche Tagung der Philosophischen
Fakultät der Al-Minia Universität mit dem Thema :"Die humanistischen Wissen-
schaften und ihre Integration – eine vergleichende Sicht,(19.3 –21.32002),In:
Festschrift der"Faculty of Arts –Minia University, Minia 2002 .S.61-68

Ua - DDR: 300 Fragen , 300 Antworten Kairo: Al-Ahram Al Tugaryia 1969.

٣٠٠ سؤال و جواب_ ألمانيا الديموقراطية ، الأهرام التجارية ، القاهرة، ١٩٦٩

- Sicherheitsmaßnahmen zur Vorbeugung von Bränden bei der Herstellung und Verwendung von Acetilin-Gasen, Berlin 1968.
أمن العمل والوقاية من الحريق فى مراحل إنتاج وتعبئة واستخدام الأسينيلين
- Aus österreichischer Literatur der Gegenwart. Barbara Frischmuths Roman:
Das Verschwinden des Schattens in der Sonne, Kairo 1982.
توارى الظلال فى الشمس، القاهرة، ١٩٨٢
- Rotkäppchen, In: Auslese aus der deutschen Dichtung,Kairo,2000,S. 124- 136
- ذات الكاب الأحمر .
- Dornröschen ,In: ebenda ...,S.137 – 149
- وريدة الشوك.
- Die Bremer Stadtmusikanten, In: ebenda...,S. 150 - 162(entnommen aus : Die Kinder-und Hausmärchen der Brüder Grimm, Berlin 1984bel,
- جوقة مدينة بريمن الموسيقية.
- Eich, Günter, Züge im Nebel, In: ebenda
- قطارات فى الضباب، جونتر أيش .
- Kreuder, Ernst, Phantom der Angst, In: ebenda
- شبح الخوف، إرنست كرويدر .
- Böll, Heinrich, die ungezählte Geliebte In: ebenda, Kairo, 2000.
- حبيبتى غير المعدودة، هاينريس بيل.
- Eichendorff, Joseph, aus dem Leben eines Taugenichts, In: Ebenda
- من مذكرات حياة عديم النفع، جوزيف فون أيشن دورف .
- Ausbildung- Schule –Toleranz, Europäische Abschlusstagung: Dr. Islam in den
europäischen Schulbüchern (19-21 Februar 1993) Köln ,1993
Köln 1993
- التعليم، المدرسة، التسامح، محصلة المؤتمر الأوربى الختامي: الإسلام فى الكتب المدرسية الأوروبية من ١٩-٢١ فبراير ١٩٩٣ – كولونيا ١٩٩٣ (عربى - ألمانى)
- Adelbert Stifter, Brigitta, (Eine Novelle), Kairo 2002

- من روائع الأدب العالمى، بربجتا، أدلبيرت شتيفتر، القاهرة ٢٠٠٢

Ua - Muhammad Hosni Mubarak :Über Bildung und Erziehung – Ein Blick in die
Zukunft, Kairo, 1992.

- مبارك والتعليم – نظرة إلى المستقبل، محمد حسنى مبارك، القاهرة ١٩٩٢.

- Mubarak und die Ausbildung – Ein nationales Projekt zur Entwicklung der
Ausbildung - Der Präsident als Aufklärer, Erläuternde – Zeilen zu seinen Ausführungen, Erneute Hoffnungen und vielversprechende Erwartungen zur neulichen Präsidentschaft, (Hr.Ministerium für Erziehung und Unterricht), Kairo 1999

- مبارك والتعليم – المشروع القومى لتطوير التعليم – سطور مضيئة لإنجاز رئيس مستنير وآمال متجددة وطموحات واعدة فى ولاية جديدة - إصدار وزارة التربية والتعليم، القاهرة ١٩٩٩.

- زيجريد هونكى، العقيدة والعلم- وحدة الدين الأوروبى وعلم الطيبيعة (تحت الطبع)

Sigrid Hunke: Glauben und Wissen. Die Einheit europäischer Religion und die Naturwissenschaft, Hildeshneim:Olms, 1987

Pda u.Pa

- Das deutsche Wesen im Wandel der Jahre – Betrachtungen eines arabischen
Germanisten , in : Ischraqa, eine Zeitschrift für Kultur und wissenschaftliche
Forschung ,(Hr. Ministerium für Hochschulwesen,Kairo,Bd 26/2002,S.24-51

- الذات الألمانية على مر العصور – تأملات عربى متخصص فى علوم الجرمانيات، إشراقة العدد ٢٦ لسنة ٢٠٠٢، إصدار الإدارة العامة للبحوث الثقافية، وزارة التعليم العالى القاهرة، ص ٢٤-٥١.

- Der Beitrag des Arabischen und des Deutschen zur Pflege und Aufbewahrung
der islamischen Kultur und die Herausforderungen unserer Zeit, In: Ischraqa

a.a.O.Bd.27 /2002, S.36- 62

- إسهام العربية والألمانية فى رعاية وحفظ التراث الإسلامى أمام تحديات العصر، المرجع السابق العدد ٢٧ لسنة ٢٠٠٢ ص ٣٦ ـ ٦٢.

- Ägypten- ein beliebtes Thema in der Weltliteratur – Das Land des ewigen
  Stroms in einigen Werken deutschsprachiger Literatur- Teil I, In: Ischraqa,
  a.a.O. Bd.28 /2003 ,S.26-47

- صورة مصر فى الأدب العالمى – مادة أدبية مفضلة، قطوف عن مصر بلد النيل الخالد فى عيون الأدب الألمانى، الجزء الأول، المرجع السابق العدد ٢٨ لسنة ٢٠٠٣ ص ٢٦- ٤٧.

- Ägypten - ein beliebtes Thema in der Weltliteratur – Das Land des ewigen
  Stroms in einigen Werken deutschsprachiger Literatur- Teil II – John Knittels
  Roman : El hakim (1936) ,In : Ischraqa, a.a.O.Bd.29 /2003.S.55 – 76

- صورة مصر فى الأدب العالمى – مادة أدبية مفضلة، الجزء الثانى، مصر فى غيون الأديب السويسرى جون كنيتل، فى رائعته رواية: الحكيم (١٩٣٦) المرجع السابق، العدد ٢٩ لسنة ٢٠٠٣ ص ٥٥ ـ٧٦.

Ägypten - ein beliebtes Thema in der Weltliteratur – Das Land des ewigen
Stroms in einigen Werken deutschsprachiger Literatur. Teil III – Das Ägyptenbild im Werk Rainer Maria Rilkes – ein außergewöhnlicher Beitrag des Dichters zur Bekanntmachung Europas mit dem Islam, S. 35-53, Bd. 30, März 2004

- صورة مصر فى الأدب العالمى – مادة أدبية مفضلة، الحلقة الثالثة، صورة مصر فى أعمال راينر ماريا ريلكه، إسهام فائق فى تعريفه أوروبا بالإسلام، ج ٣٠، مارس ٢٠٠٤.

Ägypten - ein beliebtes Thema in der Weltliteratur – Das Land des ewigen
Stroms in einigen Werken deutschsprachiger Literatur. Teil IV , Zum Bild der
altägyptischen Kultur im Werk Rainer Maria Rilke, Bd. 31, Oktober 2004

- صورة مصر فى الأدب العالمى – مادة أدبية مفضلة، الحلقة الرابعة، الحضارة المصرية فى أعمال راينر ماريا ريلكة الأدبية، العدد ٣١، أكتوبر ٢٠٠٤.

Das Ägyptenbild in Thomas Manns Tetralogie „Joseph und seine Brüder". In: The Journal of languages and translation volum 1 Nr. III, Part I, S. 1-35, Al-Minja, 2004

Revision von Übersetzungen literarischer Werke aus dem Deutschen ins Arabische mit eigener Einleitung:

- Dürrenmatt, Friedrich: Der Mitmacher
- مسرحية: المشارك، فريدرش دورنمات، سلسلة مسرحيات عالمية، الكويت ١٩٩٠
- Sternheim, Karl: Der Snob
- مسرحية: الوضيع المتعاظم، كارل شترن هايم، سلسلة مسرحيات عالمية، الكويت ١٩٩٠.
- Keller, Gottfried: Kleider machen Leute
- أقصوصة: الملابس تصنع الناس، ترجمة عماد بكر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة٢٠٠٢ .
- Storm, Theodor: Regentrude
- أقصوصة: ربة المطر، ترجمة عماد بكر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة٢٠٠٢.
- Dürrenmatt, Friedrich: Der Verdacht
- رواية: الأتهام، فريدرش دورينمات، ترجمة عماد بكرK القاهرة ٢٠٠٢.

المراجع و المصادر

I. Die arabischen Quellen

- "حرية الإرادة بين نعم أو لا- حوار ساخن بين لوثر وإيرازموس" ترجمة: ألفى فاضل، تقديم القس: عبد المسيح اسطفانوس، القاهرة ١٩٩٦.
- موريسون: حياة لوتر، ترجمة: القس باقى صدقة، القاهرة، ١٩٧٧.
- أديب نجيب سلامه: تاريخ الكنيسة الإنجيلية فى مصر(١٨٥٤-١٩٨٠)، ط١ القاهرة، ١٩٨٢.
- الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، تحقيق وتقديم الدكتور. محمد عمارة، ج٣، الإصلاح الفكرى والتربوى والإلهيات، ط١، القاهرة، ١٩٩٣.
- الإمام محمد أبو زهرة: محاضرات فى النصرانية تبحث فى الأدوار التى مرت عليها عقائد النصارى وفى كتبهم وفى مجامعهم المقدسة وفرقهم. القاهرة ط ٣، ١٩٦١.
- أمين الخولى: صلة الإسلام بإصلاح المسيحية، ج ٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣.
- الإنجيل – العهد الجديد، القاهرة ١٩٩٩.
- إنجيـــل متى فى الكتـــاب المقدس بالعهد القديم والجديد القاهرة ١٩٧٧ ص ٤٩ ج.
- باقى جيد بشارة: أضواء على تاريخ ظهور البروتستانت. فى أوروبا ومصر، القاهرة، بدون.
- براند مانوئيل فايشر: الشرق فى مرآة الغرب، دار سراس للنشر، تونس، ١٩٨٣.

- جاد طه: ألمانيا إلى أين المصير، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٠، سلسلة إقرا ر ق.م ٥٥٧
- حسين مؤنس، صور من البطولات العربية والأجنبية، القاهرة ط١ ١٩٩٢، ط٢ ٢٠٠٠.
- حنا جرجس الخضرى: مارتن لوثر، حياته وتعاليمه، بحث تاريخى عقائدى لاهوتى، القاهرة، ١٩٨٣.
- دكتور أحمد يوسف، جريدة الأهرام ٢٠-٨-٢٠٠٣.
- زيجريد هونكه. شمس الله تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون/ كمال دسوقى، بيروت ط ٣ ١٩٧٩.
- سازرن: "صورة الإسلام فى أوروبا فى العصور الوسطى".
- السيد الشاهد: المسيحية والإسلام من الجوار إلى الحوار، القاهرة، ٢٠٠١
- السيد الشاهد، الخطاب الفلسفى المعاصر- من العام إلى الأعم، القاهرة ٢٠٠٠.
- شمس الدين محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية ٦٩١هـ - ٧٥١ه "هداية الحيارى فى أجوبة اليهود و النصارى" القاهرة ٢٠٠٣.
- صلاح حاتم: "فى تاريخ الدين والفلسفة" اللاذقية، سوريا،١٩٨٨.
- عبد الحميد عبد الرحمن: حول وظيفة الحكاية المصاغة على لسان الحيوان فى أدب عصر التنوير الألمانى، رسالة ماجستير، المنيا ٢٠٠٥م.
- غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠.
- فايز فارس: أضواء على حركة الإصلاح الإنجيلى، القاهرة، ط ١، ١٩٨٤.

- مارتن لوتر: شرح موجز لأصول التعليم المسيحى، الكتاخيسمس الصغير، كتاب عن العقيدة المسيحية، ترجمه إلى العربية: موريس أديب

جهشان، بيروت: المركز اللوترى للخدمات الدينية فى الشرق الأوسط، ١٩٨٨.

- محمد أبو حطب خالد، الألسنية فى خدمة الشعوب، المجلة ط ١٩٨٤/٢، برلين.
- محمد أبوحطب خالد: الذات الألمانية على مر العصور- تأملات عربى متخصص فى علم الجرمانيات - إشراقة، دورية تصدرها الإدارة العامة للبحوث الثقافية، قطاع الشئون الثقافية والبعثات - وزارة التعليم العالى، جمهورية مصر العربية، العدد ٢٦، القاهرة يونيو ٢٠٠٢.
- محمد أبوحطب خالد: قطوف من الأدب الألمانى، القاهرة ٢٠٠٠.
- محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، نقله إلى العربية عمر فروخ، بيروت ١٩٤٦.
- محمد البهى، الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى، القاهرة ١٩٧٣.
- محمد خليفة: تاريخ مقارنة الأديان دراسة وصفية مقارنة، القاهرة، ٢٠٠٠.
- محمد عمارة: صورة الإسلام فى الخطاب الغربى ٢، فى: صوت الأزهر.القاهرة، ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٤ الموافق ١٥ رمضان ١٤٢٥.
- محمد عمارة: فى فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، القاهرة، ٢٠٠٣.
- محمد نبيل غنايم: قضايا معاصرة - دراسة فقهية اجتماعية ، القاهرة ٢٠٠٣.
- ميرل دوبنياه: تاريخ الإصلاح فى القرن السادس عشر، ترجمه عن الإنجليزية إبراهيم الحرانى ط٣ بيروت ١٩٨٢.
- ول ديورانت: قصة الحضارة، ج ٥، مجلد ٦، الإصلاح الدينى، ترجمة محمد على أبو درة، مراجعة على أدهم، إصدار، الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٧٣.

- ول ديورانت: قصة الحضارة، جزء ٣، مجلد ٦، الإصلاح الدينى، ترجمه عن الإنجليزية د. عبد الحميد يونس، مراجعة: على أدهم، إصدار، إدارة الثقافة، جامعة الدول العربية، القاهرة ، ١٩٧١ .

II. Die fremdsprachigen Quellen

- Abdulrahman, Abdulhamid: Zur Funktion der Fabel in der Literatur der deutschen Aufklärung, MA, Al-Minia 2005.
- Autorenkollektiv :Martin Luther –Kolloquium, Akademie der Wissenschaften ,Berlin 1983.
- Beinteker Horst, Martin Luther - Die reformatorischen Grundschriften in 4. Bd., Bd. II, Reform-Theologie, Kirche und Gesellschaft, dtv. 1983.
- Beinteker Horst: Martin Luther - Die reformatorischen Grundschriften in 4. Bd., Bd. I, Gottes Werke und Menschen Werke, München 1983.
- Bobzin, Hartmut: Der Qura´n im Zeitalter der Reformation – Studien zur Frühgeschichte der Arabistik und Islamkunde in Europa, Stuttgart: Franz Steinert, Herg. vom Orient Institut der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft – Beirut, Bd. 42, 1995.
- Bornkamm, Karin/ Ebeling, Gerhard: Martin Luther – ausgewählte Schriften – Briefe, Bd. VI, Frankfurt M., 1982 .
- Bornkamm, Karin/ Ebeling, Gerhard: Martin Luther, BdV Kirche – Gottesdienst, Schule, 1982 .
- Bornkamm, Karin/ Ebling, Gerhard (Herg.): Martin Luther-Ausgewählte Schriften, Bd. I, Aufbruch der Reformation, Frankfurt M. 1982.
- Bothmar, Hans-Casper Graf von: Kalila und Dimna: Ibn al-Muqaffa‘s Fabelbuch, Reichert Verl., Wiesbaden 1981.

- Deutsch als Fremdsprache /1984 und 1 /1986.
- Die Bibel – nach der Übersetzung von Martin Luther , 2. Auflage Berlin 1981.
- Dithmar, Reinhard: Fabeln, Parabeln und Gleichnisse; Paderborn; München; Wien; Zürich; Schöningh, 1995.
- E.G. White: Der große Konflikt, 1. Aufl.-, München: Inter-Euro Publishing, 1998.
- Ebeling, Gerhard: Luther, Einführung in sein Denken, 4. Aufl., 1981 .
- Francis Nigel Lee: Luther on Islam and The Papacy, Brisbane, Queensland, AUSTRALIA – FOR THE Reformatin Day 31:10 2000.
- Gremmels, Christian: Luther- Lesebuch, Darmstadt, 1983.
- Große,Rudolf: Martin Luther Sprichwortsammlung, Leipzig, 1983.
- Hagemann, Ludwig: Martin Luther und der Islam, Altenberg: Christlich-Islamisches Schrifttum, 1988.
- Hamid al-Allah, Muhammad: Der Islam: Geschichte, Religion, Kultur. Aachen 1415H. 1995.
- Haussi, Karl :Kompendium der Kirchengeschichte, 16. Auflage, Tübingen 1981.
- Herder: Über die neue Deutsche Literatur, München, Bd. I, 1953.
- Kleine Enzyklopädie – Die deutsche Sprache , in zwei Bänden, Autorenkollektiv, Band 1, Leipzig 1967.
- Kröker, Ernst: Katharina von Bora- Martin Luthers Frau, In: Kloster Nimbschen und Katharinka von Bora – Sachsverlag- Beucha, 1993.

- Landgraf, Wolfgang: Martin Luther, Reformator und Rebell, Berlin 1981.
- Maess, Thomas: Dem Luther aufs Maul geschaut, Kostproben seiner sprachlichen Kunst. Leipzig, 1981.
- Mansour, Muhamed Ahmed: Deutsche Orientalistik und Islamwissenschaft, Geschichte und Ziele, Kairo 2003, S. 55ff. und in die Einführung in die Koranwissenschaften, Kairo 2002, S. 104ff.
- Meisner, Michael: Martin Luther Heiliger oder Rebell, 3. Auflage, Leipzig 1981.
- Moeller, Bernd: In: Martin Luther – ausgewählte Schriften, Bd. V
- Nayhaus, v. Graf Hans Christof: Martin Luther, der Prophet in der deutschen Sprache, In: Lettres eurpéennes. Paris, Hachette, 1992 .
- Nickel, L. Heinrich/ Raphael, Pregla u.a.: Martin Luther und Halle, Franckesche Stiftungen: Halle, 1996
- Peter Meinhold: Luthers Sprachphilosophie, Berlin, Jacob Grimm: Deutsches Wörterbuch, 1845.
- Rößling, Udo/ Ambors, Paul u.a: Reisen zu Luther. Erinnerungsstätten in der DDR, 2. bearb. Aufl-, Berlin, Leipzig: Tourist, 1988
- Scheel, Heinrich (Hrsg.): Martin Luther. Kolloquium anlässlich der 500. Wiederkehr seines Geburtstages (10 November 1483), Berlin: Akademie, 1983
- Schreckenbach, Paul/ Neubert, Franz: ein Bild seines Lebens und Werkens, mit 384 Abbildungen, vorwiegend nach alten Quellen, Leipzig 1916.

- Schweizer, Gerhard: Islam und Abendland – ein Dauerkonflikt, Stuttgart, 1995.
- Stolt, Brigt: Sakralsprache – zu Luther Zeit und heute. In: Linguistische Studien, Berlin, Heft 77.
- Treu, Martin: Martin Luther und Torgau, 2. Aufl.-, Drei Kastanien: Torgau, 2001
- Umberto Eco „Der Name der Rose“ Aus dem italienischen ins Deutsche von Burkhart Kroeber- Titel des Originals :Il ame della rosa, Milano 1980- Stuttgart, Hamburg, München 1982.
- Weber, Edmund: Die Bedeutung der Theologie Martin Luthers für die Begründung einer multireligiösen Gesellschaft, in: Journal of Religious Culture, Nr.01- 1997.
- Will Durant. The Sotry of Civilisation, Vol. 6, Book 3, the Reformation, Cairo, 1971.
- Wiss. Z. Univ. Halle XXXII' 83 G, H. 5
- Wolf, H: Eine Einführung in germanistische Lutherstudien, Stuttgart-Berlin 1980.
- Zitelmann, Arnulf: Ich, Martin Luther- Starke Sprüche über Weiber, Fürsten Pfaffen und soweiter, Frankfurt/Main 1982.

III. Internet-Literaur

- http:// www.alt.wittenberg.de/seiten/personen/cruciger.html
- http:// www.bautz.de/bbkl/f/franz_v_as.shtml
- http:// www.christen-und-juden.de/html/luther.htm
- http:// www.de.wikipedia.org/wiki/John_Wyclif
- http:// www.heiligenlexikon.de/Biographien/Johannes_Tauler.html
- http:// www.heiligenlexikon.de/biographien/john_wyclif.html
- http:// www.heiligenlexikon.de/glossar/waldenser.html
- http:// www.hyperkommunikation.ch/personen/eco.html
- http:// www.koenigsfeld.org/m_hus.html
- http:// www.luther.de/lu96/eisl/gebhaus.html
- http:// www.luther.de/lu96/eisl/hist.html
- http:// www.luther.de/themen/bugenh.html
- http:// www.luther.de/themen/jonas.html
- http:// www.luther.de/themen/lac.html
- http:// www.luther.de/themen/melanch.html
- http:// www.luther.de/themen/spalatin.html
- http:// www.luther.de/thmen/friedr.html
- http:// www.luther.de:95Thesen
- http:// www.philosophenlexikon.de/ockham.htm
- http://de.wikipedia.org/wiki/waldenser
- http://dr-frnlee.org/
- http://eis.bris.ac.uk/~gexnel/teaching/landesk/luther.html

- http://stud-www.uni-marburg.de/~Alm.htm
- http://www.ansary.de/Islam/IslForsch1.html
- http://www.berg.heim.at/tibet/450000/god/ luther-sprueche.html
- http://www.cs.ualberta.ca/~wfb/cantatas/80.html
- http://www.luther.de/legenden /baeume.html
- http://www.lutheramsonline.com
- http://www.udoklinger.de/Fabeln/Gattung.htm



كانت حركة الإصلاح التى قام بها لوتر تمثل دون منازع عملا من أكبر الأعمال فى عصره، وبخاصة بعد إعادة بناء كنيسة قائمة على فكره ومنهاجه، تقف جنباً إلى جنب مع كنيسة روما. وكان من ثمراتها الإنجازية ما يطلق عليه المؤرخون "المنة" الكتاب المقدس، والذى اعتبروه من أكثر أعمال لوتر شمولاً وإيجابية وخلوداً. وتم ذلك بعد اجتياز طريق طويل من الصعوبات ومن خلال تجميع اللهجات المحلية والإقليمية وضمها للغة الديوان السكسونى والقيصرى.

الغلاف: هشام نوار

